كتاب منهج علم التوحيد
لطلاب المعاهد الإسلامية

تأليف

محمد قطب



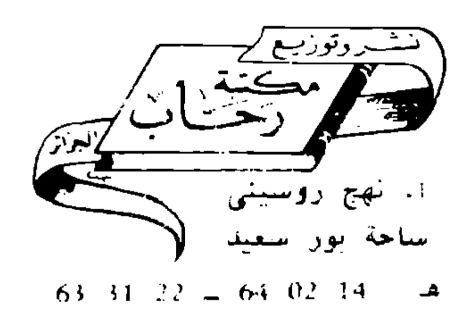
1، نهج روسيني
ساحة بور سعيد
هـ : 14 02 64 ـ 22 31 63

كتاب منهج علم التوحيد
لطلاب المعاهد الإسلامية

الجزء الأول

تأليف

محمد قطب



ا. نهج روسيني
ساحة بور سعيد
هـ 14 02 64 ـ 22 31 63

الطبعة التاسعة

1410 هـ ـ 1990 م

سحب دار البعث للطباعة والنشر ـ قسنطينة (الجزائر)

رقم الايداع القانوني : 1990/45035 و. قسنطينة

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

نحمد الله تعالى ونثنى عليه بما هو أهله ، ونصلى ونسلِّم على نبيّنا محمّد صلى الله عليه وسلّم خاتم النبيّين وأكرم المُرسلين ، وعلى آله وصحبه ومَن تبعهم بإحسان الى يوم الدين .

وبعد ، فهذا كِتابٌ يتضمَّن منهج علم التوحيد المُقرّر على السنة الأُولى الثانوية . ويتناول بالحديث موضوع الإيمان بوجود الله ووحدانيته وصِفاته ، راعيتُ فيه أن يكون مُبسَّط العرض ميُسَّر الفَهم ، شارحاً بقدْر الإمكان ما ورَدَ في الكتاب من استشهادات بالآيات والأحاديث ، شرحاً يجعل الطالب يعيش بفكره ووجدانه في معانيها الكريمة ، ويحاول أن يستشعر في قلبه عظمة الله سبحانه وتعالى ، فإنَّ المَعنى الحقيقى للإيمان لا يتحقَّق في النفس بمجرّد الاطلاع على النصوص ومحاولة حفظها عن ظهر قلب ، بل بتدبر معانيها ، واَستِشعار عظمة الله من خلالها ، بما يملأ القلب بالخشية منه سُبحانه والتطلُّع إلى رحمته وإحسانه والعمل بما يحبّه ويرضاه ، كما قال تعالى في سورة الإسراء : ﴿ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾ .

نسأل الله أن ينفعنا بما علمنا ، وأن يوفقنا إلى حُبِّه وطاعته ، ويهدينا إلى سواء السبيل .. والله ولى التوفيق .

محمّد قُطب

الإسلام

الإسلام بمعناه العام هو إسلام الوجه لله والخلوص من الشرك وأهله ، أى التوجُّه الكامل إلى الله ، والخضوع الكامل لأوامر الله .

يقول القرآن الكريم :

﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

(سورة البقرة : الاية ١١٢) .

ويقول : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ ؟ (سورة النساء : الآية ١٢٥) .

وإسلام الوجه لله ، بمعنى إسلام النفس كلها لله ، هو الأمر الذى يطلبه الله من البشر كافَّة بما أنه هو خالقهم سبحانه وخالق هذا الكون كله والمتصرف فيه وحده . فهو حق الإله على الخلق ، وهو كذلك مقتضى عبودية الخلق لربهم وخالقهم .

وهذا الإسلام هو الذى كان عليه آدم ونوح والنبيون من بعده إلى محمّد صلى الله عليه وسلّم ، حيث كان الاعتقاد واحداً وإن اختلفت الشرائع فى الأحكام الفرعية وكان عليه كذلك كل من اتبع الأنبياء منذ مولد البشرية .

جاء فى القرآن الكريم عن إبراهيم عليه السلام :

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (سورة البقرة : الآيتان ١٣٠ - ١٣١) .

ويقول على لسان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام :

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ ﴾

(سورة البقرة : الآيتان ١٢٧ - ١٢٨) .

ويقول : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا ﴾

(سورة المائدة : من الآية ٤٤) .

ويقول عن يعقوب وبنيه :

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ (البقرة : ١٣٣) .

ويقول على لسان يوسف عليه السلام :

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾ (سورة يوسف : الآية ١٠١) .

فالإسلام بهذا المعنى هو دين الأنبياء جميعاً ودين المؤمنين بالله ورسله من لدن آدم حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

ولكنَّ الله تفضَّل على أُمَّة محمَّد ﷺ فخصَّها باسم « الأُمَّة المسلمة » وباسم « المسلمين » استجابة لدعاء سيِّدنا إبراهيم من قبل وتفضّلاً منه سبحانه . يقول القرآن :

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾ (سورة الحج : الآية ٧٨) .

وفى هذا التفضل من الله سبحانه وتعالى تكريم لهذه الأُمَّة ، فكأنما تحقق فيها معنى الإسلام بأكثر مما تحقق فى أىّ أُمَّة من قبل حتى استحقت أن تسمى بالمسلمين .

ولا عجب فى ذلك فالله سبحانه وتعالى يقول فى وصف هذه الأُمَّة :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾

(سورة آل عمران : الآية ١١٠) .

والآن فلننظر فى عقيدة هذه الأُمَّة التى رفعتها إلى هذه المنزلة السامية التى استحقّت عليها هذا التكريم الربانى ، بأن يكون اسمها الأُمَّة المسلمة ، وأن تكون ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ .

أصول العقيدة الإسلامية

عن عمر بن الخطّاب رضى الله عنه ، قال : بينا نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم ، إذ طلع علينا رجُل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبى ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يا محمّد ! أخبرنى عن الإسلام . قال : « الإسلام أن تشهد أنْ لا إله إلاّ الله وأن محمّداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحجّ البيت إن ٱستطعتَ إليه سبيلاً » . قال : صدقت . فعجبنا له : يسأله ويصدقه ! قال : فأخبرنى عن الإيمان . قال : « الإيمان أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدَر خيره وشره » . قال : صدقت . قال : فأخبرنى عن الإحسان . قال : « أن تعبد الله كأنّك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » . قال : فأخبرنى عن الساعة . قال : « ما المسئول عنها بأعلم من السائل » . قال فأخبرنى عن أمارتها . قال : « أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحُفاة العُراة العالة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان » .

قال : ثم انطلق فلبثت مليّاً ، ثم قال لى : « يا عمر ! أتدرى مَنِ السّائل » ؟ قلتُ : الله ورسوله أعلم . قال : « فإنه جبريل أتاكم يعلّمكم دينكم » . رواه مسلم .

فيتبين من هذا الحديث أن هُناك أُصولاً ستة للعقيدة الإسلامية :

١ ـ الإيمان بالله .

٢ ـ الإيمان بالملائكة .

٣ ـ الإيمان بالكتب السماوية .

٤ ـ الإيمان بالرُسُل .

٥ ـ الإيمان باليوم الآخر .

٦ ـ الإيمان بالقضاء والقَدَر .

والإيمان بالله هو موضوع حديثنا فى هذا الكتاب . ولكنا نعرض عرضاً موجزاً لهذه الأصول الستة لكى نتبين المقصود من كل منها .

١) فالإيمان بالله يعنى الإيمان بوجوده سبحانه وتعالى وبوحدانيته فى العبادة والأسماء والصفات التى وصف بها نفسه فى القرآن الكريم .

٢) والإيمان بالملائكة يتضمَّن الإيمان بوجودهم ، وبأنهم خَلْقٌ من خَلْقِ الله ، يعبدونه سبحانه وتعالى ، ولا يفترون عن عبادته ليلاً ونهاراً ، ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . وأن لهم أعمالاً كلفهم الله بها وهم يؤدّونها فى طاعة كاملة لله ، ومن بينها التنزل بالوحى على رُسُل الله وأنبيائه ، ومن بينها كتابة أعمال البشر وتسجيلها ، ومن بينها التنزل على قلوب المؤمنين بالطمأنينة والبُشرى ... الخ .

٣) والإيمان بالكُتُبِ السّماويّة يتضمّن الإيمان بكل ما أنزل الله على رُسُله من الكتب بما فيها القرآن الكريم وإن كانت الكتب السماوية السابقة كلها قد حُرِّفتْ إلاّ القرآن الكريم وحده حفظه الله وقال سبحانه : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ .

٤) والإيمان بالرسل يقتضى الإيمان بأن الله سبحانه وتعالى أرسل إلى البشرية رُسُلاً متعددين ، منهم من قصه الله على نبيّه محمّد ﷺ فى القرآن ومنهم من لم يقصصه عليه كما قال تعالى :

﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ ﴾ (سورة النساء : الآيتان ١٦٣ ـ ١٦٤) .

وإن هؤلاء الرُّسُل جميعاً قد أوحى الله إليهم أن يبشروا الناس وينذروهم يبشروهم بالجنة لمن أطاع الله ورسله ، وينذروهم بالنار لمن عصى الله ورسله ،

كما قال القرآن بعد الآيتين السابقتين :

﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾ .

وأنهم جميعاً جاءوا بكلمة واحدة تلقوها من عند الله وأمروا بتبليغها للناس . وهى كلمة ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ والأمر بعبادته وحده دون شريك ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ .

٥) والإيمان باليوم الآخر معناه الإيمان بالبعث بعد الموت ، وأن الله يبعث الناس جميعاً يوم القيامة ويحشرهم إليه ، ويحاسبهم على كل شىء فعلوه فى الدنيا ثم يجزيهم به : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾ ﴾

كما يشمل الإيمان بالجنة والنار وكل ما جاء فى القرآن والحديث عن البعث والحشر والحساب والجزاء .

٦) والإيمان بالقضاء والقَدَر يقتضى الإيمان بأن كل ما يحدث للإنسان من خير أو شر هو مقدر له : « وأن ما أصابك لم يكن ليخطئك وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك » ، كما يقتضى الإيمان بالعدل الإلهى فيما يجرى به القضاء والقدر .

تلك هى الأصول الستة للعقيدة الإسلامية ، وأولها وأعظمها الإيمان بالله ، الذى سنفرد له الحديث من هذا الكتاب .

أسئلة

١ ـ ما الإسلام بمعناه العام ؟ دلل على ما تقول .

٢ ـ فى أى شىء تجتمع شرائع الأنبياء ؟

٣ ـ لماذا جعل الله تعالى أمة محمد ﷺ خير الأمم ؟

٤ ـ للعقيدة الإسلامية أصول . اذكر ثلاثة منها .

٥ ـ ماذا يتضمن الإيمان بالكتب السماوية ؟

الدّين والفطرة

كل مولود يولد على الفطرة .

والفطرة بذاتها تتجه إلى الله ، عارفة بوجوده سبحانه ، ومؤمنة بأنه إله واحد لا يوجد في الكون كله سواه .

كيف تهتدى الفطرة إلى خالقها ؟

إن الله سبحانه وتعالى يخبرنا في كتابه الكريم أنه حين خلق الخلق عرفهم بنفسه ، وبأنه جلّت قدرته هو ربهم الذى خلقهم . والذى ينبغى أن يدينوا له بالعبودية :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ﴾

(سورة الأعراف : الآية ١٧٢) .

والرسول الكريم ﷺ يخبرنا كذلك :

« ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء(١) ؟ » ، ثم يقول :

﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ متفق عليه .

والحقيقة أن الفطرة البشرية تتيقظ لوجود الخالق في سن مبكرة جدّاً ، أصغر بكثير مما نظن !

فنحن نظن عادة أن الشخص الكبير وحده هو الذى يتفكّر في وجود الله سبحانه وتعالى وفي وحدانيته . ولكنا إذا لاحظنا حياة الطفل الصغير نجد أنه في مرحلة معيّنة من عمره يبدأ يسأل والديه أسئلة لا تنتهى :

من الذى عمل السماء ؟ لماذا كانت السماء زرقاء ؟ أين تذهب الشمس في الليل ؟ لماذا لا تظهر الشمس لنا في الليل ؟ أين يذهب النُّور حين يأتى الظلام ؟ لماذا تلمع

(١) الجمعاء هي السليمة المكتملة الأعضاء . والجدعاء هي المقطوعة الأذن .

النجوم ؟ أين تنتهى الأرض ؟ لماذا كانت هذه الزهرة ذات رائحة والزهرة الأُخرى ليس لها رائحة ؟ من أين جئت ؟ أين كنت قبل أن أجىء ؟ ... الخ .. الخ ...

فما معنى هذه الأسئلة فى الحقيقة وما دلالتها ؟

إن دلالتها الحقيقية أن فطرة هذا الطفل قد بدأت تستيقظ . بدأت تتعرف على خالق السماوات والأرض من خلال مخلوقاته المشهودة المحسوسة . بدأت رويداً رويداً تتعرَّف على حقيقة الأُلوهية التى أشهدها الله عليها منذ خلقها ، وبدأ إدراكها لها ينمو كما تنمو البذرة الكامنة فى باطن الأرض ، حتى تترعرع وتخضر .

وأن هناك تأثيرات عدة تقع على حس الإنسان فتوقظه إلى حقيقة وجود الله ووحدانيته وتفرده .

فالكون بضخامته الهائلة لا بُدَّ أن يوقظ الإنسان إلى هذه الحقيقة .

فهذه الأبعاد الهائلة فى السماوات والأرض . وهذه الأجرام السماوية الضخمة التى لا يحصيها العد ... من أوجدها ؟

إن الأرض ـ وهى جرم صغير جدّاً بالنسبة للأجرام السماوية ـ تحتوى من الجبال والسهول والمحيطات والبحار والأنهار ما نستغرق سنوات العمر كلها فى محاولة التعرف عليه ، ثم لا نستطيع أن نتعرَّف إلا على جزء يسير منه ، فكيف ـ مثلاً ـ بالمجموعة الشمسية التى تكون أرضنا جزءاً منها ؟ وكيف بالمجرة التى تعتبر مجموعتنا الشمسية جزءاً ضئيلاً منها ، وكيف بالكتل السماوية الأُخرى التى تشمل ملايين وملايين من مثل مجرتنا ؟ وملايين وملايين من النجوم التى تُعتبر شمسنا صغيرة بالقياس إليها ؟!

والكون مع ضخامته هذه دقيق دقَّة معجزة

فالليل والنهار يتعاقبان فى دقة متناهية إلى حد أننا نضبط ساعاتنا عليها ! والحقيقة أن الكون كله مضبوط فى دورته الفلكية لدرجة أن ساعات المراصد ـ التى هى أدق

الساعات التى بين أيدينا ، والتى نضبط عليها ساعات الإذاعة وغيرها ، والتى تقيس الوقت بجزء على ألف من الثانية ـ هى ذاتها تضبط على دورة الفلك المتناهية فى الدقة ، والتى لا تضطرب دورتها على مر العصور والأجيال ، إلى أن يشاء الله ...

ثم إن كل كائن من الكائنات التى خلقها الله يتسم بهذه الدقة المعجزة سواء أكان من الكائنات الحية أم الكائنات الجامدة .

هل رأيت إلى الخلية الحية الدقيقة المتناهية فى الصغر حتى أنها لا ترى إلا بالمجهر ؟ ومع ذلك فهى تنمو وتنقسم وتقوم بمهام عجيبة غاية فى العجب ، يقف الإنسان إزاءها حائراً ، خاشعاً أمام قدرة الله . فمن الذى أودعها سرّ الحياة ؟ ومن الذى هداها لهذا النشاط العجيب الذى تقوم به إلا الله سبحانه وتعالى ؟!

إن الجرثومة لا يمكن أن ترى بالعين . ومنها نوع دقيق يسمى « الفيروس » لا يرى حتى بالمجهر العادى . ومع ذلك فأنت تعرف مما درست فى العلوم أنها يمكن أن تصيب الإنسان بأفتك الأمراض ما لم يتحصّن ضدّها بالأدوية أو الأمصال .

والكائن المتعدد الخلايا ـ وفى قمته الإنسان ـ يكون فى منشئه خلية واحدة ملقحة ، ثم تظل تنقسم وتنمو حتى تصبح كائناً مُتكاملاً . فأىّ قدرة تمنحه الحياة والحركة والنشاط غير قدرة الله ؟

وإن أعجب ما فى عملية الانقسام هذه أن الخلايا تكون كلها متماثلة ـ لظاهر العين ـ فى نشأتها الأُولى ، ثم يصدر إليها الأمر فتتخصَّص وتتشكَّل بشكل مُعيَّن . فخلية تتجه إلى مكان مُعيَّن وتصبح أُذناً أو جُزءاً من أُذن وخلية تتجه إلى مكان آخر فتصبح عَيْناً أو جُزءاً من عين . وثالثة تصبح خلية من خلايا المُخّ . ورابعة تتحوَّل إلى عظام ... وهكذا . فأى أمر هذا الذى صدر إليها فأطاعته ونفذته بهذه الدِّقة العجيبة وهى شيءلا يكاد يرى بالعين ؟ إنه أمر الله الخالق المُبْدِع . يأمرها فتطيع ، وتتحرك

بمقتضى مشيئته سبحانه فتتكوَّن كما أرادها الله ، وتقوم بالدَّوْر الذى أراده لها الله .

وهل رأيت إلى تلك الزهرة الجميلة ذات الرائحة العطرة والألوان المتعددة المتداخلة ؟

من الذى أودع فيها هذا العطر ؟ وكيف تجمَّعت فيها تلك الألوان ؟

ترى لو حاولتَ أنتَ أن تُعطِّرَ زهرة واحدة عطراً يفوح من الصباح إلى المساء دون أن يتبدَّد ويضيع . ولو حاولتَ أن تُلوِّنَ بكلٍّ ما لديك من ألوان زهرة واحدة بحيث تبقى ألوانها ما بقيتِ الزهرة ، فكم يُكلِّفك ذلك من الجُهد ، وإلى أيٍّ مدى تنجح محاولتك ؟

ولو أن كل البشر على ظهر الأرض شغلوا أنفسهم بهذه المهمة بالنسبة لكل الزهور النابتة على سطح الأرض أو جوف البحر .. فهل يستطيعون ؟ وإن اَستطاعوا فكم يبقى من وقتهم وجهدهم ليقوموا بغير ذلك من الأعمال ؟

ولكن الزهرة ـ وملايين الزهُور فى الأرض ـ تخرج هكذا معطَرة ملوَنة بهيجة المنظر من عند الله ، بغير جهد على الإطلاق ! ودون أن يشغله هذا الأمر سبحانه عن تدبير الكون الهائل العريض كله : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا [1] وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾ لأنه سبحانه يقول للشىء ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ .

* * *

وظاهرة الموت والحياة كذلك تلفت حسّ الإنسان إلى قدرة الله المعجزة التى تحيى وتميت .

فما الحياة فى حقيقتها ؟ إنها سرّ معجز لا يعلم أحد كنهه ولا يستطيع تفسيره . وكل ما حاوله البشر حتى اليوم هو تفسير بعض ظواهر الحياة من حركة ونمو ووظائف

(١) أى لا يتعب سبحانه من حفظهما .

مختلفة تقوم بها الأعضاء . أمَّا الحياة ذاتها : ما هى ؟ كيف توجد فى الكائن الحىّ ؟ كيف توجهه إلى أداء وظائفه التى يقوم بها ؟ هذا كله سرّ مُبهم لا يقدر البشر على إدراكه . وعبثاً حاول البشر ـ بكل علمائهم ، وبكل ما لديهم من علم ـ أن يخلقوا خلية واحدة ، واحدة فقط ، من بلايين البلايين من الخلايا الحية التى يزخر بها الخلق الربانى ، والتى أوجدها الله بعلمه وقدرته دون شريك .

* * *

والرزق الجارى على الإنسان ، سواء فى صورة مطر هاطل من السماء ، أو زرع نابت من الأرض ، أو أسماك وطيور وحيوان ، أو كنوز ومعادن فى باطن الأرض ، أو هواء يتنفسه ، أو ريح تُجرى سفنه فى البحر ، أو طاقات تدير آلاته كطاقة البخار أو طاقة الكهرباء أو طاقة الذرة أو طاقة الوقود أو طاقة الماء المنحدر من المرتفعات ... كل ذلك مَنْ يجريه إلا الله ؟ ﴿ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾ .

* * *

والأحداث التى تجرى فى الكون وفى حياة الإنسان ، من فرح وحزن ، وضحك وبكاء ، وفقر وغنى ، وصحة ومرض ، وموتى يموتون ومواليد يولدون فى كل لحظة من لحظات الليل والنهار ... من ذا الذى يحدثها ويرتبها ويدبرها إلا الله مدبر كل شىء فى هذا الكون ؟

* * *

والغيب المجهول الذى لا يعلمه الا الله يتشوف[1] الإنسان لمعرفته فلا يستطيع مهما حاول ..

ويريد أن يعرف كيف ستكون حياته فى المستقبل . بل يريد أن يعرف ماذا يكون

---

(١) أى يتطلع بشدة ويتشوق .

نصيبه فى العام المقبل . بل يريد أن يعرف ما يحدث بعد شهر أو أسبوع أو يوم ...
بل يريد أن يعرف ماذا يحدث بعد ساعة من الزمان بل بعد لحظة . لحظة واحدة من الزمن المقبل لا يستطيع أن يعرف ما وراءها ، وما تجلبه إليه من خير أو شر ... فمن ذا الذى يعلم ذلك الغيب المجهول كله علم شمول وإحاطة واطلاع إلا الله وحده الذى يخلق كل شىء ويعلمه ، ولا يند عن علمه شىء فى السماوات ولا فى الأرض ؟

* * *

وكثير من الأمور وكثير ، يلقى تأثيره على القلب البشرى فيستيقظ لحقيقة الألوهية . يعرف أن الله موجود ، وأنه واحد لا شريك له ، وأنه سبحانه متفرد بالكمال والقدرة ، وبالجلال والعظمة ، وبالسلطان الذى لا تحده حدود . فيكون على الفطرة السوية ، ويكون كما خلقه الله فى أحسن تقويم : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ④ ﴾ (سورة التين : الآية ٤) . ويكون مهتدياً مؤمناً ، مرضياً عنه فى السماوات والأرض ، عمره فى الأرض مبارك بالأعمال الصالحة ، وله فى الدار الآخرة جنة عرضها السماوات والأرض ، ورضوان من الله أكبر .

* * *

ولكن الفطرة تمرض أحياناً وتنتكس فيصبح الإنسان أسفل سافلين :
﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ④ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ[1] ⑤ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ⑥ ﴾ (سورة التين : الآيات ٤ ـ ٦) .

يتبلَّد الحس أحياناً فينسى آيات الإعجاز فى الكون والحياة . ينسى القدرة المعجزة التى تجرى الرزق وتجرى الأحداث وتشمل بعلمها الغيب ...

إن الإنسان حين يمر بتجربة جديدة يكون متفتحاً لها بكل حواسه . فإذا رأى مشهداً لأوَّل مرة ، أو سمع شيئاً جديداً لأوَّل مرة ، أو ذهب إلى مدينة جديدة أو

(١) أى حين يكفر بالله ويحيد عن الطريق المستقيم

شارع أو مسكن جديد فإنه يكون منتبهاً بكل حواسه يريد أن يتعرَّف على تفصيلات الشيء الجديد ويكون له فى نفسه وقع بالغ لأنه جديد عليه . ولكنه حين يألف المشهد أو المكان ، وتتكرر رؤيته له فإن حواسه تمر عليه بغير انتباه كبير ، بل قد تمر عليه بغير انتباه على الإطلاق !

وكذلك يفعل الإنسان أحياناً مع الله ! ينسى أنه الخالق وأنه المدبر وأنه الرازق وأنه المحيى والمميت !

ويمر بهذا الكون فلا يلتفت إلى شيء من الآيات فيه !

لا يلتفت إلى الشمس البازغة ولا إلى النور حين يدبر ويبتلعه الظلام !

لا يلتفت إلى الزهرة الجميلة المعطّرة البهيجة الألوان !

لا يلتفت إلى صوت الطائر الرقيق الذى يغنى مرفرفاً بجناحيه فوق الغصن !

لا يلتفت إلى الماء الهاطل من السحاب ولا إلى الرعد والبرق فى السماء !

لا يلتفت إلى الطفل الذى ولد ولا الإنسان الذى مات !

لا يلتفت إلى عجزه المطلق إزاء قدرة الله !

أو يتبلَّد حسّه أحياناً لسبب آخر . لأنه مشغول بطعامه وشرابه وشهواته . مشغول بمتاع الدنيا القريب ، فيلهيه ذلك المتاع عن التدبر فى آيات الكون والتقرب إلى خالق الكون والحياة ، ويلهيه عن ذكر الآخرة وما فيها من حساب وعقاب .

أو يتبلَّد حسّه لأنه لا يريد أن يلتزم بأوامر الله . يريد أن يطغى فى الأرض ويتبع هواه . يريد أن يتجاوز الحلال الذى أحلَّه الله لأن فى نفسه شراهة لا تقنع بما أحلَّه الله أو يريد أن يسيطر على الآخرين ويستعبدهم لأهوائه فيعتدى على أموالهم ، أو أعراضهم أو دمائهم بغير حق ، ويريد أن يكون إلهاً فى الأرض يُطاع من دون الله .

أو يتبلَّد حسّه لأن فى نفسه كبراً يستكبر به على عبادة الله .

أو يتبلَّد حسّه لأنه مفتون بما بين يديه . مفتون بعقله أو بجسمه أو بماله أو بأى شىء مما حباه به الله ، فيعتقد أنه من عند نفسه ، وينسى أنه من عند الله !

يتبلَّد الحسّ وتمرض النفس لسبب من هذه الأسباب ، أو لغيرها مما يلم بالنفس من انتكاسات وانحرافات ، فتنسى الله النسيان كله ، أو تشرك به سواه ، وتتوهم أن أحداً أو شيئاً ما فى هذا الكون كله له شأن مع الله !

عندئذ لا يعود الإنسان كما خلقه الله على الفطرة السوية فى أحسن تقويم ، وإنما يصبح أسفل سافلين ، فيتملكه الشيطان يصرف شئونه بعيداً عن الهداية الربانية : وبعيداً عن رضوان الله[1] .

ولكن الله ـ من رحمته بعباده ـ لا يتركهم هكذا بغير هداية . بل يرسل إليهم الرُّسُل يدعونهم إلى الهدى ويعيدونهم إلى الحق .

ولقد أرسل الله محمّداً ﷺ ليكون خاتم النبيّين ، ويكون بشيراً ونذيراً للناس كافة إلى يوم القيامة . وأنزل عليه القرآن الكريم يهدى للتى هى أقوم . وتكفل سبحانه بحفظه فقال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ⑨ ﴾ (سورة الحجر : الآية ٩) ، وجعله شاملاً لكل ما يرد الفطرة إلى سلامتها ، وينفى عنها خبثها وأمراضها ، ويدلها على حقيقة الألوهية ، ويعرفها بالله الحق ، خالق الكون ومدبره ، ومالك الأمر كله بغير شريك .

والآن ، فلنستعرض طريقة القرآن فى هداية النفس البشرية ، وردها عمّا تنحرف إليه من شتى الضلالات .

---

(١) روى مسلم : « حدثنى أبو غسان المسمعى ومحمد بن المثنى ومحمد بن بشّار بن عثمان (واللفظ لأبى غسان وابن المثنى) قالا : حدّثنا معاذ بن هشام : حدّثنى أبى عن قتادة عن مطرف بن عبد الله بن الشخير عن عياض ابن حمّار المجاشعى ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال ذات يوم فى خطبته : ألا إن ربى أمرنى أن أعلّمكم ما جهلتم مما علّمنى يومى هذا : كل مال نحلته عبداً ، حلال . وإنى خلقت عبادى حُنفاء كلّهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فأضلتهم عن دينهم ، وحرَّمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم ان يشركوا بى ما لم أنزل به سلطاناً ... » .

طريقة القرآن

إذا تدبرنا القرآن الكريم ، والسور بتعمق ـ وبصفة خاصة ما يتناول موضوع العقيدة ـ نجد أن القرآن يستخدم وسائل شتى وأساليب متنوعة لتوضيح العقيدة السليمة وتصحيح الانحرافات التى يقع فيها الناس حين تستولى عليهم الجاهلية وتبعدهم عن الهدى الربانى ، ثم لتثبيت هذه العقيدة وتعميق أثرها فى النفس .

ومن هذه الوسائل التى يستخدمها القرآن :

١) إثارة الوجدان لتدبر آيات الله فى الكون ، وإزالة التبلُّد الذى يقع فى حس الإنسان من المشاهد المكرورة . وذلك يشمل الحديث عن الكون بضخامته الهائلة ودقته المعجزة ، وظاهرة الموت والحياة ، وإجراء الرزق ، وإجراء الأحداث ، وقدرة الله التى لا تحد ، وعلم الله الشامل للغيب ، كل ذلك بطريقة فذة تجعل الإنسان يستقبل هذه الأمور كلها كأنه يراها ويلاحظها لأول مرة ، فينفعل بها وجدانه ، ويستيقظ لحقيقة الألوهية .

٢) إثارة العقل ليتفكر فى خلق الله ، ليدرك أن لهذا الكون خالقاً ، وأنه لا يمكن أن يكون له شريك فى الخلق ولا فى الرزق ولا فى تدبير الأمر . وهذا يشمل كل الإشارات السابقة ولكن بطريق آخر غير إثارة الوجدان والانفعال . **هو طريق التفكير والتدبر المنطقى** . وإن كان يُلاحظ أن الطريقتين كثيراً ما تقترنان معاً فى آيات كثيرة من آيات القرآن ، فيخاطب الوجدان ويخاطب العقل فى آن واحد .

٣) مواجهة الإنسان بحقيقة ما يدور فى داخل نفسه وقت الشدة من اللجوء إلى الله ونسيان الشركاء ، ومن الغفلة والنسيان والبغى فى الأرض بغير الحق بمجرد زوال الأزمة ونجاته من الخطر . وهى حقيقة كثيراً ما ينساها الإنسان فيذكِّره القرآن

بها ليصحح سلوكه تجاه الله . ويستقيم على العقيدة السليمة .

٤) مناقشة الانحرافات كلها التي يقع فيها الجاهليون تارة بالدليل العقلي وتارة بالدليل الوجداني ، ودحضها وبيان تفاهتها وعدم قيامها على أي أساس صحيح . ونلاحظ هنا كذلك أنه كثيراً ما يقترن الدليل العقلي بالدليل الوجداني في مناقشة الانحرافات .

٥) التذكير الدائم بقدرة الله التي لا تُحَدّ . وعظمته وجلاله حتى يخشع القلب ويستسلم لله .

٦) التذكير الدائم بأن الله مع الإنسان يراه ويراقبه ثم يحاسبه يوم القيامة على ما عمل من خير أو شر . وإشعار الإنسان بعلم الله الشامل الذي لا يغيب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ، ولا يخفى عليه من عمل الإنسان شيء حتى السرّ وما هو أخفى من السرّ .

٧) التذكير الدائم بالله سبحانه وتعالى في حالتي السراء والضراء . ففي السراء ينبغي على الإنسان أن يذكر الوهاب المُنعم فيشكره . وفي الضراء يصبر الإنسان لقضاء الله ويتوجه إليه ليكشف عنه الضر .

٨) إيراد القصص التي تثبّت الإيمان ، بذكر الأنبياء وصبرهم على الأذى ونصر الله لهم في النهاية ، والكفّار وعنادهم وتدمير الله عليهم في النهاية .

٩) رسم الصور المحببة للمؤمنين وصفاتهم وما ينالهم من جزاء ، والصور الكريهة المنفرة للكافرين وما ينالهم من جزاء .

وفي الفصول القادمة نتحدّث عن هذه الوسائل بشيء من الشرح والبيان .

القرآن والوجدان

قلنا إن الإنسان يتبلَّد حسّه على المشهد المكرور فينسى دلالته الحقيقية . ينسى إعجاز القدرة الربانية لأنه ألف مشهد الليل والنهار ، ومشهد الشمس والقمر ، والسحاب والمطر ، والنبات المخضر ... ولم تعد هذه المشاهد تهز وجدانه أو تلفت حسّه إلى وجود الخالق سبحانه وتعالى ، وإلى أنه خالق عظيم مدبر حكيم متصف بالكمال متفرد بالخلق والإبداع .

والقرآن ـ بطريقته الجميلة المعجزة ـ يزيل تلك الغشاوة التي ترين على القلب وتجعل الحسّ يتبلَّد . ويعرض آيات الله فى الكون فى صورة حية ينفعل بها الوجدان كأنها جديدة يشهدها الإنسان لأول مرة ! وحين ينفعل بها الوجدان ويتأثر ، ويتحرك الخيال لتتبع المشهد المعروض ، وتتحرك المشاعر بشتى الانفعالات . عندئذ يوجهه إلى أن وراء هذه المشاهد كلها قدرة الله المعجزة ، وأن صانعها وبارئها هو الله ... فينبغى إذن عبادة ذلك الإله القادر ، والتوجه إليه وحده بالعبادة دون سواه .

بهذه الطريقة الحيّة الجميلة يتحدث القرآن عن :

١) مشاهد الكون التى تصور ضخامة الكون ودقته المعجزة فى ذات الوقت .

٢) ظاهرة الموت والحياة مع عرض تفصيلى أحياناً لمراحل الحياة النباتية والإنسانية .

٣) ظاهرة جريان الرزق على الناس والدواب كذلك .

٤) ظاهرة جريان الأحداث ، سواء الأحداث الكونية أو الأحداث الواقعة فى محيط الإنسان القريب .

٥) علم الله الشامل للغيب .

وفى كل مرة يعقب بأن الله هو الصانع لهذا كله ، فهو الجدير وحده بالعبادة وبالتوجه وبالدعاء وبالخشية وبالرجاء .

والآن فلنعرض أمثلة لكل واحد من الموضوعات السابقة ، وإن كان كثير منها يأتي مقترناً بعضه ببعض في آيات القرآن .

١) آيات الله فى الكون

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ[1] (١٠) يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٧) وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨) ﴾

(سورة النحل : الآيات ١٠ ـ ١٨) .

ففى هذه الآيات عرض لبعض آيات الله فى الكون بطريقة تزيل عن الحسّ تبلّده إزاء المشهد المكرور ، بأن تلفت هذا الإنسان صاحب الحس المتبلّد إلى جوانب إما أنه نسيها ، وإما أنه لم يلتفت إليها أصلاً . فحين يدركها أو يتذكرها تصبح المشاهد جديدة فى حسّه . وينظر إليها برؤية جديدة غير التى كان يراها بها من قبل ، فينفعل بها وجدانه وتتحرك عواطفه .

فالإنسان ذو الحسّ المتبلِّد قد يرى الماء النازل من السماء فلا يتذكر أن هذا المطر هو الذى يتحوّل إلى عيون وينابيع وآبار وأنهار يشرب منها . أو هو من الجانب الآخر قد يشرب الماء الذى يجده أمامه ميسّراً ، وينسى أن هذا الماء لم يوجد فى الأرض من تلقاء نفسه ، بل أنزله الله له فى صورة مطر ، لا ينزل إلا بقدرة الله ، وحسب القوانين والسنن التى أودعها الله فى الكون . فأجرى بها السحاب وأنزل منه الماء . فالنص القرآنى يوقظه إلى هاتين الحقيقتين فى آن واحد : ﴿ هو الذى أنزل من السماء

(١) إشارة إلى المراعى التى تأكل منها السائمة أى الدواب

ماء **لكم منه شراب** ﴾ . كما يلفته أيضاً إلى الشجر النابت من هذا الماء . فلا يعود المطر النازل من السماء ظاهرة مكرورة مألوفة منقطعة فى حسّه عن الله الذى أنزله من السماء . إنما تصبح موصولة بقدرة الله . فتحيا فى النفس وتؤثر فيها ، بربطها بالله المنعم الوهّاب .

ويستمر السياق يعرض أنواعاً من النبات الذى أشارت إليه الآية السابقة . فيذكر الزرع بعمومه . والزيتون والنخيل والأعناب ، ﴿ ومن كل الثمرات ﴾ .

وهذه الطريقة فى ذكر بعض الأنواع بالتفصيل والإشارة العامة إلى بقيتها تجعل الخيال يتحرك لتقصى ما لم يذكر بتفصيله بعد أن تتبع المذكور منه بالفعل ! وهكذا يشترك الخيال مع الوجدان فى تصور المشهد ، ويعطى له حيوية جديدة فلا يعود هو المشهد المكرور المألوف الذى تبلّد عليه الحسّ !

ثم يُشير السياق إلى الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم . وكلها مشاهد مألوفة مما يتبلد عليه الحس بالتكرار . ولكن السياق يذكر أمراً جديداً يغيّر وضعها فى النفس . ويجعلها كأنها تعرض لأوّل مرة . ذلك هو قوله تعالى :

﴿ **وسخر لكم** الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم **مسخرات** بأمره ﴾ .

والليل والنهار والشمس والقمر والنجوم لم تعد تلك الظواهر الكونية المعتادة التى ألفها الحس ففقدت دلالتها فى النفس . إنما هى **كائنات مسخرة** بأمر الله . ولا شك أن هذا المعنى قد غيّر صورتها تماماً عن الصورة المعهودة التى تبدو فيها هذه الظواهر وهذه الأجرام السماوية كأنها قائمة بذاتها ، مستقلة عن أى شيء بحركتها ! كلا ! إنها تقوم **بعمل معيّن** . تقوم **بتكليف ربانى** كلفها الله به . وإذن فحركتها الدائبة ليست حركة آلية يتصورها الحسّ المتبلّد ، إنما هى حركة حية ذات غاية وهدف . وكل جزء من هذه الحركة فى ليل أو نهار هو قيام بجزء من التكليف الذى يبلغ غايته يوم يغير

الله نظام هذا الكون كله فى اليوم الموعود. وذلك فضلاً عن التذكير بنعمة الله فى قوله تعالى: ﴿وسخر لكم الليل والنهار...﴾. والملحوظ أن جوّ السورة كلها هو جو تذكير الإنسان بنعمة الله عليه. لكى يتحرك وجدانه لشكر أنعم الله. بالتوجه إليه وحده دون سواه.

ثم يخطو السياق خطوة أخرى يلفت الحسّ إلى اختلاف الألوان فيما خلقه الله على ظهر الأرض من كائنات: ﴿وما ذرأ[1] لكم فى الأرض مختلفاً ألوانه﴾

ونلحظ هنا كذلك نوعاً آخر من إثارة الخيال لتتبع المشهد. فالآية تقول ﴿وما ذرأ لكم فى الأرض﴾. «**ما**» بدون تخصيص شىء بعينه، نباتاً كان أو حيواناً أو غيره.. فهنا ينطلق الخيال يتتبع كل ما ذرأ الله فى الأرض من الأشياء المختلفة الألوان. فتصبح هذه الأشياء حية الوجدان، وتتخذ صورة أخرى غير ما كانت عليه فى عهد التلبُّد والنسيان.

ثم يقول السياق: ﴿ **وهو الذي سخر** البحر لتأكلوا منه لحماً طريّاً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها، وترى الفلك مواخر فيه **ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون**﴾.

هل يمكن أن يمر الإنسان بالبحر بعد قراءة هذه الآية دون أن يتحرّك وجدانه؟ إن البحر هُنا كله حركة وحياة، مرتبط بحس الإنسان بصلات قوية. فمنه يستخرج اللحم الطرى ليأكل. والحلية ليتزين. وفيه تمخر الفلك لتنقل البضائع والأرزاق إنه ليس ماء وأمواجاً فحسب. إنه عالم كامل ملىء بالحركة والنشاط. وكله من فضل الله. أفلا نشكر الله على فضله؟

ثم يذكر السياق من المشاهد الكونية الجبال والأنهار والطرق والعلامات والنجوم بذات الأسلوب الذى يلفت إليها الحسّ ويحرك الخيال ويذكّر فى كل مرة بأنها نعمة من نعم الله على الإنسان...

وبعد هذا العرض الحى لتلك المشاهد. الذى يخرج الحسّ من تبلده. فيعود

(١) ذرأ: أى خلق

يستعرض الأشياء كأنها جديدة عليه ، وينفعل بها ويتحرك معها .. بعد هذا العرض كله يعقب بالحقيقة الكبرى التي يريد أن ينبه الإنسان إليها :

﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق ﴾ ؟

ويجيء السؤال بعد إثارة الوجدان بآيات الله في الكون على هذا النحو ، فيتلقى إجابته من داخل النفس مؤكدة لا لبس فيها :

لا يا رب ! ليس الذي يخلق كالذي لا يخلق ! سبحانك أنت الخلاق العظيم .

ويختم السياق بما يزيد الوجدان إثارة ويزيد النفس ارتباطاً بالله :

﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها . إن الله لغفور رحيم ﴾ .

والآن ، وقد استعرضنا هذا النموذج مفصّلاً تستطيع على ضوئه أن تقرأ النماذج الأخرى المشابهة في القرآن الكريم ، نكتفي بإثبات نموذجين اثنين منها :

﴿ المٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١) اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤) ﴾

(سورة الرعد : الآيات ١ ـ ٤) .

﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ (٢٠) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ (٢٢) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣) وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤) وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥) ﴾

(سورة الروم : الآيات ١٧ ـ ٢٥) .

٢) ظاهرة الموت والحياة

يتحدَّث القرآن كثيراً عن ظاهرة الموت والحياة ليهز الوجدان بهذه الظاهرة المعجزة التى كثيراً ما يمر الإنسان بها دون أن يلتفت إليها ، أو دون أن يعطيها حقها من الاهتمام ، مع أنها جديرة ـ حين يلتفت إليها ـ أن تبعث فى نفسه هذا التساؤل : من الذى خلق الحياة فى الخلية الحية سواء أكانت نباتية أم حيوانية أم إنسانية ؟ أى قدرة معجزة هى التى جعلت تلك الخلية تتحرك وتنمو وتكبر وتتشكّل فى أشكال شتى من ذات نفسها ؟ فلماذا إذن لا تتصرف الخلية الميتة على نفس الصورة ؟! أليس هناك سرّ معجز فى هذه الخلية الحية ؟ أليس الخالق سبحانه هو الذى أودع فيها ذلك السر المعجز : سر الحياة ؟!

ثم حين تموت تلك الخلية الحية ، ويموت الكائن الحى : أين تذهب الحياة التى كانت سارية فيه ؟ إننا نقول فى بساطة إن ذلك الكائن قد مات ، سواء أكان نباتاً أم حيواناً أم إنساناً . ولكن هل الأمر بهذه البساطة فى الحقيقة ؟ أليست ذات القدرة المعجزة التى وهبت الحياة للكائن الحىّ هى التى استردتها منه وتركته ميتاً بلا حياة ؟!

إن العلم يحدثنا عن بعض مظاهر الحياة والموت .

يقول لنا إن مظاهر الحياة فى الكائن الحىّ أنه يتغذى ، وأنه ينمو ، وأنه يتحرك ، وأنه يتكاثر .. ويقول لنا إن موت الكائن الحىّ هو وقف تلك الأعمال كلها ، فلا يعود يتغذى أو ينمو أو يتحرك أو يتكاثر ...

نعم ! ولكن العلم لم يقل لنا ، ولا يستطيع حتى اللحظة أن يقول لنا ما سر الحياة ذاتها ، وما الذى يجعل الخلية الحية تتصرف على هذا النحو ، وعلى هذا النحو بالذات ؟

ثم إذا سألنا العلم : لماذا تموت الخلية ولا تظل حية أبداً ؟! لم يستطع أن يجيبنا إلا بأن الخلية تهرم وتضعف ثم تموت ! نعم ! ولكن لماذا يحدث ذلك ؟! لماذا لا تستمر

فى الحياة ؟ إن كل كائن حى يتشبث بالحياة ولا يحب أن يموت أبداً حتى الدابة إذا أردت أن تقتلها تفر منك لتبعد عن الموت .. ولكن لماذا تموت كل الكائنات ؟ تـرى لو كان أمر حياتها بيدها هل كانت تتخلى عن الحياة أبداً ؟ كلا ! ولكنها تموت لأن الله قضى عليها بالموت ! وهذا هو السر الحقيقى وراء كل الأسباب الظاهرة للعين !

الموت والحياة إذن كلاهما من عند الله . كلاهما مشيئة ربانية وقدر ربانى

وهذا هو الذى يغيب عن الوجدان حيث يتبلد حسّ الإنسان على المشاهد المكرورة . ويغيب عن العقل حين تنطمس بصيرة الإنسان لسبب من الأسباب الكثيرة التى ذكرناها من قبل . فيقول كما يحكى القرآن عن الدهريين[1] :

﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ (سورة الجاثية : الآية ٢٤) .

أو يقول إن « الطبيعة » هى التى تخلق الحياة وتسلبها من الكائن الحى كما يقول دارون !

ويجىء القرآن فيزيل تلك الغشاوة عن النفوس ، ويتحدَّث عن ظاهرة الموت والحياة حديثاً يهزّ الوجدان فيصحو من تبلُّده . ويتيقظ لحقيقة الألوهية التى يرجع إليها الموت والحياة :

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢) الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ ۖ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤) ﴾ (سورة الملك : ١ ـ ٤)

فالله الذى بيده الملك . والذى هو على كل شىء قدير . هو الذى خلق الموت والحياة وما يستطيع غيره سبحانه أن يخلق الموت والحياة . فهما ـ بأسرارهما المعجزة ـ لا يقدر عليهما إلا من كان بيده ملك كل شىء ، وكانت له القدرة التى لا يحدها شىء . ولا يعجزها شىء !

---

(١) أطلق عليهم اسم الدهريين لأنهم قالوا : « وما يهلكنا إلا الدهر » فنسبوا الموت للدهر بدلاً من الله . كما أنهم أنكروا أن الله يبعث الموتى

وهذا الإله القادر ـ سبحانه ـ الذى خلق الموت والحياة بقدرته . قد خلقهما لحكمة ﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾ فاقتضت مشيئته أن يعيش الإنسان فترة معيّنة من الزمن على هذه الأرض ، يعمل فيها وينشط ويتحرك ثم يموت ، ليبعث مرة أخرى ويحاسب على أعماله . وكذلك قضى ـ لحكمة يريدها ـ أن تموت الكائنات الحية كلها بعد فترة معيَّنة من الحياة ، هو الذى يقدرها سبحانه لكل واحد من الأحياء . التى تبلغ ملايين الملايين من المخلوقات منذ أنشأ الله الحياة على الأرض . إلى أن تقوم الساعة فى اليوم الموعود ..

والسياق القرآنى يلفت النظر إلى ظاهرة الحياة والموت فى وسط الحديث عن آيات القدرة فى الكون . ليوقظ الحسّ المتبلِّد إلى أن هذه الظاهرة من الضخامة والإعجاز بحيث تقترن بآيات الخلق المعجزة التى لا يقدر عليها إلا الله ، فمن قبلها أشار إلى أن الله بيده الملك وأنه على كل شىء قدير . ومن بعدها يعود إلى ذكر الخلق : ﴿ الذى خلق سبع سموات طباقاً ﴾ ثم حين يقول : ﴿ ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت ﴾ فهو يدعو الإنسان إلى النظر فى الكون الواسع ، يتملاه بخياله ، ويتأمل فيه بفكره . ليرى : هل هناك اضطراب أو خلل أو نقص فى هذا الخلق الذى خلقه الله ؟ . ﴿ فارجع البصر هل ترى من فطور ﴾ ؟

وحين يتملى الإنسان ببصره وخياله وفكره هذا الكون الواسع وآيات القدرة فيه . ينفعل وجدانه بعظمة الله ، وقدرته المعجزة . فإذا السياق القرآنى يُطالبه بأن يرجع البصر كرةً أخرى ، ليبحث عن النقص أو الخلل فى خلق الله ! فهل يستطيع شيئاً من ذلك ؟ أم يعود البصر عاجزاً حسيراً لا يقدر على هذه المهمة : ﴿ ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير ﴾ ! . وعندئذ يكون الوجدان قد بلغ أقصى انفعاله . ووصل إلى غاية تأثره . فيقر إقراراً لا مهرب له منه بعظمة الله وجلاله . وقدرته التى لا تحدها حدود .

٢) ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ (سورة المؤمنون : الآيات ١٢ ـ ١٩).

٣) ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾ ﴾ (سورة الزمر : الآية ٢١).

٣) الرزق

من أشد الأمور التى تربط القلب المؤمن بالله ، بينما يغفل عنها الحسّ المتبلّد ، أمر الرزق الذى يجريه الله على الإنسان من السماء والأرض .

فالمؤمن يشعر شعوراً دائماً بفضل الله عليه ورحمته ، لأن الرزق الذى يفيضه الله على الإنسان دائم لا ينقطع ، ولو انقطع لحظة واحدة لما أمكن للإنسان أن يعيش .

وقد نتصور أحياناً أن الرزق محصور فى الطعام والشراب ، أو الملبس والمسكن ، أو المال الذى نشترى به الأشياء . ولكن الرزق فى الحقيقة أوسع من هذا بكثير ، لا يمكن للإنسان أن يحصيه : ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ (سورة النحل : الآية ١٨) .

فهل خطر ببالك أن الهواء الذى تتنفسه مكوَّن من عناصر رتبت ترتيباً ربانياً بنسب معيَّنة لتجعل الحياة صالحة على ظهر الأرض ، وأنه لو قَلَّتْ نسبة الأكسجين فى الهواء لتعذرت الحياة ، ولو زادت لاشتعل كل ما على الأرض ؟!

وهل خطر ببالك أن الجاذبية القائمة بين الأرض والشمس من جهة ، وبين الأرض والقمر من جهة أخرى قد قدرها الله سبحانه بحسبان دقيق : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ ﴾ (سورة الرحمن : الآية ٥) بحيث إنه لو كان جذب الشمس

للأرض أكبر من قدره الحالى لاقتربت من الشمس أكثر ، وصارت الحرارة عليها لا تُطاق ، فماتت كل الأحياء ، ولو كان جذبها للأرض أقل لابتعدت عن الشمس أكثر ، فصارت البرودة عليها لا تُطاق ، ولماتت كل الأحياء ؟! وأنه لو اقترب القمر إلى الأرض فزادت الجاذبية بينه وبينها لطغى الماء ـ وقت المد ـ فأغرق كل سطح الأرض وأهلك كل الأحياء ؟!

وهل عرفت أن دورة الليل والنهار لازمة لحياة الأحياء ، ولولاها ما استقامت الحياة ولا ترعرعت الأرض ، لأن الكائنات الحية كلها تحتاج إلى وقت تسكن فيه. ووقت من نوع آخر تنشط فيه ؟

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣) ﴾ (سورة القَصَص : الآيات ٧١ ـ ٧٣) .

ذلك ـ وغيره ـ من ألوان الرزق التى ننساها أحياناً ونحن نعدد الأرزاق التى أفاضها الله على الإنسان . وهى ـ إلى جانب أنواع الرزق الأُخرى ـ نعم ربانية يذكرها القلب المؤمن بالحمد والشكر . ولكن الحسّ المتبلِّد يمر عليها بغير التفات ، أو يجنح به الغرور أحياناً أن يقول كما يروى القرآن عن قارون : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ﴾ (سورة القَصَص : الآية ٧٨) أى حصلته بقدرتى وجهدى لا من عند الله !

لذلك يعرض القرآن موضوع الرزق بطريقة تهزّ الوجدان المتبلِّد ليتيقّظ إلى الحقيقة ، وهى أن الله هو الرزّاق ذو القوة المتين ، وأن الأرزاق كلها من عند الله . وأن الإنسان مهما بذل من جهد فهو لا ينشئها فى الحقيقة ، إنما يعمل فيها بسُنَّة الله ومشيئته ، ولكن المنشئ هو الله :

١) ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ[1] ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ[2] ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ[3] ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا[4] فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ[5] ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾ (سورة الواقعة الآيات ٦٣ ـ ٧٤) .

إن الإنسان يحرث الأرض ويلقى البذور فيها فيخيّل إليه أنه هو الذى زرع ! أى أنه هو الذى أنبت الزرع ! فهل حقيقة هو الذى يصنع ذلك ؟ وهل هناك قوة فى الوجود كله ـ إلا القدرة الربانية المعجزة ـ تستطيع أن تحرك البذرة للنمو . وتخرج منها ذلك الزرع المختلف الألوان والأشكال والطعوم ؟ ترى لو أن الله لم يودع هذه البذرة سر الحياة . هل كان أهل الأرض جميعاً يستطيعون أن يحركوها من مكمنها لتنمو وتثمر ؟! من أجل ذلك يقول القرآن : ﴿ أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون﴾ ؟ ثم يلفت الحس إلى جانب آخر من المسألة يغفل عنه الإنسان حين يتبلّد حسّه على المشهد المكرور . فينسى ما فيه من إعجاز الله القدير . إن الإنسان تعود أن يرى الزرع نامياً ينتقل من مرحلة إلى مرحلة حتى تطلع الثمرة . فيظن ـ فى غفلته ـ أن الأمور تسير هكذا من تلقاء ذاتها . وأنه لا بُدَّ حين يضع البذرة أن تنمو حتى تخرج له الثمرة . وينسى أن الله هو الذى يخرجها له . من أجل ذلك يقول له القرآن :

﴿ لو نشاء لجعلناه حطاما . فظلتم تفكهون . إنا لمغرمون . بل نحن محرومون﴾ ! فلو شاء الله لم ينبته أصلاً . ولو شاء كذلك أنبته ثم جعله حطاماً دون أن يثمر ! ولو حدث ذلك لظللتم تقلبون القول بينكم . تقولون : غرمنا جهدنا ومالنا ولم يثمر الزرع . أو تقولون : وقع علينا الحرمان !

---

(١) أى تبذرونه
(٢) أى تعجبون من حيرتكم وحسرتكم
(٣) أى غارمون
(٤) أى شديد الملوحة
(٥) أى المسافرين

والإنسان يرى الماء نازلاً من السماء ولكنه يغفل ـ حين يتبلَّد حسّه ـ عن أن الله هو الذى أنزله ، فيتوهم أنه ينزل هكذا من تلقاء نفسه : أو قد يصيبه الغرور كما وقع من الإنسان المعاصر الذى يعيش فى الجاهلية الحديثة المسيطرة على الناس فى أوربا رغم كل ما عندهم من التقدم المادى . فيظن أنه هو الذى ينزل المطر من السماء ، لأنه استطاع أحياناً أن يلقى مواد معيّنة بالطائرات فوق السحب فيسقط المطر ؟

يغفل هؤلاء وهؤلاء عن الحقيقة ، وهى أن الله سبحانه وتعالى هو الذى ينزل المطر فى الحقيقة ، بمشيئته وقدره ، وبالسنّة التى أودعها فى الكون لتؤدى إلى تحقيق مشيئة الله وقدره . فإذا كان بخار الماء يتثاقل حين يبرد السحاب فى طبقات الجوّ العُلْيا ، أو حين يصطدم السحاب بجبل مرتفع ، فلا يعود الهواء قادراً على حمله ، فينزل فى صورة مطر .. فمن الذى صنع ذلك كله ؟ مَنِ الذى جعل هذا من طبيعة بخار الماء ؟ ترى لو أن الله لم يودع بخار الماء هذه الخصائص كان المطر ينزل من تلقاء نفسه حين يتكاثف ؟! وإذا كان إلقاء بعض المواد على السحاب بالطائرات يؤدى ذات الهدف فيجعل بخار الماء يبرد فيتكاثف فيثقل فينزل فى الصورة التى يسمونها « المطر الصناعى » ! فهل كانت طائرات الأرض كلها ، والبشر جميعاً يقدرون على شىء من ذلك لو لم يسخر الله الماء لينزل من السماء إلى الأرض بحسب سنن معيَّنة أودعها فيه[1] ؟!

ومرة أُخرى يلفت القرآن الحسّ إلى جانب آخر من المسألة . فإن المطر ينزل فى صورة ماء عذب سائغ للشراب ، فيظن الحسّ الغافل أنه ينزل على هذه الصورة من تلقاء نفسه ! فيذكره القرآن بالحقيقة . إن الله هو الذى أنزله فى صورته العذبة تلك رحمة منه بخلقه ، وإنه لو شاء لجعله مالحاً شديد الملوحة لا يصلح للشرب ولا لتنمية

(١) عن زيد بن خالد الجهنى أنه قال : صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلّم صلاة الصبح بالحديبية على أثر سماء كانت من الليل . فلما انصرف أقبل على الناس فقال : « هل تدرون ماذا قال ربكم »؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « قال أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر . فأمّا من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بى وكافر بالكواكب . وأمّا من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بى مؤمن بالكواكب » . رواه البخاري .

النبات . أفلا يستحق الله الشكر على نعمته تلك ؟

والإنسان يوقد النار وينسى قدرة الخالق من ورائها ، حين يراها ميسرة بين يديه يشعلها حين يشاء . فمن أنشأ الشجرة التي تتوهَّج منها النار ؟ أليس هو الله سبحانه وتعالى الخالق المنعم الوهَّاب ؟ وما يصدق على الشجرة يصدق على غيرها من ألوان الوقود الموجود اليوم .. كله من عند الله .

ثم يُذكِّر القرآن الإنسان بجانب آخر من المسألة : إن الله قد جعل هذه النار التي يوقدها الإنسان في الأرض تذكرة تذكِّره بالنار الكُبرى التي تنتظره في الآخرة لو عصى الله ، في ذات الوقت التي جعلها متاعاً للمسافرين المحتاجين للدفء ولما ينضجون عليه الطعام .

وينتهي السياق حين يهز الوجدان بذلك العرض كله بدعوة الإنسان ـ وهو في حالة تأثره وانفعاله الوجداني ـ أن يسبِّح باسم ربِّه العظيم ، الذي أفاض عليه كل تلك الأرزاق !

٢) ﴿ قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلال[1] (٣١) الله الذي خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار (٣٢) وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار (٣٣) وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار (٣٤) ﴾

(سورة إبراهيم : الآيات ٣١ ـ ٣٤) .

٣) ﴿ وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين (٦٦) ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا إن في ذلك لآية لقوم يعقلون (٦٧) وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون (٦٨) ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون (٦٩) ﴾ (سورة النحل : الآيات ٦٦ ـ ٦٩)

(١) أي صداقات تحميهم من حساب الله وعذابه

٤) الأحداث الجارية

تجرى الأحداث حول الإنسان وفى خاصة نفسه من مولده إلى مماته . بعضها أحداث كونية كالليل والنهار وتعاقبهما المستمر ، وطلوع الشمس وغروبها ، وطلوع القمر وتدرج أوجهه من أول الشهر حتى يكون بدراً ثم يتضاءل حتى يختفى ، والسحاب والمطر والبرق والرعد وتعاقب الفصول .. الخ . وبعضها أحداث فى محيط البشر من ميلاد وموت ، وصحة وضعف ، وطفولة وشباب وكهولة وشيخوخة ، وغنى وفقر ، وعز وذل ... الخ .

تمر هذه الأحداث على المؤمن فيجد لنفسه فيها عبرة ، يعلم أن من ورائها تدبيراً حكيماً لإله حكيم ، هو الذى يجرى الأحداث بعلمه وحكمته وقدرته ، وهو الذى يدبر أمر الكون كله ، فلا يحدث فى هذا الكون الهائل العريض إلا ما يريده الله ، ولا يتم أمر من أمور الكون إلا على الصورة التى يريدها الله .

أمّا الغافل المتبلّد الحسّ فيمر بهذه الأحداث ، سواء منها الأحداث الكونية أو الأحداث التى تقع فى محيط البشر ، دون أن يتنبه من غفلته ، ودون أن يتيقظ لما فيها من دلالة على وجود الله ، وتفرّده بالمُلك فى هذا الكون ، وتفرّده بتدبير الأمر كله ، ومن ثم تمر به الأحداث وهو سادر فى غفلته لا يفيق !

ويجىء القرآن فيهزّه من غفلته هزّاً ليطلع على الحقيقة الكامنة وراء الأحداث ! وكما يُعالج القرآن آيات الله فى الكون ، وظاهرة الموت والحياة ، وجريان الرزق ، فيجلّيها جديدة حيّة كأنما يتلقاها الإنسان لأول مرّة ، كذلك يُعالج أمر الأحداث الجارية بما يزيل عن النفس غشاوتها ، ويزيل عن المشاعر تبلّدها ، فينفعل الوجدان ويتأثر ، ويتيقّظ القلب ويستشعر .

١) ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ

أفه من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون (١٦٤) ﴾ (سورة البقرة : الآية ١٦٤).

فى هذه الآية الواحدة يلفت القرآن الحسّ البشرى إلى مجموعة كبيرة من الأحداث الكونية التى يمر بها الإنسان الغافل دون تنبه إلى دلالتها ، بحكم الإلف والعادة . ولكن القرآن يوقظ هذا الحسّ المتبلّد ليرى هذه الآيات الكونية ويدرك أنها لا يمكن أن تحدث من تلقاء نفسها ، ولكن وراءها تدبيراً وحكمة .

وإذا تدبرنا الآية نجد أن القرآن يصل إلى الغاية المقصودة ـ وهى إيقاظ الحسّ المتبلّد ـ بطريقتين فى آن واحد :

الأولى : هى حشد عدد كبير من الأحداث الجارية فى معرض واحد . فهناك السماوات والأرض . وهناك اختلاف الليل والنهار (بمعنى تعاقبهما المستمر وبمعنى اختلاف طولهما على مدار الفصول) ، وهناك جريان السفن فى البحر ، وهناك المطر النازل من السماء ، والحياة النباتية فى الأرض ، والدواب المنبثة فى أرجائها ، وهناك تصريف الرياح ، وهناك جريان السحاب المعلق بين السماء والأرض ... وهذا الحشد ذاته يوقظ الحس . فقد يتبلّد هذا الحس فلا يلتفت لتلك الأحداث الجارية وهى فرادى ، كل منها يقع على حدة فى وقت منفصل عن الآخر ، ولكنها حين تحشد هكذا وتعرض بهذا التوالى وبذلك التجمع فإن الحسّ لا بُدَّ أن يستيقظ ، وهو يتتبعها بخياله واحدة إثر الأخرى فلا يجد فرصة يغفل فيها أو يستنيم ، وهى تلاحقه بهذه السرعة ، لا يكاد ينتهى من تتبع واحدة حتى تكون الأخرىٰ قد لحقته !

والثانية : هى ربط الوجدان بهذه الأحداث عن طريق لفت الحسّ إلى الحركة الدائبة فى هذا الكون . فالمشهد الثابت الذى لا يتحرّك قد يسهل على الحس أن يتعوّد عليه فيتبلد ولا يعود المشهد يثيره . أمّا الحركة المستمرة فلا يمكن للحس أن يتبلّد ازاءها ، ولا بُدَّ أن يلتفت ويتيقظ .

فالآية تبدأ بخلق السماوات والأرض ، وهو حدث قديم لم يشهده الإنسان ولكنه يرى آثاره ماثلة أمامه . ولكن السياق القرآنى لا يدع صورة الخلق ساكنة أمام الحس بل يحرك الصورة بتحريك مفرداتها . فالليل والنهار يدوران ويختلف طولهما فى أثناء تعاقبهما المستمر . والفلك تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، والماء النازل من السماء يتسم بالحركة كذلك ، وهى حركة النزول نحو الأرض . ولكن الحركة لا تنتهى هنا فمن هذا المطر النازل يخرج النبات الحى من الأرض التى كانت مجدبة من قبل . والتعبير القرآنى يقول :

﴿ فأحيا به الأرض بعد موتها ﴾ فيصوِّر الأرض كانت ميتة فتحركت بالحياة بعد نزول المطر (كما يقول فى سورة الحج : ﴿ وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾) ولكن الحركة لا تنتهى هنا كذلك . بل تستمر لتصور الدواب جاءت تسعى تأكل النبات الذى أخرجته الأرض بالمطر ، والتعبير القرآنى يقول : ﴿ وبث فيها من كل دابة ﴾ والبث حركة فى جميع الاتجاهات فى وقت واحد . ثم يجىء ذكر الرياح وهى متحركة بطبيعة الحال ، فإنها لا تسمى رياحاً إلا إذا تحركت حركة شديدة ملموسة ، وأخيراً يذكر السحاب متحركاً كذلك (مسخراً) بين السماء والأرض . وهكذا تشمل الحركة كل الكائنات ، ويتملاها الحس فى حركتها الدائبة فينفعل بها ويتحرك معها .

ولا تنسَ كذلك أن التعبير القرآنى يلفت الحس البشرى فى أثناء عرض هذه الحركة المستمرة إلى الله سبحانه وتعالى ، الذى تحرك قدرته كل هذه الأحداث : ﴿ وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ﴾ وهكذا يذكر لفظ الجلالة الصريح مرة ويعود الضمير عليه مرتين متواليتين بعد قوله « فأحيا » وقوله « وبث » ثم يلفت إليه الحس مرتين أُخريين فى قوله تعالى :

﴿ وتصريف الرياح ﴾ وقوله : ﴿ والسحاب المسخر ﴾ إذ الإشارة واضحة إلى أن الذى يصرّف الرياح هو الله ، والذى يسخر السحاب هو الله .

وبهذه الوسائل كلها يوقظ القرآن وجدان البشر إلى الأحداث الجارية فى بنية الكون وفى حياة الناس .

٢) ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ (سورة آل عمران : الآيتان ٢٦ ـ ٢٧) .

٣) ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ[1] ﴿٤٩﴾ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ ﴾ (سورة الروم : الآيات ٤٨ ـ ٥٤) .

أسئلة

١ ـ اذكر ثلاث وسائل يستخدمها القرآن الكريم فى مجال العقيدة .

٢ ـ ماذا نستفيد من تسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم ؟

٣ ـ قال تعالى :﴿وما ذرأ لكم فى الأرض﴾. ماذا تفيده « ما » الواردة فى أول الآية ؟

٤ ـ دلل على بعض آيات الله الكونية .

٥ ـ تحدث باختصار عن ظاهرة الموت والحياة .

٦ ـ يلقى الزارع الحب فى الأرض فينبت وينمو . فمن الزارع الحقيقى ؟

---

(١) أى حائرين يائسين قانطين .

٥) علم الله الشامل للغيب

يتشوق الإنسان دائماً إلى معرفة الغيب .

يحب أن يعرف ماذا سَيَحْدثُ له فى الغد القريب والغد البعيد .

وسواء كان هذا الغيب أملاً منشوداً يسعى الإنسان لتحقيقه ، أو كان شيئاً مؤلماً يحب الإنسان أن ينجو منه ، أو خيراً يحب أن يستزيد منه ، أو شرّاً يحب لمن يتخلص منه .. فهو دائم التطلع إلى معرفة هذا الغيب بأى شكل من الأشكال ..

ومع ذلك فإنه لا يستطيع ..

يلجأ أحياناً إلى تفسير ما يرى من رؤى وأحلام ، لعلها تكشف له جانباً من الغيب المجهول ...

ويلجأ أحياناً إلى أحاسيسه الباطنية يحاول أن يستشف المجهول ...

وقد يلجأ ـ إذا لم يعصمه دينه وإيمانه ـ إلى العرّافين والعرّافات يحاول أن يستخلص من أفواههم شيئاً عن هذا الغيب ... ولكنه مهما فعل يعلم أنه عاجز عن معرفة الغيب ، وأن كل محاولاته بهذا الأسلوب ظنون وحدس لا تعتمد على علم بل هى خداع محرم جاء الشارع الكريم يتوعد متعاطيه والمصدّق به .

وعلى هذا يجب أن يؤمن الإنسان بقدرة الله الذى يعرف الغيب كله لأنه سبحانه هو العليم بكل ما فى السماوات وما فى الأرض ، وكل ما حدث فى الماضى ، ويحدث فى الحاضر والمستقبل ، ولأنه سبحانه هو منشئ الأحداث ومجريها فى الماضى والحاضر والمستقبل ، فهى معلومة له بكل تفصيلاتها ، حاضرة عنده سبحانه لا تغيب .

ولكن الإنسان قد يتبلد وينسى ...

عندئذ يحركه القرآن من تبلده ، ويذكره من غفلته ، بطريقة تهز الوجدان هزّاً وتجعله لا يستطيع أن يفلت من التأثر :

١) ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾

(سورة الرعد : الآيات ٨ ـ ١١) .

تدبر هذه الآية الأولى فى السياق :

هل تصورت أبعادها ؟!

راجع نفسك جيداً وتأكد من الأمر ..

كلا ! إنك لم تتصور كل أبعادها ، وأغلب الظن أنك لن تستطيع !

هل تصورت ﴿ ما تحمل كل أنثى ﴾ ؟

إن السياق لم يحدد أى الإناث بالذات . فالتعبير يشمل إناث الإنسان ، وإناث الحيوان ، وإناث الطير ، وإناث الأسماك فى البحر ، وإناث الحشرات والهوام ... ومع ذلك فلنفترض أن السياق اقتصر على إناث الإنسان فحسب ... فهل تصورت الأمر ؟

هل تصورت « كم » أنثى من إناث الإنسان على ظهر الأرض ؟!

هل تستطيع أن تحصيهن غداً ؟!

وهب أنك استطعت باستخدام كل الوسائل المتاحة لك أن تحصى كم أُنثى هناك فى كل قارات الأرض ، وسهولها وجبالها ووديانها وغاباتها وكهوفها ومغاراتها وقصورها وبيوتها وأكواخها وخيامها وجزرها النائية ومدنها المعمورة ... فما الذى أحصيته ؟ إنه عدد الإناث الأحياء اليوم فى جيلك هذا الذى تعيش فيه ! فكيف بكل الإناث اللواتى عشن منذ بدء الخليقة حتى ذلك الجيل ؟ وكيف بكل الإناث اللواتى سيعشن من بعد إلى زمن لا يعلمه إلا الله ؟!

هل يقدر على إحصائهن إلا الله ؟!

وهذه مرحلة واحدة من هذا الأمر الهائل الذى تصورت لأول وهلة أنك أحطت بأبعاده !

فلننتقل ـ بخيالنا ـ إلى مرحلة تالية .

﴿ الله يعلم ما تحمل كل أُنثى ﴾ .

هذه « كل أنثى » تحمل فى بطنها جنيناً .. فهل تتبَّعت الأمر بخيالك لتعلم أى شىء هو الذى أحاط به علم الله ؟!

هل تتبَّعت بخيالك « أنواع المعلومات » التى يعلمها الله عن كل جنين من هذه الأجنَّة ؟!

ذكر أمْ أُنثى ؟

ما لونه ؟ أبيض أم أسود أم أحمر أم أصفر ... ؟

ما شكله ؟ ما قسماته ؟ كيف أنفه ؟ كيف فمه ؟ كيف عيناه ؟ ما لون عينيه ؟ ما لون شعره ؟ جميل الطلعة أم غير جميل ؟ ما طوله ؟ ما حجمه ؟

فى أى مرحلة هو من مراحل نموه : نطفة ؟ أم علقة ؟ أم مضغة ؟ أم .. ؟ أم .. ؟

هل انتهت « أنواع المعلومات » عند هذا الحد ؟

كلا ! لم تنته بعد ...

قد يقف خيالك هنا عاجزاً عن تتبُّع هذه المعلومات وإحصائها بالنسبة لكل جنين تحمله كل أُنثى . ومع ذلك فإن علم الله الشامل ، الذى يشملها جميعاً ، لا يتوقف عند هذا الحد .. بل يشمل « معلومات » أُخرى قد لا تلتفت أنت إليها لأول وهلة .

ما اسم هذا الجنين حين يولد ؟ أىْ ما اسم كل جنين تحمله كل أُنثى منذ بدء الخليقة إلى قيام الساعة ؟

ما عمره الذى سيقضيه فى الأرض ؟ هل سيولد حيّاً أم ميتاً ؟ وإن كان حيّاً فكم يعيش ؟

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ (سورة الحج : الآية ٥)

ما درجة ذكائه ؟

ما خصاله التى يحملها ؟ طيّب أم شرير ؟ شُجاع أم جبان ؟ كريم أم بخيل ؟

ما قدره المقدور له فى الأرض ؟ ما الأحداث التى تجرى فى حياته ؟

ثم .. أخيراً .. أشقىّ هو أم سعيد .. أىْ من أصحاب النار أم من أصحاب النعيم[1] ؟

إن هذه « بعض » المعلومات التى يشملها علم الله الشامل بالنسبة لكل جنين تحمله كل أُنثى من بدء الخليقة إلى قيام الساعة ، وغيرها وغيرها كثير لا يحصيه إلا الله ...

فهل تصورت الآن الأمر على حقيقته ؟!

هل تصورت أبعاد هذه الحقيقة التى تذكرها الآية :

﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى ﴾ .. ؟

﴿ وما تغيض[2] الأرحام وما تزداد ﴾ .

يعلم ازديادها بالحمل وغيضها بتفريغ ما تحمل .

وعُدْ بخيالك مرةً أُخرى فتتبَّع كل أُنثى .. وحاول أن تتصوّر ـ مجرد تصوُّر ـ ما يحيط به علم الله الشامل من حملها وولادتها ، وكل مرحلة من مراحل الحمل شهراً

---

(١) عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : حدثّنا رسول الله صلى الله عليه وسلّم وهو الصادق المصدوق : « إن أحدكم يجمع فى بطن أمّه أربعين يوما ثم يكون فى ذلك علقة مثل ذلك ثم يكون فى ذلك مضغة مثل ذلك ثم يرسل الله الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات ، يكتب رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقى أو سعيد ... » رواه مسلم .

(٢) أى تنقص وتنكمش .

بعد شهر حتى تضع حملها ، وتكرار ذلك مع كل أُنثى على حدة ، وتكراره على نطاق الأرض كلها وما تحتويه من إناث !

﴿ وكل شيء عنده بمقدار ﴾ .

مرة أُخرى هل تصورت أبعاد الأمر ؟!

« كل شيء » عنده بمقدار ..

لقد تعب خيالك وكدَّ ليتتبَّع شيئاً واحداً من كل شيء .. هو « ما تحمل كل أُنثى » .. فكيف إذا أراد خيالك أن يتتبع « كل شيء » ؟!

هل تظن أنك تستطيع ؟ أنت والبشر جميعاً في كل الأرض ؟

ومع ذلك فعلم الله الشامل يعلم « كل شيء » .. وليس هذا فحسب ، بل إنه يخلق « كل شيء » كذلك بمقدار .

وسواء كان معنى « المقدار » هنا هو القَدَر الذي يخلق الله به كل شيء ، أو هو « القدْر » المحدد لكل شيء ، فإن الخيال البشري يعجز عن مجرد التصور فضلاً عن الإحاطة فضلاً عن الإحصاء !

﴿ عالم الغيب والشهادة[1] الكبير المتعال ﴾ .

وقد رأيت طرفاً واحداً من علم الله للغيب ، لم يستطع خيالك تتبعه ولا إحصاءه ، فكيف بالغيب كله والشهادة ؟

والناس حين يسرون القول يتصورون في غفلتهم أحياناً أنهم يسرونه على الله ! وحين يستخفون عن أعين الناس بأعمالهم أو سرائرهم يظنون أنهم يستخفون كذلك على الله !

ولكن الله الذي يشمل علمه كل الغيب ، يستوي عنده المُسِر بالقول والجاهر

---

(١) أي الشيء المشهود .

به . والمستخفى والمستعلن على السواء .

أى أن هناك ملائكة تتعقب كل أعماله وتسجلها عليه .

﴿ من أمر الله ﴾ أى بأمر الله .

فأين يغيب شيء واحد من أعمال الإنسان عن علم الله ؟!

٢) ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ (سورة الأنعام : الآية ٥٩) .

٣) ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ (سورة لقمان : الآية ٣٤) .

الدليل العقلى

كما يخاطب القرآن الوجدان البشرى ليوقظه إلى حقيقة الألوهية ، فإنه كذلك يخاطب العقل البشرى ليفكر ويتدبر ، وينظر فى آيات الله فى الكون ، ليعرف دلالتها .

هل يمكن أن يوجد هذا الكون الهائل بغير خالق ؟

هل يمكن أن يدبر شئون هذا الكون الضخم إلا إله قادر عليم حكيم ؟

هل يمكن أن يكون لهذا الإله شريك فى الملك أو شريك فى التدبير ؟

هل آيات القدرة المبثوثة فى تضاعيف الكون تشير بأن هذا الإله يمكن أن يعجز عن أمر من أمور الخلق أو التدبير أو الرزق أو الإحياء أو الإماتة أو البعث أو الجزاء ؟ ..

وتلك كلها أمور سبق للقرآن أن خاطب فيها الوجدان ، ولكن القرآن يخاطب الإنسان كله : وجدانه وعقله . فكما عرض هذه الأمور كلها على الوجدان عرضاً مؤثراً ينتهى باقتناع الوجدان وإدراكه لحقيقة الألوهية ، فكذلك يعرضها على العقل ، يناقشه ، ويوقظه للتفكير المنطقى السليم ، الذى يؤدى فى النهاية إلى الغاية ذاتها ، وهى إدراك حقيقة الألوهية ، ومن ثم وجوب الإيمان بالله الواحد دون شريك .

والآيات التى تخاطب العقل وتدعوه إلى التأمل والتدبر كثيرة فى القرآن نجتزئ بذكر نماذج منها .

(١)

﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ (سورة الذاريات : الآيتان ٢٠ - ٢١) .

ولو تأمل الإنسان بعقله الآيات المبثوثة فى الأرض ، والآيات المبثوثة فى النفس لأصابه العجب والذهول لكل آية من هذه الآيات المعجزة التى تنم كل منها على وجود الخالق سبحانه ، وعلى قدرته المعجزة التى لا تقف عند حد .

فالأرض جرمٌ صغير بالنسبة للأجرام السماوية الضخمة التى يزخر بها هذا الكون . لا تعدو أن تكون كحبّة الرمل بالنسبة للصحراء الواسعة التى لا يأتى البصر على آخرها . ومع ذلك ففيها ـ على ضآلتها ـ من آيات الله المعجزة ما يعجز الخيال عن تتبّعه فضلاً عن إحصائه ، وفيها من الخصائص التى أودعها الله بها ما تذهل له العقول .

فقد هيّأها الله ـ وحدها فيما نعلم حتى اليوم من الأجرام الأُخرى ـ بخاصية الحياة ، وجعل لها من الظروف ما يجعل الحياة عليها ممكنة الوجود والاستمرار . فكتلتها محسوبة بحساب ربانى دقيق يجعل جاذبيتها تحتفظ حولها بغلاف جوى لا يتبدد ، وفى هذا الغلاف يوجد الأُكسجين المطلوب لتنفُّس الكائنات الحيّة ، وبالقدْر المطلوب لتنفُّس هذه الكائنات بلا زيادة فيه ولا نقصان ، لأن الزيادة والنقصان كلتاهما ضارة بهذه الأحياء ! وحرارتها محسوبة بذلك الحساب الربانى الدقيق ، بالصورة التى تحتملها الكائنات الحية ولا تموت من شدّتها ولا من ضعفها ! والأقوات فيها محسوبة بحيث تفى بحاجة تلك الكائنات من الغذاء مع توازن دقيق بين هذه الكائنات وبين أقواتها :

﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴿١٩﴾ ﴾ (سورة الحجر الآية ١٩) . ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ﴾ (سورة فصّلت : الآية ١٠) .

وعلى ذكر التوازن فى الأرض بين الكائنات الحيّة والتوازن فى الأقوات ، فقد ذكرت الأنباء أن الشيوعيين فى الصين سوّلتْ لهم أنفسهم الشرّيرة أن يقتلوا جميع العصافير الموجودة فى الصين بحجّة أنها تأكل عشرة فى المائة من مجموع الغلال التى يزرعونها ! فجنّدُوا فى كلّ القُرى والمُدن فرقاً تتناوب الضرب على الدفوف وقِطَع الصفيح ليل نهار لمدة ثلاثة أيام ، فكلما أرادت العصافير أن تأوى إلى عشوشها لتنام أو تستريح أزعجها الصوت فعادت إلى الطيران ، حتى هلكت جميع العصافير من

الجوع والعطش والتعب وعدم النوم . وفرح الشريرون بأنهم قضوا على تلك المخلوقات الصغيرة اللطيفة ، واطمأنوا إلى أن المحصول سيصل إليهم كاملاً غير منقوص ! ولكن الله كان لهم بالمرصاد ! فإن الحشرات الضارّة التي كانت تلك العصافير تأكلها فتمنع أذاها عن الزرع بحكمة الله وتدبيره ، انتشرت في الأرض بعد موت العصافير فأكلت خمسين في المائة من المحصول ! وهكذا حين أراد البشر الضّالُّون أن يعبثوا بالتوازن الذي أوجده الله في الأرض بحكمته أصابهم الجزاء الرادع من عند الله ، وكانت هذه آية لهم لو كانوا يعتبرون !

وهكذا لو مَضَينا نتتبَّع آيات الله في الأرض : في الكبيرة والصغيرة ، لوجدنا عجائب لا تنتهي .

خُذْ مَثَلاً هذه العجيبة : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة الرعد : الآية ٤) .

فالأرض فيها قطع متجاورات تختلف بنية كل منها عن الأخرى رغم تجاورها . بعضها ينبت الزرع وبعضها لا ينبته وبعضها يصلح لأنواع معيّنة من الزرع دون غيرها .. وتلك وحدها عجيبة .

ثم إن الأرض الواحدة تنبت أنواعاً شتى من الزروع والنخيل والأعناب .. كلها يسقى بماء واحد ولكن بعضها يختلف عن بعض . حتى النوع الواحد كالنخيل تخرج منه النخلة المفردة والنخلة المزدوجة ... وتلك عجيبة أُخرى .

ثم إن هذه الزروع مختلفة الطعوم والمذاقات ، يُفضّل الناس في طعامهم بعضاً منها على بعض .. وتلك عجيبة ثالثة .

ثم إن الطعم الواحد قد يُفَضِّله إنسان ولا يُفَضِّله إنسان آخر حسب ذوقه الخاص

المركَّب فى طبعه .. وتلك عجيبة رابعة .. وصدق الله العظيم :

﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ .

أمّا الآيات فى الأنفُس فإنها أعجب !

فالخليَّة الواحدة الملقّحة التى يتكوّن منها الجنين تشتمل على كل خصائص الجنس البشرى وهى لا تكاد تُرى ! فينمو منها إنسان كامل فيه كل خصائص الإنسان !

ثم إنها تنقسم وتتخصَّص فى أثناء نمو الجنين ، فيصبح جزء منها رأساً ، وجزء آخر يَداً ، وجزء ثالث قَدَماً .. وهكذا .

ثم إنها تحتوى كذلك على جزيئات تحمل الخصائص الوراثية التى يرثها الجنين من الأب والأم أو الأجداد . فقد يحمل الجنين صفة من الأب كلون الشَّعْر مَثَلاً ، وصفة من الأم كلون العينين ، وصفة من أحد الجدود كالطول أو القصر أو شكْل الأنف أو شكْل الأُذن .. بل الأعجب من ذلك وراثة الصِّفات النفْسيّة والعقليّة كالكرَم أو البُخْل ، والشجاعة أو الجُبن ، والذكاء أو الغباء ، والمَيْل إلى العلوم أو المَيْل إلى الآداب !

وهذه الصفات العقلية ذاتها ... ما هى ؟ كيف توجد ، وأين توجد ؟

كيف يُفكِّر العقل ؟

كيف يَتَذكَّر الإنسان ما يَتَذكَّر ؟

إن كل أبحاث العِلْم حتى هذه اللحظة قد عجزت عن أن تقول لنا كيف يُفكِّر العقل وكيف يتذكَّر ! وأين تكون الأفكار وأين تختزن المعلومات وكيف يستدعيها الإنسان حين يريد استدعاءها وكيف تخطر على باله أحياناً بغير استدعاء !

والصفات النفسية كذلك ... ما هى ؟ كيف توجد ، وأين توجد ؟

كيف تتكون فى النفس صفة الكرم أو البُخْل أو الشجاعة أو الجُبن ؟

وفى أى مكان تكمن هذه الصفة فى الإنسان ؟ فى جسمه ؟ أين ؟ فى مخه ؟ أين ؟ هلّ هى شيء معنوى أم مادى ؟ وفى كلا الحالين كيف تؤثر فى تصرفات الإنسان وسلوكه ؟

وأعجب من ذلك : كيف تورث ؟!

ولو مضينا نتتبَّع خصائص الإنسان ، وآيات الله فى الأنفس ، لما انتهينا من العجب لكل خصيصة وكل آية ، ولأدركنا أن هذا كله لا يمكن أن يحدث من تلقاء نفسه بهذه الدقّة المُذهلة . لا بُدَّ له من موجد . ولا بُدَّ أن يكون هذا الموجد حكيماً غاية الحكمة وقادراً إلى حد الإعجاز ، وإلا ما استطاع أن ينشيء هذا الخلق الدقيق المعجز ، الذى تحتوى كل جزيئة منه على عجائب لا يحصرها العقل .

ومن أجل ذلك يقول القرآن بحق : ﴿ وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم . أفلا تبصرون ﴾ ؟!

(٢)

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ ۝٢١ لَوْ كَانَ فِيهِمَا[1] آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٢٢ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ۝٢٣ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ۝٢٤ ﴾ (سورة الأنبياء : الآيات ٢١ ـ ٢٤) .

فى هذه الآيات يخاطب القرآن العقل لكى يتدبر الأمر ويستخلص نتيجة منطقية لما يرى حوله من الآيات ، ويُطالبه أن يأتى بالبرهان على ما يدعى مخالفاً للحق الظاهر .

فالحق الظاهر أن هذا الكون متناسق إلى أبعد ما يتصور العقل من التناسق :

﴿ مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤ ﴾ (سورة الملك : ٣ ـ ٤) .

---

(١) فيهما : أى فى السماوات والأرض .

فدورة الفلك المضبوطة التى لا تختل قيد شعرة فى هذا الكون العريض كله .

ودورة الليل والنهار الناشئة من حركة الأفلاك ، والتى تأتى فى موعدها المضبوط بالدقيقة والثانية وأجزاء الثانية على مدار الفصول وعلى مدار القرون والأجيال ...

وخواص المادة التى أودعها الله فيها لا تخطئ مرة واحدة على مر الزمن ولا تختلف مرة عن مرة . فالحديد هو الحديد والنحاس هو النحاس والأكسجين هو الأكسجين لا يتغير تركيبها ولا خواصها ، ولا يتغير سلوكها إزاء الحرارة والبرودة أو إزاء الضغط أو فى تفاعلاتها الكيماوية مع غيرها من العناصر . لا يحدث مرة واحدة أن يتكوَّن الماء إلا من ذرة من الأكسجين وذرتين من الأيدروجين . ولا يحدث مرة أن يسخن الحديد فلا يتمدد . ولا يحدث مرة أن يُطرق النُّحاس فلا يَنْطرق .

والذرة التى هى أبسط التكوينات التى أمكن للعلم حتى اليوم أن يكشف عنها فى نظامها الدقيق العجيب المكون من نواة (هى البروتون) وأجسام صغيرة غاية فى الدقة (هى الالكترونات) تدور حولها فى نظام دقيق ، متجاذبة معها ومتعادلة فى الشحنة الكهربائية فى وضع يشبه الشمس ومِنْ حولها الكواكب ...

والخلية الحية وسلوكها العجيب فى غذائها وإفرازها ونموها وتكاثرها ...

والكائنات الحية وخصائصها التى تميز كل جنس منها عن الآخر ، وتميز كل نوع من أنواع الجنس عن الآخر ... فللنبات عامة خصائصه ، ولكل نوع من النبات خصائصه . وللحيوان خصائصه ثم لكل نوع من أنواعه خصائصه .

ثم الإنسان أعقد الكائنات الحية وأرفعها ... وكل جزء فى تكوينه عجيبة فى تناسقه وأداء وظيفته ...

هل يمكن مع ذلك كله أن يكون فى السماوات والأرض إلا إله واحد مسيطر مدبر حكيم هو الله سبحانه وتعالى ؟ ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾

أليس كل إله يخلق بمفرده كيف يشاء ؟ فكيف يتطابق الخلق الصادر عن واحد من الآلهة مع الخلق الصادر عن إله غيره ؟ كيف تكون الشجرة التى يخلقها واحد من الآلهة متطابقة تماماً فى كل أحوالها مع الشجرة التى يخلقها إله آخر ؟ كيف يكون الماء الذى يخلقه أحد الآلهة هو نفس الماء الذى يخلقه الإله الآخر من ذرة من الأكسجين وذرتين من الأيدروجين ؟

ثم .. كيف تنتظم دورة الفلك التى ينشئها إلهان مختلفان ، ويشرف على شئونها أكثر من إله ؟

هل يمكن أن تنتظم إذا تعدَّدت الإرادة التى يهيمن عليها والسلطان الذى يسيرها ؟

ألا يحدث أن واحداً من الآلهة يريد للشمس أن تشرق من المشرق وآخر يريدها أن تشرق من المغرب ! فكيف يصير الأمر ؟

ألا يحدث أن واحداً من الآلهة يريد للإنسان أن يستوى على قدميه ويسعى فى الأرض يبتغى الرزق ويعمر الأرض ، وآخر يريد له أن يمشى على أربع كالحيوان ، أو يبقى لاصقاً بالطين على ساق واحدة كالنبات ؟ فكيف يصير الأمر ؟

ألا يحدث أن واحداً من الآلهة يريد للحديد أن يكون صلباً تُصنع منه الأدوات الصلبة التى تعين الإنسان على عمارة الأرض وتعينه على صُنْع السلاح الذى يُقاتل به لإعلاء كلمة الله : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ (سورة الحديد : الآية ٢٥) .

بينما إله آخر يريد أن يكون الحديد طرياً ليناً عديم الشكل ؟ فكيف يصير الأمر ؟

هل ينضبط شىء حينئذ فى الكون كله وهل يستقيم الأمر ؟ أم يصبح الكون فوضى ، تتصادم فيه الأفلاك وتتعارض ، وتتصادم فيه الإرادات المشرفة عليه وتتعارض ويصبح كالعقد المنفرط لا يجمعه نظام ؟

من أجل ذلك يخاطب القرآن العقل فيقول له : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴾ .

ثم يخاطبه مرة أخرى متحدياً بعد هذا البيان : ﴿ أم اتخذوا من دونه آلهة ؟ قل : هاتوا برهانكم ! ﴾ .

نعم ! فليبحث العقل عن برهان ! إن الأمر ليس فوضى ، يقول فيه القائل بهواه ! بل لا بُدَّ لكل قول من برهان . فهاتوا برهانكم ! هل تستطيعون أن تبرهنوا ـ والكون بهذا الاتساق المعجز ـ أن هناك إرادة أُخرى تسيطر على الكون غير إرادة الله ؟

فإن عجز العقل ـ وهو لا محالة عاجز ـ عن البرهان ، فليتدبر أمره وليؤمن بالله الواحد الذى لا شريك له فى الملك ولا فى السلطان .

(٣)

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) ﴾

(سورة المؤمنون : الآية ٩١) .

فى مثل المناقشة العقلية التى ذكرناها فى الفقرة السابقة (رقم ٢) يُجْرِى السياق هُنا مناقشة مع العقل البشرى يقدم لها بمجموعة من الآيات يلفت فيها العقل إلى بعض الحقائق المسلمة التى لا يجادل فيها أحد ، أو ينبغى ألا يجادل فيها :

﴿ قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ (٨٩) بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٩٠) مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) ﴾ (سورة المؤمنون : الآيات ٨٤ ـ ٩١) .

فإذا سلَّم الإنسان ابتداء بأن الأرض ومن فيها من صنع الله وإنشائه وهو مالكها . وإذا سلم بأن السماوات السبع هى لله . هو منشئها وهو ربها ورب العرش العظيم .

وإذا سلم بأن ملكوت كل شيء لله . هو المدبر فيه وحده . وهو الذى يجير بقوته ولا يجار عليه . لأنه صاحب العظمة والسلطان .. بدهيات لا يملك عقل أن ينكرها ، وإلاّ جَابَهَ هذا السؤال الوارد فى سورة الطور : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (سورة الطور : الآية ٣٥) وهو سؤال مُسكت مُلْجم يتحدى كل مُنكِر[1] ...

إذا سلم الإنسان بكل هذا فقد لزمه ـ منطقياً ـ أن يسلم بالنتيجة التى تؤدى إليها هذه المقدمات . وهى أنه إله واحد لا شريك له ولا يمكن أن يكون له شريك . لذلك يكرر السياق التذكير بعد كل مقدمة من المقدمات : « أفلا تذكرون » ؟ « أفلا تتقون » ؟ « فأنّى تسحرون » ؟!

ولكن السياق لا يكتفى بالتذكير المصحوب بالتقريع ، بل يمضى مع العقل البشرى خطوة أخرى فى المناقشة فيعرض أمامه هذه الحقيقة ليتدبرها :

لنفرض جدلاً أنه كان مع الله آلهة أُخرى فكيف يكون الموقف ؟

﴿ إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ﴾ ؟

فى الفقرة السابقة (رقم ٢) فى آية سورة « الأنبياء » كان يعرض أمر الفساد الذى كان لا بُدّ أن يحدث فى السماوات والأرض لو كان فيهما آلهة إلا الله :

﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ .

وما دام هذا الفساد غير حادث ، والكون منضبط فى حركته كما نرى ، فقد انتفى إذاً وجود آلهة غير الله .

وفى هذه الآية من سورة « المؤمنون » يعرض الأمر من الوجهة الأُخرى . وجهة الآلهة ذاتهم ـ لو أنهم أكثر من إله واحد ـ وما كان لا بُدّ أن يحدث بينهم من صراع ونزاع : ﴿ إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ﴾ .

---

(١) سنتحدث عن الآية فى فقرة مستقلة بإذن الله .

فإذا كان كل إله خلق جزءاً من الخلق فهل يعقل أن يتنازل عن خلقه لإله آخر ؟ أم المعقول والبدهى أن يتشبث بخلقه ويستحوذ عليهم ويحاول أن تكون له السيطرة عليهم وحده ؟ وعندئذ ماذا يحدث ؟! يحدث نزاع بين الآلهة المزعومة على السيطرة ! هذا يريد أن يسيطر وهذا يريد أن يسيطر ! كل منهم يريد أن تكون له وحده الكلمة النافذة فى الكون ويكون أمره هو المُطاع ! هذا يصدر أمراً ويطلب تنفيذه ، وذاك يصدر أمراً مضاداً ويطلب تنفيذه . وكل يتشبث بكلمته زاعماً أنه هو الأعلى وهو الأحق بأن تسمع كلمته ويُطاع !

فهل هذه الآلهة ـ المتوهمة ـ تستحق الاحترام وهى هكذا تتعامل مع بعضها البعض ؟!

وهل يستقر حال الكون وهى ـ فى صراعها على السلطة ـ تصدر الأوامر المتباينة للكون ، فيحار الكون لأى أمر يذعن وأى أمر يطيع ؟!

كلا ! ما كان حال الكون ليستقر لو أنها آلهة متعددة تتصارع فيما بينها وتتنازع . وما كان الكون ليبدو متناسق الحركة متناسق الصنعة متناسق التدبير .

والعقل البشرى مكلف أن يفكر ويتدبر ...

فما دام الإنسان قد سلم أو ينبغى أن يسلم ـ بأن الأرض لله ، والسماوات السبع لله ، والملكوت لله ، والتدبير لله ... فماذا بقى إذن من عمل تقوم به تلك الآلهة الأخرى المزعومة ؟

وما دام الكون فى سيره لا يبدو عليه الخلل والاضطراب ، بل يظهر فيه الاتساق الكامل والانضباط ، أفلا يدل ذلك على وحدة السيطرة التى تدبر شئونه وترعاه ؟!

(٤)

﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم

مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٦٤) ﴾

(سورة النمل : الآيات ٥٩ ـ ٦٤) .

هنا فى الحقيقة خطاب للوجدان والعقل فى آن واحد . وقد أسلفنا القول إن القرآن كثيراً ما يقرن خطاب الوجدان مع خطاب العقل فى سياق واحد . ولكنا هنا سنركز تركيزاً أكبر على أدلة العقل وبراهينه ، وفيما مضى من الحديث عن الوجدان فى الفصل السابق ما فيه الكفاية .

يبدأ السياق بسؤال فى الآية الأُولى بعد حمد الله والسلام على عباده الذين اصطفاهم بالنبوّة والرسالة . وهذا السؤال يواجه الإنسان كله ، وعقله بصفة خاصة : ﴿ آلله خير أم ما يشركون ﴾ ؟

والإجابة عن السؤال تقتضى المقارنة ـ إن كان هناك مجال للمقارنة ـ بين الله سبحانه وتعالى وبين الآلهة المزعومة التى يعبدها بعض الناس مع الله أو من دون الله ، ليتبين أيهما خير : الله أم تلك الآلهة المدعاة ؟

والسياق القرآنى يبادر العقل بما يعينه على معرفة الإجابة الصحيحة ، إن كان ـ لسبب من الأسباب ـ يجهلها ! فيقدم له أول المعينات فى صورة سؤال آخر لو اهتدى لإجابته ـ وهى بدهية فى الحقيقة ـ لاهتدى فى ذات الوقت لإجابة السؤال الأول الذى تَصدَّر السياق ، وهو قوله تعالى : ﴿ آلله خير أم ما يشركون ﴾ ؟

تسأل الآية الثانية فى السياق : من الذى خلق السماوات والأرض ؟ ومن الذى أنزل عليكم من السماء ماء فأنبت به حدائق بهيجة المنظر ما كان لكم أن تنبتوا شجرها

لولا ما أنزل الله لكم من السماء من ماء ، ولولا ما أودع فيها هى ذاتها من خاصية النمو حين يتنزل عليها الماء ؟

وقبل أن يجيب الإنسان الذى يوجه له ذلك السؤال ، يبادره السياق بسؤال ثالث يحمل فى طياته فى الحقيقة إجابة السؤال السابق : يقول : ﴿أإله مع الله﴾ ؟!

وهكذا يحاصره السياق حصاراً كاملاً بحيث لا يجد مفرّاً من الإجابة الوحيدة التى يستقيم بها الأمر كله !

﴿أإله مع الله﴾ كلا !

وإذن فالسؤال السابق ليست له إلا إجابة واحدة كذلك : ﴿أم من خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها﴾ ؟ هـو الله !

وإذن فالسؤال الذى صدر به السياق قد تحددت إجابته على وجه التأكيد : ﴿آلله خير أم ما يشركون﴾ ؟ بل الله !

ولقد كان يكفى العقل والوجدان معاً هذه الجولة لتقر النفس بألوهية الله الواحد بلا شريك . ولكن الله العليم الخبير يعلم من أحوال النفس البشرية أنها تحتاج إلى التذكرة مرة ومرة ومرة . ومن ثم يبدأ السياق على نفس النسق جولة ثانية وثالثة ورابعة .. وخامسة .

﴿أم من جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا ، وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا ؟ أإله مع الله ؟ بل أكثرهم لا يعلمون﴾ .

فإذا كانت الجولة الأولى مع خلق السماوات والأرض ومع الماء النازل من السماء إلى الأرض ، ومع الحدائق النابتة من نزول الماء ، فهذه الجولة كلها فى الأرض ، تذكر جعل الأرض مستقرّاً للإنسان يجد فيها رزقه ومعاشه ومتاعه المقدر له إلى حين ،

وتذكر جعل الأنهار خلال هذه الأرض ، وجعل الرواسى لها لتكون سبباً فى استقرارها ، وجعل الماء العذب الذى أعدّه الله لشرب الكائنات الحية محجوزاً عن الماء الملح الذى تعج به البحار والمحيطات ... وكلها من آيات رحمة الله بالإنسان كما أنها من آيات قدرته . فمن غير هذا الإله القادر يستطيع أن « يجعل » كل هذه الأشياء على صورتها التى هى عليها ؟ وعندئذ يجىء التعقيب فى مكانه : أإله مع الله ؟ وإجابته قد تقررت منذ الجولة السابقة ، ولكنه المزيد من التوكيد .

أمّا الجولة الثالثة ففى محيط البشر ، تذكرهم بما يقع لهم ولكنهم ينسونه فى غفلتهم : أَمَّنْ يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف ما به من سوء ؟ ومن يجعلكم خلفاء الأرض جيلاً بعد جيل ، ترثون الأرض بعد آبائكم وتتمكنون فيها وتسخرونها لمعايشكم ؟ أيتمّ ذلك من تلقاء نفسه ؟ وكيف يتمّ إذا لم يخلقكم الله أصلاً من أصلاب آبائكم ؟ وكيف يتم إذا لم يبق الله الأرض لترثوها منهم ؟! ثم يجىء التعقيب المكرر ، ليزيد الأمر توكيداً فى النفس : أإله مَعَ الله ؟ والإجابة هى الإجابة بكل تأكيد .

والجولة الرابعة مع البشر كذلك . ولكنها تذكر نعماً أُخرى من نعم الله على الإنسان : من يهديكم فى ظلمات البر والبحر ؟ فإذا كان ضوء الشمس يهديكم بالنهار ولكنكم تنسون النعمة وتغفلون عنها ، فإنكم أولى أن تتذكروا الهداية فى الليل والظلمة محيطة فى البر وفى البحر . فهنا تتلمسون الهداية فلا تجدونها إلا بعون الله لكم سواء بالنجوم تحدد لكم اتجاهكم ، أو بالقمر يرسل نوره فيكشف جانباً من الظلمة ، أو فيما هداكم الله إلى عمله من المشاعل والمصابيح التى تنير الظلام . ثم نعمة أُخرى يذكر الله بها الإنسان : ومن يرسل الرياح تبشر برحمة الله المتمثلة فى السحاب والمطر ! «« أإله مع الله » ؟ كلا ! « تعالى الله عمّا يشركون » !

وتجىء الجولة الأخيرة كالأُولى تشمل السماوات والأرض وتربط ما بين السماوات

والأرض ، وتزيد عليها ذكر البعث : من الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ أهناك غير الله من تبلغ قدرته أن يخلق من لا شىء ؟ ومن يعيد الخلق حين يشاء ؟ ومن يرسل لكم الرزق من السماء والأرض ؟ ﴿ أإله مع الله ؟ قل : هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ !

وحين يصل السياق إلى غايته يكون الوجدان والعقل قد وصلا كذلك إلى غايتهما من التمثل لهذه الحقيقة الكبرى : حقيقة وحدانية الله بلا شريك . فإذا جاء التحدى الأخير : ﴿ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ فليس له جواب إلا الاقتناع الكامل والتسليم .

(٥)

﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون ﴿٣١﴾ فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون ﴿٣٢﴾ كذلك حقت كلمت ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون ﴿٣٣﴾ قل هل من شركائكم من يبدؤا الخلق ثم يعيده قل الله يبدؤا الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون ﴿٣٤﴾ قل هل من شركائكم من يهدى إلى الحق قل الله يهدى للحق أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدّى[1] إلا أن يهدى فما لكم كيف تحكمون ﴿٣٥﴾ وما يتبع أكثرهم إلا ظنا إن الظن لا يغنى من الحق شيئا إن الله عليم بما يفعلون ﴿٣٦﴾ ﴾ (سورة يونس : الآيات ٣١ ـ ٣٦) .

السياق هنا قريب من السياق السابق فى آيات سورة « النمل » ولكنه يختلف عنه فى أمرين :

الأمر الأول : أنه فى السياق السابق كان يذكر آيات الله فى السماوات والأرض والناس ثم يسأل : أإله مع الله ؟ وتكون الإجابة الضمنية الطبيعية هى : لا ! ليس مع الله إله . ليس لله شريك فى الخلق ولا فى الملك ولا فى التدبير .

أمّا هنا فالسياق يشير إلى الشركاء بالذات ، ويركز عليهم ، يركز عليهم لينفى وجودهم . ولكنه لا ينفيه نفياً مباشراً ، إنما من خلال سؤال مكرر : هل من شركائكم

---

(١) أى لا يهتدى .

ـ المزعومين بطبيعة الحال ـ من يفعل كذا أو كذا مما يفعله الله ؟ فإذا كان الجواب بالنفى ـ ولا بُدَّ أن يكون بداهة كذلك ـ فماذا يفعل الشركاء إذن ؟ وإن لم يكن لهم عمل فما معنى وجودهم ؟ إنهم إذن لا وجود لهم ما داموا لا يعملون شيئاً على الإطلاق !

والأمر الثانى : أنه ينبه العقل الغافل إلى طريق التفكير الصحيح . إنه لا يجوز للعقل ـ الذى خلقه الله للتفكر والتدبر ـ أن يأخذ الأمور بالظن ، دون تمحيص وبرهنة وإثبات . والظن لا يغنى شيئاً عن الحق . فعلى الذين يأخذون القضية بالظن أن يتخلوا عن هذا الطريق الخاطئ ويتبعوا الطريق الصحيح ، طريق الدليل الصحيح والبرهان .

تبدأ الآية الأولى بسؤال حاشد : من يرزقكم من السماء والأرض ؟ من يملك السمع والأبصار ؟ من يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ؟ من يدبر الأمر ؟ وهى لمحات سريعة فى مجالات شتى فى آن واحد ، تحاصر العقل وتحصره فى إجابة واحدة : ﴿ فسيقولون الله ﴾ ! وإذا كان الأمر كذلك أفلا تتقون ، وقد عرفتم الإجابة الصحيحة على السؤال !

﴿ فذٰلكم الله ربكم الحق ، فماذا بعد الحق إلا الضلال . فأنى تصرفون ﴾ ؟

الله الذى عرفتموه ، وعرفتم أنه هو الذى يرزقكم من السماء والأرض ويملك سمعكم وأبصاركم ويخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويدبر الأمر .. هو ربكم الحق . لا ربوبية لغيره ، فكيف تتجهون إلى غيره ؟ كيف تحيدون عن الحق الواضح فتضلون ؟ فإن من تجاوز الحق فليس أمامه سوى الضلال .

﴿كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون﴾ .

لأنهم يصرون على مجاوزة الحق فيقعون فى الضلال .

ثم تجىء المناقشة التى أشرنا إليها : ﴿ قل : هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم

بعبده﴾ ؟ فإذا كان الجواب بالنفى ـ كما لا بُدَّ أن يكون ـ ﴿ قل : الله يبدأ الخلق ، ثم يعيده﴾ . فإذا اتضح هذا الأمر : أن الله يبدأ الخلق ثم يعيده بينما الشركاء المزعومون لا يبدءون خلقاً ولا يعيدون ﴿ فأنى تؤفكون﴾ ؟ أنى تصرفون عن الحق وتتبعون الزور والإفك ؟

ثم مناقشة أخرى : ﴿ قل : هل من شركائكم من يهدى إلى الحق﴾ ؟ والجواب ـ كالمرة السابقة ـ بالنفى . فلم يُؤثَرْ عن أحد من أولئك الشركاء المزعومين أنه أنزل لهداية البشر كتاباً ولا أرسل رسولاً ! فإذا كان الأمر كذلك ﴿ قل : الله يهدى للحق﴾ فيرسل الرسل وينزل الكتب ويدعو الناس إلى ما فيه صلاح الدنيا وصلاح الآخرة ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ (سورة يونس : الآية ٢٥) .

ثم يمد السياق المناقشة خطوة أُخرى : إذا كان الله يهدى للحق ، والشركاء المزعومون لا يهدون إلى الحق .. فمن أحق أن يتبع ويُطاع : ﴿ أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع أمَّنْ لاَ يَهدى إلاَّ أن يُهْدَى﴾ ؟ الله أحق أن يتبع أم أولئك الذين لا يهتدون من ذات أنفسهم ويحتاجون هم أنفسهم إلى من يهديهم . والإشارة هنا إلى الأصنام التى كان العرب يعبدونها فى الجاهلية ، ولكنها فى الحقيقة تنطبق على كل من يتوجه إليه الناس فى كل جاهلية ، ممن لا يملكون لأنفسهم الهدى ، ويتصدون لهداية الناس ! فإلى أى شىء يهدونهم إلا إلى الضلال ؟ ﴿ فما لكم كيف تحكمون﴾ ؟

أين عقولكم التى تفكرون بها وكيف أدت بكم هذه العقول إلى هذا الحكم الفاسد الذى تحكمون به فى القضية ، فتقولون ـ بألسنتكم أو بأفعالكم ـ إن هؤلاء الشركاء أولى بالاتباع من الله وهم لا يملكون الهدى لأنفسهم فضلاً عن هداية الناس ؟

السبب هو أنهم لا يحكّمون عقولهم فى الحقيقة . ولو حكّموها لحكمت بالصواب ، فالأدلة قائمة والبراهين موجودة ، ولكنهم يتبعون الظن فيضلون عن الصواب :

﴿ وما يتبع أكثرهم إلا ظناً . إن الظن لا يغني من الحق شيئاً﴾ .

والله أعلم بهم : ﴿ إن الله عليم بما يفعلون﴾ .

(٦)

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ ؟ (سورة الطور : الآية ٣٥) .

هذه الآية تحمل أكبر تحد للعقل البشرى الضال خلال التاريخ ... وكأنها نزلت للضالين اليوم الذين ينكرون وجود الله ويلجون فى الغى والإلحاد .

إن الذين يلجون فى الغواية إلى هذا الحد لا ينكرون وجود الله فى الحقيقة . فلا يمكن للفطرة ـ مهما ضلّت ـ أن تنكر وجود الله الخالق . ولكنهم ـ لسبب من الأسباب ـ يُكابرون ، ويتظاهرون بالإنكار .

وحتى أولئك الذين يعيشون فى ظل الإلحاد ، فى الدول الشيوعية ، ويُدَرَّس لهم الإلحاد فى المدارس ، ويتربون عليه ، ويلقنونه فى كل حصة من حصص الدراسة .. حتى هؤلاء لا تقر نفوسهم بإنكار وجود الله إلا مجاراة للأوضاع ، وخوفاً من سطوة الدولة الكافرة هُناك .

وإليك مثَالاً يثبت لك هذه الحقيقة .

حين صعد « جاجارين » رائد الفضاء الأول إلى الجو[1] . أخذته روعة الكون وذهل لما رآه .

لقد رأى الكون على صورة أُخرى غير التى نراها ونحن على سطح الأرض مغلفين بالغلاف الجوى .

لم يرَ السماء زرقاء كما نراها نحن . إنما رآها سوداء تماماً . ورأى الكواكب والنجوم فى داخلها لامعة شديدة اللمعان . لقد كان المنظر ـ كما يصفه روّاد الفضاء ـ

---

(١) هو أول رائد فضاء انطلق إلى طبقات الجو العليا فى داخل صاروخ وهو روسى الجنسية

يشبه قطعة من المخمل الأسود ، مرصعة بالجواهر اللامعة .

وفوجئ « جاجارين » بما رآه ...

فوجئ بالتجربة الجديدة والمشهد الجديد ...

والمشهد الجديد كما ذكرنا آنفاً يوقظ الحس من غفلته ، ويوقظ المشاعر من سباتها ، ويجلى الكون جديداً كأنما يواجهه الإنسان لأول مرة ، فيدرك من دلائل إعجازه ماكان غافلاً عنه من قبل ، ويحس بيد الله المبدعة وآثارها فى تضاعيف هذا الكون .

وهذا هو الذى حدث لجاجارين ...

لقد نسى كل إلحاده الذى ربّته المدرسة عليه ... نسى كل الدروس التى لُقِّنَ فيها أنه لا وجود لله .. وأخذ يحملق فى الكون مدهوشاً من صنعة الله ، مبهوراً بما رآه من إعجاز ...

وحين هبط إلى الأرض كان أول تصريح أدلى به للصحفيين الذين استقبلوه :
« حين صعدت إلى الجو أخذتنى روعة الكون فمضيت أبحث عن الله » !

وهكذا تنطق الفطرة حين تواجه الحقيقة !

وهذا على الرغم من كل الإلحاد الذى لُقِّنَ لجاجارين[1] !

كلا ! إن الفطرة لا يمكن أن تنكل أبداً عن الشهادة !

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ﴾
(سورة الأعراف : الآية ١٧٢) .

إنما الذى يحدث أن الإنسان الضال يكابر فى هذه الحقيقة لأنه لا يريد أن يخضع لله . ولو أقر علانية بوجود الله للزمه أن يطيعه وأن يعبده ، وهو ـ لأمر من الأمور ـ

(١) من طريف ما يروى أن الدولة غضبت على جاجارين بسبب هذا التصريح ، وأمرته أن يضيف إليه ما يعيبه فقال : « ... فبحثت عن الله فلم أجده ! ! » ونشرت الصحف تصريحه الثانى بعد الأول بساعات ! !

لا يريد . وبدلاً من أن يبدو مقصراً وناكلاً ـ باعترافه ـ فإنه « يتفلسف » فيدعى أنه لا يؤمن بوجود الله .

وكيف يمكن للفطرة أن تنكل عن الشهادة ، والكون حولها ـ بكل ما فيه ـ يحاصرها ويردها إلى الحقيقة ؟

كيف تواجه الفطرة أمر الخلق ؟

كيف تحل المشكلة إن لم تقر بوجود الله ؟

كيف إذن تم هذا الخلق الذى تدركه الحواس ولا سبيل إلى إنكاره : السماوات والأرض والشمس والقمر والنجوم والكواكب ... وكل ما على الأرض من شيء بما فيه الإنسان نفسه ؟

كيف تم .. ؟ بغير خالق ؟ هكذا من العدم ؟ !

ثم كيف انتظم بعد أن تم ؟

ثم كيف حافظ على نظامه كل تلك الملايين من السنين ، لا يحصيها العقل البشرى . دون أن يحدث فى نظامه خلل أو اضطراب ؟ !

هل يتمّ ذلك كله بغير خالق ؟ !

وهل يتقبل العقل هذا القول ، حتى إن ضل هذا العقل وسار فى الظلمات ؟

يقولون إن « الطبيعة » هى الخالق !

كذبوا ! .. وما الطبيعة ؟ !

يقولون إن الطبيعة تخلق كل شيء ولا حد لقدرتها[1] !

سبحان الله ! أليس هذا هو الله ؟ هو الذى يخلق كل شيء ولا حد لقدرته ؟ !

فلماذا نسمى الله بالطبيعة ؟ أى منطق فى هذه التسمية العجيبة ؟

---

(١) هكذا يقول دارون ، فيقر بالقدرة الإلهية ، ولكنه لا ينسبها إلى الله !

ألا إنه الهوى ، وليس العقل ، وليست « الفلسفة » !

الهوى الذى يمنع الإنسان من الاعتراف بالحق مع أنه ـ فى داخله ـ يعلم أنه الحق ! ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ (سورة النمل : الآية ١٤) .

ولكن القرآن يتحداهم .. يتحداهم منذ أربعة عشر قرناً .. وسيظل يتحداهم حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

﴿ أم خلقوا من غير شىء ؟ أم هم الخالقون ﴾ ؟

أما أنهم الخالقون فأمر لم يزعمه أحد من المضلين !

بقى السؤال الأول بغير جواب : ﴿ أم خلقوا من غير شىء ﴾ ؟

وهو السؤال المُلْجِم المُسكت ، الذى لا يملك أحد من المكابرين أن يرد عليه بالإيجاب .

ولم يبق إلا أمر واحد ، هو أن يكون هناك خالق ، هو الذى خلق الخلق بقدرته . وهو الذى يدبر الأمر وحده بلا شريك ... وذلك هو الأمر الذى لا تملك الفطرة أن تنكره وإن ضلَّت وإن أمعنت فى الضلال ... إنما ينكره المكابرون باللسان ، لكبر فى نفوسهم عن عبادة الله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (سورة غافر : الآية ٥٦) .

ونستعيذ بالله كما أمرنا القرآن . ونؤمن فى الوقت ذاته بأن أولئك الجاحدين لا يجحدون الله فى الحقيقة إنما هم فقط يتظاهرون ... وحتى إن وصلت الغاشية بهم إلى أن تغشى قلوبهم وأرواحهم ، وسمعهم وأبصارهم ، فهم عرضة لأن يتيقظوا لحقيقة الألوهية كما تيقظ لها جاجارين !

أسئلة

١ ـ ما حكم من ادعى علم الغيب ؟

٢ ـ ماذا تفهم من قوله تعالى : ﴿ عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال﴾ ؟

٣ ـ دلل على أن علم الساعة وتنزيل المطر وعلم ما فى الأرحام ومجارى الكسب والآجال عند الله وحده .

٤ ـ ما معنى قوله تعالى ﴿وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ ؟

٥ ـ لو تتبعنا خصائص الإنسان فماذا تدلنا عليه ؟

٦ ـ ما الذى تفهمه من قوله تعالى ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله﴾ الآية ؟

٧ ـ دلل على أن الله هو الرازق والمحيى والمميت .

٨ ـ لماذا حقت كلمة الله على الذين فسقوا ؟

٩ ـ ما رأيك فيمن يقول : إن الطبيعة تخلق كل شيء ؟

تيقظ الإيمان المركوز في الفطرة وقت الشدة

يُعاند الإنسان ويُكابر في وقت الرخاء . بل قد يزيده الرخاء والأمن غفلة وبُعْداً عن الله إن كان من ذوى القلوب المريضة . ولكنه في وقت الشدة لا يستطيع أن يستمر في عناده ومكابرته !

إنه من جهة ينكشف أمام نفسه ، عاجزاً قليل الحيلة محتاجاً إلى العون ، وتزول عنه عنجهيته الفارغة التي يستكبر بها على الله والناس !

ومن جهة أُخرى يتيقظ الإيمان المركوز في فطرته ، والذى تشهد به الفطرة كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا ﴾ (سورة الأعراف : الآية ١٧٢) .

عندئذ ينسى الشركاء المزعومين إن كان يعبد شركاء من دون الله أو مع الله . أو ينسى إلحاده إن كان من الملحدين المنكرين لوجود الله أصلاً ، ويتوجَّه من أعماق قلبه إلى الله الحق ، يدعوه ليكشف ما به من سوء !

والقرآن يواجه الناس بحقيقتهم ليكشفها لهم ، ويكشفهم هم أمام أنفسهم !

بل إنه يواجههم بحقيقة أُخرى ، أشد دلالة على ما في نفوسهم من انحراف .

فيا ليتهم بعد أن عرفوا الله في وقت الشدة ، وانكشف لهم الحق من الباطل ، وأدركوا أن الله وحده هو الموجود الحقيقى ، وهو الذى يملك كشف الضر ، وهو الذى تجب عبادته وحده دون شريك ، والتوجه إليه وحده دون شريك ...

ليتهم بعد أن عرفوا كل ذلك قد استقاموا عليه !

ولكنهم ـ لما في أنفسهم من اعوجاج ومرض ـ ما يكاد ينكشف عنهم الضر الذى دعوا الله من أجله مخلصين له الدين ، حتى يعودوا سيرتهم الأولى كأن لم يحدث

شيء ، وكأنهم لم يمروا بالشدة ، ولم يؤمنوا بالله في أثنائها !

وهذا الذي يواجههم به القرآن لعلهم يراجعون أنفسهم فيتخلون عن انحرافهم ويستقيمون :

١) ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ (سورة يونس : الآية ١٢) .

٢) ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (سورة يونس : الآيتان ٢٢ ـ ٢٣) .

هذه الآيات كلها من سورة يونس ، تصور حالة عامة للإنسان يصيبه الضر فيلتجئ الى الله ، ويدعوه أن يكشف ما حلَّ به من الشدة . والآية تصوره على جميع أوضاعه . فإذا كان الضر الذي أصابه قد ألجأه إلى النوم على جنبه من مرض أو نحوه فإنه يدعو الله على حاله تلك : « دعانا لجنبه » وإن كان قاعداً أو قائماً دعا الله كذلك في قعـوده أو قيامه . أي أنه حيثما كان وضعه في حالة وقوع الضر عليه فإنه يلتجئ إلى الله ضارعاً أن يصرف عنه ما به من سوء . وقد يكون الهمّ الذي حلَّ به همّاً نفسياً لا جسمياً ، وهو في هذه الحالة يدعو الله كذلك . يدعوه في كل وضع من أوضاعه « لجنبه أو قاعداً أو قائماً » لأن الهمّ الذي ركبه يُلازمه في جميع أحواله ، فيلجئه إلى الدعاء في كل حال .

فهل حين يكشف الله عنه الضر يتذكر ؟

هل يتذكر كيف كان في وقت الشدة ضارعاً إلى الله ، موقناً في دخيلة نفسه ألا

﴿ فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه ﴾ !

والتعبير القرآنى بكلمة « مرَّ » يصور تصويراً دقيقاً حالة ذلك الإنسان وقد عوفى من البلاء الذى حلَّ به ، سواء كان جثمانياً أو نفسياً ، فإذا هو منتفش مزهو . « يمر » دون مبالاة ولا اعتبار كأن لم يكن بالأمس القريب يجأر بالشكوى ويجأر بالدعاء ! لقد نسى ! ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾ ! (سورة فصّلت : الآية ٥١) .

أمّا الآيتان الثانيتان من سورة يونس فتصفان حالة خاصة . حالة قوم ركبوا فى سفينة والجوّ رخاء والريح ساكنة ، وهى تجرى بهم جرياً مطمئناً على صفحة الماء . فالقوم فرحون بركوبهم ، مستبشرون برحلتهم مستمتعون بها . وفجأة تهب الريح عاصفة فيتغير كل شىء فى لمحة ! تتغير الملامح والمشاعر والأفكار ! فيحل القلق محل الطمأنينة والانزعاج محل الاستبشار . ويبدو الكرب على الملامح التى كانت وادعة ناعمة من قبل !

فلمن يلجئون عندئذ ؟

إنه لا ملجأ إلا إلى الله !

﴿ دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ﴾ !

لقد تقطعت بهم الأسباب ، وتعلّقت نفوسهم بقدر الله . علموا أنه لا منقذ لهم مما هم فيه من الكرب إلا رحمة الله . فالكرب أكبر من قوّتهم ، وهم عاجزون إزاءه ... والإنسان يطغى ويستكبر وهو يحس بالقوة ، فيعتقد أنه لن ينهزم أمام شىء ! فإذا رأى قوّته تتضاءل وتتضاءل حتى يدركها العجز ، ورأى الكرب يشتد حتى لم تعد له به قوّة .. عندئذ يرى نفسه على حقيقتها ، ويزول عنه الكبر المزيف والطغيان . ويلجأ إلى القوة الحقيقية : قوة الله . موقناً أنها هى وحدها التى تنقذه ، وأن كل ما عداها هباء ...

والتعبير القرآني يظهر هذه الحقيقة بوضوح : « دعوا الله **مخلصين له الدين** » .

ففي تلك اللحظة الحرجة ، لحظة الانقطاع من كل أمل في الخلاص أو العون ، يكون إحساس الإنسان بالذات الإلهية واضحاً مستقرّاً عميقاً في النفس ، كأنما كان هناك ستار يغشي هذه الحقيقة في النفس فانجاب الستار وانكشفت الحقيقة . ويكون التوجه إلى الله مخلصاً كذلك . فالخطر الداهم مفزع ، والملجأ الوحيد هو الله . عندئذ يتشبث الإنسان بالملجأ . صادق الرغبة في الالتجاء . وحين يدعون الله مخلصين له الدين يكونون في لحظتها صادقين في قولتهم : ﴿ لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين﴾ ذلك أنهم في فزعهم يشعرون أن الله قد يرضى عنهم ويخلصهم مما هم فيه من الكرب إذا تابوا إليه من انحرافهم واستقاموا على أمره ، فيلجئهم الفزع إلى نية التوبة وإلى الوعد بالشكران . ولا يكون الشكران إلا بطاعة الله .

ولكن .. كم تبقى تلك المشاعر على إخلاصها ؟!

فقط لحين تنتهي الشدة ويزول الكرب !

﴿ فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق﴾ !!

ما أسوأ هذا الإنسان وما أخسره !

لقد عاد الستار الذي كان يحجب حقيقة الألوهية في نفسه فانسدل كما كان . وران على قلبه ما كان يرين عليه من قبل . ولم تكن تلك الصحوة إلاّ صحوة عارضة أنشأتها الشدة ، فلما زالت الشدة عاد إلى ما كان فيه من غفلة ، واستنام إلى ما كان فيه من بهتان !

﴿ يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم ، متاع الحياة الدنيا﴾ .

نعم ! إنه متاع الحياة الدنيا ، ذلك المتاع الزائل الزائف هو الذي يلهيهم فينسيهم ربهم ، وينسيهم آخرتهم ، فيغرقون في هذا المتاع القريب غافلين عن كل ما عداه .

ولكن بغيهم هذا هو فى الحقيقة على أنفسهم . فماذا بعد ذلك المتاع القصير ، المحدود بسنوات العمر المعدودة ، ولو خلصت سنوات العمر كلها للمتاع ؟!

﴿ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون﴾ .

وعندئذ يذهب ذلك المتاع ، بل تذهب حتى ذكراه ، ولا يتبقى له إلا مصيره البائس الذى يذكّر به فينساه [1] !

* * *

تجد هذا المعنى مكرراً في القرآن فى أكثر من موضع ، وتستطيع أن تراجع بنفسك هذه الآيات .

١) ﴿ قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٣) قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ (٦٤) ﴾ (سورة الأنعام : الآيتان ٦٣ ـ ٦٤) .

٢) ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴾ (سورة الإسراء : الآية ٦٧) .

٣) ﴿ لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ (٤٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٠) ﴾ (سورة فصلت : الآيتان ٤٩ ـ ٥٠) .

(١) حدّثنا الخليل بن عمرو حدّثنا بن سلمة الحرانى عن محمّد بن إسحاق عن حميد الطويل عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم « يؤتى يوم القيامة بأنعم أهل الدنيا من الكفار فيقال اغمسوه فى النار [illegible] ... ما أصابنى نعيم قط ! ويؤتى [illegible]

القرآن يتولى الرد على دعاوى المبطلين

يُبيِّن الله فى كتابه الكريم حقيقة الألوهية للناس كافة . فقد نزل القرآن للبشرية كلها منذ بعثة خاتم النبيين محمد ﷺ إلى أن تقوم الساعة . فلا نبى بعد محمد ﷺ ، ولا كتاب يتنزل من عند الله بعد القرآن .

ولما كانت نقطة البداية بالنسبة للبشر جميعاً هى أن يتعرفوا على إلههم الحق لتستقيم أحوالهم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، فلا يعبدوا غيره ، ولا يتلقوا منهج حياتهم من غيره ، وإنما يعبدونه وحده سبحانه ، وينفذون مشيئته وحده ، فيكون لهم فى الحياة الدنيا نظام ربانى ينظم حياتهم ، ويكون لهم فى الآخرة جزاء الحسنى : جنّات تجرى من تحتها الأنهار

لذلك فإن أهم ما يتولى القرآن بيانه للناس هو حقيقة الألوهية والربوبية .

وقد رأينا فى الفصول الثلاثة السابقة كيف يتولى القرآن تعريف الناس بإلههم ، مرة بإيقاظ وجدانهم لآيات الله فى الكون والحياة ، ومرة بمناقشة عقولهم بالبراهين والأدلة التى تبين الحق ، ومرة بتذكيرهم بما يكون منهم فى أحوال الشدة من اللجوء إلى الله وحده ونبذ كل شريك مع الله أو من دون الله .

ولكن القرآن لا يكتفى بهذا البيان المتعدد الوسائل ، بل يتتبع دعاوى المبطلين واحدة واحدة يرد عليها ويفندها ، حتى لا يبقى عذر لأحد من البشر جميعاً يتعلل به فى الإنحراف عن الإيمان بالله الحق .

ولقد كانت الدعوة الإسلامية تواجه وقت نزول القرآن ألواناً عديدة من الانحرافات تتعلّق بحقيقة الألوهية والربوبية

كانت الوثنية فى الجزيرة العربية تعبد الأصنام وتعتبرها آلهة تُشارك الله فى بعض

صفاته ، كما كان بعضهم يعبدون الجن .

وكان المنحرفون من أهل الكتاب يزعمون لله ولداً : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ﴾ (سورة التوبة : الآية ٣٠) كما كانت العرب في الجاهلية تقول : الملائكة بنات الله !

وكانت الجاهلية العربية تنكر على الله قدرته على البعث وتعد الحديث عنه جنوناً لا يتقبله العقل !

والدهريون ينفون البعث أصلاً ، أو ينفون أن يكون لله دخل بالأمر كله : ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ (سورة الجاثية : الآية ٢٤) .

كما كان هؤلاء جميعاً يقعون في شرك واحد مشترك هو عدم اتباع ما أنزل الله ، والحكم بغير ما أنزل الله .

وتولى القرآن الرد على ذلك كله منذ أربعة عشر قرناً ، ففند تلك الدعاوى الباطلة كلها ، وأبطلها من أساسها ، وبيّن وجه الحق فيها .

واليوم ينظر الإنسان إلى البشرية الضالة في أرجاء كثيرة من الأرض ، فيجد ضلالات اليوم كضلالات الأمس : ﴿ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١١٨) ﴾ (سورة البقرة : الآية ١١٨) .

ويجد أن القرآن قد تولى الرد عليها سلفاً منذ أربعة عشر قرناً ، وما جاءوا في إفكهم بجديد ! ويحس الإنسان وهو يتلو القرآن ويتدبره كأنما يتنزل اللحظة للرد على أولئك الشاردين وردهم إلى دعوة الحق !

﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (سورة ص : الآية ٢٩) .

وفي هذا الفصل نستعرض ردود القرآن على دعاوى المنحرفين . وسنرى أن بعضها قد ورد من قبل في أثناء شرح طريقة القرآن في بيان حقيقة الألوهية وبعضها

لم يرد له ذكر من قبل ، وسنجد فى نهاية الكتاب أنه قد تجمّع لدينا بإذن الله بيان شامل بطريقة القرآن فى مُعالجة الموضوع بتمامه .

١) الشّرْك

كان المشركون يعبدون آلهة شتى فى صور أصنام ، أو يعبدون الملائكة أو يعبدون الجنّ ، ويزعمون أنها تشفع عند الله فيستجيب الله لشفاعتها ! أى أنهم يتوسلون بها إلى الله كما حكى عنهم القرآن : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ (سورة الزمر : الآية ٣) فبيّن القرآن حقيقة الأمر فى هذا الشأن بطريقين :

الطريق الأول : بيان أن الله وحده هو الخالق المدبِّر لهذا الكون ، فلا هو فى حاجة إلى معونة من أحد على الإطلاق فى تدبير الأمر ، ولا هُناك من يقوم أصلاً بالتدخل فى أمر الله ! فما دام لا يوجد أحد يُشارك الله فى الخلق ـ وهو أمر لا يجادل فيه أحد حتى من المشركين ـ فكيف يوجد من يُشاركه فى التدبير ؟ ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ (سورة الأعراف : الآية ٥٤) .

والطريق الثانى : بيان عجز أولئك الشركاء عن أن يملكوا لأنفسهم نفعاً ولا ضرّاً . فكيف ينفعون غيرهم أو يضرونهم ؟! وأحياناً يجتمع الطريقان معاً فى الآية الواحدة أو مجموعة الآيات ، وأحياناً يختص السياق بواحد من الطريقين .

« أ » فمن أمثلة الطريق الأول (وإن كان يحوى إشارة إلى الطريق الآخر) :

١) ﴿ وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ۚ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ۚ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ

مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (٧٢) وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣) ﴾ (سورة النحل : الآيات ٦٥ ـ ٧٣) .

فهنا عرض مستفيض لآيات من آيات الله فى الخلق وفى الرزق معاً فى سياق واحد . فآية فى الماء النازل من السماء بقدرة الله يحيى الأرض بعد موتها وينبت فيها الزرع . وآية فى الأنعام يخرج الله من بطونها لبناً خالصاً سائغاً للشاربين . ومن أين يخرج هذا اللبن ؟ من بين فرث ودم . والفرث هو بقايا الغذاء المهضوم فى الأمعاء . وتحوّل العصارات الهضمية إلى دم ، ومرور هذا الدم على أعضاء الجسم المختلفة يعطى كل واحد منها غذاءه ، ثم قيام كل عضو بوظيفته بعد أن يتلقى غذاءه من الدم ، وقيام الغدد اللبنية فى الضرع بإفراز اللبن ، أو بعبارة أُخرى تحوّل الفرث إلى دم ثم تحوّله إلى لبن : كل ذلك من آيات الله المعجزة فى الخلق[1] ، وهو كذلك من آيات الله فى الرزق الذى مَنَّ به على الإنسان . وآية فى النحل التى تأكل من رحيق الزهور وتخرج منه هذا الغذاء العجيب الذى لا تنحصر فائدته فى خواصه الغذائية فحسب ، بل هو شفاء لكثير من الأمراض . وهى كذلك آية فى الخلق وفى الرزق فى ذات الوقت . وآية فى خلق البشر واختلاف أعمارهم . ثم إشارة إلى وضع كان قائماً يومئذ عند العرب وهو وجود أرقاء بين أيديهم ، يستخدمه القرآن لتقريب القضية إلى أذهان المخاطبين به يومئذ ، فيقول إن الله فضَّل بعضهم على بعض فى الرزق فجعل بعضهم سادة وبعضهم عبيداً ، فهل يَقْبل السادة المفضَّلون أن يشركوا معهم عبيدهم فى السيادة والسلطة فيصبحوا سواءً هُمْ وعبيدهم ؟ فإذا كانوا لا يقبلون ذلك لأنفسهم

(١) لم تكن الأسرار العلمية الخاصه بتحوُّل الفرث إلى دم ثم تحوّله فى الضرع إلى لبن معلومة للبشرية كلها وقت نزول القرآن ، وإنما اكتُشِفَ ذلك كلّه من عهد قريب . وفى ذلك دليلٌ لمن أراد الدليل على أن هذا القرآن من وحى الله ، فما كان لبشر من علم يومئذٍ بهذه الأشياء .

فلماذا يقبلونه بالقياس إلى الله سبحانه وتعالى فيشركون معه عباداً من عباده فيجعلونهم آلهة مع الله ؟ ثم يعود إلى آية أخرى في الخلق والرزق فيشير إلى أن الله جعل لكم من أنفسكم ـ أي من جنسكم ـ أزواجاً وجعل لكم عن طريق الزواج بنين وحفدة ، ورزقكم من كل الطيبات ... أفتكون نتيجة ذلك كله الكفر بدلاً من الشكر ؟ والكفر الذي يمارسونه هو الموضح في الآية الأخيرة : ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقاً من السماوات والأرض شيئاً ولا يستطيعون﴾ .

وتبدو هذه العبادة شيئاً مُنكَراً بعد عرض هذه الآيات كلها على الوجدان والعقل . ويبدو الذين يمارسونها قوماً ناقصي الآدمية ، لأنهم يؤمنون بالباطل على غير أساس ، ويجحدون الحق بغير برهان .

٢) ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (سورة النمل : الآيات ٥٩ ـ ٦٤) .

(وقد سبق شرحه في الفصل السابق) .

٣) ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ ﴾ (سورة الحج الآية ٧٣).

« ب » ومن أمثلة الطريق الثاني :

١) ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ

أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين ﴿١٩٤﴾ ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون ﴿١٩٥﴾ إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ﴿١٩٦﴾ والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون ﴿١٩٧﴾ وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون ﴿١٩٨﴾﴾ (سورة الأعراف الآيات ١٩١ ــ ١٩٨).

بدأت الآية الأولى بسؤال يوضح مفرق الطريق . فالإله الذى ينبغى أن يؤمن به الإنسان ويعبده هو الإله الخالق . فما بال هؤلاء المشركين يشركون آلهة لا تخلق شيئاً وهى ذاتها مخلوقة ، يصنعها الناس بأيديهم ثم يجعلونها آلهة ؟ (والإشارات كلها هنا إلى الأصنام) . هل فى ذلك منطق يقبله العقل أو تقبله فطرة سوية ؟

ثم يستطرد السياق فيشرح حال هذه الأصنام التى يعبدها المشركون ، فهى لا تستطيع نصر أنفسها إذا اعتدى عليها معتد فضلاً عن أن تنصر غيرها ! وهى لا تسمع لو دعاها أحد ، فسواء عليك حدّثتها أم لم تحدّثها فالنتيجة واحدة !

ثم يقرر السياق حقيقة تشمل كل معبود من دون الله : ﴿ إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ﴾ ومع أن الإشارة ما زالت خاصة بالأصنام السابق ذكرها إلا أن هذا الوصف يدخل فيه كل مَنْ يَعْبُد وكل ما يُعْبَد مِنْ دون الله ، سَواء كانوا أشخاصاً من البشر أحياء أو أمواتاً ، أو كانوا من الجِنّ أو الملائكة ، أو كانوا شَجَراً أو حجرا أو شمساً أو نجماً أو كوكباً من الكواكب . كلهم مخلوقات من مخلوقات الله ، ومن ثم فهم عباد لله : ﴿ عباد أمثالكم ﴾ فلا ينبغي التوجه إليهم بالعبادة أو الدعاء .

ويستمر السياق فى وصف تلك الأصنام المشار إليها فى الآيات : هل لها أرجُل أو أيد أو أعيُن أو آذان ، لتمشى أو تبطش أو تبصر أو تسمع ؟ فلأى شىء يا تُرى يعبُدها أولئك العابدون ، وهم يرونها أمام أعينهم بهذا العجز المُزرى ؟!

ثم يَتوجَّه الخطاب إلى الرسول ﷺ أن يتحدّاهم أن يضرّوه بأصنامهم تلك

ـ وقد كانوا يهدِّدون الرسول ﷺ بأن تلك الآلهة المزعومة ستصيبه بالضرر نتيجة مهاجمته إياها ! ـ فيقول الله تعالى له : قُلْ لهم : هلمُّوا كيدوا كيدكم الذى تهدِّدون به ، ولا تتأخروا (لا تنظرونى) وأرونى ماذا تستطيع آلهتكم أن تصنع ! إن الله هو الذى يتولانى وهو يتولى المؤمنين الصالحين ويحميهم ويرعاهم ، أمَّا آلهتكم فلا تستطيع أن تنصركم إن أراد الله بكم ضرّاً ولا تستطيع حتى أن تنصر نفسها . وهى لا تسمع ولا تبصر . فهى لا تستحق العبادة ولا الدعاء .

٢) ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١) الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (٢) وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴾

(سورة الفُرقان : الآيات ١ ـ ٣) .

٣) ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) ﴾

(سورة الأحقاف : الآية ٥) .

٢) ادِّعاء الولد لله

يشترك فى هذه الضلالة اليهود والنصارى ومشركو العرب . وهى ضلالة واحدة وإن اختلفت صورها . فاليهود يقولون : عُزير ابن الله . والنصارى تقول : المسيح ابن الله ، ومشركو العرب كانوا يقولون : الملائكة بنات الله .

والقرآن يَتناول هذه الضلالة فيفنِّدها على نحو يُماثل ما يفنّد به ضلالة الشرك . لأنها شرك فى الحقيقة وإن اتخذت صورة محدَّدة . هى نسبة الولد لله سبحانه وتعالى .

١) ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَىِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٩٥) فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٩٦) وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧) وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨) وَهُوَ الَّذِى أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ

فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون (٩٩) وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون (١٠٠) بديع السماوات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم (١٠١) ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل (١٠٢) لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير (١٠٣) ﴾ (سورة الأنعام : الآيات ٩٥ ـ ١٠٣) .

هذا النصّ الشامل يُناقِش قضية البنوَّة عامّة ، ويدخل فيه كل مَن يدَّعى لله ولداً[١] : ﴿ وخرقوا له بنين وبنات بغير علم ﴾ وهو يبدأ بعرض رائع لآيات الله فى الكون ، يشمل مجالات واسعة من السماوات والأرض والإنسان والنبات ، تملأ الوجدان بحقيقة الألوهية ، وتعرف الناس بربهم الحق ، بحيث تبدو ضلالة المُضلِّين بعدها غير ذات معنى ، وغير ذات موضوع .

تبدأ الآيات بتقرير أن الله هو الذى يفلق الحَبَّ والنَّوى ليخرج منه أنواع الزرع المختلفة . وهو حقيقة يغفل عنها الناس أحياناً فيحسبون أن الزرع ينبت من تلقاء نفسه ، وما عليك إلا أن تبذر البذرة فى الأرض وترويها بالماء ! نعم إنك تصنع ذلك ، ولكن مَنِ الذى يفلق الحبَّة أو النَّواة فى باطن الأرض ليخرج منها النبتة الصغيرة التى تظل تنمو حتى تُثمِر ؟ أليس هو الله الخالق سبحانه ؟ أليس هو الذى أودع فيها خصائص النمو ؟ أوَليس هو الذى يأذن لكل حبَّة بذاتها أن تنمو .. وإلاّ فلا نَماء ولا إنْبات ؟!

والله هو الذى يخرج الحىّ من الميّت (كما ينبت الزرع من الأرض المُجدبة) ويخرج الميِّت من الحىّ (بعد أن تنتهى دَوْرَة الحياة فى الكائن الحىّ فيموت) وكِلاهُما يتمّ بقَدَر من الله .

ويجىء التعقيب بعد ذلك : ﴿ ذلكم الله فأنى تؤفكون ﴾ ؟

---

(١) الولد فى اللغة بمعنى المولود فيشمل البنين والبنات .

ذلك هو الله الحق . الذى ينبت الزرع ويحيى ويميت . وهذه مجالات من مجالات قدرته . فهل من الشركاء من يفعل شيئاً من ذلك ؟ فأنى تصرفون عن الحق وتتعاطون الإفك ؟

وإذاكانت الجولة الأولى فى الحَبِّ والنَّوى ، والحيّ والميّت على الأرض ، فالجولة الثانية فى الأفلاك :

﴿ فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً . ذلك تقدير العزيز العليم﴾ .

إنَّ اللهَ فالق الحَبّ والنَّوى هو كذلك فالق الإصباح ، أى مخرج الصبح من باطن الظلمة ، كما تخرج النبتة المُشرقة من باطن الأرض المظلم[1] . وهو الذى جعل الليل سكناً . فمِنْ حكمته سبحانه أن جعل عامّة الكائنات الحية التى خلقها تنشط للنور فى النهار وتسكن للظلمة فى الليل[2] . وبمناسبة الحديث عن النهار والليل يأتى الحديث عن الشمس والقمر فيقول : ﴿ والشَّمس والقمر حسباناً ﴾ أى أن الله جعل الشمس والقمر حسباناً ، وتحسب بهما الأيّام والشهور والسنين كما أنهما هما ذاتهما لكل منهما دورة محسوبة بالحساب الرّبّانى الدقيق الذى لا يختلّ قيد شعرة ﴿ ذلك تقدير العزيز العليم﴾ ، وبسبب هذا الانضباط الدقيق يحسب بهما الإنسان الوقت ، ويتعلّم الإنسان الدقة من دِقَّة الكون من حوله !

﴿ وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر ﴾ فتعرفوا بها اتجاهكم فى ظلمة الليل حيث لا نور ولا دليل .

﴿ قد فصّلنا الآيات لقوم يعلمون ﴾ وأى إنسان يطلع على هذه الآيات ويعلم دلالتها لا بُدَّ أن يهتدى إلى الله الواحد الذى لا ينبغى له شريك .

---

(١) تأمل روعة الأسلوب القرآنى وبلاغته الأخاذة .

(٢) هناك من خلق الله كائنات تنشط فى الليل وتسكن فى النهار ولكن الإشارة هنا للإنسان خاصة ثم لمعظم الكائنات .

ثم هذه جولة ثالثة فى محيط الإنسان :

﴿ وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة ﴾ من آدم الذى خلقه الله من تراب ، ثم جعل منه زوجه حوّاء .

﴿ فمستقر ومستودع ﴾ إذ جعل الله النسل بعد ذلك يأتى بالتزاوج ، الذى يتمّ فيه التقاء الخليّة المذكّرة المستقرة فى صُلْب الرَّجُل بالخليّة المؤنّثة فى مستودعها بالرحم .

﴿ قد فصَّلنا الآيات لقوم يفقهون ﴾ فالأمر فى حاجة إلى تدبُّر واعٍ يدرك هذه المُعجزة فيدرك عظمة الصانع الحكيم .

وهذه الجولة الأخيرة فى عالم النَّبات :

﴿ وهو الذى أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به نبات كل شىء ﴾ فالنبات كله يحتاج إلى الماء ، ولا يخرج من الأرض بغير ريّ .

ثم يأخذ السياق فى التفصيل بعد الإجْمال :

﴿ فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حبّاً متراكباً ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية . وجنات من أعناب . والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه ﴾ .

فهذا هو النبات كله يخرج أخضر طريّاً فى مبدأ الأمر ثم يأخذ طريقه فى النمو ، فيخرج منه الحب المتراكب (مثل سنابل القمح والشعير وغيرها) ويخرج منه النخل بأنواعه والأعناب والزيتون والرمان ، مختلف الأشكال والألوان والروائح والمذاقات . بل إن كل نوع من هذه الأنواع تجد فى ثماره المتشابه وغير المتشابه ...

وحين يتملى الإنسان بخياله هذه اللوحة الجميلة الممتلئة بأشكال النبات المختلفة ، فإن وجدانه ينفعل بها ، ويحب أن يتأمل فيها ويشبع نظره منها ...

والسياق القرآنى بالفعل يدعوه إلى ذلك !

إنه هنا لا يدعوه إلى الأكل منها ! ففى مكان آخر من السورة يذكر الأكل :

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (١٤١) ﴾
(سورة الأنعام : الآية ١٤١) .

ولكنه هنا فى هذا السياق لا يأمر بالأكل ولا يوجه إليه ، إنما يوجه إلى شىء آخر : ﴿ انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ﴾ .

انظروا إلى هذا الجمال البديع الذى أخرجته يد الصانع المبدع ...

املئوا وجدانكم ومشاعركم بهذا الجمال ، ثم تدبروا ... فماذا تجدون فى هذا المنظر الرائع الأخّاذ ؟

﴿ إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴾ فكل من ينظر ويتدبر يجد الآيات التى تهديه إلى الإيمان .

وهنا ، والوجدان فى قمة تأثره ، يعرض السياق ضلالة المشركين فتبدو ـ بعد هذه الآيات كلها ـ سخفاً لا معنى له وأمراً تشمئز منه النفس ولا تسيغه :

﴿وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم﴾ فهم من خلقه ، ومع ذلك فهؤلاء المشركون يجعلونهم شركاء له !

﴿ وخرقوا له بنين وبنات بغير علم ﴾ اختلقوا بنين وبنات نسبوهم إلى الله بغير علم .. وأى علم هذا الذى ينتج هذه الأضاليل ؟!

﴿ سبحانه وتعالى عمّا يصفون ﴾ .

﴿ بديع السماوات والأرض ﴾ الذى أبدعها على غير مثال .

﴿ أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم ﴾ .

يناقشهم بمنطقهم : كيف يكون له ولد وليست له زوجة ؟ وقد نسوا ـ وهم يلفقون هذه الأبناء والبنات لله ـ نسوا أن يلفقوا له زوجة كذلك لتلد هؤلاء البنين والبنات !

ثم إنه سبحانه وتعالى هو خالق كل شىء ـ وهم يقرون بذلك ـ فأى شىء يدعو الخالق أن يتخذ بنين وبنات ؟ ما حاجته إليهم وهو الذى يقول للشىء كن فيكون ، وهو صانع هذه الآيات المعروضة فى السماوات والأرض ... ﴿ وهو بكل شىء عليم﴾ ؟

ثم يجىء التعقيب الأخير بعد عرض آيات الخلق ، ومناقشة الضالين فى ضلالتهم ، يحسم الأمر كله :

﴿ ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه ، وهو على كل شىء وكيل﴾ .

ذلكم .. الخالق الذى رأيتم آيات خلقه .. هو ربكم الذى لا إله إلا هو ... فاعبدوه وحده مخلصين له الدين ، لا تشركوا به شريكاً من ولد مزعوم أو آلهة مدعاة .. وهو المسيطر المتصرف فى كل شىء : ﴿ وهو على كل شىء وكيل﴾ .

﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾ .

لا تراه الأبصار فى الدنيا ، بينما يرى هو سبحانه كل الأبصار من عليائه ، وهو اللطيف الخبير بخلقه وما يدور فى نفوسهم من أفكار ومشاعر ، سواء منهم المهتدى والممعن فى الضلال .

٢) ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا (٨٨) لقد جئتم شيئا إدا (٨٩) تكاد السموات ينفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا (٩٠) أن دعوا للرحمن ولدا (٩١) وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا (٩٢) إن كل من في السموات والأرض إلا ءاتي الرحمن عبدا (٩٣) لقد أحصىهم وعدهم عدا (٩٤) وكلهم ءاتيه يوم القيمة فردا (٩٥) ﴾

(سورة مريم : الآيات ٨٨ ـ ٩٥) .

٣) إنكار البعث

كان من أشد ضلالات العرب فى الجاهلية إنكارهم على الله أنه يستطيع أن يبعث

الموتى بعد أن ماتوا وتحولوا إلى تراب ! وبلغ بهم الأمر فى التكذيب أنهم كانوا يعجبون من الرسول ﷺ حين يحدثهم بأمر البعث حتى روى القرآن عنهم :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (٧) أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ ﴾ (سورة سبأ : الآيتان ٧ – ٨) .

وكان القرآن يُعالج هذا الأمر بتعريفهم بقدرة الله الخالق ، التى لا تنتهى عند حد ، ولا يعجزها شىء فى السماوات والأرض ، وأن الذى خلق الخلق أول مرة من العدم قادر على أن يعيد خلقه مرة أخرى ، ثم يريهم من آيات الأحياء حولهم ما يلفت نظرهم إلى عملية إخراج الحى من الميت معروضة أمامهم فى كل لحظة . والذى يستطيع أن يخرج الحى من الميت يستطيع حين يشاء أن يبعث الموتى ويردهم إلى الحياة :

١) ﴿ قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١) بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (٤) بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ (٥) أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ (١٠) رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ (١١) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (١٤) أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ (سورة ق :الآيات : ١ – ١٥).

تعرض الآيات مجالات القدرة الإلهية المعْجزة التى تخلق وتحيى الموات ، فيبدو إنكار البعث بعدها تفاهة فى الفكر وسخافة فى العقل ، لا تصدر عن إنسان سَوِىّ التفكير

تبدأ الآية الأُولى بذكر القرآن المنزل من الله على رسوله ﷺ يدعو إلى الهدى . ولكن الكافرين الذين نزل القرآن لهدايتهم عجبوا حين جاءهم المنذر ﷺ يحدثهم

عن البعث فقالوا : ﴿ هذا شيء عجيب ﴾ . وموضع العجب عندهم أنهم لا يتصورون أن الله يقدر على بعثهم بعد أن يصيروا تراباً فيقولون : ﴿ هذا رجع بعيد ﴾ .

ثم تقرر الآيات أن الله العليم سبحانه يعلم كل من يموت منهم فلا يضيع منهم أحد خارج علم الله ، وأن عنده سبحانه كتاباً مسجلاً فيه كل شيء . وذلك رداً على توهمهم أنهم إذا ضاعوا في الأرض وأصبحوا تراباً فقد ضاع كل أثر لهم على الإطلاق ! فهم يحسبون أنه ما دام قد ضاع منهم هم فقد ضاع من الله أيضاً ولم يعد الله قادراً على الإتيان به فضلاً عن بعثه من جديد !

ثم يلفت السياق نظرهم إلى آيات الخلق من فوقهم ومن حولهم . فهذه السماء الضخمة وهذه الأرض الممتدة إلى آخر مدى النظر وما فيها من جبال وزروع ...

ثم يُعَدِّد الآيات الدالّة على قُدرة الله على الإنشاء والإحياء ، فمن الماء النازل تنبت في الأرض جنّات من الفاكهة وزروع تنتج الحبّ والنخيل الباسقات وكلها رزق للعباد . وبالمطر يحيي الله الأرض الموات المجدبة . وبالكيفية ذاتها يحيي الموتى . ويخرجهم من الأرض كما يخرج النبات والزرع . إن عملية الإحياء واحدة في الحالين ، والذي يقدر على الأولى يقدر على الثانية ، ولكن البشر المطموسي البصيرة لا يدركون هذه الحقيقة ، فيسلمون بالأولى ولا يسلمون بالثانية .

ويذكر السياق أنهم ليسوا وحدهم الذين يكذبون بالبعث . فقد كذبت قبلهم جاهليات كثيرة يُعَدِّد منهم السياق قوم نوح وأصحاب الرس وثمود وعاداً وفرعون وإخوان لوط وأصحاب الأيكة (قوم شعيب) وقوم تبع . ثم يقدم النذير للعرب المنكرين : إن هؤلاء الأقوام كلهم كذبوا فدمَّر الله عليهم وحقق فيهم وعيده : وهؤلاء إن أصروا على تكذيبهم فليس لهم عند الله إلا ذات المصير .

ويختم السياق بهذا السؤال الذي يُقرِّر الحقيقة : ﴿ أفعيينا بالخلق الأول ﴾ ؟

لقد خلق الله الكون كله من قبل ، وها هم أولاء يرون الكون متماسكاً أمامهم مما يدل على عظمة الخالق وقدرته ، فعلى أى أساس يشكُّون فى قدرته على البعث ؟!

٢) ﴿ الٓمٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾ ﴾ (سورة الرّعْد: الآيات ١ ـ ٥).

٣) ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (سورة يٓس : الآيات ٧٨ ـ ٨٣).

أسئلة

١ ـ دلل على أن الله تعالى أخذ على عباده العهد والميثاق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً .

٢ ـ ماذا تفهم من قوله تعالى ﴿وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض﴾ ؟

٣ ـ لخص الصفحتين الأوليين من موضوع تولى القرآن الرد على دعاوى المبطلين .

٤ ـ ما حكم الشرك ؟ وهل يملك الشركاء لأنفسهم نفعاً أو ضرّاً ؟

٥ ـ الله سبحانه وتعالى مبرأ عن الصاحبة والولد . فمن يدعى زوراً وبهتاناً أن لله ولداً ؟

٦ ـ ما عقيدتك فى البعث . وما حكم إنكاره ؟ دلل على ما تقول .

تثبيت الإيمان

لا ينتهى دَوْر القرآن مع النفْس البشرية عند بيان العقيدة السليمة ومناقشة الانحرافات التى تقع فيها الجاهلية بشأن حقيقة الألوهية والربوبية ، إنما يخطو خطوة أُخرى ليصل إلى تثبيت تلك العقيدة الصحيحة ، وتركيز الإيمان بالله الواحد المنزه عن الشريك والشبيه .

ووسيلته الكُبرى إلى ذلك هى التذكير : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥ ﴾ (سورة الذاريات : آية ٥٥) .

التذكير الدائم بعظمة الله التى لا تحد ، وآيات قدرته فى الآفاق ، والأنفس حتى يخشع القلب ويستسلم لله .

والتذكير الدائم بأن الله مع الإنسان يراه ويراقبه ويحصى عليه أعماله ، ثم يحاسبه عليها يوم القيامة ، حتى تصبح تقوى الله جزءاً لا يتجزأ من مشاعر القلب ، وركيزة ثابتة فى الضمير

وكذلك يوجه القرآن القلب البشرى إلى ذكر الله دائماً فى حالة السراء والضراء . ففى السراء يذكر الله شاكراً لأنعمه ، وفى الضراء يذكر الله صابراً ومتطلعاً إليه سبحانه ليكشف عنه السوء .

ثم يورد القرآن القصص التى تثبّت الإيمان ، قصص الانبياء وأتباعهم من المؤمنين الذين صبروا على الأذى حتى جاءهم نصر الله ، وقصص الكفّار الذين كذبوا وعاندوا حتى دمّر الله عليهم بكفرهم .

وأخيراً يرسم القرآن صوراً محببة للمؤمنين وصفاتهم ، وما ينتظرهم من الجزاء فى الآخرة مخلدين فى الجنات ، وصوراً كريهة مُنفرة للكافرين وصفاتهم وما ينالهم من العذاب يوم القيامة .

ويظل القرآن يُكرِّر هذه التوجيهات حتى ترسخ فى النفْس ، وحتى يصبح الله حاضراً فى القلب لا يغفل الإنسان عن ذكره ، فتستقيم مشاعره ، ويستقيم سلوكه . ويصبح عبداً ربّانياً مُقرباً إلى الله فى الدنيا والآخرة ، فيرزقه الله الطمأنينة والسعادة فى الدنيا ، ويمنحه فى الآخرة جنته ورضوانه .

وفيما يلى نستعرض نماذج من آيات الكتاب الكريم كما فعلنا فى الفصول السابقة من الكتاب : ـ

١) التذكير بعظمة الله وآيات قدرته فى الآفاق والأنفُس

سبق لنا أن ذكرنا نماذج من الآيات فى الفصول السابقة كلها تتحدّث عن عظمة الله التى لا تحد ، وقدرته التى لا يعجزها شىء فى السماوات ولا فى الأرض . وبيّنّا أن القرآن يستخدم آيات الله فى الكون حين يخاطب الوجدان ، وحين يخاطب العقل . وحين يرد على دعاوى المبطلين سواء فى الشرك أو فى ادعاء الولد أو فى إنكار البعث أو إنكار وجود الله ، إن وُجِدَ فى الأرض مَن ينكر وجود الله !

وقد كانت النماذج السابقة كلها تكفينا لبيان اهتمام القرآن بإبراز هذه الآيات ، لتوضيح العقيدة السليمة وتركيزها فى النفس كذلك .

ولكن كثرة النماذج فى القرآن الكريم تجعلنا لا نكتفى بما سردناه منها من قبل ، على كثرته ، بل نضيف إليه نماذج جديدة ، تستطيع أن تراجعها على ضوء الأمثلة المشروحة فى الكتاب من قبل . ولكن ينبغى أن نعرف أن القرآن لا يعرض هذه الآيات لكى تكون مجرد معلومات تستقر فى ذهن الإنسان وينتهى بها الأمر هناك ، وإنما يريد الله سبحانه وتعالى من التذكير المستمر فى القرآن بآياته فى الأنفس والآفاق أن تؤثر هذه الحقائق فى القلب البشرى تأثيراً دائماً لا ينتهى عند لحظة التأمل العارضة . بل يظل فى القلب ويستقر فيه ، حتى يتحوّل الإيمان بالله إلى حقيقة راكزة فى نفس الإنسان .

تنعكس فى سلوكه الواقعى .

فما قيمة أن أعرف أن الله خلق السماوات والأرض . وأن له آيات معجزة فى كل شىء خلقه ، ثم ينصرف قلبى بعد ذلك عن ذكر الله ، وينصرف عن طاعته فيما أمر به وما نهى عنه ؟!

وما قيمة أن أعرف أن الله سبحانه وتعالى واحد لا شريك له . وأنه خلق الكون بقدرته . وأبدع فيه ما أبدع . ثم لا أسأل نفسى حين أقوم بعمل من الأعمال : هل هذا العمل يرضى الله أم لا يرضيه ؟!

كلا ! لا قيمة إذن لهذه المعرفة !

ولقد كان العرب فى الجاهلية يعرفون أن الله هو الذى خلق السماوات والأرض . وهو الذى خلقهم هُم أنفسهم . والقرآن يسجل عليهم ذلك :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ (سورة لقمان : الآية ٢٥) .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ (سورة الزخرف : الآية ٨٧) .

ولكنهم رغم علمهم بهذا لم يكونوا يعبدون الله حق عبادته . وكانوا يشركون به آلهة أُخرى ، ويخالفون عن أمره فيما أمر به وما نهى عنه . ولذلك لم تنفعهم معرفتهم شيئاً . وسماهم الله جاهلين . وقال عنهم إنهم لا يعلمون .

إنَّما يُريد الله سبحانه وتعالى من عباده أن يعرفوا عظمته وجلاله ليعبدوه حق عبادته ويطيعوه فى سلوكهم الواقعى . ولذلك يظل يذكرهم بآياته فى السماء والأرض وفى أنفسهم حتى تخشع قلوبهم ، ويستقر فيها الإيمان ، ويتحوّل إلى عمل فى واقع الأرض .

« أ » آيات الخلق والإبداع فى السماوات والأرض :

١) ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ

وأعناب وفجرنا فيها من العيون (٣٤) ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون (٣٥) سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون (٣٦) وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون (٣٧) والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم (٣٨) والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم (٣٩) لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون (٤٠) ﴾

(سورة يس: الآيات ٣٣ ـ ٤٠).

٢) ﴿ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون (١٩) وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين (٢٠) وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم (٢١) وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين (٢٢) ﴾

(سورة الحجر: الآيات ١٩ ـ ٢٢).

٣) ﴿ ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا (١٥) وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا (١٦) والله أنبتكم من الأرض نباتا (١٧) ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا (١٨) والله جعل لكم الأرض بساطا (١٩) لتسلكوا منها سبلا فجاجا (٢٠) ﴾ (سورة نوح: الآيات ١٥ ـ ٢٠).

٤) ﴿ ألم نجعل الأرض مهادا (٦) والجبال أوتادا (٧) وخلقناكم أزواجا (٨) وجعلنا نومكم سباتا (٩) وجعلنا الليل لباسا (١٠) وجعلنا النهار معاشا (١١) وبنينا فوقكم سبعا شدادا (١٢) وجعلنا سراجا وهاجا (١٣) وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا (١٤) لنخرج به حبا ونباتا (١٥) وجنات ألفافا (١٦) ﴾

(سورة النبأ: الآيات ٦ ـ ١٦).

٥) ﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه (٢٤) أنا صببنا الماء صبا (٢٥) ثم شققنا الأرض شقا (٢٦) فأنبتنا فيها حبا (٢٧) وعنبا وقضبا (٢٨) وزيتونا ونخلا (٢٩) وحدائق غلبا (٣٠) وفاكهة وأبا (٣١) متاعا لكم ولأنعامكم (٣٢)

(سورة عبس: الآيات ٢٤ ـ ٣٢).

٦) ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت (١٧) وإلى السماء كيف رفعت (١٨) وإلى الجبال كيف نصبت (١٩) وإلى الأرض كيف سطحت (٢٠) ﴾ (سورة: الغاشية: الآيات ١٧ ـ ٢٠).

«ب» آيات القدرة المعجزة في الأنفُس:

١) ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ (سورة النحل: الآية ٧٨).

٢) ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ ﴾

(سورة الفُرقان: الآية ٥٤).

٣) ﴿ ذَٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (سورة السجدة: الآيات ٦ـ٩).

٤) ﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ (سورة ص: الآيات ٦٧ـ٧٢).

٥) ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ ﴾

(سورة الزُمَر: الآية ٦).

٦) ﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة الطارق: الآيات ٥ـ٧).

«ج» في نعم الله على العباد:

١) ﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ⑤ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ⑥ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ⑦ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ⑧ ﴾ (النحل: الآيات ٥ـ٨).

٢) ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ⑰ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ⑱ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ⑲ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ⑳ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ㉑ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ㉒ ﴾
(سورة المؤمنون: الآيات ١٧ـ٢٢).

٣) ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ⑩ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ⑪ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ⑫ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ⑬ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ⑭ ﴾ (سورة الزخرف: ١٠ـ١٤).

٤) ﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ⑫ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ⑬ ﴾

(سورة الجاثية: الآيات ١٢ـ١٣).

٥) ﴿ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ⑩ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ⑪ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ⑫ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (سورة الرحمن: »لآيات ١٠ـ١٣).

٦) ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ⑮ ﴾

(سورة الملك: الآية ١٥)

«د» في تدبير الكون بغير شريك:

١) ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ (سورة هود: الآية ٦).

٢) ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ۝٤٣ يُقَلِّبُ اللَّهُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ (سورة النور: الآيتان ٤٣ ـ ٤٤).

٣) ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝١١ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٢ يُولِجُ الَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي الَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾ (سورة فاطر: الآيات ١١ ـ ١٣).

٤) ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ(١) سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ۝١١ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾.

(سورة فُصِّلَت: الآيات ٩ ـ ١٢).

٥) ﴿ يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ الرحمن: الآية الرحمن: ٢٩).

٦) ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ المجادلة: الآية المجادلة: ٢١).

---

(١) هذه الأيام الأربعة يدخل فيها اليومان السابقان اللذان خلق الله فيهما الأرض، فتكون بالإضافة إلى اليومين المذكورين في الآية التالية؛ الخاصين بخلق السماوات ستة أيام في مجموعها.

«هـ» في تأييد الرسل بالمعجزات :

١) ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ (سورة طه : الآيات ١٧ ـ ٢٤).

٢) ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ﴾ المائدة : الآية ١١٠).

٣) ﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾ ﴾ مريم : الآيات ٧ ـ ٩).

٤) ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ الأنبياء : الآيات ٦٨ ـ ٧٠).

٥) ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ سبأ : الآيتان ١٠ ـ ١١).

٦) ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾ سبأ : الآيتان ١٢ ـ ١٣).

٢) التذكير بمراقبة الله للإنسان

١) ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾ (سورة يونس الآية ٦١).

٢) ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ﴾ (سورة طه : الآية ٧).

٣) ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ ﴾ (سورة لقمان: الآية ١٦).

٤) ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾ (سورة سبأ : الآيات ٢ ـ ٥).

٥) ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾ (سورة المجادلة : الآية ٧).

٦) ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ (سورة الأعلى : الآية ٧).

٣) توجيه القلب البشرى إلى ذكر الله

١) ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ (سورة البقرة : الآية ١٨٦).

٢) ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾

(سورة الأعراف: الآية ٥٥).

٣) ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة الرعد: الآية ٢٨).

٤) ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ ﴾

(سورة النور: الآيات ٣٦-٣٨).

٥) ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ (سورة الزمر: الآية ٢٣).

٦) ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (سورة غافر: الآية ٦٠).

٤) قصص الأنبياء

يرد هذا القصص فى كثير من سور القرآن وخاصة في سورة الأعراف وسورة يونس وسورة هود وسورة مريم وسورة طه وسورة الأنبياء وسورة الشعراء وسورة النمل وسورة القَصَص. ويمكنك مُراجعة هذه السور في المصحف، وستجد قراءتها سهلة ميسّرة. وستجد خاصة في «الأعراف» و«هود» و«الشعراء» أن القرآن يلفت نظرنا إلى أمور معيّنة في حياة هؤلاء الأنبياء:

أولاً : أنهم كلهم جاءوا بكلمة واحدة هي «لا إله إلا الله» «اعبدوا الله ما لكم من إله غيره» وهذا يُبيّـن لنا أن أهم شيء يرسل الله الرُسُل من أجله هو

تعريف البشر بربهم وخالقهم، ليعرفوا أنه إله واحد وليعبدوه، ولا يشركوا به شيئًا.

ثانيًا : أنهم كلهم قد لقوا التكذيب من قومهم، وتعرّضوا للاضطهاد والايذاء والتهديد بالقتل أو الطرد، ولكنهم لم يتنازلوا عن رسالتهم، ولم يتخلوا عن دعوتهم وهذا يُبيِّـن لنا أن العقيدة هي أغلى شيء في حياة الإنسان. وأنه مهمـا أوذي في سبيل عقيدته فلا ينبغي له أن يفرِّط فيها أو يتساهل في أمرها.

ثالثًا : أنهم حين تعرضوا للتكذيب والاضطهاد لجأوا إلى ربهم، يشكون إليه ما فعله قومهم بهم، ويستغيثون بـه أن يفرِّج كربتهم وينجيهم وَمَنْ مَعَهُم مِنَ المؤمنين، ولكنهم صبروا على الأذى ولم يغيروا موقفهم. وهذا يُعلِّمنا أن المؤمن في موقف الشدَّة يلجأ إلى الله، ويتوجَّه إليه بالدعاء لكي يخلصه من شدته، ولكنه يثبت ويصبر حتى يأتي نصر الله، ولا يضعف ولا ينهار.

رابعًا : أن الله كان دائماً ينصر رُسُله والذين آمنوا في نهاية الأمر، بعد أن يصبروا على الشدائد ويحافظوا على عقيدتهم ولا يتخلوا عنها أبدًا. وهذا يُعلِّمنا ألاّ نقنط من رحمة الله أبدًا مهما اشتد بنا الضيق، ونتطلع إلى الله دائماً أن يرفع عنا الكرب ما دمنا محافظين على صلتنا بالله، مستقيمين على أمره، مهتدين بهداه.

خامسًا : وفي القصص عبرة أُخرى كذلك هي أن أهل الباطل مهما بدا في وقت من الأوقات أنهم متمكنون في الأرض ومسيطرون فإن الله يملي لهم ولكنه لا يفلتهم من عقـابه في الدنيا ولا في الآخرة. كمـا يقول الرسول صلى الله عليه وسلّـم: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» رواه البخاري عن أبي موسى رضي الله عنه.

وإليك بعض النماذج من القصص القرآني:

١) ﴿ لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم (٥٩) قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين (٦٠) قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين (٦١) أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون (٦٢) أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون (٦٣) فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوما عمين (٦٤) ﴾ (سورة الأعراف: الآيات ٥٩ ـ ٦٤).

٢) ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب (٦١) قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب (٦٢) قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله إن عصيته فما تزيدونني غير تخسير (٦٣) ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب (٦٤) فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب (٦٥) فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ إن ربك هو القوي العزيز (٦٦) وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين (٦٧) كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعدا لثمود (٦٨) ﴾

(سورة هود: الآيات ٦١ ـ ٦٨).

٣) ﴿ ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب (٩) قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السماوات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين (١٠) قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون (١١) وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون (١٢) وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين (١٣) ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد (١٤) ﴾

(سورة إبراهيم: الآيات ٩ ـ ١٤).

٤) ﴿ واتل عليهم نبأ إبراهيم (٦٩) إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون (٧٠) قالوا نعبد أصناما فنظل لها
عاكفين (٧١) قال هل يسمعونكم إذ تدعون (٧٢) أو ينفعونكم أو يضرون (٧٣) قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون (٧٤)
قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون (٧٥) أنتم وآباؤكم الأقدمون (٧٦) فإنهم عدو لي إلا رب العالمين (٧٧) الذي خلقني
فهو يهدين (٧٨) والذي هو يطعمني ويسقين (٧٩) وإذا مرضت فهو يشفين (٨٠) والذي يميتني ثم يحيين (٨١)
والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين (٨٢) رب هب لي حكما وألحقني بالصالحين (٨٣) واجعل لي لسان صدق
في الآخرين (٨٤) واجعلني من ورثة جنة النعيم (٨٥) واغفر لأبي إنه كان من الضالين (٨٦) ولا تخزني يوم يبعثون (٨٧)
يوم لا ينفع مال ولا بنون (٨٨) إلا من أتى الله بقلب سليم (٨٩) وأزلفت الجنة للمتقين (٩٠) وبرزت الجحيم للغاوين (٩١)
وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون (٩٢) من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون (٩٣) فكبكبوا فيها هم والغاوون (٩٤)
وجنود إبليس أجمعون (٩٥) قالوا وهم فيها يختصمون (٩٦) تالله إن كنا لفي ضلال مبين (٩٧) إذ نسويكم برب العالمين (٩٨) وما
أضلنا إلا المجرمون (٩٩) فما لنا من شافعين (١٠٠) ولا صديق حميم (١٠١) فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين (١٠٢)
إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين (١٠٣) وإن ربك لهو العزيز الرحيم (١٠٤) ﴾

(سورة الشعراء : الآيات ٦٩ ـ ١٠٤).

٥) ﴿ وعادا وثمودا وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا
مستبصرين (٣٨) وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين (٣٩)
فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا
وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون (٤٠) ﴾ **العنكبوت : الآيات ٣٨ ـ ٤٠).**

٦) ﴿ واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا
إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم (٢١) قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين (٢٢)
قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكني أراكم قوما تجهلون (٢٣) فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم
قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم (٢٤) تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم
كذلك نجزي القوم المجرمين (٢٥) ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة
فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾

(سورة الأحقاف : الآيات ٢١ ـ ٢٦).

٥) صور المؤمنين والكافرين

يرسم القرآن صوراً وضيئة وجميلة للمؤمنين يعرض فيها خصالهم وأحوالهم ، وأثر الإيمان فى قلوبهم وسلوكهم ، تجعلنا نحبهم ونحب أن نكون منهم ، لتنطبق علينا تلك الأوصاف الجميلة ، ولنحظى برضاء الله فى الدنيا والآخرة .

كما يرسم القرآن فى ذات الوقت صوراً منفرة للكافرين وخصالهم وأحوالهم ، وأثر بُعْدهم عن الإيمان فى قلوبهم وسلوكهم تجعلنا ننفر منهم ونكره أن نكون مثلهم ، حتى لا نتعرَّض لمقت الله وغضبه فى الدنيا والآخرة .

وهذه الصور والأوصاف كثيرة فى القرآن ، لأن فيها دروساً تربوية يربينا بها الله سبحانه وتعالى حتى تستقيم فطرتنا ويستقيم سلوكنا وتصلح أحوالنا .

وإليك بعض النماذج منها :

١) ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة الرعد : الآيات ١٩ ـ ٢٤) .

تبدأ الآيات بمقارنة بين المؤمنين والكافرين يتبيَّن منها لأوَّل وهلة أنهم مفترقون بعضهم عن بعض فى صفاتهم ومقومات حياتهم وفكرهم . والقرآن يصف المؤمنين بأنهم هم الذين يعلمون أن ما أنزل إلى الرسول ﷺ من ربه هو الحق ، بينما يصف الآخرين بأنهم عمى . ثم يسأل هذا السؤال الإنكارى (أى الذى جوابه دائماً : لا) : ﴿ أفمن يعلم أن ما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ﴾ ؟ والجواب لا بُدَّ أن يكون لا ! فمن يقول إن الأعمى كالبصير ، وإن من يعلم كمن لا يعلم ؟!

والتعبير القرآني الجميل يوحي إلينا بأن من يعلم أن القرآن والوحي حق هو المبصر ، الذي يسير في الطريق على نور ، ولا يتخبّط في سيره لأنه يرى ما حوله . بينما الذي يشك في الوحي ولا يتبعه هو الأعمى الذي يتخبط في الطريق لأنه لا يراه . وهذه حقيقة . فإن المؤمن يعرف ـ من وحي إيمانه ـ ما هي غايته في الحياة ، وما الطريق الذي ينبغي أن يسلكه ليصل إلى غايته . فغايته هي إرضاء الله سبحانه وتعالى والتقرب إليه ، ووسيلته هي الأعمال الصالحة . هي الطاعة لأوامر الله . بينما الكافر لا يعرف لماذا يعيش ، إلا لإرضاء ملذاته القريبة . غافلاً عن النهاية التي تنتظره في آخر الطريق .

ثم يجيء التعقيب في نهاية الآية : ﴿ إنما يتذكّر أولو الألباب﴾ فالذين لهم عقول هم الذين يتذكّرون ، وغيرهم لا يتذكّر ولا يعتبر . والتعبير القرآني يوحي إلينا مرة أخرى أن الكافر ليس من أولي الألباب ، أي ليس له عقل . ذلك لأنه لا يفكّر بهذا العقل الذي وهبه له الله ليفكر ويتدبر . ويعرف عن طريق تدبره حقيقة الألوهية والربوبية .

﴿ إنما يتذكّر أولو الألباب الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق﴾ .

وأولو الألباب هم الذين وصفتهم الآية بأنهم هم الذين يعلمون أن ما أنزل على الرسول ﷺ هو الحق . ولكن الآية الثانية تبيّن لنا حقيقة عظيمة ينبغي لنا أن نتدبرها .

هل المطلوب من الإنسان هو أن « يعلم » مجرد علم بأن القرآن حق ؟ فقط ؟! وهل يكفي هذا عند الله ؟

إن الآية الثانية وما بعدها تبيّن لنا أثر هذا العلم في حياة الإنسان وسلوكه وتفكيره وشعوره . فهؤلاء الذين علموا أن القرآن حق يصفهم الله سبحانه وتعالى بأنهم﴿ يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق﴾ .

إذن فليس المطلوب هو مجرّد « العلم » ! بل إن هذا العلم ينبغي أن يُحْدِثَ آثاره

فى حياة الإنسان ، وإلاّ أصبح بلا معنى ، وأصبح وجوده وعدمه سواء .

إن الصفة الكبرى التى يتصف بها أولئك العالمون بأن القرآن حق هى أنهم يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق . ولا تحدد الآية عهداً معيناً ولا ميثاقاً معيناً ، إنما تشمل كل عهد وكل ميثاق مع الله . والعهد الأكبر هو الذى أودعه الله فى الفطرة وأشهد الفطرة عليه ، وهو عبادة الله الواحد بلا شريك :

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ (سورة الأعراف : الآية ١٧٢) .

وكذلك العهد الذى تذكره سورة يٓس :

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ (سورة يٓس : الآيتان ٦٠ ـ ٦١) .

ولا تنتهى صفة المؤمنين بأنهم هم الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ، بل يستمر السياق فيصفهم بأوصاف جميلة أخرى :

﴿والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب﴾ .

﴿يصلون ما أمر الله به أن يوصل﴾ أى : يصلون كل ما أمر الله به أن يوصل ، لأن « ما » تفيد العموم . والتعبير بإطلاقه هكذا دون تحديد يشمل كل شىء أمر الله بوصله . وفى مقدمة كل شىء صلة الإنسان بربه بطبيعة الحال ، فهذه أول صلة أمر الله بها أن توصل : صلة العبادة الحقة لله . ويأتى بعدها صلات الإنسان بوالديه ، وصلاته بذوى قرباه ، وصلاته بالمسلمين جميعاً يحب لهم الخير ، ويحب لهم كما يحب لنفسه . وهكذا يشمل هذا التعبير الموجز كثيراً من تصرفات الإنسان .

ومع القيام بهذه الصلات التى أمر الله بوصلها فهم يخشون ربهم ، وهذه الخشية تجعلهم يتصرفون فى أُمورهم بما يرضى الله ، فيتعاملون بالصدق والأمانة والإخلاص ، خشية أن يغضب الله عليهم . وكذلك يخافون سوء الحساب ، فيتجنبون الأعمال

والأقوال التى تعرضهم للحساب الشديد .

﴿ والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم ﴾ .

فهم يصبرون على الشدائد لأنهم يبتغون وجه الله ، ويتطلعون إليه بالرجاء ، ولكنهم صابرون ، لأنهم يعلمون أن ما أصابهم هو قدر من الله ، فيرضون به تقرباً لله وتحبباً إليه ليرضى عنهم .

﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ وإقامة الصلاة تقتضى توفية كل أركانها ، وأدائها بالوقار والخشوع اللازم لها .

﴿ وأنفقوا مما رزقناهم سرّاً وعلانية ﴾ فهم لا يبخلون بأموالهم ، وكذلك لا ينفقونها رياء وإنما ينفقونها لوجه الله فى السرّ والعلانية .

﴿ ويدرؤن بالحسنة السيئة ﴾ يتلقون السيئة ويردون عليها بالحسنة نُبلاً منهم وترفُّعاً ، وتقرباً إلى الله ، لا ضعفاً ولا استخذاءً . وإنما كما يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ (سورة آل عمران : الآية ١٣٤) .

وهكذا رأينا أن أولى الألباب ، الذين يعلمون أن القرآن حق ، يتصفون بكل هذه الصفات النبيلة الرائعة . تصرُّفاتهم نظيفة . مَشاعِرهم نظيفة . كل سلوكهم جميل . لماذا ؟ لأنهم عرفوا الحق . وهذه هى المعرفة التى يريدها الله من عباده . فحين يعرفون حقيقة الألوهية ينعكس ذلك على سلوكهم فيصبح على هذه الصورة الرفيعة المحبوبة التى يحبها الله ويحبها الناس .

وما جزاؤهم على ذلك كله !

﴿ أولئك لهم عقبى الدار ﴾ لهم العاقبة الحسنة فى الدار الآخرة :

﴿ جنّات عدن يدخلونها ﴾ ويا لها من جائزة جميلة على السلوك الجميل !

ولكن الله يتفضل عليهم بأكثر من ذلك !

﴿ جنّات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ﴾ .

فهم لا يدخلون وحدهم ، ولكن يدخل معهم الأشخاص الذين يحبونهم من آباء وأزواج وذرية . فيا لها من مُتعة : مُتعة الصحبة فى جنّات النعيم ، جزاء الاستقامة على أمر الله .

وهل ينتهى الأمر عند ذلك ؟ كلاّ ! إن فضل الله يشملهم بأكثر من ذلك !

أرأيت حين تكون ضيفاً عند أحد الناس ، فيدخل من باب الحجرة فيحيِّيك . أليس ذلك يسرُّ قلبك ويشعرك بالحفاوة والتكريم ؟ وإذا درر الدخول عليك بالتحيّة ؟ ألا يسرُّك ذلك أكثر ؟ وإذا كان أهل البيت كلهم يجيئون إليك ويظهرون حفاوتهم بك فكيف يكون شعورك ؟ ألا تحسّ بالسعادة والرِّضى والارتياح ؟

إن الله يحتفى بك فى الجنّة ، فيرسل ملائكته يحيُّونك !

﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ﴾ .

يدخلون عليهم بالتحيّة والحفاوة والتكريم ، يقولون :

﴿ سلام عليكم بما صبرتم ، فنعم عُقْبى الدّار ﴾ !

ألا يروقك هذا النعيم ! ألا تحبّ أن تكون واحداً من هؤلاء الذين يكرمهم الله هذا التكريم ؟

بلى ولا شك !

والآن قارن حال الفريق الآخر ، الذى رفض الهدى وأصرّ على أن يكون أعمى لا يبصر . إنه يمثِّل الصورة المُقابلة تماماً فى كل شىء !

﴿ والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يُوصل ، ويفسدون فى الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴾ !

فمن أيّ الفريقين تحب أن تكون ، بعد أن رأيت مصير هؤلاء ومصير هؤلاء ؟!

٢) ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ ﴾ (الفرقان : الآيات ٦٣ ـ ٧٦) .

٣) ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾

(سورة الذاريات : الآيات ١٥ ـ ١٩) .

* * *

بهذه الوسائل كلها يصل القرآن إلى تثبيت الإيمان فى القلب البشرى .

فحين يحسّ الإنسان بوجود الله معه فى كل لحظة ...

حين يحس بآيات القدرة فى كل شىء فى الكون من حوله ، وفى ذات نفسه ...

حين يحس أن ماضى البشرية كله كان يهيمن عليه قدر الله وتدبيره ... وأن الحاضر كذلك والمستقبل ..

حين يحس أن الدنيا كلها ملك لله ، والآخرة كذلك ..

حين يحس أن أعماله كلها محسوبة عليه ، وسيحاسب عليها ..

حين يرى صور الرسل الكرام وصبرهم وتضحياتهم ..

حين يرى صور المؤمنين كريمة نظيفة جذابة ، وصور الكافرين قبيحة منفرة ...

حينئذ يمتلئ قلبه بخشية الله وتقواه ، وبالتطلع فى ذات الوقت إلى حبّه ورضاه ..

وذلك هو الإيمان الصادق الذى يحبّه الله ، ويقرب به عبده إليه ، فيصبح واحداً من أولياء الله ، الذين يقول الله عنهم فى كتابه الكريم :

﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ (سورة يونس : الآية ٦٢) .

تحكيم شريعة الله

مرَّ بنا فى الفصل السابق ونحن نتحدَّث عن صور المؤمنين والكافرين أن معرفة الحق المنزل من عند الله لا بُدَّ أن يكون لها مقتضىً واقعىٌ فى حياة البشر . فهى ليست معرفة تختزن فى الذهن ، إنما ينبغى أن تتحول إلى سلوك واقعى .

وأول مجال لتطبيق هذه الحقيقة ، وأبرز صورة لها ، هى تحكيم شريعة الله ، والتقيُّد فى أُمور الحياة كلها بمنهج الله .

إن شهادة « لا إله إلا الله » هى أول ما نطق به المُسلم ، وهى مع تكملتها « محمّد رسول الله » إعلان الدخول فى الإسلام .

فما معنى هذه الشهادة ، وما مقتضاها ؟

معناها أن الشخص الذى ينطق بالشهادة قد أقر بالعبودية لله وحده ، فقد أقر بأنه لا يوجد إله إلا الله ، أى لا يوجد معبود إلا الله . فمن شأن الإله أن يُعبَد وما دام لا يوجد إلا إله واحد هو الله سبحانه وتعالى ، فليس هناك إذن من تنبغى له العبادة إلا الله ، ولا يجوز التوجه بالعبادة لسواه .

فما معنى العبودية لله ؟

تُرى إذا نحن نَطقنا بالشهادة بألسنتنا وحدها ولم نقر بها فى قلوبنا نكون قد عبدنا الله ؟ !

وإذا نحن نطقنا بها بألسنتنا ثم أعلنا ـ بأقوالنا وأفعالنا ـ أن أوامر الله ليست ملزمة لنا ، وأن من حقنا أن نخالفها كلها ، أو نتخير منها أشياء ننفذها وأشياء أُخرى لا نلتزم بتنفيذها .. هل نكون قد عبدنا الله ؟ هل تكون قلوبنا قد أقرَّت بالفعل بالعبودية لله وحده ؟

كلا ! فالإقرار معناه الالتزام ! وإلا فهى كلمة تُقال باللسان ، ولا رصيد لها من الواقع !

وقد أنزل الله شريعة معيَّنة تحتوى أحكام الحلال والحرام ، وأمر بتنفيذ هذه الشريعة فى واقع الأرض . فإذا جاء إنسان يقول بلسانه « لا إله إلا الله ، محمّد رسول الله » ثم يرفض أن يتحاكم إلى شريعة الله ، ويضع لنفسه حلالاً غير ما أحل الله ، وحراماً غير ما حرم الله ، فما قيمة الكلمة التى يقولها بلسانه ؟ هل هى كلمة صادقة ؟ وهل تنفعه عند الله ؟

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ (سورة آل عمران : الآية ١٩) .

والإسلام كما قلنا فى أول الكتاب هو إسلام الوجه لله ، أى التوجه الكامل إلى الله ، والخضوع الكامل لأوامر الله .

التوجه الكامل لله فى الاعتقاد ، فلا يعتقد أن هناك من يخلق أو يرزق أو يضر أو ينفع أويحيى أو يميت إلا الله .

والتوجه الكامل لله فى شعائر التعبد ، فلا يُصلِّى إلا لله ، ولا يصوم إلا لله ، ولا يُزكّى إلا لله ، ولا يحجّ إلا لله .

والتوجه الكامل لله فى الدعاء ، فلا يدعو إلا لله .

والتوجه الكامل لله فى أُصول الحكم ، فلا يحكم إلا بما أنزل الله .

والتوجه الكامل لله فى الأخلاق والسلوك ، فلا يتخذ قِيَماً أخلاقية ولا قواعد سلوكية إلا ما أمر به الله .

هذا هو الإسلام الحقيقى ، وهذا هو المدلول الحقيقى لشهادة أَنْ لَا إله إلا الله

• • •

والمجتمع المُسلم هو المجتمع الذى يلتزم بهذا الأمر . فتكون أحكامه ، وتكون

أفكاره ومعتقداته وأخلاقه وسلوكه جميعها مُسْتَمدَّة من كتاب الله وسُنَّة رسوله .

وحين يتمّ ذلك يكون الله هو المعبود حقاً فى ذلك المجتمع .

إنه لا يكفى أن نعبد الله داخل المسجد ، بإقامة الشعائر التعبّدية هُناك ، إذا كنا نخرج من المسجد فتكون لنا وجهة أُخرى غير الله ، ومصدر آخر نتلقى منه أفكارنا ومعتقداتنا وسلوكنا وأحكام حلالنا وحرامنا غير الله .

ما قيمة تلك الشعائر التعبدية التى أقمناها إذن داخل المسجد .

إن القيام بالعبادة داخل المسجد يجب أن يكون معناه الحقيقى أننا أقررنا وشهدنا بالعبودية لله وحده ، فجئنا نؤدى فرائض العبادة التى أمرنا بها الله . فإذا كُنَّا بمجرد خروجنا من المسجد نتجه إلى مصدر آخر غير الله ، نستمد منه أحكامنا وشرائعنا ومنهج حياتنا ، فمعنى هذا أننا اتخذنا إلهين اثنين فى الحقيقة لا إلهاً واحداً ! فالإله الأول هو الذى عبدناه داخل المسجد بشعائر التعبد من صلاة ودعاء ، والإله الثانى هو الذى عبدناه خارج المسجد ، وتلقينا منه أحكام الحلال والحرام ، وتنظيمات المجتمع وعلاقات الأفراد ! والله يقول لنا محذراً فى كتابه العزيز :

﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ (سورة النحل : الآية ٥١)

فهل نكون قد عبدنا الله الواحد ـ الذى أقررنا بوحدانيته بألسنتنا ـ إذا خصصناه بجزء واحد من العبادة ثم أخرجنا بقية العبادة عن اختصاصه سبحانه وتعالى ، أم نكون فى الحقيقة قد أشركنا به إلهاً آخر ، وكذبنا فى شهادتنا التى شهدناها بألسنتنا ، لأننا نفضناها فى واقع حياتنا . .

وهل يتقبَّل الله مِنَّا ذلك ؟

هل يتقبَّل مِنَّا أن نذهب لعبادته داخل المسجد ، ولو تنسكنا هناك وذرفنا الدموع من شدة التأثر ، ثم نوليه ظهورنا أول ما نخرج من المسجد ، ونتجه إلى سواه ، نستمد

منه منهج الحياة ؟

فلننظر ماذا يقول الله لنا فى هذا الأمر الخطير :

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾

(سورة النساء : الآية ٦٥) .

فيقرر الله بكلام واضح حاسم أن الإيمان ليس زعماً باللسان ، وإنما محك الصدق فى هذا الزعم هو التحاكم إلى شريعة الله .

ولنتدبر الآيات الخاصة بهذا الشأن منْ أولها :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ (١) وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ (سوره النساء : الآية ٦٠ ــ ٦٥) .

بدأت الآيات بذكر قوم يزعمون أنهم آمنوا بالله وآمنوا بالقرآن ، ثم هم يريدون أن يتحاكموا لغير شريعة الله ، ثم انتهت بتقرير ربانى حاسم أنهم لا يؤمنون حتى يتحاكموا إلى شريعة الله ، ويسلموا فى داخل أنفسهم أنها هى الشريعة التى يجب التحاكم إليها ، وإلاّ فهم على وضعهم الحاضر غير مؤمنين .

والقرآن واضح جداً فى تقرير هذه الحقيقة .

خُذْ مثلاً هذه الآيات من سورة النُّور :

﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾

(١) كل حكم غير حكم الله فهو طاغوت . ولفظ الطاغوت يُطلَق فى القرآن على كل شىء يتبعه الناس ويعبدونه غير الله . فالأصنام طواغيت . وحكم غير الله طاغوت .

﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ (سورة النُّور : الآيات ٤٧ ـ ٥٢) .

فهؤلاء قوم يقولون آمنا بالله وبالرسول . أى يقولون : نشهد أن لا إله إلا الله ونشهد أن محمّداً رسول الله ! ويزيدون على ذلك فيقولون : أطعنا ! فيزعمون الطاعة كذلك !

﴿ ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك ، وما أولئك بالمؤمنين ﴾ .

فما هو التولى الذى حدث من هذا الفريق فنفى عنه صفة الإيمان وقال الله عنه : ﴿ وما أولئك بالمؤمنين ﴾ ؟

هذا هو الذى تبينه الآية التالية :

﴿ وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون ﴾ .

فهذا الفريق الذى ينفى الله عنه الإيمان هو الذى يُدْعى لتحكيم شريعة الله فيعرض عنها . وسواء كان إعراضاً قلبياً ، أو إعراضاً ظاهراً ، فكلاهُما ينفى الإيمان ويلغى حقيقة الشهادة التى ينطقون بها بأفواههم . لأن الله يقرر فى آية سورة النساء التى سبقت الإشارة إليها أن التسليم القلبى شرط للإيمان :

﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾ .

ثم يمضى السياق يُبيِّن حال أولئك المنافقين : أنهم إذا أعجبهم حكم الله فى أمر من الأمور ، أو رأوه يحقِّق مصلحة لهم يأتون إليه مذعنين ، ويُندِّد القرآن بهم على هذا السلوك المعوج ، الذى يتحاكمون فيه إلى شريعة الله مرة ويعرضون عنها مرة حسب الأهواء والمصالح بعد أن ثبّت عليهم وصف عدم الإيمان .

أمَّا المؤمنون فحالهم مختلف ، وآية إيمانهم أنهم يتحاكمون إلى شريعة الله .

﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون﴾ .

وتقرر الآية الأخيرة أن هؤلاء الذين يتحاكمون إلى شريعة الله ، ويطيعون الله ويخشونه هم الفائزون حقاً .

من ذلك يتبيَّن لنا بوضوح أن المحك الحقيقى للإيمان هو التحاكم إلى شريعة الله . وأن الناس إن قالوا بألسنتهم : لا إله إلا الله ، محمّد رسول الله ، وإن أدوا جزءاً من العبادة المفروضة ثم رفضوا الالتزام ببقيتها فما هم بمؤمنين .

ويتبيَّن لنا كذلك أن العبودية لله وحده ـ وهى مفهوم الإقرار بالشهادة ـ لا تتحقَّق فى عالم الواقع حتى يُعْبَدَ الله عبادة شاملة ، تشمل أُصول الاعتقاد ، وشعائر التعبُّد ، والتحاكم إلى شريعة الله ، وتطبيق منهج الله فى كل مجال من مجالات الحياة . وأن التحليل والتحريم بغير ما أنزل الله لون من الشّرك لا يختلف عن شرْك العبادة بحالٍ من الأحوال . يقول القرآن عن المشركين :

﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ﴾

(سورة النحل : الآية ٣٥) .

والسياق يُنَدِّد بهم لأنهم يَدَّعون أن هذا الشرْك الذى يُمارسونه هو بأمر الله ومشيئته مع أن الله أرسل إليهم الرُّسُل ينهونهم عن الشرْك . ولكن المهمّ فى الآية أن المشركين يحددون شرْكهم فى أمرين :

﴿ ما عبدنا من دونه من شيء﴾ ﴿ ولا حرمنا من دونه من شيء﴾

فالتحليل والتحريم بغير إذن من الله كعبادة الأصنام والأوثان سواء بسواء .

• • •

والإسلام ليس مجرد عقيدة وجدانية منعزلة عن واقع الحياة .

وليس هناك دين منزل من عند الله هو عقيدة فقط بغير شريعة تحكم الحياة . إنما البشر هُمُ الذين يَصْنعون ذلك من عند أنفسهم فيشركون ! ولنرجع إلى القرآن لنرى حقيقة هذا الأمر :

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤) وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٥) وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٤٦) وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤٧) ﴾ (سورة المائدة : الآيات ٤٤ ـ ٤٧) .

فالتوراة التي أُنزلت إلى اليهود فيها عقيدة وشريعة . والإنجيل الذى أُنزل على النصارى فيه عقيدة وشريعة . وكذلك القرآن :

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨) وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (٤٩) أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٠) ﴾

(سورة المائدة : الآيات ٤٨ ـ ٥٠) .

حقيقتان تقررهما هذه الآيات :

الأولى : أن كل دين منزل من عند الله هو عقيدة وشريعة فى ذات الوقت . عقيدة تحكم الوجدان ، وشريعة تحكم واقع الحياة .

والثانية : أن كل حكم غير حكم الله فهو جاهلية . وأنه لا يوجد إلا نوعان اثنان

من الحكم : حكم الله وحكم الجاهلية . فالمؤمنون هم الذين يتبعون حكم الله ، أما الذين يتحاكمون لغير ما أنزل الله ، أى يتبعون حكم الجاهلية فما أولئك بالمؤمنين .

* * *

وإذا كانت تلك هى حقيقة الدين الربّانى فإن البشر من عند أنفسهم هم الذين فَصَلوا العقيدة عن الشريعة ، وجعلوا الدين عقيدة فقط ، وقالوا إن الدين صِلَة بين العبد والرب مكانها القلب ، ولا علاقة لها بواقع الحياة ! إنما واقع الحياة تحكمه شرائع يضعها البشر لأنفسهم . وبذلك خرجوا من دين الله وأصبحوا فى الجاهلية ! وهذا ما وقع للنصارى فى أوربا بصفة خاصة إذ فَصَلوا العقيدة عن الشريعة وفَصَلوا الدين عن الدولة ، ووقعوا فى هذا الفصام النكد الذى يقسم الحياة قسمين : قسماً من اختصاص الله سبحانه وتعالى يُمَارَس فى داخل الكنيسة ، وقسماً لا علاقة له بالله يُمَارَس فى واقع الحياة .

وامتد بهم الفصام النكد ففَصَلوا بين الدِّين والعِلْم ، وبين الدِّين والسياسة ، وبين الدِّين والاقتصاد ، وبين الدِّين وعلاقات المجتمع ... بل فَصَلوا بين الدِّين والأخلاق !

وماذا كانت النتيجة ؟

كانت النتيجة هى الحيرة والقلق والاضطراب الذى يحكم حياتهم ، وحالات الجنون والانتحار والأمراض النفْسيَّة والعصبيَّة المتزايدة . لأن النفْس البشرية الواحدة يحكمها إلهان مختلفان أو آلهة متعددة : إله فى داخل الكنيسة ، وإله أوآلهة متعددة فى السياسة والاقتصاد والاجتماع والعِلْم والفِكْر والأخلاق . والله يمثل لهذه الحالة فى القرآن فيقول :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ

﴿ ... أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (سورة الزُّمَر : الآية ٢٩) .

والمَثَل مضروب لتقريب حقيقة الأُلوهية للعرب المُخاطَبين بهذا القرآن أوّل مرة ، وقد كان عندهم نظام الرق . فيقول لهم : هذا عبد يملكه شركاء متشاكسون كل منهم يأمره بأمر يختلف عن صاحبه ويجذبه إلى ناحيته ، فهل تكون حاله فى هدوء وسكينة وسلام مثل العبد الذى يملكه رَجُل واحد فيوجه إليه أوامر واحدة فى اتجاه واحد ؟ طبعاً لا يستوون !

وهذا نفسه هو حال الجاهلية المعاصرة حين تعبد إلهاً فى المعبد ، وآلهة أُخرى متشاكسة خارج المعبد ، فلا تعرف السلام ولا الهدوء ولا الطمأنينة إنما يحكم حياتها القلق والاضطراب .

* * *

ولقد كان المسلمون بمنجاة من هذا كله وهم يعبدون إلهاً واحداً لا شريك له . يعبدونه فى المسجد وخارج المسجد . يتوجهون إليه باعتقاد صحيح فى وحدانيته ، ويتوجهون إليه بشعائر التعبد ، ويتوجهون إليه فى شئون حياتهم المختلفة فيتحاكمون إلى شريعته وينفذونها فى واقع الحياة .

وكانوا بذلك كما وصفهم الله فى كتابه : ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ (سورة آل عمران : ١١٠) .

ولكن المسلمين ظلوا يبعدون عن حقيقة دينهم فَهْماً وسلوكاً حتى أصابهم الضعف فتمكن منهم أعداؤهم .

وحين تمكَّنوا منهم فقد أرادوا أن يقضوا على عنصر القوَّة فى كيانهم لكى لا يعودوا إلى النهوض مرةً أُخرى . وكان أوّل ما اتجهوا إليه فى البلاد الإسلامية التى حكموها هو تنحية شريعة الله عن الحكم ووضع القوانين الوضعية بدلاً منها .

ثم ظلوا يعملون ، ومعهم أدواتهم من العُمَلاء الذين تأثروا بهم ، على حصر الإسلام رويداً رويداً فى دائرة الاعتقاد الوجدانى والشعائر التعبدية ، لا صِلَة له بالسياسة ولا الاقتصاد ولا علاقات الأفراد فى المجتمع ولا القيم الخلقية ولا السلوك الواقعى ...

ونرى أثر ذلك واضحاً فى البلاد التى لا تحكم بشريعة الله ، وتروح تستورد المبادئ والنُّظُم من الشرق والغرب ، فتكون النتيجة هى التبعية للشرق والغرب ، وزوال العزة التى كانت لهم يوم أن كانوا مؤمنين : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (سورة المنافقون : الآية ٨) ، وتكون النتيجة هى شيوع أمراض الجاهلية فى المجتمع الإسلامى ، من تحلل خلقى وفكرى ، وقلق وحيرة واضطراب ، وقبل ذلك كله غضب الله وسخطه على الذين خالفوا عن أمره وخرجوا عن طاعته : ﴿ ومَن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ .

ودين الله واضح لا لبس فيه :

﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ (سورة يوسف : الآية ٤٠) .

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ (سورة الشورى : الآية ٢١) .

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾ (سورة الأحزاب : الآية ٣٦) .

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴾

(سورة الأنعام : الآيتان ١٦٢ ـ ١٦٣) .

فلنعبد الله مخلصين له الدين ، ولتكن آية إخلاصنا تحكيم شريعة الله ، لكى نكون حقّاً مسلمين .

الإيمان بأسماء الله وصفاته

﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾

(سورة الأعراف : الآية ١٨٠) .

﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۖ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة الحشر : الآيات ٢٢ ـ ٢٤) .

قلنا فى الفصول الأولى من الكتاب إن القرآن يُعَرِّف البشر بالله سبحانه ، لكى يعبدوه حق عبادته ، ويتوجهوا إليه وحده فى كل أُمورهم بغير شريك . فإنك لا تستطيع أن تقوم بالعبادة الحقيقية ولا التوجّه الحقيقى إذا كنت لا تعرف مَنِ الذى تعبده وتتوجّه إليه ، أى إذا لم تعرف صفاته التى يتصف بها ، حتى تكون عبادتك عن معرفة وعلم .

والله يصف نفسه فى كتابه الكريم بالصفات التى يريد مِنّا سبحانه وتعالى أن نعرفه ونصفه بها . فليس لنا أن نبتدع من عندنا صفات لله غير التى وصف بها نفسه أو وصفه بها رسوله الكريم ﷺ ، فإن هذا لا يليق بجلال الله وعظمته ، ولا بالأدب الواجب من العباد نحو ربهم وخالقهم .

وحين يقرأ الإنسان القرآن بحسٍّ مُتفتّح ، ويتدبّر آياته ، فإن قلبه يمتلئ بالخشوع لله ، والخشية منه سبحانه . والتطلع إليه فى ذات الوقت بالحب والرجاء ...

مَنِ الذى يقرأ قوله تعالى :

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (سورة الحشر : الآية ٢١) .

أو قوله تعالى :

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ (سورة الزُّمَر . الآية ٢٣) .

أو قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٨) ﴾ (سورة الزُّمَر : الآية ١٧ ـ ١٨) .

مَنِ الذى يَقرأ هذه الآيات وأمثالها دون أن يمتلئ وجدانه بحبٍّ الله والخشوع له ، والرغبة فى التقرُّب إليه ، والعمل على رضاه ؟ وإذ يحسّ بهذه المشاعر فإن القرآن يُيَسِّر له التقرُّب إلى مولاه بأن يعرفه بأسمائه وصفاته وأفعاله .

فحين يعلم أن الله رحيم ، وأنه يقول : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) ﴾ (سورة الزُّمَر : الآية ٥٣) .

ويقول : ﴿ فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٦٠) ﴾ (سورة البقرة : الآية ١٦٠)

ألا يجعله ذلك يتطلَّع لرحمة الله ، ويطمع فى أن يغفر له الله ذنوبه حين يخلص إليه ويتوب !

وحين يعلم أن الله هو الرزّاق ذو القوَّة المتين : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨) ﴾ (سورة الذاريات : الآية ٥٨) . وأنه هو الذى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر : ﴿ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥) ﴾ (سورة البقرة : الآية ٢٤٥) .

ألا يجعله ذلك يتطلَّع إلى الله ليبسط له فى الرزق ، ويغدق عليه من نعمه ، وهو المنعم الوهّاب ؟

وحين يعلم أن الله هو الواحد القهّار :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ ﴾ (سورة ص : الآية ٦٥) .

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿١٥﴾ ﴾ (سورة الرعد : الآية ١٥) .

ألا يمتلئ قلبه رهبة من الله ، الذى يقهر بسلطانه كل شىء ، والذى تستجيب السماوات والأرض لقهره ، فلا تملك أن تخرج على طاعته ، والذى لا يتم فى الكون كله إلا ما يشاء ؟

وحين يعلم أن الله هو علاّم الغيوب ، الذى لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض :

﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ ﴾ (سورة سبأ : الآية ٣) . ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾ (سورة سبأ : الآية ٢) . ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ﴾ (سورة طه : الآية ٧) .

ألا يتحرّز وهو يهم بأى عمل من الأعمال ، لأنه يعلم أن الله يراه ويراقبه ، بل إنه يعلم حتى خلجات شعوره التى لا يحدّث بها أحداً من البشر ، وأنه لا يمكن أن يتخفى عن الله فى عمل أو ذِكْر أو شعور ؟!

وحين يعلم أن الله هو المهيمن على السماوات والأرض ، لا يحدُث فيها شىء إلا بإذنه ، وهو وحده الذى يدبر الأمر ، ولا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم :

﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾ (سورة البقرة : الآية ٢٥٥) .

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾ (سورة النجم : الآية ٤٣) .

ألا يجعله ذلك يتوجه إلى الله وحده ، فهو العلى العظيم الذى لا يساويه أحد ولا يعلو عليه أحد ، ولا يتوجه إلى أحد سواه فى السراء ولا فى الضراء ، فلا أحد غيره يكشف السوء ، ولا أحد غيره يزيد السرور ؟

وهكذا .. وهكذا .. كلما علم صفة من الصفات ازداد معرفة بالله ، وازداد طاعة وتقرّباً إلى الله .

مِنْ أجل هذا يُكرِّر القرآن أسماء الله الحسنى ، ويأمرنا أن ندعوه بها ، ويعرفنا بها رسوله ﷺ فيقول : « إن لله تعالى تسعة وتسعين اسماً ، مائة إلا واحداً ، مَنْ أحْصاها دخل الجنَّة » رواه الشيخان . والمقصود بالإحصاء ليس مجرّد ذكرها باللسان والقلب غافل عن معناها ، بل المقصود أن يمتلئْ القلب بها ويتدبرها فينعكس أثر ذلك فى السلوك

° ° °

نتبين من ذلك إذن أن أسماء الله وصفاته وأفعاله الواردة فى القرآن ، هى مثل آيات قدرة الله فى الخلق وفى الرزق ، وفى الإحياء والإماتة ، وفى إجراء الأحداث وفى علم الغيب ... المقصود بها التعريف بالله ، لتزداد معرفة العباد بربهم ، ويعبدوه على بصيرة ، ويبعدوا عنِ الشرْك والضلال .

نعم ! إن ضلالة البشرية الكبرى هى الشرْك[1] .

والله سبحانه وتعالى ، وهو الواحد الأحد :

﴿ قل : هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴾ .

يحب لعباده أن يهتدوا إلى حقيقته ، ولا يشركوا به ، ويحب أن يعاونهم على معرفة هذه الحقيقة ، وييسرها لهم ، لأنه بعباده رءوف رحيم . وكما يعرفهم بآيات قدرته فى

(١) إذا كانت هناك فى العصر الحاضر ضلالة أكبر هى الإلحاد وإنكار وجود الله أصلاً فهذه كما قلنا ضلالة مُفْتَعَلة وغير حقيقية . والفطرة ـ حتى فى ضلالها ـ تأباها ، كما مَرّ بنا من حديث رائد الفضاء الروسى جاجارين .

السماوات والأرض فإنه فى ذات الوقت يعرفهم بأسمائه وصفاته وأفعاله ، ولا انفصال بين هذه وتلك .

فهو حين يعرفهم بآياته فى الخلق ، يعرفهم بأنه هو « الخالق » « البارى » « المبدع » « بديع السماوات والأرض » .

وحين يعرفهم بآياته فى الرزق ، يعرفهم بأنه هو « الرزّاق » ذو القوّة المتين .

وحين يعرفهم بهيمنته على كل شىء فى هذا الكون ، يعرفهم بأنه « المهيمن » وبأنه « يدبر الأمر » .

وحين يعرفهم بآياته فى الإحياء والإماتة ، يعرفهم بأنه « هو يحيى ويميت » .

وحين يعرفهم بقدرته على البعث ، يعرفهم بأنه « يبعث من فى القبور » .

وحين يعرفهم بأنه سبحانه وتعالى متفرد فى كل شىء . متفرد فى الكمال وحده . ومتفرد فى كل شىء وحده ، فإنه يقول لهم :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (سورة الشورى الآية ١١) ويقول لهم ﴿ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (سورة الروم : الآية ٢٧) .

* * *

ولقد اختلفت الفرق فى تأويل الأسماء والصفات والأفعال وما كان ينبغى لها أن تختلف !

إن هذه الأسماء والصفات والأفعال الواردة فى القرآن وفى الحديث يعرفنا الله بها على نفسه لنتعرف عليه . وما كان ينبغى أن تكون هى التى تضللنا عن معرفة الله ! لولا أن هذه الفرق الضالة قد فتنت عن حقيقة الإسلام البسيطة الواضحة بنظريات وأفكار دخيلة على الإسلام . والقرآن ـ دليلنا وهادينا ـ واضح فى هذا الأمر كل الوضوح .. فهو يحدثنا عن أسماء لله ، تدل على صفات ، وتنشأ عنها أفعال :

« فالوهاب » اسم من أسماء الله الحسنى ، وهو صفة لله تعالى ، وينشأ عنها أن الله يهب ما يشاء لمن يشاء ...

و « الرزاق » اسم من أسمائه . وهو كذلك صفة من صفاته . وينشأ عنها أن الله يرزق العباد بما يشاء من رِزْق ..

ونحن نؤمن بهذه الأسماء لأنها وردت فى كلام الله وكلام رسوله ﷺ . ولأننا نراها ونلمسها ونشهدها فى الكون من حولنا وفى ذات أنفسنا . كما قال تعالى :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (سورة فصّلت : الآية ٥٣) .

وكل تدبر فى آيات الله فى الكون وفى النفس يصل بنا إلى اليقين الكامل بأن كل ما وصف الله به نفسه هو الحق كل الحق . فهو الواحد الأحد ، وهو المتفرد بالقدرة . المتفرد بالملك ، المتفرد بالأمر والتدبير ..

فعلينا إذن أن نؤمن بتلك الأسماء والصفات والأفعال وأن نقف كذلك عند ما جاء منها فى القرآن والحديث ولا نزيد على ذلك .

وهذا هو مذهب السلف ...

يؤمنون بها كما وردت ، ولا يؤولونها . لأن التأويل ليس من شأن البشر . لا لهم طاقة به . ولا ينبغى لهم أن يخوضوا فيه . إنما يأخذون الأمر بالبساطة التى يوضحها القرآن والحديث .

فهذه الصفات حقيقة . ولكنها لا تشبه ما نراه من صفات البشر . فالبشر عاجزون والله قادر . والبشر ناقصون والله كامل . والبشر محجوبون عن الغيب والله علاّم الغيوب . والبشر محتاجون لمن يطعمهم ويسقيهم ويرزقهم والله هو الغنى المستغنى عن كل أحد وكل شىء . والبشر فانون والله هو الدائم من الأزل إلى الأبد .. فكيف تتماثل

صفات الله مع صفات البشر ، وأفعاله مع أفعال البشر ؟

كلا ! ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ فصفاته هو متفرد بها سبحانه ، لأنها صفات الكمال ، وهو المتفرد وحده بالكمال .

والوجود كله يشهد بذلك التفرد ، وفطرة الإنسان من أعماقها تشهد به كذلك .

ولا حاجة بنا ، ولا حاجة للفطرة السوية ، بتأويلات الفرق المنحرفة ، سواء منها ما يعطِّل الصفات ، ومن يبحث فى كيفيتها ولم يؤت القدرة على تكييفها ، ومن يشبهها بأعمال البشر والله ليس له مثيل ...

إنما نقول : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ..

ونحمد الله على توفيقه .

أسئلة

١ ـ ما الذي تفيده هذه الآية ﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ ؟

٢ ـ تحدث بإيجاز عن عظمة الله وآيات قدرته في الآفاق والأنفس .

٣ ـ اتفق الأنبياء جميعاً على كلمة واحدة وطالبوا أممهم بها . فما هي ؟ وماذا تدلنا عليه ؟

٤ ـ مثّل لخصلة من خصال المؤمنين الحميدة ، وأخرى من خصال الكافرين الذميمة .

٥ ـ ما حكم تحكيم الكتاب والسنة فيما شجر بين الناس بجميع شئون الحياة ؟ دلل على ما تقول .

٦ ـ هل النطق بالشهادتين دون تطبيق لهما يعصم الدم والمال ؟ دلل على ما تقول .

٧ ـ ما حكم من يرى أن أوامر الشريعة ونواهيها غير ملزمة له ؟

٨ ـ ما هي عقيدتك في أسماء الله وصفاته ؟

دلل على ما تقول .

فهرس الكتاب

كتاب منهج علم التوحيد
لطلاب المعاهد الإسلامية

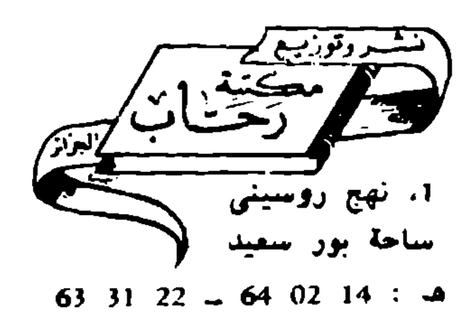
تأليف

محمد قطب

الجزء الثاني

الطبعة الرابعة

1410 هـ - 1990 م



1، نهج روسيني
ساحة بور سعيد
هـ : 14 02 64 ـ 22 31 63

طبع « دار البعث » قسنطينة ـ الجزائر

رقم الايداع القانوني : 90/45167 ـ و. قسنطينة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـــدمة

الحمد لله الذى أسبغ على الإنسان نعمه ظاهرة وباطنة ، ويسر له سبل الهداية فـأودع فى فطرته المعرفة بالله :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ﴾

سورة الأعراف ، آية ١٧٢ .

ثم أرسل رسله صلوات الله وسلامه عليهم ليبلغوا الناس مـا أمـرهم الله بـه مـن إخلاص العبادة له وحده دون شريك :

﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾

سورة الأعراف ، آية ٥٩ .

وأنزل الكتب تحمل الهدى للناس ، لتستقيم حياتهم على المنهج الحق :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾

سورة الحديد ، آية : ٢٥ .

نحمده ونستغفره ونستهديه ، ونصلى ونسلم على نبينا محمد صلى الله عليـه وسـلم خـاتم الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد . . . فقد قدمنا من قبل كتاباً فى التوحيد يشـمل مقـرر الصـف الأول الثـانوى تحدثنا فيه عن موضوع الإيمان بالله وما يقتضيه هذا الإيمان من طاعة وعبودية لله ، وتنفيذاً لشريعته فى أمور العبادة وواقع الحياة .

واليوم نقدم هذا الكتاب للصف الثانى الثانوى نتناول فيه الموضوعات المقررة عليهم ، وهى فى الواقع استمرار لما درسوه فى الصف الأول . ويشمل ثلاثة موضوعات رئيسية :

١ ـ الانحراف عن الإيمان والتوحيد ، ويتناول الشرك والإلحاد وآثارهما فى نفس الإنسان وفى واقع البشر فى العصر الحاضر بصفة خاصة .

٢ ـ الإيمان بالملائكة .

٣ ـ الإيمان بالكتب السماوية .

وقد حاولت فيه أن أسير على النهج المبسط الذى راعيته فى مقرر الصف الأول حتى يكون ميسراً لطلاب العلم فى المرحلة الثانوية ، وحتى يستطيعوا أن يقوّموا واقع البشرية المعاصر على ضوء من أصول دينهم كما هى مبينة فى كتاب ربهم وسنّة نبيهم صلى الله عليه وسلم .

ندعو الله أن يلهمنا الصواب ويوفقنا إلى العمل بما يحبه ويرضاه .

والله ولى التوفيق

محمد قطب

الباب الأول

الانحراف عن الإيمان والتوحيد

الشرك والإلحاد

الشرك والإلحاد كلاهما انحراف عن الإيمان والتوحيد . والفرق بينهما أن المشرك يعرف أن هناك إلها خالقاً لهذا الكون ولكنه يشرك به فى العبادة ، فيعبد آلهة أخرى مع الله أو من دون الله ، يقدم لها شعائر التعبد ، أو يتوجه إليها بالدعاء ، أو بالطاعة والاتباع ، أو بالمحبة والولاء ، ويجعلها واسطة بينه وبين ربه . . أما الملحد ـ فى اصطلاح المعاصرين اليوم ـ فهو الذى ينكر وجود الله أصلا وينسب الخلق والموت والحياة لغير الله .

والشرك والإلحاد كلاهما انتكاس يصيب البشر حين ينحدرون إلى الجاهلية ، فينحرفون عن الفطرة السوية التى خلقهم الله عليها . وإن كان الانحراف الغالب على البشر فى جاهلياتهم خلال عصور التاريخ المختلفة هو الشرك ، والنادر هو الإلحاد ، فيما عدا الجاهلية المعاصرة التى انحدر الناس إليها فى العصر الحاضر والتى غلب عليها الإلحاد بصورة لا مثيل لها فى التاريخ من قبل ، بسبب بعض العوامل التى سنتعرض لها بشىء من التفصيل على صفحات الكتاب .

والقرآن يشير إلى هذا الانتكاس فى قوله تعالى :

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٦) ﴾

سورة التين ، الآيات ٤ ، ٥ ، ٦ .

كما يبين القرآن أن الأصل فى الناس هو الإيمان والتوحيد ، فإن الله قد أشهد البشر جميعاً على أنه هو وحده ربهم بدون شريك ، وهم فى عالم الذر قبل أن يولدوا :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٤) ﴾

سورة الأعراف ، الآيات : ١٧٢ ـ ١٧٤ .

والآيات تدل على أن الله قد ألهم البشرية كلها بأنه هو ربها وإلهها ، وأنه ليس لها رب ولا إله غيره ، وأنه أخذ عليها ميثاقاً بذلك : « قالوا : بلى ، شهدنا ! » . فلم يعد يقبل منهم أن يقولوا يوم القيامة : نسينا وكنا غافلين عن هذا الميثاق ! أو يحتجوا بأن آباءهم أشركوا وأنهم اتبعوهم فى شركهم لأنهم من ذريتهم ! فشرك الآباء لا يبرر للأبناء أن يحيدوا عن ميثاق الفطرة ، لأنه عهد بينهم وبين الله ولا دخل للآباء فيه ! وإن كان الله من رحمته لا يحاسب الناس بميثاق الفطرة وحده ، وإنما يحاسبهم بعد تذكرتهم على يد الرسل :

رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ

سورة النساء ، آية : ١٦٥ .

ولا يعذبهم حتى يبعث لهم رسولا يبلغهم :

وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا

سورة الإسراء ، آية : ١٥ .

كذلك يحدثنا القرآن فى سورة الروم عن أمر الفطرة :

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾

سورة الروم ، الآيتان ٣٠ ، ٣١ .

فهاتان الآيتان تدلان على أن الدين القيم ـ وهو توحيد الله وإخلاص العبادة له وحده دون شريك ـ هو الفطرة التي فطر الله الناس عليها .

كما أن الرسول صلى الله عليه وسلم يحدثنا بأن الإسلام ـ أي إسلام الوجه لله وعبادته وحده دون سواه ـ هو دين الفطرة ، إذ يقول عليه الصلاة والسلام :

« ما من مولود إلا يولد على الفطرة (١) ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » متفق عليه .

بل إن القرآن يحدثنا أن الكون كله ، وليس الإنسان وحده ، مفطور على عبادة الله ، بسماواته وأرضه ، وشمسه وقمره ، ونجومه وجباله ، ودوابه وشجره :

---

(١) اى على الإسلام .

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ سورة الحج ، آية : ١٨ .

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ سورة النحل ، آية ٤٩ .

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿١٥﴾﴾

سورة الرعد ، آية ١٥ .

فالتوجه لله بالعبادة ـ الذى تشير إليه الآيات بالسجود لأن السجود أبرز علامات العبادة ـ هو فى فطرة الكون كله ، الذى فطره الله على عبادته وطاعته :

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾﴾ سورة فصلت ، آية ١١ .

والإنسان خَلْقٌ من خلق الله ، مفطور مثل بقية الكون على التوجه لله بالعبادة . ولكن الله كرَّمه وفضَّله على كثير ممن خلق ، ومنحه الوعى والإدراك وحرية الاختيار :

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾

سورة الإسراء ، آية ٧٠ .

﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾

سورة الإنسان ، الآيتان ٢ ، ٣ .

وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ سورة النحل ، آية ٧٨ .

أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾

سورة البلد ، الآيات ٨ـ ١٠ .

ولكن الإنسان ـ بسبب هذا التكريم ذاته ـ قد اختلف أمره . فبقى بعضه على الفطرة السوية التى خلقه الله عليها ، أى بقى متجها بالعبادة لله وحده دون شريك وضل بعضه فوقع فى الشرك والإلحاد .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ

سورة الحج ، آية ١٨ .

وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾

سورة الشمس ، ٧ـ ١٠ .

فأما الذين استقاموا على الدين القيم فعبدوا الله وحده دون شريك ، فهؤلاء ظلوا كما فطرهم الله « فى أحسن تقويم » وأما الذين انحرفوا عن العبادة الصحيحة بشرك أو إلحاد فقد انتكسوا فأصبحوا « أسفل سافلين » ولم يعودوا يستحقون التكريم الإلهى الذى منّ الله به على الإنسان ، بل أصبحوا موضع الإهانة عند الله : « ومن يهن الله فما له من مكرم » واستحقوا غضب الله ولعنته ، لأنهم قابلوا الإحسان الربانى بالإساءة ، وقابلوا النعمة بالكفران !

والآن بعد أن عرفنا ذلك نعود فنتكلم عن الشرك والإلحاد كل على حدة .

الشـــرك: أسبابه ودوافعه

إذا عرفنا أن الشرك انتكاسة تصيب الفطرة، ومرض يصيب القلـب، فلنحـاول أن نتعرف على أسبابه كما يحاول الـطبيب أن يتعـرف على أسـباب المرض الجسـدى ليعالجه.

فالأصل فى الجسد هو السلامة والصحة، ولكنه عرضة لـلإصابة بـالمرض إذا لم يحافظ الإنسان على أسباب الصحة، وعرضة لأن يتمكن منه المرض ويسـتفحل إذا لم يأخذ الإنسان بأسباب العلاج.

والنفس الإنسانية كذلك، الأصل فيها هو السـلامة والصـحة. ولـكنها عـرضة للإصابة بالمرض إذا ترك الإنسان نفسه بغير مراقبة دائمـة لأعمالـه ووزنهـا بـالميزان الصحيح. أو بعبارة أخرى إذا غفل الإنسان عـن ذكر الله فـوسوس لـه الشـيطان وأبعده عن الطريق. وهى عـرضة كذلك لأن يتمـكن منهـا المرض ويسـتفحل إذا لم يسارع الإنسان إلى التوبة لله والإنابة إليه والعودة إلى طريقه. فيصبح عندئذ ممن يقول عنهم القرآن:

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾

سورة البقرة، آية ١٠.

وهذا المرض الذى يصيب القلب له جملة أسباب ودوافع، بينتها الآيات القـرآنية والأحاديث النبوية، نستعرض جانباً منها فيما يلى:

١ـ الإعجاب والتعظيم:

فطرت النفس البشرية على الإعجاب بالبطولة والعظمة والأشياء الضـخمة والأشـياء الخارقة. وهذا الإعجاب وما ينشأ عنه من التعظيم ليس عيباً فى ذاته، ولا ينشأ منـه ضرر فى النفس السوية. بل إنه مطلوب فى أحيان كثيرة.

فإعجاب الابن بوالديه وتعظيمهما أمر طبيعي، وأمر مطلوب كذلك.

يقول القرآن:

﴿* وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾

سورة الإسراء، ٢٣ ـ ٢٤.

وتعظيم النبي المرسل مطلوب كذلك :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾

سورة النساء ، الآية ٦٤ .

﴿ لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾

سورة النور ، الآية ٦٣ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣) ﴾

سورة الحجرات : ٢ - ٣ .

وتعظيم العلماء والصالحين من الأمة واجب :

« العلماء ورثة الأنبياء » رواه البخارى .

« ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويعرف لعالمنا فضله » رواه أحمد .

ولكن الانحراف ينشأ من زيادة التعظيم حتى يصل إلى التقديس ، فهنا يدخل فى دائرة الشرك . لأن التقديس لا يكون إلا لله سبحانه وتعالى وحده بغير شريك . وكل تعظيم وصل إلى حد التقديس ، سواء كان لشخص أو لشيء ما فى هذا الوجود فهو شرك ، لأنه توَجُّهٌ لغير الله بما لا ينبغى إلا له .

ومن هذا اللون من الانحراف نشأ كثير من الشرك فى تاريخ البشرية ، مما أشار إليه القرآن والأحاديث النبوية .

يقول القرآن فى سورة نوح :

﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا (٢١) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢) وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) ﴾

سورة نوح ، ٢١ - ٢٣ .

ويقول ابن كثير فى التفسير : « وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : هذه أصنام كانت تعبد فى زمن نوح . وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا مهران

عن سفيان عن موسى عن محمد بن قيس : « ويغوث ويعوق ونسرا » قال كانوا قوماً صالحين بين آدم ونوح ، وكان لهم أتباع يقتدون بهم ، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم : لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم . فصوروهم فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال : إنما كانوا يعبدونهم وبهم يُسْقَوْن المطر فعبدوهم . (تفسير ابن كثير فى سورة نوح) .

كذلك وقع فريق من المنحرفين فى الشرك بتقديس أنبيائهم :

وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٣٠)

سورة التوبة ، الآية ٣٠ .

كذلك وقعوا فى تقديس أحبارهم ورهبانهم :

اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١)

سورة التوبة ، الآية : ٣١ .

ووقع بعضهم فى الشرك بسبب تعظيم الملائكة والجن - وهم خَلْقٌ من خلق الله - فزعموا أنهم أبناء الله وبناته وقدسوهم على هذا الاعتبار ، فيقول القرآن عنهم :

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠)

سورة الأنعام ، الآية : ١٠٠ .

وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٩)

سورة الصافات : ١٥٨ - ١٥٩ .

وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ

شَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ سورة الزخرف : ١٩ ـ ٢٠ .

ووقع فريق آخر من البشر فى الشرك بسبب تعظيم بعض الأجرام السماوية إلى حد التقديس ، فعبدوا الشمس والقمر والنجوم ، فيقول القرآن لبعضهم :

وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ سورة فصلت ، الآية : ٣٧ .

وقال لبعضهم الذين عبدوا نجم الشعرى لشدة لمعانه في السماء :

وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾

سورة النجم : ٤٣ ـ ٤٩ .

وهكذا دخلت هذه الفرق الضالة كلها فى الشرك من باب تعظيم لأشخاص ، أو أشياء هى من خلق الله ، فقدسوهم وعبدوهم مع الله أو من دون الله ، وضلوا بذلك عن الفطرة السوية التى تتجه لله وحده تعبده بغير شريك .

٢ ـ الميل إلى الإيمان بالمحسوس والغفلة عن غير المحسوس :

فى الإنسان كما فطره الله نزعتان فطريتان متكاملتان . إحداهما تنزع إلى الإيمان بالمحسوس ، أى ما يقع فى دائرة الحس ويمكن للحواس أن تدرك وجوده بالنظر أو السمع أو الشم أو الذوق أو اللمس ، والأخرى تنزع إلى الإيمان بالغيب ، أى بما لا يقع فى دائرة الحس ولا يمكن للحواس أن تدرك وجوده بطريق مباشر .

وإذا كان الإنسان يشترك فى النزعة الأولى مع بعض المخلوقات الأخرى ، فقد خصه الله بالنزعة الثانية ـ وهى الإيمان بالغيب ـ وكرّمه بها ، وفضّله بها عن كثير ممن خلق . وكانت هذه الموهبة الربانية من عوامل رفعة الإنسان واتساع أفقه

وعظمة روحه ، وانفساح المجال أمامه وراء المحسوسات القريبة إلى آفاق التفكر والتدبر فى الكون كله لينتفع به ويستدل به على عظمة خالقه ومبدعه .

ولكن فطرة الإنسان عرضة للمرض كما قلنا ، إذا لم يداوم على رعايتها وتقديم الغذاء الصالح لها ، من ذكر لله وتقرب إليه بالأعمال الصالحات ، وعندئذ يرين على القلوب ما يرين عليها من ظلمات :

بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤)

سورة المطففين ، الآية : ١٤ .

ومن الأمراض التى تصيب فطرة الإنسان أن تغفل عن غير المحسوس ، وتحصر اهتمامها رويداً رويداً فى دائرة المحسوس وحده ، ثم تمتد بها الغفلة حتى تستغنى تماماً بعالم الحس عما وراءه ، بل تمتد بها الغفلة أحياناً أكثر من ذلك فتنكر ما وراء الحس إنكاراً كاملا وتزعم أنه غير موجود ! (١) .

وفى المراحل الأولى من هذه الغفلة لا ينكر المشرك وجود الله ، ولكنه يتلمس صورة محسوسة قريبة يضفى عليها فى خياله بعض خصائص الألوهية من نفع وضر ، وعلم للغيب ، وتصريف للأمر بالمشاركة مع الله ! فمع أنه يعلم أن الله هو الخالق ، وأنه لا يشاركه أحد فى الخلق ، إلا أنه يزعم أن فلاناً من الناس (نبياً كان أو ولياً من أولياء الله الصالحين) أو الملائكة ، أو الجن ، أو صنماً من الأصنام يستطيع أن يضر أو ينفع ، أو يستجيب للدعاء ، أو يبسط الرزق لمن يشاء ، أو يعلم الغيب ويخبر به من يستطيع أن يتلقى عنه . وفى مثل هذه الصورة كان العرب فى جاهليتهم . فقد سجل القرآن عليهم أنهم يعرفون أن الله موجود وأنه هو الخالق :

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ

سورة لقمان ، الآية : ٢٥ .

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٨٧)

سورة الزخرف ، الآية : ٨٧ .

ومع ذلك كانوا يشركون به الجن والملائكة والأصنام التى يعبدونها ـ فى زعمهم ـ لتقربهم إلى الله زلفى ! .

---

(١) سنرى فيما بعد أن هذا المرض الأخير هو اوسع أبواب الإلحاد الذى شمل جانبا كبيراً من البشرية فى العصر الحاضر .

ولكن الغفلة كما قلنا قد تمتد إلى أبعد من ذلك ، فيغفل المشرك عن الله الذى :

﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (١٠٣)

سورة الأنعام ، الآية ١٠٣ .

ويتصور أن الشيء المحسوس هو الله . فهنا لا يكتفى المشرك بأن يزعم لتلك المحسوسات بعض خصائص الألوهية ، بل يضفى كل خصائص الألوهية عليها . وفى مثل هذه الصورة كان المصريون فى زمن الفراعنة إذ كانوا يزعمون أن « رع » ـ وهو قرص الشمس ـ هو الخالق وهو الرازق وهو المحى المميت ، وهو الذى يبعث الناس يوم القيامة ويحاسبهم ! كما كان المجوس ينسبون الخلق والضر والنفع والإحياء والإماتة للنار ! وفى مثل هذا المستوى كذلك كانت الجاهلية الرومانية والجاهلية الإغريقية والجاهلية الهندية والجاهلية الصينية .

وبعض هذه الجاهليات كان يضيف إلى ذلك الشرك لوناً آخر ، فيزعم أن فلاناً من البشر هو ابن الله ، ويضفى عليه بعض خصائص الألوهية أو كلها ، كما كانت الجاهلية الفرعونية تزعم أن الفرعون هو ابن الله (ابن الإله رع) وأنه يجلس عن يمينه يوم القيامة ، والجاهلية الهندية تزعم أن البراهما خلقوا من رأس الإله وأنهم من أجل ذلك مقدسون ولا يحاسبون على أعمالهم (بينما المنبوذون نجسون لأنهم مخلوقون من قدم الإله ولذلك فهم مهينون ومحتقرون !!) ولا تختلف النصرانية المحرفة كثيراً عن ذلك إذ زعمت أن المسيح ابن مريم هو ابن الله . وقالت مرة إنه هو الله ومرة قالت إنه واحد من ثلاثة يكونون فى مجموعهم إلهاً واحداً ، وإلى ذلك يشير القرآن :

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾

(سورة المائدة : ٧٢)

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾

(سورة المائدة : ٧٣)

وقد وصل بنو إسرائيل إلى درجة أبشع من ذلك حين قالوا لموسى :

﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴾

(سورة البقرة : ٥٥)

وحين مرّوا على قوم يعبدون الأصنام فقالوا لموسى اجعل لنا إلهاً (أى صنماً) نعبده مثل هؤلاء القوم :

وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾

(سورة الأعراف : ١٣٨)

وحين عبدوا العجل واتخذوه إلهاً :

فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ

(سورة طه : ٨٧ ـ ٨٨)

كل هذا ونبيهم بين ظهرانيهم يعلمهم أمر دينهم (١) .

أما الدرجة القصوى من هذه الغفلة فهى التى تؤدى إلى إنكار وجود الله ألبتة ، وسنتحدث عنها حين نتحدث عن الإلحاد .

٣ ـ الهوى والشهوات :

من الأمراض التى تصيب الفطرة كذلك وتوقعها فى الشرك غلبة الهوى والشهوات ذلك أن دين الله المنزل يشمل دائماً أحكاماً إلـٰهية يطلب الله من البشر أن يلتزموا بها وينفذوها لتستقيم حياتهم وتتوازن :

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ

(سورة الحديد : ٢٥)

---

(١) كان موسى قد تركهم أربعين ليلة ليتلق من ربه الشريعة المنزلة ففعلوا هذا الفعل الشنيع ، مع أنه ترك أخاه هرون ليخلفه فى قومه مدة غيابه عنهم .

وحين تكون الفطرة مستقيمة فإنها تتقبل ما فرضه الله عليها بالرضا ، وتجتهد فى تنفيذه تعبداً لله وطمعاً فى رضاه . ولكن حين يغلب عليها الهوى وحب الشهوات فإنها تضيق بما أنزل الله وتحب أن تتبع شهواتها . وفى ذلك يقول القرآن :

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا

(سورة لقمان : ٢١)

فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ

(سورة مريم : ٥٩)

فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ
فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى
مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾

(سورة القصص : ٥٠)

أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ

(سورة الفرقان : ٤٣)

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ
مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ
الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ
حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾

(سورة آل عمران : ١٤)

ومن أجل هذه الشهوات يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة كما يصفهم القرآن :

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ
الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ۝١٠٨﴾ (سورة النحل : ١٠٧ ـ ١٠٨)

﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ۝٣﴾

(سورة إبراهيم : ٣)

وهؤلاء يرفضون الهدى الربانى . ويرفضون أن يعترفوا بالوحى المنزل من عند الله ولو استيقنوا فى دخيلة أنفسهم أنه الحق ، لأنهم لو اعترفوا لكان عليهم أن يلتزموا ، وهم يكرهون الالتزام بما أنزل الله ، لأن شهواتهم تغلبهم وتثقل فى حسهم . لذلك ينكرون أن ما جاء من عند الله هو الحق ، ويجادلون فيه بالباطل ، ويضعون قواعد وموازين للحياة وللأعمال غير ما قرر الله ، ثم يزعمون أنهم هم الذين على الحق ، وأن ما يتبعونه من نظم وقواعد وموازين أحق أن يتبع مما أنزل الله ، فيقعون بذلك فى الشرك ـ شرك الاتباع (١) .

وعلى هذه الصورة ، كانت الجاهلية العربية التى وصفها القرآن وصفاً مفصلا فى كثير من الآيات فى السور المكية خاصة . وعلى هذه الصورة كذلك نجد الجاهلية المعاصرة التى غرقت فى الشهوات إلى أذنيها ، ورفضت الاعتراف بالوحى الربانى لأنها تريد أن تتبع أهواءها ولا تريد أن تلتزم بما أنزل الله .

٤ ـ الكبر عن عبادة الله :

الكبر كذلك من الأمراض التى تصيب الفطرة فتنحرف بها عن صورتها السوية وتوقعها فى الشرك .

والكبر درجات تبدأ بالاستكبار على الناس وتنتهى بالاستكبار على عبادة الله . وكلها خُلُقٌ مقيت مرذول لا يصدر عن نفس سوية مستقيمة . لذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر » (٢) .

وغالباً ما يكون الكبر فى نفوس من حصلوا على شىء من متاع الحياة الدنيا ،

---

(١) سنتكلم فى الصفحات التالية عن أنواع الشرك . (٢) رواه مسلم .

من مال أو جاه أو سلطان . ولكنه ليس وقفاً عليهم ، ويمكن أن يتسرب إلى أى نفس مريضة فيصاب صاحبها بما يسميه المعاصرون « جنون العظمة » ولو كان من أحقر الناس !

ويبين لنا الله فى كتابه الحكيم أن الكبر من أسباب الكفر والشرك ، كما جاء فى قصة النمروذ :

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾

(سورة البقرة : ٢٥٨)

وكما جاء فى قصة فرعون :

وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾

(سورة الزخرف : ٥١)

اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَىٰ أَنْ تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾

(سورة النازعات : ١٧ ـ ٢٥)

وكما كان من أمر الوليد بن المغيرة :

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ ﴾

(سورة المدثر : ١١ - ٢٦)

ثم يبين لنا الله أنها قاعدة شاملة وليست ظاهرة فردية :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ ﴾

(سورة غافر : ٥٦)

وهذا الكبر عن عبادة الله أوضح ما يكون فى الجاهلية المعاصرة ، فهو ليس وقفاً على أصحاب المال أو الجاه أو السلطان ، إنما سرى المرض فى جسم الغرب حتى صار أتفه الناس شأناً يستكبر عن عبادة الله !

٥ ـ وجود الطغاة الذين يريدون أن يستعبدوا الناس لأنفسهم فيرفضون أن يحكموا بما أنزل الله :

من أهم أسباب الشرك فى تاريخ الجاهليات كلها وجود طغاة من البشر يريدون أن يستعبدوا الناس لأنفسهم ، ويسخروهم فى قضاء شهواتهم ، فيرفضون الانصياع لما أنزل الله ، ويضعون من عند أنفسهم تشريعات لم يشرعها الله ، فيحلون ويحرمون من عند أنفسهم ، اتباعاً لأهوائهم ، ويفرضون تشريعاتهم المزيفة على الناس بما

يملكون فى أيديهم من سلطان .

هؤلاء الطغاة فى الواقع ينصبون أنفسهم أرباباً من دون الله حين يعطونها حق التشريع من دون الله . لأن الله وحده هو صاحب هذا الحق حيث أنه هو الخالق سبحانه وأنه هو العليم الخبير :

﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ (سورة الأعراف : ٥٤)

﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (سورة البقرة : ٢١٦)

فالله سبحانه وتعالى بحق ألوهيته وربوبيته لكل الخلق ، وبعلمه التّام بكل شىء هو الذى يحق له أن يقول : هذا حرام وهذا حلال ، هذا حسن وهذا قبيح . هذا مباح وهذا غير مباح .

فإذا جاء أى إنسان فادعى لنفسه حق التحليل والتحريم ، والمنع والإباحة فقد جعلها شريكاً لله ، بل جعل نفسه إلهاً من دون الله . ومن تبعه فى ذلك فقد أشركه فى العبادة مع الله ، أو أشرك به من دون الله !

وهؤلاء الطغاة ، الذين يسميهم القرآن « الملأ » هم أول من يتصدى لتكذيب الرسل الذين يرسلهم الله لهداية البشرية :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ ﴾

(سورة الأعراف : ٥٩ ـ ٦٠)

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

(سورة الأعراف : ٦٥ ـ ٦٦)

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ ۚ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ (٧٦) ﴾

(سورة الأعراف : ٧٣ - ٧٦)

وهكذا دائماً يتصدى الملأ لتكذيب الرسول الآتى من عند الله ، ثم لا يكتفون بالتكذيب بل يتبعونه بالتهديد .

وهذا الأمر الذى يبدو لنا غريباً لأول وهلة ليس غريباً فى الحقيقة !

فهؤلاء الملأ يعرفون جيداً أن السلطة التى يستعبدون بها الناس ليست شرعية فى الحقيقة ، لأنها مخالفة لما أنزل الله ، ولكنهم يتجاهلون ذلك ويمضون فى غيّهم طاغين مستكبرين . فإذا جاء الرسول من عند الله يقول : « يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » وهو ما قاله كل رسول لقومه - فهو فى الحقيقة ينادى برد السلطان المغتصب إلى الله ، صاحب الحق وحده فى التشريع للناس ، وفى تقرير الحلال والحرام والمباح وغير المباح .

عندئذ يحس أولئك الملأ كما يحس السارق حين يرى رجل الشرطة قادماً نحوه ! وإذا كان السارق فى العادة يفر من رجل الشرطة إلا أن السارق المتبجح يقف يقطع الطريق ! وهؤلاء الطغاة يقفون فى وجه الرسل كما يقف السارق قاطع الطريق : يكذبونهم ثم يهددونهم بالسجن أو القتل أو التعذيب .

ثم إنهم لا يكتفون بتهديد الرسل أنفسهم . لكنهم يقفون بالمرصاد للناس الذين

يستعبدونهم بسلطانهم ، خوفاً من أن يفروا من سلطانهم الجائر إلى الله . . فيهددونهم كما يهددون الرسل ، ويطلبون منهم أن يستمروا فى ولائهم لهم ويمنعونهم من تقديم الولاء الخالص لله ! أي يأمرونهم بالشرك ويهددونهم بالقضاء عليهم إن أسلموا لله !

ووجود الطغاة من جانب يقابله وجود المستضعفين الذين يخضعون لهم من الجانب الآخر . الأولون يأمرون بالشرك والآخرون يطيعون ، خوفاً أو ذلا وفناءً فى السادة المشركين .

والقرآن يقول عن الأولين :

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾

(سورة إبراهيم : ٢٨ ـ ٣٠)

يقول عن الآخرين :

وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾

(سورة سبأ : ٣١ ـ ٣٣)

أنواع الشرك

ليست الصورة الوحيدة للشرك هى السجود للأصنام كما يبدو لبعض الناس الذين يقرءون فى التاريخ أن العرب فى الجاهلية كانوا مشركين يعبدون الأصنام، فيتبادر إلى أذهانهم أن عبادة الأصنام هى السبب الوحيد فى وصف العرب بأنهم كانوا مشركين، ويظنون من جهة أخرى أن الصورة الوحيدة للشرك هى عبادة الأصنام.

ولكنا إذا رجعنا إلى القرآن، ثم أنعمنا النظر فى حياة الجاهلية العربية ذاتها نجد أن عبادة الأصنام لم تكن إلا لوناً واحداً من ألوان الشرك فى الجاهلية العربية، فضلا عن الجاهليات الأخرى التى مرت بها البشرية فى تاريخها الطويل.

حقيقة أن عبادة الأصنام صورة واضحة ملموسة للشرك لا تحتاج إلى بيان. ولكن الشرك فى الحقيقة أوسع دائرة من عبادة الأصنام والسجود لها وتقديم القرابين إليها. وقد اتخذ فى الجاهليات المختلفة صوراً شتى، وما يزال يتخذ إلى هذه اللحظة أشكالا متعددة فى حياة الناس فى الشرق والغرب، قد لا يلتفتون إليها ولا يدركون أنها ضروب من الشرك، حين يحصرون صورة الشرك فى أذهانهم فى عبادة الأصنام فحسب.

وفى الجاهلية العربية ذاتها كانت هناك ألوان متعددة من الشرك إلى جانب عبادة الأصنام، وعبادة الملائكة والجن، والظن بأنها تشفع لهم عند الله أو تقربهم إلى الله زلفى.

لقد كانت «القبيلة» رباً يعبد مع الله أو من دون الله!

انظر إلى قول الشاعر:

وهل أنا إلا من غزية إن غوت ... غويت وإن ترشد غزية أرشد!

فما معنى قوله ذلك؟

معناه أنه لا يوجد عنده معيار للرشد أو الغى إلا ما تقوله قبيلته «غزية». بل معناه أسوأ من ذلك فى الحقيقة. معناه أن القبيلة هى التى تحل له وتحرم.. فإن غوت فهو يغوى معها، مع علمه بأنها غاوية. لأن الغى يصبح فى نظره حلالا ما دامت القبيلة قد فعلته. وإن رشدت فهو يرشد معها، لا لأنه يرى أن الرشد هو الأصلح، بل لأن القبيلة قد فعلته فهو الحلال فى هذه اللحظة.

وفى كلتا الحالتين لا نجد أن الله موجود فى حسّه! فهو لا يأخذ حلاله ولا حرامه من الله. ولا يتلق منه الأمر ولا يرجع إليه فى التصرف. إنما يأخذ من القبيلة،

ويتلق عنها، ويرجع إليها . وإذن فهى الرب الحقيق بالنسبة إليه، وإن كان يعرف ـ نظرياً ـ أن الله موجود، وأنه هو الذى خلقه وخلق السموات والأرض !

وكذلك كان عرف الآباء والأجداد عند هؤلاء الجاهلين رباً يعبد من دون الله :

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا

(سورة لقمان : ٢١)

وليس العرب وحدهم هم الذين قالوا ذلك فى جاهليتهم، فالقرآن يحدثنا أن هذا أيضاً كان شأن قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم :

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا

(سورة إبراهيم : ٩ و ١٠)

وعلى ذلك نستطيع أن نعدد ألواناً مختلفة من الشرك ـ سواء فى الجاهلية العربية أو غيرها من الجاهليات ـ بجانب العبادة الخالصة للأصنام أو الأوثان بوصفها هى الله كاعتقاد الجاهلية الفرعونية أن رع « قرص الشمس » هو الاله ، واعتقاد المجوس أن النار هى الاله ، واعتقاد الأشوريين أن بعلا هو الاله ، واعتقاد قوم نوح أن ودا وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا هى الآلهة ٠

من ضروب الشرك

١ شرك التقرب والزلفى :

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾

(سورة الزمر : ٣)

وهذا النوع من الشرك - كما ذكرنا من قبل - يمارسه الشخص الذى يعرف أن الله موجود ، وأنه هو الخالق الرازق المحيى المميت ولكنه مع ذلك يتصور خطأ أن هناك كائنات أخرى لها بعض خصائص الألوهية ، وأنها من ثم قريبة من الله ، وإذاً فالتقرب إليها يؤدى إلى القرب من الله !

فمن تقرب من الصنم وتمسح به ، ومن صلى له وسجد ، ومن تقدم إليه بالقربان ، يعلم أنه ليس هو الله ، ولكنه يتصور أنه فى مرتبة قريبة من الله . وأنه - لقربه من الله حسًا ومعنى - يملك أن يقرب هذا العابد من الله ! فهو إذاً وسيط يتوسط بين العبد وبين الله الذى كانوا يصفونه بأنه « رب الأرباب » ! أى أن هناك أرباباً صغيرة ، ورباً كبيراً هو الله . والأرباب الصغيرة تأخذ من العبد صلاته وتسبيحه وقربانه فتوصلها إلى الله ، حيث إنها قريبة منه ، فيتقبلها الله منها بما لها من حظوة عنده ومكانة ! وعندئذ يرضى الله عن العبد ويثيبه على ما قدم للأرباب ! ومع ذلك فإن الرضى والثواب لا يصل إلى العبد مباشرة ، وإنما يصل عن طريق هذه الأرباب ! فهى - أى كهنتها - هى التى تخبره بأن القربان قبل أو لم يقبل ، وبأن الله راض عنه أو غاضب عليه !!

ولقد نظن لأول وهلة أنه ما دام هذا المشرك يعرف - أو يعترف - بأن الله هو « رب الأرباب » فهو يلتزم بطاعته أكثر مما يطيع تلك الأرباب الصغيرة ، وأنه يعظمه ويوقره أكثر مما يعظم تلك الأرباب ويوقرها .

ولكن الواقع - الذى يصفه لنا القرآن وصفاً دقيقاً - كان شيئاً آخر غير الذى نظن . . فالحقيقة أنهم يطيعون تلك الأرباب ويوقرونها ويحتفون بها أكثر مما يصنعون ذلك مع « رب الأرباب » .

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ ۗ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾

(سورة الأنعام : ١٣٦)

فهم زعموا باديء ذى بدء أن لله نصيباً من الحرث والأنعام ، وللشركاء (الأصنام) نصيباً . . وحرموا أكله لأنه نصيب الله أو نصيب الشركاء !

وإلى هنا فقد ارتكبوا إثمين عظيمين كلاهما شرك . الأول أنهم حرّموا بغير إذن الله ، والله وحده هو الذى يحل ويحرم لأنه المالك وصاحب الأمر : (1)

﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ (سورة الأعراف : ٥٤)

والإثم الثانى أنهم جعلوا للشركاء نصيباً كما جعلوا لله نصيباً . فأشركوهم مع الله فى حقوق الألوهية كما يتصورونها !

ولكنهم مع ذلك لم يحافظوا على ما زعموه من تخصيص جزء من الحرث والأنعام لله ، إلى جانب ما خصصوا للشركاء . فإن ما خصصوه لله عادوا فمنحوه لشركائهم . أما ما خصصوه للشركاء فإنهم لا يعطونه لله !!

﴿ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ ﴾

وهذا التصرف العجيب الذى يقول عنه القرآن : « ساء ما يحكمون » كانوا يبررونه بأن الله غنى غير محتاج ، أما الشركاء فمحتاجون !

وهو تبرير سخيف فى منطق العقل . فما دام الله غنياً فلماذا خصصوا له ذلك النصيب دون أن يطلب الله منهم ذلك ؟! وما دام الشركاء محتاجين إلى ما عند الله فبأى اعتبار صاروا آلهة ؟ وإذا كانوا لا يملكون لأنفسهم الاكتفاء فكيف يملكون أن يعطوا عبّادهم ؟!

ولكن هذا التبرير ـ فوق سخفه ـ ينم عن حقيقة نفسية كامنة ، هى أن التوقير الحقيق فى نفوسهم لم يكن لله الحق ، وإنما كان لتلك الأصنام التى يشركونها مع الله !

ولقد يبدو لنا اليوم أن هذا اللون من الشرك ساذج جداً وسخيف جداً بحيث يستنكف منه الإنسان المعاصر ، الذى تيسرت له وسائل التعلم والثقافة ، واتسعت حصيلته العلمية والفكرية .

ومع ذلك فانظر إلى ملايين الناس التى تطوف حول أضرحة المشايخ والأولياء والقديسين فى أرض الإسلام وخارج أرض الإسلام ، تطلب منهم أن يقربوهم إلى الله زلفى .

---

(1) يقول الله لهم فى سورة يونس (آية ٥٩) : قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالا ، قل آلله أذن لكم ، أم على الله تفترون ؟

وانظر إلى الذين يخشون - فى دخيلة أنفسهم - غضبة الذين يعظمونهم من ولاة وشيوخ وعظماء ، ولا يخشون غضبة الله ، والذين يعتقدون فيمن يعظمونهم أنهم أقرب ضراً لهم ونفعاً من الله سواء كانوا ملوكاً وعلماء ورؤساء ! .

أتراهم قد بعدوا فى هذا الأمر عن عُبّاد الجاهلية الذين روى القرآن عنهم :

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾

سورة الزمر ، الآية ٣ .

٢- شرك طلب الشفاعة من غير الله :

وقريب من شرك التقرب والزلفى شرك طلب الشفاعة من غير الله ، لأنه امتداد له فى الحقيقة .

وقد كان العرب فى الجاهلية يمارسون الشركين معاً . فقد كانوا يعبدون الأصنام لتقربهم إلى الله زلفى ، وكانوا فى الوقت ذاته يطلبون الشفاعة منهم لتوهمهم أنهم أصحاب كلمة مسموعة عند الله لقربهم منه - سبحانه - وأن الله يجيب طلباتهم ولا يردها لأنها آتية من أحبابه المقربين ! فإذا تقدموا بالشفاعة لعبد من العباد قبل الله شفاعتهم له ورضى عنه .

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾

سورة يونس ، الآية ١٨ .

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾

سورة الزمر ، الآيتان ٤٣ ، ٤٤ .

وكما عبدوا الأصنام لتشفع لهم عند الله ـ وبخاصة اللات والعزى ومناة ـ فإنهم عبدوا الملائكة كذلك باعتبارها بنات الله حسب ادعائهم الباطل ، وأنها لذلك مسموعة الكلمة عند الله :

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾

سورة الأنبياء ، الآيات ٢٦ ـ ٢٨ .

ولقد يخيل إلينا كذلك أن هذه القضية قد انتهت مع انتهاء الجاهلية العربية ، ولم يعد لها وجود . ولكن المتأمل فى حياة الناس اليوم يجد نظائر لها فى تشفيع الموتى من الأولياء والصالحين عند الله فى قضاء المصالح وفى الرضا عن العباد .

وقضية الشفاعة كقضية الزلفى ، كلتاهما تنشأ من توهم أن هناك من يملك من الأمر شيئاً مع الله ، أو يملك التأثير فى مشيئة الله وإرادته . . وهو وَهْمٌ يأتى من قياس باطل . فهم يقيسون شأن الله سبحانه على شأن المخلوقين من عباده ، إذ يرون فى عالم البشر أن الشخص المقرب من أصحاب السلطان تكون له عندهم كلمة مسموعة ، وأنه يتشفع للناس بحكم هذه المودة فتقبل شفاعته وتستجاب ، فيتخيلون ـ فى غفلتهم ـ أن هذا يحدث مع الله سبحانه وتعالى ! وأن طائفة من خلق الله ـ كالملائكة مثلا ـ لا بد أن تكون لهم كلمة مسموعة عنده ، لأنهم مقربون منه ومكرمون ، وأن شفاعتهم للعباد تستجاب عنده بسبب ذلك وتقضى حوائجهم . وهم ينسون الفارق بين شأن الله سبحانه وتعالى وشأن المخلوقات ، فالله هو الغنى ، وهو المدبر المهيمن على كل ما فى الوجود ، ومشيئته هى النافذة وحدها فى هذا الكون ، فما الذى يحوجه سبحانه وتعالى أن يستجيب لشىء أو لشخص لا يريد أن يستجيب له ؟ أو بعبارة أخرى ما الذى يحوجه سبحانه وتعالى أن يشرك معه أحداً فى تدبير أى أمر من أمور الكون ؟ فالخلق جميعاً عبيد له وأقربهم إليه أتقاهم له .

ولا ينفى هذا أن تكون هناك شفاعة بين يدى الله يوم القيامة يتقبلها سبحانه وتعالى ويستجيب لها (١) . ولكنها أولا بإذن منه سبحانه ، ثم هى لا تكون إلا فى حق من رضى الله أن يشفع فيهم الشافعون :

(١) كشفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم فى أهل الموقف يوم القيامة وشفاعته بأن يدخل الجنة قوم من أمته وكل هذا بعد رضى الله وإذنه .

﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا (٣٨)﴾

سورة النبأ ، الآية ٣٨ .

وقال تعالى :

﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾

سورة الأنبياء ، الآية ٢٨

وقال :

﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ (٢٦)﴾

سورة النجم ، الآية ٢٦ .

٣ ـ شرك الطاعة والاتباع :

الأصل فى العبادة هو الطاعة . ومعنى عبادة الله طاعته فيما أمر به وما نهى عنه . فإن الإحساس الحقيق بعظمة الله وألوهيته ، وأنه هو الخالق لهذا الكون ، والمدبر لكل شئونه ، والمهيمن على كل شيء فيه ، والإحساس فى ذات الوقت بمقام الإنسان الحقيق أمام الله ، وهو مقام العبودية الكاملة لخالق السماوات والأض ، ومالك الأمر كله . . هذا الإحساس يؤدى إلى نتيجة لازمة هى الطاعة لهذا الإله المتفرد بالألوهية والعبودية والربوبية دون شريك .

ولقد يغفل الإنسان عن ذكر الله لحظةً فيوسوس له الشيطان بمعصية الله كما وسوس لآدم عليه السلام :

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥)﴾ . . . .

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ (١٢٠) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١)﴾

سورة طه ، الآية ١١٥ ، ١٢٠ ، ١٢١

ولكن الله من رحمته يتوب على العبد من لحظة الغفلة العارضة ما دام لا يصر عليها ، ولا يمعن فى الغواية ، كما تاب على آدم عليه السلام حين استغفر ربه وأناب .

وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾

سورة طه ، الآيتان ١٢١ ، ١٢٢ .

كما يتوب على كل عباده حين يرجعون إليه :

وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾

سورة آل عمران ، الآيتان ١٣٥ ، ١٣٦ .

أما الذى يصر على الغواية ، ويرفض الانصياع لأمر الله ، ويتوجه بالطاعة لغير الله يأخذ منه ما يَحْرُم وما يحل ، وما يباح وما لا يباح ، فلا يمكن أن يكون فى دخيلة نفسه مقرا لله بالربوبية والألوهية بغير شريك - ولو ادعى ذلك ! إنما هو فى الحقيقة قد وضع غير الله فى مقام الربوبية والألوهية واتجه إليه بالعبادة ، أى بالطاعة التى كان ينبغى أن تكون لله وحده دون سواه .

يقول القرآن عن اليهود والنصارى : ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾

سورة التوبة ، الآية ٣١ .

ويحدد الرسول صلى الله عليه وسلم معنى العبادة ، ومعنى اتخاذ الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله تحديداً واضحاً حاسماً فى قصة عدى بن حاتم حين جاء ليسلم على يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان نصرانياً من قبل : روى

الإمام أحمد والترمذى وابن جرير ـ من طرق ـ عن عدى بن حاتم رضى الله عنه أنه لما بلغته دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم فر إلى الشام ، وكان قد تنصر فى الجاهلية فأسرت أخته وجماعة من قومه . ثم منَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على أخته وأعطاها ، فرجعت إلى أخيها فرغبته فى الإسلام ، وفى القدوم على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقدم عدى المدينة ـ وكان رئيساً فى قومه طيئ ، وأبوه حاتم الطائى المشهور بالكرم ـ فتحدث الناس بقدومه . فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى عنق عدى صليب من فضة ، وهو (أى الرسول صلى الله عليه وسلم) يقرأ هذه الآية : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله » قال : فقلت : انهم لم يعبدوهم . قال : « بلى . انهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم . فذلك عبادتهم إياهم » .

فعدى بن حاتم كان يتوهم أن العبادة هى الركوع والسجود فحسب ، لذلك قال إنهم لم يعبدوهم ! ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم بيّن له حقيقة الأمر كما علمه الله . بيّن له أن طاعة الأحبار والرهبان فى التحليل والتحريم بغير ما أنزل الله هى عبادة لهم ، ومن ثم فهى إشراك بالله . لأن الطاعة فى هذه الأمور إنما تكون لله وحده حيث أنه هو الرب المعبود بحق . فالتوجه بها لغير الله عبادة لمن تُوُجِّهُ إليه ، وإن لم يكن معها ركوع ولا سجود ولا تقديم قرابين !! بل هى عبادة لغير الله وإشراك به حتى ولو ظل الركوع والسجود يقدم لله وحده ولا يقدم لغيره ! فالركوع والسجود لله ، والتلقى من عند الله فى التحريم والتحليل كلاهما سواء ، ومجموعهما معاً هو العبادة . ولم يقل الله لعباده إذا ركعتم لى وسجدتم فقد تمت عبادتكم لى ، ولم يعد عليكم بأس فى أن تطيعوا غيرى فى التحليل والتحريم . . إنما أمر الله عباده أن يسجدوا له ويركعوا ، وأن يتبعوا ما أنزل إليهم من حلال وحرام ، وأخبرهم بأن إسلامهم لا يتم بغير الأمرين معاً فى ذات الوقت ، وأنهم إن توجهوا بهذا الأمر أو ذاك لغير الله فقد أشركوا :

﴿ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ (٣٧) سورة فصلت ، الآية ٣٧ .

اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٣)

سورة الأعراف ، الآية ٣ .

فالسجود لغير الله فى الآية الأولى ينفى العبادة لله وعدم اتباع ما أنزل الله فى الآية الثانية مرادف لاتباع الأولياء ـ أى الشركاء ـ من دون الله .

وكذلك يحكى القرآن قول الكفار تبريراً لشركهم :

وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ

سورة النحل ، الآية ٣٥ .

فهم يحددون الشرك الذى هم واقعون فيه بأمرين فى ذات الوقت : العبادة بمعناها الظاهر أى الركوع والسجود وكذلك التحريم والتحليل بغير ما أنزل الله ، وهم هنا فى الآية يحاولون تبرير هذا الشرك بشقيه بأنه راجع إلى مشيئة الله ، والله يكذبهم فى ذلك ويقيم الحجة عليهم بأنه أرسل إليهم الرسل ليبلغوهم بحقيقة الإسلام :

وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٣٥) وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ

سورة النحل ، الآيتان ٣٥ ـ ٣٦ .

وهذا اللون من الشرك هو الذى يعم وجه الأرض اليوم .

فأما الأرض غير الإسلامية فقد حوت كل صنوف الكفر والشرك ، ومن أبرزها شرك الطاعة فى التحليل والتحريم بغير ما أنزل الله ، واتخاذ الأرباب

المختلفة من دون الله .

وأما الأرض الإسلامية فقد وقع من أهلها فى هذا النوع من الشرك كل من رضى بشريعة غير شريعة الله ، مجلوبة من الشرق أو الغرب ، وكل من رفع راية للتجمع أو للجهاد غير راية الإسلام ، من قومية أو وطنية أو علمانية أو غيرها من الرايات التى لم يأذن بها الله .

وهؤلاء وهؤلاء يقيمون أرباباً - وإن كانت غير محسوسة - ويعبدونها من دون الله .

فالذى ينادى بالقومية أو الوطنية ويتخذ ذلك ذريعة لإقامة وطن لا تحكم فيه شريعة الله ، هو فى الواقع يتخذ القومية أو الوطنية ربّاً يعبده من دون الله ، سواء فى ذلك من يقيم هذه الراية ومن يرضى بها ، لأن الأول يصدر باسمها تشريعات تحل وتحرم بغير ما أنزل الله ، والآخر يتلقى منها ويطيعها ولا يتوجه بالتلقى والطاعة إلى الله .

والذى ينادى بوجوب إفطار العمال فى رمضان لأن الصيام يضر بالإنتاج المادى ، يتخذ الإنتاج المادى فى الحقيقة ربّاً يعبده من دون الله ، لأنه يطيعه مخالفاً أمر الله .

والذى ينادى بخروج المرأة سافرة متبرجة مخالطة للرجال باسم التقدم والرقى وباسم التحرر ، يتخذ التقدم والرقى والتحرر فى الحقيقة أرباباً معبودة من دون الله ، لأنه يحل باسمها ما حرم الله ، ويطيعها من دون الله .

والذى يدعو إلى إبطال شريعة الله أو تبديل التقاليد الإسلامية التى تصون الأخلاق والأعراض لكى نبدو فى نظر الغرب متحضرين غير متخلفين ، يتخذ الغرب وتقاليده أرباباً معبودة من دون الله ، ولو صلى وصام وزعم أنه مسلم ، لأن الغرب وتقاليده أثقل فى حسه من أوامر الله ، وأولى بالاتباع والطاعة من أوامر الله ! .

وهكذا نجد صوراً متعددة من شرك الطاعة والاتباع تعم حياة الناس اليوم دون أن يتبينوا ما هم واقعون فيه من الشرك ، مع أن كتاب الله وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم واضحة حاسمة فى هذا الأمر : أن العبادة هى التلقى من الله فى كل شأن من شئون الحياة . وكما نتلقى من الله شعائر التعبد ، فنعبده سبحانه وتعالى بما تعبدنا به من صلاة وصيام وزكاة وحج ، كذلك نتلقى منه أمور حلالنا وحرامنا ، أى الشريعة التى تحكم أمور حياتنا فى الصغيرة وفى الكبيرة سواء ،

لأن الله تعبدنا بتنفيذ شريعته كما تعبدنا بالصلاة والصوم والزكاة والحج ، وكلها سواء ، واعتبر التوجيه فى هذه أو تلك لغير الله شركاً ، وقال عن الذين يفعلون ذلك :

أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ

سورة الشورى ، الآية ٢١ .

وقد أمرنا الله بمفاصلة الواقعين فى الشرك :

قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤)

سورة آل عمران ، الآية ٦٤ .

لذلك ينبغى علينا أن نتبين طريقنا جيداً فى وسط هذا الشرك الذى يعم اليوم وجه الأرض ، وأن نجتهد ونتحرى ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، وألا نتخذ أرباباً ـ محسوسة أو غير محسوسة ـ نتوجه لها بالعبادة من دون الله .

٤ ـ شرك المحبة والولاء :

وقريب من شرك الطاعة والاتباع شرك المحبة والولاء للمشركين والكفار .

إن ولاء المسلم ينبغى أن يكون لله ولرسوله وللمؤمنين كما أمرنا القرآن :

إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ سورة المائدة ، الآيات ٥٥ ـ ٥٧ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ

أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٥١)

سورة المائدة ، الآية ٥١ .

وكذلك المحبة لا ينبغى أن تكون لغير الله ورسوله والمؤمنين . ولا ينبغى بحال من الأحوال أن تكون لشىء ولا لأحد يقع فى دائرة الكفر والشرك :

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ (١٦٥)

سورة البقرة ، الآية ١٦٥ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٢٣) قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ (٢٤)

سورة التوبة ، الآيتان ٢٣ ـ ٢٤ .

لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْۚ

سورة المجادلة ، الآية : ٢٢ .

إن العبادة ليست هى الشعائر التعبدية وحدها من صلاة وصيام وزكاة وحج كما يظن كثير من الناس فى العصر الحاضر . ولا يكون الإنسان مسلماً موحداً بمجرد

أن ينطق بشهادة التوحيد : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ثم يؤدى الشعائر التعبدية . وإنما ينبغى مع ذلك أن يعمل بمقتضى شهادة التوحيد ليكون موحداً حقاً والتوجه بالولاء والمحبة للكفار والمشركين هو نقض لشهادة أن لا إله إلا الله ولو ظل الإنسان ينطقها بلسانه ويؤدى معها شعائر التعبد ! لذلك يصف القرآن ولاء اليهود والنصارى والكافرين بأنه ردة فيقول فى سورة المائدة فى سياق متصل :

• ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ ۚ

سورة المائدة : ٥١ ، ٥٤ ـ ٥٧ .

إن التوحيد أمر هائل جداً ، وليس مجرد كلمة تنطق ! إنه أمر شامل يشمل كل عمل الإنسان وكل فكره ، ويشمل حتى مشاعره الداخلية التى قد يخفيها داخل نفسه ولا يبينها للناس .

ولا يتم التوحيد فى حقيقة الواقع حتى تكون كل أعمال الإنسان وكل أفكاره وكل مشاعره مستقيمة على نهج واحد ، متوجهة كلها إلى الله ، مستمدة كلها من منهج الله .

وقد قلنا من قبل إن الله من رحمته يغفر السقطة العابرة التى يقع فيها الإنسان ويستغفر عنها ربه ولا يصر عليها . أما إقامة منهج الحياة وسلوك الإنسان وفكره وشعوره على أسس مخالفة لأمر الله ، فهو شرك لا يغفره الله لأنه نقض واقعى لشهادة التوحيد ولو ظلت تنطق بالأفواه ! .

٥ ـ شرك الرياء :

والمقصود بشرك الرياء هو التوجه بالعمل لغير الله . فقد يكون العمل فى ذاته سليماً فى صورته ، كالصلاة مثلا ، ركعاتها مضبوطة ، وقيامها وقعودها على الصورة التى بينها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن صاحبها لا يصليها لكى يؤدى الفريضة لله ، ويتقرب بها إليه ، إنما يصليها ليمدحه الناس ويقولوا عنه إنه من الصالحين . . فهنا لا يكون العيب فى صورة العمل ، إنما فى التوجه به لغير الله ، أى فى المشاعر المصاحبة له . فهذا المصلى لا يصلى إلى صنم مثلا ، ولا يؤمن بأن هناك إلها غير الله يتعبد إليه الإنسان بالركوع والسجود بين يديه . ومع ذلك فإن القصد الحقيق من عمله لم يكن إرضاء الله سبحانه وتعالى ، وإنما إرضاء الناس ونيل مديحهم . ومن هنا وقع فى الشرك الأصغر .

وكذلك إذا أنفق ماله رئاء الناس ، أو قام بأى عمل من الأعمال بغية امتداح الناس له وثنائهم عليه .

جاء رجل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فسأله : الرجل يقاتل حمية ، والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل ليرى مكانه من قومه ، فأى ذلك فى سبيل الله ؟ فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » رواه مسلم .

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : قال الله تعالى « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملا أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه » رواه الشيخان .

ويقول صلى الله عليه وسلم : « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر . قالوا وما الشرك الأصغر يا رسول الله : قال الرياء » رواه أحمد والطبرانى والبيهق . عن ابن أبى حاتم عن أبى عباس » .

ومن هنا ينبغى أن نتنبه لأنفسنا لكى لا نقع فى هذا اللون من الشرك . فإنه « أخفى من دبيب النمل » كما حدث الرسول صلى الله عليه وسلم وإن كان الله من رحمته يغفر الشرك الخفى ، وهو الرياء الذى يَـخْفَى على صاحبه ولا يأتيه بقصد منه ، فإنه لا يغفر الرياء الذى يأتيه الإنسان بوعى منه وإرادة ، يريد به استجلاب مديح الناس ولا يبتغى به مرضاة الله .

* * *

تلك كلها ألوان من الشرك يقع فيها البشر حين ينحرفون عن طريق الفطرة السوية كما فطرها الله . وهى كلها مجافية لحقيقة التوحيد وناقضة لها من أساسها .

ذلك أن حقيقة التوحيد التى تقرّ بها السماوات والأرض ، ويقرّ بها الإنسان المؤمن ليست شيئاً مظهرياً ولا أمراً جزئياً . إنما هى الحقيقة الجوهرية فى هذا الكون كله ، وهى الركيزة الكبرى للإنسان المؤمن ، منها تنطلق تصوراته وأفكاره ، ومشاعره وسلوكه ، وكل شىء فى حياته .

ولا يتأتى أن يكون الإنسان موحداً فى جانب من جوانب حياته ، ثم يتوجه فى جوانب حياته الأخرى لغير الله ، فإنه بذلك يكون قد اتخذ إلهين ، والقرآن يقول :

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٥١﴾﴾

(سورة النحل : ٥١)

وهذه الرهبة التى يتحدث عنها كتاب الله هى الحصيلة الحقيقية للإحساس بحقيقة التوحيد بأقسامه الثلاثة : توحيد الألوهية والربوبية والأسماء والصفات ، وتنزيه الرب الإله عن كل شريك وتنزيه صفاته عن التشبيه والتأويل ومؤداها هو التوجه لله وحده بالعمل كله ، سواء كان العمل صلاة ونسكاً ، أو سعياً فى الأرض وراء الرزق ، أو كسباً أو إنفاقاً ، أو علماً أو سياسة أو اقتصاداً أو اجتماعاً أو سلماً أو حرباً أو اعتقاداً . . الخ :

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ﴾

(سورة الأنعام : ١٦٢ ـ ١٦٣)

• • •

وأياً كانت أنواع الشرك ، وأياً كانت أسبابه ودوافعه فهو أمر باطل فى حكم الله كما أنه قبيح مستنكر فى حكم العقل . فأيما إنسان سليم العقل مستقيم التفكير لا يمكن أن يتقبل الشرك بالله فى أية صورة من صوره . ولذلك يندد القرآن بالمشركين فى كثير من المواضع بقوله تعالى : « أفلا تعقلون ؟! » لأن مقتضى العقل أن يتوصل الإنسان إلى حقيقة التوحيد ، ويصل فيها إلى درجة اليقين . فهذا هو الكون مفتوحاً أمام الحس البشرى ، هل فيه شىء واحد ينبىء بأن يداً غير يد الله قد تدخلت فى خلقه أو فى تدبيره ؟ وهل يمكن أن ينتظم سير الكون هذا الانتظام الدقيق لو كانت فيه إرادتسان مختلفتان أو صنعتان مختلفتان ؟!

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾ (سورة الملك : ١ ـ ٤)

إن النظر فى أى شيء من خلق الله ، كبير أو صغير ، لينتهى بالعقل إلى نتيجة واحدة ، هى التوحيد .

والقرآن يشير إلى تلك الحقيقة فى مواضع شتى ، ويضرب للناس الأمثال :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ۝٧٣﴾

(سورة الحج : ٧٣)

فالذباب فى نظر الناس من أهون الأشياء وأحقرها . . ومع ذلك ، فهل يستطيع أحد ـ غير الله ـ أن يخلق ذبابة واحدة ولو اجتمع كل أهل السماوات والأرض ؟!

بل إن الأمر أبعد من ذلك في العجز «وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه» فهم لا يعجزون فقط عن خلق الذباب بل يعجزون عن استرداد شيء سلبه الذباب منهم . إن الذباب يقف على الطعام فيقضم منه قضمة لا تكاد ترى ، أو يعلق بأرجله وأجنحته مثل ذلك . . فهل يستطيع أحد أن يسترد منه ما سلب من الطعام ؟!

ألا ما أعجز الناس . . والشركاء المزعومين ! وما أحوجنا إلى توحيد رب العالمين .

بل إن الكائنات الحية ـ وإن ضعفت كالذباب ـ ليست وحدها التى يكمن فيها التحدى ، ويكمن الإعجاز .

فخذ المادة الميتة التى تبدو لنا أهون فى خلقها من الكائنات الحية . .

خذ قطعة صغيرة من حديد أو نحاس أو أى مادة تشاء . .

فهل يخطر على بالك كم من ملايين الملايين من الذرات تحويها تلك القطعة الصغيرة ؟

وهل يخطر على بالك كيف تتكون كل ذرة واحدة من هذه الذرات ؟ هل يخطر على بالك أن كل واحدة منها مفردة لا تستطيع العين رؤيتها ولا بالمجهر ، تتكون من شمس تدور حولها كويكبات فى نظام دقيق متسق لا يختل ؟!

وهل يخطر على بالك مقدار « الطاقة » التى تحويها تلك الذرة المفردة ؟ وبأى قوة هائلة تتماسك الكويكبات حول شمسها التى هى نواة الذرة ؟

وهل يخطر على بالك أخيراً أن هذه الطاقة هى التى تحدث -حين تنفجر- تلك الآثار المروعة التى أحدثتها القنبلة الذرية ؟ والتى لا تقاس بشىء إلى القنبلة النووية ؟!

إن العقل السليم لا يمكن أن ينتهى من تفكيره إلا إلى نتيجة واحدة ، هى التوحيد .

والشرك -على ذلك- قبيح مستنكر فى حكم العقل ، فضلا عن بطلانه فى حكم الله .

مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾

(سورة العنكبوت : ٤١ - ٤٣)

وإذا كانت حقيقة الكون كله قائمة على توحيد الألوهية والربوبية ، بالاستجابة لأمر الله ، والعمل بمقتضى هذا الأمر كما قال الله عن السماوات والأرض :

ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾

(سورة فصلت ١١)

إذا كانت هذه هى حقيقة الكون فأى ظلم يوقع فيه الإنسان نفسه حين ينحرف عن هذه الحقيقة الهائلة التى تقوم عليها السماوات والأرض ؟

أى ظلم فى إنكار الحق الذى يستجيب له الكون كله ويقرّ به ، وأى ظلم أن يورد الإنسان نفسه موارد الهلاك بهذا الإنكار ؟!

لذلك يصف القرآن الشرك بأنه ظلم ، ويصف المشركين بأنهم الظالمون :

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (١٣)

(سورة لقمان : ١٣)

وقال تعالى :

﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١٠٦)

(سورة يونس : ١٠٦)

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « إن من أكبر الكبائر الشرك بالله » رواه البخارى .

آثار الشرك

إذا كان التوحيد كما رأينا هو ما فطر الله عليه الإنسان السوى ، وهو الذى يستقيم به الكون وحياة الإنسان .

فإن الشرك الذى يقع فيه الإنسان له آثاره الوبيلة فى حياته وآخرته سواء كان الواقع فيه فرداً أو جماعة .

واعلم أن الشرك عدة أنواع وأنه لا يخرج عن ثلاثة أقسام هى :

١ - الشرك الأكبر . ٢ - الشرك الأصغر . ٣ - الشرك الخفى .

فالشرك الأكبر ينفى الإسلام بالكلية والشرك الأصغر أكبر من كبائر الذنوب . والشرك الخفى يبطل العمل الذى صاحبه فقط .

١ - وأول آثار الشرك إطفاء نور الفطرة :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من مولود إلا ويولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » .

إن الله سبحانه وتعالى حين خلق آدم استخرج ذريته من صلبه أمثال الذر فأخذ عليهم العهد والميثاق أن لا يشركوا به شيئاً .

وعلى هذا فإن الشرك انحراف عن المهمة التى خلق الجن والإنس من أجلها . قال تعالى :

وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾

(الذاريات : ٥٦)

إن الشرك يبعد بالإنسان عن حقيقة التوحيد التى يستمد منها الإنسان إشراقته ونوره وسداد أمره وتصبح أعمال المشرك كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء . وتصبح حاله وأعماله معتمة مظلمة .

قال تعالى :

وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾

(سورة النور : ٣٩ - ٤٠)

٢ - ومن آثاره القضاء على منازع النفس السامية :

فالنفس المتعلقة بالله المتطلعة إلى رضاه لا تستغرقها شهوات الحس ولا تنصرف بكليتها إلى متاع الأرض القريب ، إنما تتطلع دائماً إلى الأفق الأعلى . إلى المثل العليا والقيم الرفيعة . إلى المعانى الجميلة التى يتحقق بها وجود « الإنسان » وميله الفطرى إلى النظافة الخلقية والروحية . إلى الترفع عن الدنس فى كل صوره وأشكاله ، سواء كان فاحشة من الفواحش التى حرمها الله ، أو ظلماً يقع على الناس ، أو موقفاً خسيساً يقفه الإنسان من أجل شهوة رخيصة أو مطلب من مطالب الحياة الدنيا .

ولكن حين تهتز حقيقة التوحيد فى النفس ويغشيها الشرك ، فإن النفس تنحط عن أفقها الأعلى وتهبط إلى مستوياتها الدنيا ، فتشغلها الأرض . يشغلها المتاع الزائل فتتكالب عليه وتنسى القيم العليا والجهاد من أجل إقامتها وتحقيقها . ويكون جهادها صراعاً خسيساً على هذا المتاع الزائل يتقاتل من أجله الأفراد والدول والشعوب . .

وتصبح الحياة البشرية محكومة بقانون الغاب ، القوى يأكل الضعيف ، والغلبة للقوة لا لصاحب الحق . . وهو الأمر الذى نراه سائداً فى الجاهلية المعاصرة فى كل منحى من مناحى الحياة :

﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾

(سورة الحج : ٣١)

٣- ومن آثاره القضاء على عزة النفس ووقوع صاحبه فى العبودية الذليلة :

إن العزة الحقيقية هى التى تستمد من الإيمان بالله الواحد :

﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

(سورة المنافقون : ٨)

فالمؤمن على يقين من تلك الكلمة التى يرددها فى كل صلاة : الله أكبر . . أكبر من كل شيء فى هذا الوجود ومن كل أحد . ومن ثم يحس المؤمن الذى تعلق قلبه بالله أنه عزيز بتلك القوة المستمدة من العبودية الحقة لله الحق . فهو الإله الخالق الرازق الضار النافع المحيى المميت ، المالك للأمر كله بلا شريك . ومن ثم لا يعود يخشى الأشياء ولا الأشخاص ولا الأحداث ، لأنه يعلم أن الله هو المدبر الحقيق لكل ما فى الكون ، وأن أحداً فى الكون كله لا يملك شيئاً مع الله . فعلام إذاً يذل لغير الله ؟ علام يبذل من كرامته وعزته لبشر مثله ، عاجز ولو كانت فى يده مظاهر القوة ، ضعيف وإن كان جباراً فى الأرض بغير الحق ، محتاج مثله لما عند الله لأن الله وحده هو الحى القيوم وكل ما عداه صائر إلى زوال ؟!

كلا . . لا يبذل المؤمن من عزته وكرامته لأحد غير الله .

ولكن المشرك لا يعرف هذه العزة ولا يتذوقها . .

إنه عبد . . ولكنها عبودية ذليلة لأنها ليست العبودية لله ، الكريم الرحيم ، الذى يعز عباده بعزته !

إنه عبد . . لبشر مثله يتحكم فيه فيذله عبد لشهواته : شهوة المال أو شهوة الجنس أو شهوة السلطان . . كلها عبودية ذليلة وإن بدت لأول وهلة متاعاً وتمكناً وتجبراً فى الأرض . .

ثم يذهب هذا المتاع الزائل الذى تذل له أعناق الرجال ، ويأتى اليوم الذى يقفون فيه موقف الخزى الأكبر أمام العزيز الجبار :

﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ۝ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ۝ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ۝﴾ (سورة الشعراء : ٢٠٥ - ٢٠٧)

٤ - ومن آثاره تمزيق وحدة النفس البشرية :

فالله سبحانه وتعالى فطر هذه النفس بحكمته ، وأنزل الكتاب الذى تعمل بمقتضاه هذه النفس فتكون على فطرتها السوية كما خلقها الله ، ذلك أن الله أمر جميع رسله صلوات الله وسلامه عليهم بالتوحيد ليبلغوه للناس :

﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ (سورة هود : ٥٠)

وهى الكلمة التى قالها نوح وهود وصالح وشعيب وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم والأنبياء جميعاً .

ويعلم الله سبحانه وتعالى أنه حين يعمل الإنسان بمقتضى كلمة التوحيد هذه فإن نفسه تكون « فى أحسن تقويم » وتكون على استوائها ، لأنها تتجه كلها وجهة واحدة فى جميع تصرفاتها . فالإنسان - المؤمن - يتجه بصلاته ونسكه إلى الله ، ويضرب فى الأرض يبتغى الرزق فيتوجه إلى الله يطلب منه التوفيق والعون ، ويتوجه إليه بالعمل ذاته فيبتغى فيه الحلال الذى أحله الله ويتجنب الحرام الذى حرمه الله ، فيكون فى كل لحظة ذاكراً لله لأنه يتحرى حلاله وحرامه فى كل تصرف وفى كل موقف . كلما همّ بحركة أو عمل أو هجس فى نفسه هاجس سأل نفسه أولا : أحلال هو فيأتيه ، أم حرام فعليه أن يتجنبه ؟

وكذلك هو إن ذهب يتعلم ، أو ابتغى أن يتزوج ، أو باع أو اشترى ، أو تعامل مع الناس فى أمر من أمور حياته : يتوجه إلى الله أولا ويستلهم كتابه المنزل الذى يحوى تفاصيل ما أحل الله وما حرم ، وما أباح وما منع » (١) فإذاً هو فى كل نشاط حياته متجه إلى ذات الإله الذى يصلى له ويصوم ، ويؤدى له من شعائر التعبد ما يتقرب به إليه ، وإذا المتّجه إليه واحد فى جميع الحالات :

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾

(سورة الأنعام : ١٦٢ - ١٦٣)

---

(١) وكذلك السنة النبوية المطهرة تحوى تفاصيل شرع الله وهى من عند الله لأن الرسول صلى الله عليه وسلم إنما يشرعها بوحى الله وأمره «وما ينطق عن الهوى».

عند ذلك تطمئن النفس وتستقر :

﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ (٢٨)

(سورة الرعد : ٢٨)

وتكون قوة هائلة فى ذات الوقت ، كحزمة الضوء التي تتجمع فتضىء أو تتجمع فتكون شعلة متقدة . .

قوة هائلة تنطلق فى الأرض تبنى وتعمر فى كل اتجاه ، راضية مطمئنة ، نشيطة وثابتة فى ذات الوقت ، كما كان ذلك الجيل الفذ الذى بدأ به تاريخ الإسلام : ينشر الدعوة فى أرجاء الأرض بسرعة لا مثيل لها فى التاريخ . ويقيم العدل الربانى فى كل مكان . ويحارب الكفر والشرك والطواغيت فيسحقها وينتصر عليها . وينشىء حضارة فذة تجمع بين الروح والمادة ، وتعمل للآخرة دون أن تنسى عمارة الأرض :

﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾

(سورة القصص : ٧٧)

وتلك هى حصيلة التوحيد . حصيلة تجمع النفس البشرية فى اتجاه واحد . إلى الله .

أما الشرك فهو يشتت تلك الوحدة التى فطر الله النفس البشرية عليها ، ويمزقها .

يصلى الإنسان - إذا صلى ! - لإله . ويبيع ويشترى ويبتغى الرزق باسم إله آخر يحل له الربا ويحل له الغش والخداع بغية الربح . ويمارس شهواته باسم إله ثالث يحل له العلاقات غير المشروعة ويزين له الخبائث . وقد يتوجه إلى بشر مثله أو إلى صنم من الأصنام فيطلب منه البركة أو يطلب منه أن يقربه إلى الله زلفى . . وهكذا تتشتت نفسه فى محاولة استرضاء هذه الأرباب المتعددة التى كثيراً ما يكون لكل منها مطالب تخالف مطالب الأخرى وتعارضها .

وفى النهاية يفقد نفسه بعد أن يفقد أمنه وطمأنينته :

﴿ ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلماً لرجل هل يستويان مثلاً الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ (٢٩)

(سورة الزمر : ٢٩)

وأوضح مثال على ذلك تلك الجاهلية المعاصرة التى يمارسها الناس فى أكثر أرجاء الأرض . .

ولقد كانت هذه الجاهلية تبهر الناس وتخدعهم بالتقدم العلمى والمادى الهائل الذى حصّلته . ولكنها تكشفت ـ حتى لأصحابها ـ عن تمزق نفسى لا مثيل له فى التاريخ ، يتمثل فى التزايد المستمر لحالات القلق والجنون والاضطراب العصبى والنفسى والانتحار والإغراق فى المسكرات والمخدرات !

وأخيراً تصايح الشباب هناك بأنه يحس بالضياع ، ولا يجد لحياته معنى ، ولا يجد نفسه فى اتجاه يكسبها الاستقرار والطمأنينة !

وتلك هى الحصيلة الأخيرة للشرك ، مهما بدا من مظاهر التقدم المادى والعلمى ، لأن النفس الممزقة بين الأرباب المختلفة لا يمكن أن تجد الطمأنينة أو تحس بالاستقرار .

٥ ـ ومن نتائجه إحباط العمل :

وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾

(سورة الزمر : ٦٥)

والحبوط مأخوذ من « حبطت الناقة » إذا انتفخ بطنها وماتت نتيجة تناولها لطعام سام ، ويراد به ضياع نتيجة العمل وانقلابه بالوبال على صاحبه .

والآية تقول للرسول صلى الله عليه وسلم إن الله قد أوحى إليك كما أوحى إلى النبيين من قبلك أن الشرك يحبط العمل ويفسده ، ويئول فى النهاية إلى الخسران .

وتشير الآية إلى الخسران فى الحياة الآخرة بدخول النار والعياذ بالله .

ولكن الخسران الذى تشير إليه الآية لا يقتصر فى الحقيقة على الدار الآخرة . فنحن نرى آثار ذلك الخسران فى الحياة الدنيا بادية واضحة فى الجاهلية المعاصرة ، كما أشرنا فى الفقرة السابقة .

إن الناس فى الجاهلية المعاصرة قد انتفخوا من كثرة ما أعطاهم الله استدراجاً عن طريق التقدم العلمى من سيارات وثلاجات وطائرات وصواريخ وقنابل ذرية ونووية وأموال وخيرات من كل الأنواع .

انتفخوا بكل ذلك حتى وصلت بهم « النفخة » إلى الاستكبار على الله ، والقرآن يقول عن أمثالهم : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ ﴾

(سورة غافر : ٨٣)

ولكنه انتفاخ كانتفاخ الناقة الحابطة بالغذاء المسموم . .

فاستثمار خيرات الأرض حالياً إلى حد لم يبلغه فى التاريخ ، والفقر الجاثم على كثير من ربوع الأرض ليس له كذلك مثيل فى التاريخ !

وتقدم الطب بلغ درجة لم يصلها من قبل قط ، ونسبة المرض كذلك فى تزايد مستمر ، وتنشأ أمراض جديدة لا عهد للبشرية بها من قبل !

والتنادى بالحريات السياسية والحريات الإنسانية يشبه الدوىّ فى برلمانات الأرض ، وصحفها ووسائل إعلامها ، والعبودية التى يعيش الناس فيها فى أكثر بقاع الأرض أبشع عبودية فى التاريخ .

ووسائل المتاع التى اخترعها البشر ليتناولوا بها أكبر قسط من متاع الأرض لا مثيل لها فى كثرتها وتنوعها واستغراقها لحياة الناس ، ودرجة الشقاء التى يحسها الناس من أول الاضطرابات النفسية إلى الجنون لا مثيل لها كذلك فى كل التاريخ !

وصدق الله العظيم : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

٦ ـ ومن آثار الشرك الأكبر خلود صاحبه فى النار : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ اللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ ﴾

(سورة النساء : ١١٦ ـ ١٢١)

وأى شيء يمكن أن يكون أفظع من ذلك وأبشع ؟

إن الحريق هو أفظع ما يتعرض له الإنسان فى الحياة الدنيا لأنه شيء لا يطاق .. شيء لا تستطيع احتماله الأعصاب . ومع ذلك فما أهونه وأيسره بجانب حريق الآخرة .

إنه -مهما اشتد ومهما امتد- لن يتجاوز دقائق قد تمتد إلى أيام .. ثم بعد ذلك إما أن يشفى صاحبه وإما أن يموت . فكيف إذا كان لا يشفى قط ومع ذلك لا يموت ؟

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ

(سورة النساء : ٥٦)

عذاب ساعة أو ساعات لا يحتمله الإنسان فى الحياة الدنيا ، فهل يستطيع أن يحتمل العذاب الذى يصل إلى درجة الاحتراق الكامل ثم يعود الجلد- الذى يشتمل على أعصاب الحس- جديداً ، ليحس صاحبه العذاب من جديد .

فهل من الحكمة أن يعرض الإنسان نفسه -بارتكاب الشرك- إلى هذه الدرجة الفظيعة من العذاب ؟

إن الناس فى الحياة الدنيا يتقون الحريق بكل وسيلة ، ويحاولون جهدهم ألا يصيبهم ذلك الحريق ..

فما أغفل المشرك الذى يهرب جهده من لذعة عابرة فى الدنيا ، ثم يركض بقدميه ركضاً ليلقى بنفسه فى الحريق الذى لا يزول أبداً ولا يستطيع أن يخرج منه بعد أن يدخل فيه ..

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾

(سورة البقرة : ١٦٥ - ١٦٧)

الإلحاد الذى ينتشر اليوم فى أوروبا ، شرقها وغربها ، ويتبجح بإنكار وجود الله وينفى أن الله سبحانه هو الخالق الرازق المحيى المميت وأنه خالق الكون ومدبره ، ظاهرة لا مثيل لها فى تاريخ البشرية من قبل ، من حيث سعة انتشارها ، وتأثيرها فى حياة الناس وأفكارهم وتصوراتهم ، وما أحدثته من تحلل وفساد خلق .

حقاً ، لقد وجدت نماذج من الإلحاد فى التاريخ القديم . فقد وجد الدهريون ، الذين ينكرون البعث ، وينسبون الموت للدهر بدلا من الله ، أولئك الذين أشار القرآن إليهم :

وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ (سورة الجاثية : ٢٤)

وهؤلاء هم البذرة الأولى للذين يقولون اليوم « بالطبيعة » بدلا من الله ، فيرتكبون ذات الجهالة التى وقعت فيها جاهليات قديمة من قبل .

ووجدت نماذج من التحلل الخلقى الذريع إلى جانب الإلحاد ، كما حدث فى المزدكية التى انتشرت فى بلاد فارس فترة من فترات التاريخ وأباحت شيوعية المال والنساء . وأنشأت لوناً من الفوضى الخلقية لا مثيل له فيما سبق من القرون . وأولئك هم البذرة الأولى للشيوعية المعاصرة التى قدمها ماركس ولينين (١) .

ولكن هؤلاء وأمثالهم كانوا قلة فى حياة البشرية من قبل .

ذلك أن الانحراف الأكبر الذى يقع فى عقائد الناس فى جاهليتهم هو الشرك كما أسلفنا وليس الإلحاد . لأن الفطرة ـ وإن ضلت ـ تظل تؤمن بوجود الله ولكنها تشرك معه آلهة أخرى . أما الإلحاد ـ بمعنى إنكار وجود الله أصلا ـ فهو شذوذ نادر حتى فى الفطرة المنحرفة ، سببه انطماس غير عادى فى البصيرة ، يجعل الإنسان يعيش بكامله فى عالم الحس ، فيؤله المحسوس وحده ، وينفى وجود إله :

لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾

(سورة الأنعام : ١٠٣)

---

(١) تنسب المزدكية إلى « مزدك » الذى عاش فى فارس فى القرن السادس الميلادى ونشر مذهبه الذى يدعو إلى الاباحية الكاملة .

لذلك كان الإلحاد -كما قلنا- أمراً نادراً فى تاريخ البشرية .

أما البشرية المعاصرة فقد انتشر فيها الإلحاد بصورة غير مسبوقة من قبل . ولا بد أن تكون هناك أسباب غير عادية هى التى أدت إلى انتشاره بهذه الصورة البالغة القبح .

إن السبب الرئيسى فى إلحاد اليوم هو ذات السبب فى كل إلحاد حدث فى التاريخ : انطماس غير عادى فى البصيرة ، يؤله المحسوس وحده وينفى وجود الله .

ولكن الذى نبحث هنا عن أسبابه ودوافعه هو انتشار هذه الظاهرة على نطاق واسع غير معهود من قبل . بحيث يصبح هذا العدد الهائل من البشر مطموس البصيرة بهذه الصورة غير العادية ، فيؤمن بالمحسوس وحده وينكر وجود الله .

وما دامت الفطرة -حتى فى انحرافها- لا تصل إلى هذه الصورة إلا فى حالات شاذة نادرة ، فلا بد أن هناك أشياء غير عادية فى حياة الناس فى أوروبا -التى ينتشر فيها الإلحاد- قد مسخت طبائع النفوس هناك ، فلم تقف فى انحرافها عند درجة الشرك ، إنما تجاوزتها إلى الإلحاد الذى يجمع فى حقيقته بين الشرك والكفر : الشرك بمنح خصائص الألوهية لغير الله ، والكفر بإنكار وجود الله .

ولا بد لنا من لمحة سريعة عن حياة أوروبا تبين لنا أسباب هذه الظاهرة الخطيرة غير العادية فى حياة البشرية .

أولا - دور الكنيسة الأوروبية فى إفساد النصرانية المنزلة من عند الله :

بعث الله سيدنا عيسى بالحق ، وأنزل عليه الإنجيل يبين للناس حقيقة التوحيد ، ويدلهم على الشرائع التى ينبغى أن تحكم حياتهم بأمر من الله :

وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾

سورة المائدة : ٧٢

وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾

(سورة آل عمران : ٥٠)

ولكن المجامع التى أنشأتها الكنيسة الأوروبية لتقرير أمور العقيدة قد أفسدت هذا الدين الربانى المنزل من عند الله وشوهت صورته تشويها بالغاً من ناحيتين :

الأولى : ناحية الاعتقاد ، بأن جعلت الله ثلاثة بدلا من واحد ، وجعلت المسيح ابن مريم إلهاً بدلا من كونه بشراً رسولا كبقية الرسل والأنبياء . وفى ذلك يقول القرآن :

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ

(سورة المائدة : ٧٢)

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ

سورة المائدة ، الآية ٧٣

الثانية : ناحية الحكم بما أنزل الله فى الإنجيل . فقد أبطلوا الحكم بشريعة الله المنزلة إلا فيما يسمى « الأحوال الشخصية » ، أى الزواج والطلاق ، أما بقية أمور الحياة فقد بقى القانون الرومانى يحكمها بدلا من شريعة الله . وفى ذلك يقول القرآن :

وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم[1] بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ[2] وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ[3] ﴿٤٧﴾

سورة المائدة الآيتان ٤٦ ، ٤٧

وبذلك أفسدت الكنيسة الدين النصرانى المنزل من عند الله إفساداً كاملا وأصبحت أوروبا واقعة فى الشرك منذ أوائل اعتناقها للمسيحية ! وكان هذا الشرك مقدمة لمزيد من الفساد فى الحياة الأوروبية .

ثانياً ـ موقف الكنيسة من العلم :

فى العصور الوسطى كانت أوروبا تعيش فى ظلام الجهل والخرافة ، ومن هنا

---

(١) أى على آثار أنبياء بنى إسرائيل السابقين لعيسى ابن مريم ، الذين كانوا يحكمون بمقتضى شريعة التوراة .

(٢) تكررت هذه الاشارة فى الآية مرتين « ومصدقا لما بين يديه من التوراة » الأولى لعيسى بن مريم ، أى أن عيسى جاء مصدقا للتوراة ، والثانية للإنجيل ، بمعنى أن الإنجيل جاء مصدقا لما بين يديه من التوراة أى مؤكدا صدق نزولها من عند الله .

(٣) الفاسقون هنا معناها الكافرون .

ينطبق عليهم وصف « العصور الوسطى المظلمة » كما يعبرون عن حياتهم فى تلك الفترة من تاريخهم .

ثم وقعت بينهم وبين المسلمين سلسلة من الحروب هى المعروفة فى التاريخ باسم الحروب الصليبية ، التى استغرقت قرابة قرنين من الزمان ، من القرن الحادى عشر الميلادى إلى القرن الثالث عشر .

وفى تلك الحروب احتك الصليبيون بالمسلمين وعرفوا عن كثب مزايا الحياة الإسلامية وفضائلها ، وما تحويه من حضارة وعلم ، فتأثروا بها تأثراً بالغاً ، وحاولوا إقامة حياتهم فى أوربا على ضوء بعض المبادئ والقيم التى وجدوها عند المسلمين . كما جاءهم التأثير من ناحية أخرى باحتكاكهم بالمسلمين فى الأندلس والشمال الإفريقى وصقلية الإسلامية وجنوب إيطاليا الإسلامى حيث كانت المدارس والجامعات الإسلامية مزدهرة يفد إليها طلاب العلم من كل مكان فى الأرض ، ويؤمها الأوربيون لنيل العلم على يد الأساتذة المسلمين ، ويتعلمون العربية لتلقى العلم وترجمة الكتب الإسلامية العلمية إلى لغاتهم الأوربية .

ومن هذين التأثيرين بدأت أوربا تنهض وتخرج من عصورها الوسطى المظلمة .

ولكن الكنيسة وقفت ضد الحركة العلمية التى بدأت تنشأ وتنتشر فى أوربا . .

ويرجع ذلك إلى سببين فى آن واحد :

السبب الأول : خوفها على مكانتها فى نفوس الجماهير . فقد كانت تلك المكانة قائمة على مجموعة الخرافات التى تبثها الكنيسة فى عقول الناس ، وتقول لهم : إن هناك فى الدين أسراراً لا يعرفها إلا رجال الدين ، وإن على الناس أن يخضعوا لرجال الدين خضوعاً أعمى ، ولا يسألوا عن تلك الأسرار ، وإنما يطلبون البركة من رجال الدين بطاعتهم إياهم فى كل ما يأمرون به ، وهم - أى رجال الدين - كفيلون بتقريبهم إلى الله بهذه الطاعة ليغفر لهم ذنوبهم . . وكانت الكنيسة تخشى إذا انتشر العلم أن تتفتح أعين الناس على تلك الخرافة وأمثالها فتضيع مكانة رجال الدين فى نفوسهم ولا يعود للكنيسة ذلك السلطان المقدس عند الجماهير !.

والسبب الثانى : أن ذلك العلم كان فى الحقيقة هو علم المسلمين . وكان الأوربيون الذين يبتعثون إلى المدارس والجامعات الإسلامية ينقلون معهم علوم المسلمين ، وينقلون معها فى الوقت ذاته تأثراً واضحاً بالإسلام والقيم والمبادئ الإسلامية . فخشيت الكنيسة أن ينتشر الإسلام فى أوربا مع الحركة العلمية المنقولة أصلا عن الجامعات الإسلامية والعلماء المسلمين . لذلك قامت تحارب العلماء

الأوربيين الذين تأثروا بعلوم المسلمين محاربة وحشية ، وتهددهم بالتقتيل والتعذيب والتحريق فى النار حتى الموت إذا لم يتراجعوا عن الأفكار العلمية التى نقلوها عن علماء الإسلام ! وكان هذا بداية انحراف خطير بالغ الأثر فى الحياة الأوربية هو فصل العلم عن الدين ، وإيجاد عداوة بين الدين والعلم ، وبين المتعلمين والدين ! واستمر هذا الانحراف يتزايد على مر العصور فى أوربا حتى أصبح الدين فى حس المتعلم الأوربى ممثلا للخرافة ، وأصبحت « النظرة العلمية » فى تصوره هى إبعاد مفاهيم الدين كلها من مجال البحث العلمى ، وعدم الإشارة إلى الله أصلا فى أية حقيقة من حقائق العلم تتصل بالكون أو الحياة أو الإنسان (١) .

ثالثاً - طغيان الكنيسة ورجال الدين :

لم تكتف الكنيسة بما أفسدته من دين الله المنزل ، ولا بموقفها المعادى للعلم وحقائقه النظرية والتجريبية ، بل أضافت إلى ذلك طغياناً بشعاً على أرواح الناس وعقولهم وأموالهم وأجسادهم :

١ - ففرضت عليهم احتكار الوساطة بين الناس وبين الله ، فلا يملك الإنسان أن يتصل بربه إلا عن طريق الكاهن . . ولا تقبل منه التوبة والاستغفار عن ذنوبه إلا بالجلوس أمام الكاهن على « كرسى الاعتراف » وإعلان الكاهن له بقبول توبته .

٢ - وفرضت عليهم أفكاراً معينة عن شكل الأرض وعمر الإنسان على سطح الأرض ، تخالف ما وصلت إليه حقائق العلم الثابتة ، وقالت لهم : إن هذه أفكار مقدسة لأنها منزلة من عند الله ، ومن خالفها فهو كافر ملحد .

٣ - وفرضت عليهم العشور ، أى أن يقدموا عشر مالهم هبة خالصة للكنيسة ، لا لله ولا للمساكين ، إنما ليعيش بها رجال الدين فى بذخ لا يحلم به الأباطرة فى عصر من العصور .

٤ - وفرضت عليهم السخرة ، أى أن يعملوا فى فلاحة الأرض المملوكة للكنيسة يوماً واحداً من كل أسبوع سخرة بغير أجر .

---

(١) من هنا يقول دارون « إن الطبيعة تخلق كل شيء ولا حد لقدرتها » فينسب الخلق لما سماه « الطبيعة » ويرفض أن ينسبه لله . ومن هنا كذلك يرد اسم الطبيعة فى الكتب العلمية الأوروبية حيث كان ينبغى أن يذكر اسم الله . ويرون هناك أن ذكر اسم الله فى أى بحث علمى يفقده الطابع العلمى !!

٥ ـ وفرضت عليهم الخضوع المذل لرجال الدين ، فيتعين على الناس أن ينحنوا عند مرور الكاهن بهم حتى تلتصق جباههم بالأرض ، ولو كانت الأرض مملوءة بالوحل والطين .

وأضيف إلى ذلك كله أنه حين قامت الجماهير فى أوربا فى العصور الحديثة تطالب بحقوقها المسلوبة ، وتطلب رفع الظلم الواقع عليها من رجال الإقطاع ، وقفت الكنيسة إلى جانب الظالمين من رجال الإقطاع وهددت الجماهير المستعبدة بغضب الله عليها إن ثارت على ظلم الأسياد ! .

وكان لذلك كله آثار بعيدة فى تنفير الناس من الكنيسة ، وبالتالى من الدين ! .

رابعاً ـ الرهبانيـة :

وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ

سورة الحديد ، الآية ٢٧ .

وقد تقبلها الله منهم ـ وإن كان لم يكتبها عليهم ـ لأنهم ابتغوا بها رضوان الله فى مبدإ أمرهم . ولكنهم لم يرعوها حق رعايتها ، بل تحولت الأديرة التى يسكن فيها الرهبان والراهبات إلى مباءات من الفساد الخلقى أبشع بكثير مما يجرى فى داخل المجتمع على أيدى الفساق المنحلين ! وفى ذلك يقول القرآن :

وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾

سورة الحديد ، الآية ٢٧ .

وقد ظلت السيرة السيئة التى يتناقلها الناس عن الحياة الخاصة لرجال الدين تزداد سوءاً حتى صارت سخرية الساخرين ، وصارت كذلك منفرة للناس من الدين .

خامساً ـ مهزلة صكوك الغفران :

وذلك حين زعم البابا أنه يضمن المغفرة للناس عند الله ويملك أن يدخلهم الجنة مقابل دفع مبالغ معينة من المال ! وكتب صكوكاً ـ اشتهرت باسم صكوك الغفران ، يقول فيها : أنا البابا . . فلان . . أمنح المغفرة لفلان من الناس عن كل

ذنوبه ما تقدم منها وما تأخر ، وأنه أصبح بريئاً من الذنوب كيوم ولدته أمه ، وأنه يدخل الجنة يوم القيامة ويكون مباركاً عند الرب ! ثم راح يبيع هذه الصكوك للناس بالمال ! فصاروا يرتكبون من الذنوب والجرائم ما يرتكبون ، ثم يشترون صكوك الغفران من البابا متوهمين أنهم يدخلون بها الجنة وينالون بها مغفرة حقيقية من عند الله ! .

واتسعت الدائرة حين وكل البابا مَنْ دونه من رجال الدين فى بيع الصكوك للناس حتى صارت المسألة مهزلة ضخمة لا تؤدى فى النهاية إلى توقير الدين ولا رجاله المزعومين .

لذلك كله ظل نفور الناس من الدين يتزايد على مر العصور فى أوربا حتى انسلخوا منه جملة فى العصر الحديث ! .

سادساً ـ قيام النهضة فى أوربا على غير أساس من الدين :

قلنا من قبل : إن الكنيسة قامت تحارب الحركة العلمية فى أوربا لأنها كانت تحمل معها تأثيراً إسلامياً واضحاً ، لأن المبتعثين الأوربيين إلى بلاد الإسلام كانوا يرجعون متأثرين بالروح الإسلامية ، وبما شاهدوه فى بلاد المسلمين من تقدم علمى وحضارى . ونضيف هنا أن الكنيسة حين فزعت من هذا التأثير الإسلامي الذى يحمله المبتعثون معهم ، وخشيت من انتشار الإسلام فى أوربا مع الحركة العلمية المستمدة من علوم المسلمين ، قامت بحملة واسعة لمحاربة هذا التأثير ، وجندت كتابها ليكتبوا ضد الإسلام ، ويشوهوا صورته النقية ، ويتهجموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتقولوا عليه الأقاويل ، ويتهموا المسلمين بكل كبيرة فى الأرض ، ليحولوا بين أوربا وبين اعتناق الإسلام ! .

وكان لهذه الحملة المزدوجة ضد العلوم المستمدة من المسلمين وضد المسلمين والإسلام آثار بعيدة المدى فى الحياة الأوربية .

فأما الحملة ضد الإسلام فقد أثرت بالفعل فى نفوس الأوربيين فصدتهم عن اعتناق الإسلام ، وساعد على هذا الصد أن الهزيمة التى منى بها الصليبيون فى حروبهم مع المسلمين كانت ما تزال تحز فى نفوسهم . وأما الحركة العلمية والحضارية المستمدة من الأصول الإسلامية فقد مضت فى سبيلها ، لأن الناس أحبوا ثمار العلم بعد أن أفاقوا من جهالتهم . وأحبوا ثمار الحضارة حين رأوها متاحة بين أيديهم . ولكن هذه الحركة العلمية والحضارية قامت مع الأسف على غير أساس من الدين ، بل معادية للدين فى الحقيقة . ذلك أن مواقف الكنيسة السابقة كلها جعلت المثقف

الأوربي المتحضر ينفر من الدين الذى تقدمه له الكنيسة وهو المسيحية ، كما أن حملة الكنيسة العنيفة ضد الإسلام جعلت هذا المثقف لا يقبل الدخول في الإسلام حتى وإن كان يستمد أصول حضارته من المسلمين ! .

ومن هنا نشأ الموقف الشاذ الذى أدى إلى الأزمة المعاصرة التى تعيش فيها البشرية فى الوقت الحاضر ، وهو قيام حركة علمية ضخمة ، وتقدم مادى واسع بعيداً عن الدين ومعادياً له ، وبعيداً عن كل القيم الروحية والأخلاقية التى لا تستقيم بدونها حياة الإنسان على الأرض . وأصبح الأوربي كلما زادت علومه وتقدمه المادى يغريه ذلك بمزيد من البعد عن الدين !

سابعاً - دور اليهود فى إفساد الحياة الأوربية :

فى هذا الموقف الشاذ الذى هيأته الكنيسة الأوربية بمواقفها المختلفة ظهر اليهود ليدفعوا عجلة الفساد دفعاً إلى الأمام . . فهم كما وصفهم الله فى القرآن :

﴿ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾

سورة المائدة ، الآية ٦٤ .

لقد رأى اليهود الفرصة سانحة لينقضوا على المسيحية عدوهم القديم ، فأطبقوا عليها من كل جانب ، يبثون الأفكار الهدامة ، ويفسدون الأخلاق وينشرون كل رذيلة باسم التقدم والحضارة تارة وباسم الحرية الشخصية تارة أخرى حتى استطاعوا بالفعل أن يفسدوا الحياة الأوربية بكل أنواع الفساد التى لا تخطر على البال .

فمن ناحية قام ماركس - وهو يهودى - يدعو إلى الشيوعية والإلحاد ، وهو صاحب القولة المشهورة : الدين أفيون الشعوب ! .

ومن ناحية أخرى قام فرويد - وهو يهودى - بنشر نظرياته عن الجنس ، التي يدعو فيها إلى التحلل من الدين والأخلاق والتقاليد بحجة أنها تسبب الكبت والعقد النفسية والعصبية ! .

ومن ناحية ثالثة أشرف اليهود على الحركة الصناعية الرأسمالية في أوربا ليشغلوا فيها أموالهم بالربا ، وعن هذا الطريق سيطروا على كل نواحى الحياة الأوربية فأفسدوا فيها مفاسد جمة .

١ - فقد أغروا المرأة بالخروج إلى العمل فى المصانع ، فلما كثر عدد النساء العاملات أغروهن بالتبرج بالزينة والأزياء الفاضحة لتفسد أخلاقهن ويفسد الشبان

معهن . ومن وراء ذلك تكسب بيوت الأزياء وبيوت الزينة مكاسب مالية هائلة وترجع كلها فى النهاية إلى اليهود (١) !

٢ ـ أطلقوا شعارات « الحرية والإخاء والمساواة » وتحت شعار الحرية نشرت الإلحاد والفساد الخلق باعتبارهما من أبواب الحرية الشخصية للإنسان ! فمن شاء أن يلحد فليلحد . . ومن شاء أن يتبذل ويتحلل فليفعل ذلك ، وليس لأحد أن يتدخل فى « حريته الشخصية » ! .

٣ ـ حطموا كيان الأسرة بإغراء المرأة بالخروج للعمل وجعلها تنظر إلى البيت والأمومة ورعاية النشء على أنها قيود سخيفة تحد من انطلاقها وحريتها . .

٤ ـ أنشئوا أجيالا من الأطفال بلا أسر لأن الأم مشغولة بالعمل فى الخارج ولا تجد فرصة حقيقية لتربية الأطفال ، فنشأت فرق الهيبيين والخنافس وغيرها وانتشرت فى مساحات واسعة من الأرض .

تلك بعض المفاسد التى أحدثها اليهود فى الحياة الغربية ، وما تزال عجلة الفساد دائرة تأتى كل يوم بجديد (١) .

ثامناً ـ مسئولية المسلمين عن ذلك كله :

وأخيراً لا بد لنا أن نذكر أن الأمة المسلمة مسئولة مسئولية كبيرة عن هذا الفساد الحادث اليوم فى الأرض . إن هذه الأمة لم يخرجها الله ويجعلها خير أمة فى التاريخ لتعيش فى حدود نفسها فحسب ، بل لتكون قائدة ورائدة لكل البشرية :

كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ
تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ

سورة آل عمران ، الآية ١١٠

وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ
الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا

سورة البقرة ، الآية ١٤٣

---

(١) قال اليهود فى كتابهم المسمى « بروتوكولات حكماء صهيون » : إنهم سينشرون الإلحاد والتحلل الخلق فى كل الأرض ، كما قالوا : إنهم سينشرون الشيوعية . ويستطيع الطالب أن يرجع إلى هذا الكتاب إذا شاء ليعرف الدور الكامل الذى قام به اليهود لإفساد الحياة الأوروبية توطئة لإفساد كل الحياة البشرية .

وقد ظل الخير يعم البشرية كلها حين كانت هذه الأمة قائمة برسالتها تنشر النور والهدى فى آفاق الأرض ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله وتدعو إلى الإيمان .

فلما تخلت هذه الأمة عن رسالتها فى القرون الأخيرة ، وأصابها الضعف والوهن تبعاً لذلك ، فقد تولت قيادة البشرية أُمةٌ جاهلية لا تؤمن بالله ورسله ، ولا تحكّم شريعته فى الحياة ، ومن ثم أتيحت الفرصة لشياطين الجن والإنس أن يعيثوا فساداً فى الأرض ، وينشروا الكفر بدلا من الإيمان .

ولن تصلح الأرض مرة أُخرى حتى يعود المسلمون عودة صادقة إلى دينهم الحق وعندئذ يتحقق وعد الله لهم بالاستخلاف والتمكين والتأمين كما تحقق مرة من قبل :

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ سورة النور ، الآية : ٥٥ .

• • •

هذه اللمحة من تاريخ أوربا تعيننا على تفهم الجو الحالى السائد فى الغرب والذى انتشر فيه الإلحاد والفساد الخلق .

لقد نشأ من العوامل الثلاثة السالفة الذكر ، وهى موقف الكنيسة المسيحية ودور اليهود فى الإفساد وتخلى المسلمين عن رسالتهم ، وجود جو معادٍ للدين فى أوربا ، صالح لكل جرائم الفساد أن تنتشر فيه .

ولعل أخطر هذه الجرائم جميعاً هو الإلحاد والفساد الخلق ، لأن الإنسان إذا بعد عن الله ، وعن تطبيق منهج الله فى الأرض ، فلا حدود للهاوية التى يمكن أن ينحدر إليها . والواقع الأوربى الحاضر خير برهان على هذه الحقيقة المؤلمة ، فإن الانفصال القائم بين الدين والعلم ، وبين الدين والحياة ، قد أدى إلى فساد الفطرة البشرية ذاتها ، فضلا عما أصابها من أمراض القلق والجنون والانتحار والأمراض النفسية والعصبية وانتشار الجريمة والإدمان على الخمر والمخدرات حتى بين الشباب المراهقين .

وذلك كله راجع إلى البعد عن الله ، والبعد عن الدين .

قضـية الإلحـــاد
لا تقوم على أساس من العقل ولا من العلم

إن قضية الإلحاد المنتشر فى الأرض اليوم لا تقوم على أى أساس مـن العقـل ولا من العلم ، فى عصر يزعم لنفسه أنه يعيش فى كل أموره على أسـاس مـن العقـل وأساس من العلم .

فهؤلاء الملحدون حين تواجههم قضية الخلق ، وهـى القضـية الـتى تتحـدى كل منكر لوجود الله ، يقولون إن « الطبيعة » هى التى تخلق !

وهذا كلام غير علمى ، وإن كان يـرد على ألسـنة ممـن يسـمونهم « علماء » فى الجاهلية المعاصرة ! .

فما الطبيعة على وجه التحديد ؟ ! .

يقول دارون إن الطبيعة تخلق كل شئ ولا حدَّ لقدرتها ! .

ثم يعود فيقول : إن الطبيعة تخبط خبط عشواء ! .

يا سبحان الله ! .

هذا الإله المزعوم الذى ينسبون إليه الخلق لا هو عاقل ولا هو حكيم . . فهو على حد قول دارون يخبط خبط عشواء وليس عنده تدبير منظم لعملية الخلق ، فكيف بالله يستطيع هذا الإله المزعوم المتخبط أن يدير الكون بهذه الدقة المعجزة التى نشهد آياتها فى كل ما حولنا من شئون الكون والحياة ؟ .

وكيف استطاع هذا الإله المزعوم أن يخلـق الإنسـان على هـذه الصـورة ؟ إن الإنسان كائن عاقل ومدبر وله إرادة وغاية وهدف . فهـل يسـتطيع شىء لا إرادة لـه ولا غاية أن يخلق كائناً له إرادة وغاية ؟! وهل يستطيع شىء لا عقل له أن يخلق كائناً مفكراً له عقل ؟! .

أما العلم فلنسمع فيه شهادة بعض العلماء الذين فتح الله بصيرتهم على جانب من الحقيقة وإن كانوا يعيشون فى ذات الجاهلية المعاصرة التى تلف بلاد الغرب .

يقول عالم الأحياء والنبات « رسل تشارلز إرنست » الأستاذ بجامعة فـرانكفورت بألمانيا : « لقد وضعت نظريات عديدة لـكى تفسر نشـأة الحيـاة فى عـالم الجمادات ، فذهب بعض الباحثين إلى أن الحياة قد نشأت من الـبروتوجين ، أو مـن الفـيروس ،

أو من تجمع بعض الجزيئات البروتينية الكبيرة ، وقد يخيل إلى بعض الناس أن هذه النظريات قد سدت الفجوة التى تفصل بين عالم الأحياء وعالم الجمادات . ولكن الواقع الذى ينبغى أن نسلم به هو أن جميع الجهود التى بذلت للحصول على المادة الحية من غير الحية قد باءت بفشل وخذلان ذريعين . ومع ذلك فإن من ينكر وجود الله لا يستطيع أن يقيم الدليل المباشر للعالم المتطلع على أن مجرد تجمع الذرات والجزيئات عن طريق المصادفة يمكن أن يؤدى إلى ظهور الحياة وصيانتها وتوجيهها بالصورة التى شاهدناها فى الخلايا الحية . وللشخص مطلق الحرية فى أن يقبل هذا التفسير لنشأة الحياة ، فهذا شأنه وحده . . ولكنه إذ يفعل ذلك فإنما يسلم بأمر أشد إعجازاً وصعوبة على العقل من الاعتقاد بوجود الله الذى خلق الأشياء ودبرها .

« إننى أعتقد أن كل خلية من الخلايا الحية قد بلغت من التعقد درجة يصعب علينا فهمها . وإن ملايين الملايين من الخلايا الحية الموجودة على سطح الأرض تشهد بقدرته شهادة تقوم على الفكر والمنطق . ولذلك فإننى أومن بوجود الله إيماناً راسخاً » (١) .

ويقول « أ . كريسى موريسون » رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك فى كتابه بعنوان « الإنسان لا يقوم وحده » : « ومما يدعو إلى الدهشة أن يكون تنظيم الطبيعة على هذا الشكل ، بالغاً هذه الدقة الفائقة . لأنه لو كانت قشرة الأرض أسمك مما هى بمقدار بضعة أقدام ، لامتص ثانى أكسيد الكربون الأوكسجين ، ولما أمكن وجود حياة النبات .

« ولو كان الهواء أرفع (٢) كثيراً مما هو فإن بعض الشهب التى تحترق الآن بالملايين فى الهواء الخارجى كانت تضرب جميع أجزاء الكرة الأرضية وهى تسير بسرعة تتراوح بين ستة أميال وأربعين ميلا فى الثانية ، وكان فى إمكانها أن تشعل كل شىء قابل للاحتراق . ولو كانت تسير ببطء رصاصة البندقية لارتطمت كلها بالأرض ، ولكانت العاقبة مروعة . أما الإنسان فإن اصطدامه بشهاب ضئيل يسير بسرعة تفوق سرعة الرصاصة تسعين مرة ، كان يمزقه إرباً من مجرد حرارة مروره » .

« إن الهواء سميك بالقدر اللازم بالضبط لمرور الأشعة ذات التأثير الكيميائى التى يحتاج إليها الزرع ، والتى تقتل الجراثيم وتنتج الفيتامينات ، دون أن تضر بالإنسان إلا إذا عرض نفسه لها مدة أطول من اللازم . وعلى الرغم من الانبعاثات الغازية من الأرض طول الدهور ـ ومعظمها سام ـ فإن الهواء باق دون تلويث فى الواقع ، ودون تغير فى نسبته المتوازنة اللازمة لوجود الإنسان . وعجلة الموازنة

(١) من مقال « الخلايا الحية تؤدى رسالتها » من كتاب « الله يتجلى فى عصر العلم » .
(٢) يقصد أقل كثافة .

العظيمة هى تلك الكتلة الفسيحة من الماء ـ أى المحيط ـ استمدت منه الحياة والغذاء والمطر والمناخ المعتدل والنبات وأخيراً الإنسان نفسه » .

ويقول فى مكان آخر من الكتاب :

« إننا نقترب فعلا من عالم المجهول الشاسع ، إذ ندرك أن المادة كلها قد أصبحت من الوجهة العلمية مجرد مظهر لوحدة عالمية هى فى جوهرها كهربائية . ولكن مما لا ريب فيه أن المصادفة لم يكن لها دخل فى تكوين الكون ، لأن هذا العالم العظيم خضع للقانون .

« إن ارتقاء الإنسان إلى درجة كائن مفكر شاعر بوجوده هو خطوة أعظم من أن تتم عن طريق التطور المادى ، ودون قصد إبداعى .

« وإذا سلمنا بوجود القصد ، فإن الإنسان قد يعتبر جهازاً ، ولكن ما الذى يدير هذا الجهاز ؟ لأنه بدون أن يدار لا فائدة منه . والعلم لا يعلل من يتولى إدارته وكذلك لا يزعم أنه مادى .

« لقد بلغنا من التقدم درجة تكفى لأن نوقن بأن الله قد منح الإنسان قبساً من نوره » [1] .

ويقول سير « أرثر طومسون » المؤلف الاسكتلندى الشهير تحت عنوان « العلم والدين » : « . . فنحن نقرر عن روية أن أعظم خدمة قام بها العلم أنه قاد الإنسان إلى فكرة عن الله أنبل وأسمى . ولا نجاوز المعنى الحرفى حين نقول : إن العلم أنشأ للإنسان سماء جديدة وأرضاً جديدة ، وحفزه من ثم إلى غاية جهده العقلى ، فإذا به فى كثير من الأحيان لا يجد السلام إلا حين يتخطى مدى الفهم ، وذلك فى اليقين والاطمئنان إلى الله » (٢) .

ولسنا نذكر هذه الشواهد لنستدل بها على وجود الله ، فعندنا كتاب الله يكفينا ، والفطرة التى فطر الله الناس عليها تشهد بذاتها . ولكنا نذكرها فقط لأن بعض الذين فتنهم التقدم العلمى فى هذا القرن يظنون أن العلم يقتضى عدم الإيمان بالله !!

آثار الإلحاد فى واقع البشرية المعاصر

إن هذه الموجة العاتية من الإلحاد ، التى تسود أوروبا شرقها وغربها ، وتنقل بالعدوى إلى بقية أرجاء الأرض ، قد خلفت من الفساد فى الحياة البشرية ما لا مثيل

---

(١) ترجمة محمود صالح الفلكى بعنوان « العلم يدعو إلى الايمان » .

(٢) من كتاب « عقائد المفكرين » للعقاد .

له من قبل ، لأن العالم اليوم قد تداخلت قضاياه وتشابكت ، وصار ما يحدث فى أى جزء منه يؤثر بالضرورة فى بقية الأجزاء ، فكيف إذا كان الأمر بهذه الخطورة وعلى هذه الدرجة من التأثير!

يقول الله فى كتابه الحكيم :

ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾

(سورة الروم : ٤١)

وأى عمل يمكن أن يعمله الناس أسوأ من الإلحاد ؟ وأى فساد أعظم من الفساد الناجم عنه ؟

وإليك بعض النتائج التى ترتبت على هذا الإثم الخطير فى حق الله :

١ ـ القضاء على القيم الروحية والمثل العليا :

إن الإنسان الذى لا يؤمن بوجود الله لا بد أن تنحط معاييره وقيمه ، ونظرته إلى كل شىء فى هذه الحياة . ذلك أن الإيمان هو الذى يقوى الجانب الروحى من الإنسان ويربطه بالمثل العليا إذ يربط القلب البشرى بالله .

المؤمن هو الذى يعرف الهدف الحقيق لحياته فى الأرض ، لأن الله يقول له :

وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾

(سورة الذاريات : ٥٦)

فيعلم من ذلك أنه خلق ليعبد الله لا ليعبد شيئاً آخر غير الله .

والإنسان لا بد أن يعبد . . هكذا خلقه الله عابداً . . والعبادة جزء أصيل من فطرته . فإما أن يعبد الله ، وإما أن يعبد شيئاً غير الله .

فإن عَبَدَ الله فقد التزم بطاعته ، ونفذ أوامره ، فتستقيم حياته فى الأرض ، وينعم فى الآخرة بجنة الله ورضوانه ، وترتقى مشاعره ، لأن الله يوجهه فى كتابه الكريم وسنّة رسوله صلى الله عليه وسلم إلى كل جميل من الخصال . يوجهه إلى عمل الخير والإمتناع عن الشر . يوجهه أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه . يوجهه أن يكون أميناً صادقاً . يوجهه أن يكون عادلا قواماً بالقسط . يوجهه أن يكون نظيفاً فى سره وعلانيته ، نظيف الثياب نظيف البدن نظيف المشاعر نظيف السلوك .

وأما إن كان لا يعبد الله ، فسيعبد شيئاً آخر لا محالة .

يعبد بشراً مثله ، يضع له تشريعات من عند نفسه يحل فيها ويحرم على هـواه .. فيطيعه .

أو يعبد شهواته .. شهوة المال أو شهوة الجنس أو شهوة السلطان ..

أو ـ بتعبير القرآن ـ يعبد الشيطان لأنه فى الحقيقة وجهة كل عابد لغير الله :

﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ۝ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾
(سورة يس : ٦٠ ـ ٦١)

فلننظر إلى الملاحـدة فى شرق الأرض وغـربها ، مـاذا يعبـدون ، وإلى أى شىء توجههم عبادتهم ..

الشيوعى عبد للدولة ، وللنظام الشيوعى ، وللحزب الحاكم ، وللزعيم ، لأنـه لا يملك أن يفتح فمه بكلمة واحدة ضد واحد من هؤلاء ، وإلا كان نصيبه الموت . فهـو ـ رضى أو كره ـ مستذل لهذه الأرباب كلها من أجل لقمـة الخبـز . مـن أجـل أن يعيش !

والغربى عبد للمال ، وللشهوات . المال هو الذى يحـركه ، فـلا يتحـرك إلا مـن أجل الكسب المادى . والمال هو القيمة التى يقوم بها الإنسـان . فـوجوده ومـكانته فى المجتمع مرهون بمقدار ما يتكسب من مال . الله يقول :

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (سورة الحجرات : ١٣)

وهم يقولون : إن أكرمكم عندنا أغناكم .. ولو كان الغنى قد جاء مـن السـلب والنهب والسطو على أقوات ملايين من البشر فى المستعمرات الـتى يـستعمرها الغـرب وينهب أقواتها ، وامتصاص دماء الملايين مـن العمال الـذين يـكدون ويـكدحون ، ثم يسرق عرقهم وجهدهم هذا الرأسمالى ليتجبر بها فى الأرض .

ثم .. أين ينفقون أموالهم التى يجمعونها على هذه الصورة ويصبحون عبيداً لها فى النهاية ؟

إما أن ينفقوها فى شهوات الجسد الجامحة التى تنحط بالإنسان إلى مرتبة الحيوان .

وإما أن ينفقوها فى الخراب والتدمير فى الصراع الوحشى الدائر فى الأرض !

تلك عباداتهم وذلك هو السلوك المترتب على عبادتهم . فمتى يشعرون بالقيم العليا أو يستجيبون لدواعيها ؟

٢ - الإخلال بالتوازن فى حياة الإنسان :

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾

(سورة التين : ٤ - ٦)

لا يستطيع الإنسان أن يحافظ على فطرته التى فطره الله عليها « فى أحسن تقويم » إذا بعد عن طريق الله . بل إنه عندئذ يفقد توازنه فيقع « أسفل سافلين » .

ذلك أن الإيمان هو الذى يحفظ التوازن بين العنصرين المكونين لفطرة الإنسان :

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾

(سورة ص : ٧١ - ٧٢)

فالإنسان مُكوّن كما يخبرنا العليم الخبير من قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله . وهذه النفخة العلوية من روح الله هى التى أعطت الإنسان شفافية روحه ووعيه وإدراكه وقدرته على الإيمان بالغيب ، ونفت عنه عتامة الطين وغلظته . وبهذه النفخة العلوية توازن تكوينه وصار فى أحسن تقويم ، وصارت له مطالب وغايات روحية إلى جانب مطالب الجسد وغاياته .

فإذا كفر الإنسان وألحد فقد أغلق النافذة المضيئة التى يستمد منها النور ، ولم يبق له إلا عتامة الطين وغلاظة الحس . أى لم يبق له إلا الماديات والمحسوسات . إليها يتطلع ، وفيها ينفق الجهد ، وإليها يعود . وعندئذ تجذبه ثقلة الأرض فلا يستطيع أن يتوازن إزاءها ، لأن الذى يمنحه التوازن إزاءها هو انطلاقة الروح التى تصل قلبه بالله ، وتجعله يؤمن باليوم الآخر ويعمل حسابه فى جميع أفعاله وأقواله فلا يسفل ولا يتدنى . فإذا فقدها فَقَدَ توازنه وأصبح أسفل سافلين كما يخبر الله عنه فى كتابه الكريم .

والذى نراه اليوم فى الجاهلية المعاصرة هو مصداق ذلك القول ، فلأى شىء يسعى الناس ، وعلى أى شىء يتصارعون ؟ لمطالب الجسد ومتاع الجسد وشهوات الأرض . وفى النهاية يفقد الإنسان إنسانيته ويعود كالحيوان ، بل أسوأ من الحيوان :

أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾

(سورة الأعراف : ١٧٩)

٣ ـ القضاء على وازع الضمير :

الضمير هو « النفس اللوامة » التى يقسم بها الله جل شأنه فى كتابه العزيز :

لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾

(سورة القيامة : ١ ـ ٢)

وهذا القسم من الله العظيم الجليل جل شأنه له دلالته ، فإن الله العظيم لا يقسم إلا بشىء عظيم[1]. فإذا أقسم الله سبحانه وتعالى بالنفس اللوامة ، التى تلوم الإنسان على فعل الشر وتدفعه إلى عمل الخير ، فلا شك أن هذه النفس ذات وزن كبير فى ميزان الله . وإنها لكذلك . لأنها هى المحور الحقيقى لارتقاء الإنسان ومحافظته على قيمه العليا ، كما أنها المحور الحقيقى لاستقامة أمر البشرية فى واقع حياتها .

لما الإنسان إذا فَقَدَ النفس اللوامة ؟ إن نفسه حينئذ تكون هى النفس الأمارة . . أى الأمارة بالسوء . . منها ينبع السوء ، ومنها ينتشر الشر فى أرجاء الأرض .

والنفس الأمارة بالسوء لا يهذبها ولا يرتق بها ، ولا يرفعها إلى مرتبة النفس اللوامة إلا الإيمان بالله ، الذى يجعل الإنسان مستحقاً لرحمة الله المطهرة للنفس من دنسها .

إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ (سورة يوسف : ٥٣)

أما الإلحاد والكفر فهو يذهب بالنفس اللوامة ولا يبق إلا النفس الأمارة بالسوء .

ولقد يخيل إلينا لأول وهلة أن أوروبا الملحدة ذات ضمير . فالتاجر هناك لا يغش ولا يخدع . والعامل لا يكذب ولا يخلف مواعيده . وأمور التعامل الفردى تقوم على الصدق والأمانة .

وهذا صحيح فى مظهره . ولكنها فى الحقيقة ليست أخلاقاً بالمعنى الحقيق للأخلاق . إنما هى أخلاق التاجر الذكى الذى يحرص على كسب ثقة الزبون إلى آخر المدى ، فيتودد إليه بخصال الصدق والأمانة والإتقان .

أما المحك الحقيق للضمير فله مجال آخر . .

فأين الضمير فى معاملة الزنوج فى أمريكا بالفظاظة والغلظة إلى حد القتل فى عرض الطريق ؟

---

(١) يأتى القسم فى القرآن منفيا أحيانا ومثبتا أحيانا أخرى وكلاهما قسم . فمن أمثلة النفى « لا أقسم بيوم القيامة » « فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم » ومن أمثلة الإثبات « والضحى ، والليل إذا سجى » « والفجر ، وليال عشر » .

وأين الضمير فى استعمار الشعوب ونهب خيراتها وإبقائها فى حالة من الفقر والجهل والمرض والضعف والهوان ؟

وأين الضمير فى موقف هيئة الأمم من قضية فلسطين ، وتحويل أهلها إلى لاجئين ؟

وأين الضمير فى تقتيل المسلمين فى الفلبين وغيرها من بقاع الأرض ؟

وأين الضمير فى إلقاء فائض القمح فى بعض البلاد فى الأنهار والبحار لكى لا ينخفض سعره فى الأسواق بينما الملايين فى بقاع الأرض يتضورون جوعاً ولا يجدون حبة من القمح ؟

وأين الضمير فى إغراء الناس بالفساد الخلق على أوسع نطاق لكى يكسب بضعة ألوف من الناس ، ملايين الملايين من الأموال من أدوات الزينة والأزياء والأفلام السينمائية والصور الخليعة والخمر والمخدرات ؟

كلا ! إن الإلحاد لا يبقى على النفس اللوامة إنما يغذى النفس الأمارة بالسوء ! .

٤ - اختلال الأمن والسلام فى المجتمع والعالم :

لعل صورة العالم اليوم هى أسوأ صورة له فى التاريخ . .

فلم تمر على العالم فترة من فقدان السلام واضطراب الأمن أحلك مما مر به فى هذا القرن الأخير .

الحرب العالمية الأولى قتل فيها عشرة ملايين من الشباب ، والحرب العالمية الثانية قتل فيها أربعون مليوناً من البشر . . ولم تستقر أحوال العالم ما بين الحربين ولا قبلهما ولا بعدهما إلى هذه اللحظة .

والصراع الدائر لا يكف فى أطراف الأرض ، ولا تكاد تجد مكاناً ينعم بالاستقرار .

ومن أجل أى شىء يقوم هذا الصراع ؟

هل هو صراع لإحقاق الحق فى الأرض ونشر العدل بين الناس ؟

هل هو صراع لإعطاء الضعيف حقه ووقف القوى عن العدوان على الضعيف ؟

ليس هناك صراع واحد من الصراعات القائمة بين الدول اليوم يدور حول إحقاق الحق ونصفة المظلوم . . إنما كلها صراع دائر على مزيد من التسلط ومزيد من العدوان !

الدول التى تسمى نفسها « الدول الكبرى » تتصارع فيما بينها . . ولكن على

أى شيء ؟ على حيازة أكبر عدد من « المستضعفين » والتسلط عليهم ! كما تتصارع الذئاب ول الفريسة ، ينهش بعضها بعضاً لا دفاعاً عن الفريسة لتنجو ، ولكن ليستأثر بها كل ذئب لنفسه دون بقية الذئاب .. والفريسة مأكولة أياً كانت نتيجة الصراع !

قانون الغاب هو الذى يحكم الناس فى الأرض فى غيبة من قانون الله .

قانون الغاب يقول : الغلبة للقوة لا لصاحب الحق . القوى يأكل الضعيف .

وقانون الله يقول :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾

(سورة النحل : ٩٠)

ويقول :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

(سورة المائدة : ٨)

ولكن أنّى للكفار والملحدين أن يطبقوا قانون الله ؟! بل الأحرى بهم أن يطبقوا القانون الذى تتعامل به الوحوش فى الغاب ، لأنهم حين يفقدون صلتهم بالله يفقدون إنسانيتهم ويصبحون مثل تلك الوحوش .

وليس الأمن الدولى وحده هو الذى فقده الناس حين قطعوا صلتهم بالله رب الكون والناس ..

إن مجتمعاتهم كذلك قد فقدت الأمن .

فإحصاءات العالم كلها تقول إن نسبة الجريمة فى تزايد مستمر . سواء جرائم القتل أو جرائم اغتصاب الأموال واغتصاب الأعراض .

وفى كل عام تجتمع المؤتمرات فى شتى بقاع الأرض لتتدارس هذه الظاهرة الخطيرة ، يحضرها رجال القانون ورجال الاجتماع وعلماء النفس وعلماء الجريمة وغيرهم من « العلماء » .

ثم تطلع الإحصاءات الجديدة تقول : إن نسبة الجريمة تزداد باستمرار ..

بل ليس الأمن الدولى ولا أمن المجتمع وحدهما هما اللذان أصابهما الخلل والاضطراب .

إنه الأمن النفسى كذلك . أمن كل نفس بذاتها ، وفى حدود نفسها !

ونظرة إلى الإحصاءات تطلعنا على هذا الأمر . فالإحصاءات لا تقول إن نسبة الجريمة وحدها هى التى تتزايد ، إنما تقول كذلك : إن نسبة أمراض القلق والجنون والانتحار والاضطربات النفسية والعصبية هى كذلك فى تزايد مستمر !

وصدق الله العظيم ، فقد أخبرنا أن المصدر الحقيق لطمأنينة النفس هو ذكر الله والاتصال بالله :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾

(سورة الرعد : ٢٨)

فمن أين للناس طمأنينة القلب حين يبعدون عن الله ، بل حين يشمئزون من ذكر الله :

﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾

(سورة الزمر : ٤٥)

٥ - فساد الفطرة الإنسانية والهبوط إلى مستوى الحيوان :

أين « الإنسان » فى هذه الدوامة التى تلف البشرية اليوم فى بعدها عن الله ؟ .

هذا الشاب الذى نكث شعره وأسدله ولبس الكعب العالى والملابس الملتصقة بوسطه ومشى يتكسر ويتخلع كالبنت الخليعة . . هل هو « إنسان » ؟

هذه الفتاة المسترجلة التى تدخن وتشرب الخمر وتلبس ملابس الفتى وتتشرد معه فى مجاميع الهيبيز . . هل هى « إنسانة » ؟

وهذه القطعان الهائمة من البنات والأولاد تمارس الجنس فى الطريق والغابة والملهى والمرقص والنادى وفى أى مكان . . هل هم آدميون ؟

هذه النساء الكاسيات العاريات المتبرجات فى الطريق بكل زينة يستعرضن أجسادهن لكل نظرة جائعة وسعار مجنون . . هل هن آدميات على مستوى « الإنسان » ؟

هؤلاء الرجال الذين لا يغارون على أعراضهم ، لا على نسائهم ولا بناتهم ولا أخواتهم ، ولا على أعراض الآخرين ، لأن قضية العرض كلها لا تخطر لهم على بال هل بق لهم شيء من فطرة « الإنسان » ؟

وصنوف غيرها وصنوف من الانتكاس إلى مستوى الحيوان ، بل أسوأ من الحيوان .. هل تعتبر فى عداد « الإنسان » ؟

لقد تجاوز الفساد حدود الأخلاق ..

إن الفطرة ذاتها قد مسخت فلم تعد هى فطرة الإنسان ..

أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾

(سورة الملك : ٢٢)

موقف المسلم من قضية الإلحاد

إن هناك ظروفاً معينة كما رأينا قد أثرت فى الحياة الأوروبية وأدت إلى انتشار الإلحاد هناك .

ولسنا نقول : إن هذه الظروف تبرر ما حدث هناك من الكفر والتبجح به ، فلا شىء على الإطلاق يبرر الكفر بالله ، والله سبحانه وتعالى يقول :

بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾

(سورة القيامة : ١٤ ـ ١٥)

وقد أعطى الله الأوروبيين عقولا يفكرون بها كما أعطى كل البشر ، وأرسل رسله لبيان الحق :

رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾

(سورة النساء : ١٦٥)

فإذا أبطل الناس عمل عقولهم التى أعطاهم الله إياها ، ولم يستمعوا لرسلهم أو حرفوا كلامهم ، فهم مسئولون عن ذلك كله أمام الله يوم القيامة ، ولا يغنيهم يومئذ أن يقولوا : إنا كنا عن هذا غافلين :

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾

(سورة الأعراف : ١٧٢)

ولكنا نقول فقط : إن هذه هى الظروف الواقعية التى أحاطت بالناس فى أوروبا وكان من نتائجها انتشار الإلحاد بينهم هناك .

فما موقف المسلم من قضية الإلحاد ؟

إن موقفه واضح تماماً . فهو يرد هذه القضية من أساسها ، ويبطلها إبطالا كاملا . فليس فى أصول دينه ولا فى تاريخه ما يؤدى إلى شىء مما حدث للناس فى أوروبا من اختلالات .

فأصول الدين قد تكفل الله بحفظها من الضياع وحفظها من التحريف .

يقول الله عن القرآن :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر : ٩)

كذلك قيض الله لسنّة نبيه صلى الله عليه وسلم رواة حافظين وعلماء مدققين حفظوا السنّة ومحصوا روايتها ونفوا الدخيل منها وأبقوا الصحيح ودونوه .

ومن هنا لم يحدث فى العقيدة تحريف كما حدث فى عقائد أهل الكتاب .

ثم إن الدين المنزل من عند الله بقى على صورته المنزلة عقيدة وشريعة ، فلم يقسم كما فعل النصارى فى دينهم ، فجعلوه عقيدة منفصلة عن الشريعة . وبقى الإسلام قروناً عديدة يمارس فى واقع الأرض بصورته المتكاملة فيحكم علاقة العبد بالرب ، وعلاقات الحاكم بالمحكوم وعلاقات الناس بعضهم ببعض بغير تفريق بين جزء من هذا الدين وجزء .

وحتى حين انحرف أغلب المسلمين فى القرون الأخيرة عن حقيقة الإسلام ففصلوا الدين عن الدولة ، ووقعوا بذلك فى شرك الطاعة والاتباع ، فإن انحراف قرن أو قرنين لا ينفى واقع اثنى عشر قرناً كان المسلمون فيها يعتبرون الإسلام عقيدة وشريعة بغير تفريق ، بعكس ما حدث عند النصارى فى أوروبا حيث لم يطبق دين الله فى صورته المتكاملة قط .

ثم إن الإسلام ليست له « كنيسة » كالتى قامت فى أوروبا تحرف الدين المنزل وتفسده . وليس له « رجال دين » ولا « كهنوت » يحتفظون بالأسرار ويستحوذون بهذه الدعوى على أرواح الناس وعقولهم . إنما فيه علماء وفقهاء فى أمور الدين ويستنبطون الأحكام المستمدة من الشريعة الثابتة المحفوظة ، تنفيذاً لأمر ربهم :

﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾

(سورة التوبة : ١٢٢)

وهؤلاء العلماء والفقهاء مجتهدون ، يخطئون ويصيبون ، وليس لأحد منهم قداسة كرجال الكهنوت ، ولا يحلون ولا يحرمون من دون الله كما وقع فى تاريخ النصرانية . والناس يحترمونهم ويوقرونهم لعلمهم وفضلهم ولكنهم لا يتخذونهم أرباباً من دون الله كما صنع أهل الكتاب بأحبارهم ورهبانهم :

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾

(سورة التوبة : ٣١)

ثم إن الإسلام لا يعرف الفصل بين الدين والعلم ، ولا بين الدين والحياة كما وقع فى حياة النصارى فى أوروبا .

إن الإسلام دين الفطرة . وليس فى الفطرة انفصال بين الدين والعلم ، ولا بين الدين والحياة !

ففى النفس البشرية نزعة فطرية إلى التدين ، بما أودع الله فى الفطرة من التوجه إلى الخالق وعبادته ، ونزعة فطرية إلى تعلم العلم واستخدام ثماره فى عمارة الأرض :

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾

(سورة البقرة : ٣١)

﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾

(سورة هود : ٦١)

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾

(سورة الجاثية : ١٣)

ولا تعارض فى الفطرة السوية بين هاتين النزعتين الفطريتين ، بل تسير النزعة إلى الإيمان والنزعة إلى المعرفة جنباً إلى جنب ، وتتجهان وجهة واحدة .

وإذا كانت الجاهلية الأوروبية المعاصرة قد فصلت بين هاتين النزعتين الفطريتين وأقامت بينهما العداء والصراع ، وأنشأت غروراً عقلياً وفتنة بالعلم تزيد الإنسان بعداً عن الله كلما زادت حصيلته من العلوم والمعارف ، كما قال القرآن فى وصف الجاهليات السابقة فى التاريخ :

فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ

(سورة غافر : ٨٣)

إذا كانت الجاهلية المعاصرة قد صنعت ذلك فإن الإسلام لا يعرف هذه التفرقة على الإطلاق ، وكتاب الله ملىء بالتوجيهات للناس أن يتعلموا ويتدبروا فى خلق الله ويستنبطوا السنن التى يجرى بها نظام الكون ويستفيدوا منها ، ويكفى أن يكون الأمر الأول الموجه لرسول الله صلى الله عليه وسلم هو هذه الكلمة العظيمة : « اقرأ » التى تحمل التوجيه الشامل لطلب المعرفة . ثم يوجه الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يستزيد من المعرفة « رب زدنى علماً » . ويقول للمسلمين جميعاً :

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾

(سورة البقرة : ١٦٤)

ويقول لهم :

وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾

(سورة الإسراء : ١٢)

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « طلب العلم فريضة » (١) .

ولم يعرف تاريخ الإسلام الواقعى تلك الفرقة المصطنعة بين الدين والعلم ، ولم يجر بينهما عداء ولا صراع ، إنما ازدهرت الحركة العلمية الإسلامية تحت ظل العقيدة بل انبثقت منها انبثاقاً أول مرة وظلت تنمو فى ظلها على الدوام .

---

(١) رواه ابن ماجه .

كذلك لم يوجد فى التاريخ الإسلامى **ذلك الغرور العقلى** ولا تلك الفتنة بالعلم التى تبعد الإنسان عن الله بمقدار ما يحصل من العلم !! إنما العكس فى حس المسلم هو الصحيح . فالعلم منحة من الله . هو الذى علم آدم من قبل :

وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا

(سورة البقرة : ٣١)

وعلم بنيه من بعده : « الرحمن ، علم القرآن ، خلق الإنسان علمه البيان » .
فكلما ازداد المسلم علماً زاد قرباً من الله وشكراً له على ما أولاه من نعمة :

إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ

(سورة فاطر : ٢٨)

كذلك لا انفصال فى الإسلام بين الدين والحياة . .
لا رهبانية فى الإسلام . .
« ألا إنى لأتقاكم لله ، ولكنى أصوم وأفطر ، وأقوم وأنام ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى » (١) .
وإذا كانت الجاهلية الأوروبية قد فصلت بين الدين ونشاطات الإنسان المختلفة فى الحياة ، وأوجدت حالة نفسية وعقلية تزداد بعداً عن الله كلما فتحت عليها أبواب الرزق والتمكين فى الأرض ، فأصبحوا كما وصف الله قوم هود :

أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعۡبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشۡتُم بَطَشۡتُمۡ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾

(سورة الشعراء : ١٢٨ ـ ١٣٨)

---

(١) رواه مسلم .

إذا كانت الجاهلية الأوروبية قد صنعت ذلك فإن الإسلام - دين الفطرة - لا يعرف هذه التفرقة ولا يقرها . . فالله يقول للناس :

﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ (الأعراف : ٣١)

ويقول : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾

(سورة الأعراف : ٣٢)

ويقول :

﴿ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾

(سورة هود : ٦١)

ويقول :

﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾

(سورة القصص : ٧٧)

ويقول :

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ﴾

(سورة الملك : ١٥)

لذلك قامت الحركة الحضارية الإسلامية فى ظل العقيدة بلا صراع بينهما ولا عداء ، وكانت بذلك فريدة فى التاريخ . حركة تعمر الأرض ، وتجوب الآفاق وتكشف مجاهيل الأرض ، وتستثمر خيراتها بالفلاحة والصناعة والتجارة ، وهى فى كل هذا عابدة لله ، تنشر النور الربانى فى الأرض بنشر العقيدة الإسلامية ، وتقيم العدل الربانى بين الناس بتطبيق شريعة الله .

• • •

ليس فى أصول هذا الدين ولا فى تاريخه شىء واحد مما حدث فى أوربا وانتهى هناك بالإلحاد والبعد عن طريق الله . إنما يقوم الإسلام ابتداء على ربط القلب البشرى بالله ، وتوثيق هذه الرابطة فى كل عمل أو فكر أو شعور :

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ ﴾

سورة الأنعام ، الآيتان ١٦٢ ، ١٦٣ .

ومن هذه الرابطة الحية التى تربط القلب البشرى بالله ، ينطلق المسلم يتعلم ويعمل ، يبتغى من فضل الله ويعمر الأرض ، ويأخذ نصيبه من المتاع المعقول المحلل له من عند الله شاعراً بذلك كله أنه يقوم بدور الخلافة فى الأرض :

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً

سورة البقرة ، الآية ٣٠ .

وقائم بغاية وجوده فى الأرض من عبادة خالصة لله :

وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾

سورة الذاريات ، الآية ٥٦ .

لذلك لا يتصور أن يتجه مسلم واحد فى الأرض إلى الإلحاد ! .

بل إنها الطامة الكبرى أن يجىء « مسلمون » من الذين كان المفروض فيهم أن يكونوا رواد البشرية إلى الإيمان وإلى الحق وإلى المنهج الربانى الأصيل . . يجىء هؤلاء « المسلمون ! » فيتخلون عن دينهم الذى أنعم الله به عليهم حيث قال لهم :

ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا

سورة المائدة ، الآية ٣ .

ويروحون يقلدون أوربا فيما وصلت إليه فى جاهليتها من سوء ، فيعتنقون الأفكار الهدامة المنتشرة هناك ، ويتخذون الإلحاد مثلهم ، ويغرقون مثلهم فى التحلل الخلق ويدعون إليه .

ألا إنها الهزيمة الداخلية الكامنة فى نفوسهم إزاء الغرب ، هى التى تؤدى بهم إلى هذا التقليد الأعمى : تقليد القرود أو تقليد العبيد ! .

وما يمكن لإنسان عاقل ، فضلا عن الإنسان المسلم ، أن يضع قدمه مختاراً فى الهاوية ، إلا أن يكون قد أصابه خبل فى فكره ، أو أصابه المسخ الذى يشوه الفطرة ويفسد طبائع النفوس .

الباب الثاني

الإيمان بالملائكة

الإيمان بالملائكة جزء من الإيمان . فلا يتم إيمان المسلم إلا إذا آمن بوجودهم جملة ، وبمن ورد ذكرهم فى القرآن والحديث على وجه التفصيل ، وبأعمالهم التى كلفهم الله بأدائها .

ووجوب الإيمان بالملائكة وكونه جزءاً من الإيمان وارد فى نصوص كثيرة من القرآن والحديث .

فمما جاء فى القرآن قوله تعالى :

لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

سورة البقرة ، الآية ١٧٧ .

وقوله تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾

سورة النساء ، الآية ١٣٦ .

وقوله تعالى :

قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾

سورة البقرة ، الآيتان ٩٧ ، ٩٨ .

وجاء فى حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : فأخبرنى عن الإيمان . قال : الإيمان أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره . قال : صدقت ، إلى أن قال : هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم ، رواه مسلم .

ومن أقرب الأسباب لوجوب الإيمان بالملائكة وما يؤدون من أعمال كلفهم الله بها (١) أن الوحى الذى نزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، والذى تلقينا ديننا عن طريقه وصرنا به مسلمين قد نزل به جبريل عليه السلام - وهو واحد من الملائكة المكرمين - على قلب الرسول صلى الله عليه وسلم . فلا بد للمسلم إذن أن يؤمن بوجود الملائكة وقدرتهم على أداء أعمال معينة كالنزول بالوحى على الأنبياء والرسل ليتم إيمانه بالكتاب الذى يتلقى دينه عنه وهو القرآن .

والله يبين لنا أن خلق الملائكة وتعدد أشكالهم هو من آيات القدرة الربانية :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۚ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

سورة فاطر ، الآية : ١ .

ومعرفتنا بآيات القدرة الربانية فى شتى مجالاتها يزيدنا معرفة بالله ، فنعظمه ونوقره سبحانه بما ينبغى لجلال وجهه وعظيم سلطانه ، ونعبده حق عبادته ، فنفوز برضاه وجنته .

ولا شك أن فى عالمنا المحسوس آيات كثيرة تدل على قدرة الله المعجزة ، كل منها كفيل بأن يهدى البصيرة المتفتحة إلى عظمة الله . لذلك يوجهنا الله إليها فى كتابه الكريم :

﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾

سورة الذاريات : ٢٠ ، ٢١ .

ولكن إيماننا بعظمة الله وقدرته المعجزة يزداد ولا شك حين نعلم أنه ليس العالم المحسوس وحده هو كل ما خلق الله من كائنات . وأن هناك عوالم أخرى غير مرئية لنا هى من خلق الله كذلك ، وأن فيها من العجائب بالنسبة لتقديرنا البشرى ما يعجز الخيال عن تصوره فضلا عن استيعابه .

---

(١) بعد النصوص الصريحة الدالة على وجوب الإيمان بهم .

فإذا علمنا فوق ذلك أن هذه الكائنات ذوات أجنحة ، فإن حسنا ليؤخذ -خاصة بعد أن نعرف مهامها وأعمالها- لأن الكائنات ذوات الأجنحة المعلومة لنا فى عالمنا المحسوس من طيور أو حشرات طائرة ، مختلفة تماماً عن هذه الكائنات التى تقوم بأعمال هائلة فى السموات والأرض .

والطيران فى الجو حلم قديم من أحلام الإنسان حاوله منذ أقدم العصور ولكنه عجز عنه إلا باستخدام وسائل صناعية كالطائرة والصاروخ . فمعرفة الإنسان بأن هذه الكائنات الهائلة تطير مباشرة بأجنحتها يهز وجدانه بلا ريب ، ويجعله يحس -من خلال عجزه- بالقدرة المعجزة التى خلق الله بها هذه الكائنات .

فإذا زاد علمه أكثر من ذلك فعرف أن الملائكة ليسوا على مرتبة واحدة من حيث عدد أجنحتهم ، فمنهم ذوو أجنحة مثنى وثلاث ورباع ، فإنه يزيد تعظيماً لله الخالق الذى يزيد فى الخلق ما يشاء وهو على كل شىء قدير .

وإذا عرف بعد ذلك كله أن هذه الكائنات مخلوقة من النور كما روى مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم » (أى من الطين) فإن عجبه لا يقف عند حد . فالنور كما يراه الإنسان فى عالمه المحسوس أشعة تنطلق مستقيمة فى الفضاء ، لا مريدة ولا عاقلة ، ولا تعمل شيئاً غير أن تضىء الجسم الذى تسقط عليه بغير إرادة منها ولا قصد ! أما أن تكون من هذا النور كائنات تتحرك وتتكلم ، وتتشكل بأشكال شتى (١) ، وتقوم بأعمال معينة تكلف بها ، فأمر وراء إدراك الحس ، وإن كان الإنسان يحاول أن يدركه فيما وراء الحس .

وحقيقة أن خلق الله آدم من قبضة من طين الأرض معجزة هائلة يقف الحس أمامها عاجزاً متحيراً ، لأن النقلة بعيدة بين قبضة الطين وبين هذا البشر ذى الحواس والإدراك والقصد والإرادة والقدرة على تعمير الأرض واستخدام طاقات الكون المسخرة له من عند الله .

---

(١) جاء فى حديث جبريل : « عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قال : « بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم ، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه وقال : يا محمد : أخبرنى عن الإسلام . . » قال : ثم انطلق فلبث ملياً ثم قال لى « يا عمر : أتدرى من السائل »؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » رواه مسلم .

ولكن هذه النقلة على ضخامتها أيسر فى حس الإنسان من خلق الكائنات من النور . فالطين على أى حال مادة مجسمة ، وجسم الإنسان مادة ماثلة للعيان . أما النور فإنه ليس مادة . . فكيف يكون مادة للخلق إلا أن تكون قدرة الخالق المبدع متجاوزة كل حد يستطيع العقل أن يصل إليه . فتبارك الله أحسن الخالقين .

وحين يأخذ الإنسان حظه من استشعار عظمة الله الخالق المبدع ، فإن قلبه يأنس لهذه المخلوقات ترف حوله وتملأ جنبات الكون .

وفرق كبير فى حس الإنسان بين أن يكون هذا الكون من حوله خاوياً موحشاً وبين أن يكون عامراً بكائنات حية ، بينه وبينها اختلاف .

فإذا كانت الكائنات الحية فى الأرض من نبات وحيوان ـ والحيوان على الأخص بما فيه من الإنسان من أوجه شبه وأوجه اختلاف ـ تؤنس الإنسان وتبهج قلبه ، وتنفى عنه الشعور بالوحشة فى سكناه لهذه الأرض ، فيروح يتأملها ويتملاها ، ويفرح كلما لقى واحداً منها على مقربة منه .

إذا كان هذا يحدث بالنسبة لعالم الأرض المحدود المحسوس ، فإنه حرى أن يحدث بالنسبة للكون الكبير ، ما يقع منه فى دائرة الحس وما يقع وراء الحس من آفاق .

وقد رأينا أن الحيوان بصفة خاصة يلفت حس الإنسان ، فيروح يعقد المقارنات بين نفسه وبينه ، فيجد بعض المشابه من ناحية الجسد وبعض تصرفاته ، ويجد اختلافات كبيرة من جانب العقل والروح .

فإذا كانت المخلوقات الطينية تؤنس وحشته فى الأرض ، فإن تلك المخلوقات النورانية تؤنس وحشته فى الكون الواسع الذى هو جزء منه ، فيصبح أروح نفساً وأكثر طلاقة مما لو حبس نفسه فى دائرة المادة والحس .

• • •

ثم إن الملائكة مشغولة ليل نهار بالتسبيح للملك القدوس الواحد القهار :

يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾

سورة الأنبياء ، الآية : ٢٠ .

ومن هنا نعرف أن أهم ما يقومون به تسبيح الله وتعظيمه وتنزيهه حيث هيأهم لهذا .

ألا ما أروعها صورة ! .

إن الإنسان يحاول أن يُسبّح لله فترة من النهار أو جانباً من الليل فيفتر ولا يقوى على المضى فى التسبيح ، لأن له جسداً يريد أن يأكل وأن يشرب وأن يرتاح وينام . ولأن له فكراً لا يكف عن الانشغال بمطالب الحياة الدنيا .

ومن رحمة الله بالإنسان أن لم يكلفه ما كلف الملائكة من التسبيح الدائب ليل نهار ! فإنه ـ سبحانه ـ وقد خلق للإنسان جسداً يشتهى وعقلا ينشغل بالتفكير ، جعل عبادته المفروضة عليه من نوع آخر غير عبادة الملائكة ، فيها التسبيح لله،نعم ، ولكن بقدر محدود فى الصلاة وشعائر التعبد . ولكنه من رحمته بعباده من بنى الإنسان جعل حركة أجسامهم وعقولهم عبادة إذا توجهوا بها إلى الله ، والتزموا فى شأنها بما أنزل الله . وهكذا أصبح سعى الإنسان وراء الرزق عبادة ، وعمارته للأرض عبادة ، وطعامه وشرابه عبادة ، وزواجه ونسله عبادة ، ونومه وقيامه عبادة ، إذا ابتغى فى ذلك كله مرضاة الله ، وعمل فيها وفق أوامر الله . وكذلك يعم التناسق فى خلق الله بين طاقة المخلوق وما كلف به من ألوان العبادة . . وكلهم عبادٌ لله عابدون ! .

نعم ! ذلك من رحمة الله بالإنسان .

ولكن الإنسان مع ذلك ـ من جانبه الروحى الذى يربطه بالملائكة ـ ما يفتأ يعقد المقارنة بينه وبين الملائكة فى قدرتهم على التسبيح لله بالليل والنهار لا يفترون .

ويعلم الإنسان أنه لم يكلف بذلك ولا يقدر عليه ، ولكن وجود هذا النموذج الرائع أمامه يستحثه على مزيد من العبادة ومزيد من التقرب إلى الله بالأعمال الصالحة وكلما حاول ذلك زادت شفافية روحه وصار أقرب إلى الملائكة الأطهار .

• • •

ويزيد أنس الإنسان بالملائكة حين يعلم أنهم قريبون منه وأن بعضهم يسير معه حيث سار وبعضهم يتنزلون عليه بالسكينة والطمأنينة كلما أقبل على الله وتوجه إليه فى حرارة وإخلاص .

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾

سورة فصلت ، الآية : ٣٠

ولقد رأى المسلمون الملائكة فى بدر رأى العين . رأوهم يقاتلون معهم الكفار وينزلون الهزيمة بهم :

﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾

سورة الأنفال ، الآية : ١٢ .

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾

سورة آل عمران ، الآيات : ١٢٣ ـ ١٢٦ .

وإذا كانت هذه خصوصية لأهل بدر فى موقفهم التاريخي الذى مكن للإسلام فى الأرض بتأييد من الله ، وكتب صفحة من أروع صفحات التاريخ ، فإن الله يخبرنا أن الملائكة تتنزل على الذين قالوا : ربنا الله ثم استقاموا ، ولو لم يروهم بأعينهم ، وإنما علامة حضورهم هى السكينة والطمأنينة التى يحسها هؤلاء ، لأن الملائكة تتنزل عليهم : « ألا تخافوا ولا تحزنوا » كما تتنزل عليهم بالبشرى التى تزيد القلب سكينة وطمأنينة : « وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون » .

كما يحدثنا القرآن كذلك أن الملائكة تنزلت بالسكينة على المؤمنين فى بيعة الرضوان :

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾

سورة الفتح ، الآية : ٤ .

فتنزل الملائكة بالتأييد والتثبيت والطمأنينة والبشرى لم يكن مقصوراً على أهل بدر الكرام ، إنما هؤلاء خصهم الله فى لحظة شفافيتهم وتجردهم لله وإخلاصهم له وحرارة توجههم إليه بأن يروا الملائكة رأى العين . ولكن المؤمن عرضة فى كل

لحظة تصل فيها حرارة توجهه إلى الله درجة معينة أن تصافح الملائكة روحه وتسكب فى قلبه السكينة والطمأنينة ، وأن يحس هذا إحساساً ولو لم ير الملك بعينيه . فأى سعادة أكبر من هذه السعادة ، وأى رفعة أجمل من هذه الرفعة ؟ .

أوَلا يحب الإنسان أن تكون هذه المخلوقات الشفيفة النيرة قريبة منه ، تدفع عنه السوء ، وتسكب فى قلبه الراحة والطمأنينة ، خاصة إذا كان فى موقف الخوف أو الضيق الذى لا مخرج منه إلا بمدد من الله ؟ .

وقد تدفعه هذه الرغبة أن يكون فى المرتبة التى يستأهل فيها هذا العون وهذه الرحمة من الله ، تحملها إليه الملائكة الأطهار ، وذلك باخلاص القلب لله والتوجه إليه فى حرارة وصدق ، يساندها العمل الصالح الذى يتقبله الله .

• • •

وكيف يكون شعور المؤمن حين يعلم أنه حين يقرأ الفاتحة فى الصلاة ترد الملائكة تقول : آمين ؟! أوَلا يحفزه ذلك إلى الإحسان فى أداء الصلاة حتى تكون جديرة بهذه المشاركة النورانية من جانب الملائكة ؟ .

وحين يعلم أن كل عبادة يتقرب بها الإنسان إلى الله ، وكل عمل طيب يعمله ، وكل لفظة خيرة يتلفظ بها تحملها الملائكة من توها إلى الله فى عليائه ، تقول له : - وهو المطلع على كل شىء - إن عبدك فلاناً يتقرب إليك . إن عبدك فلاناً يذكرك ويثنى عليك . إن عبدك فلاناً يحمدك ويشكرك . إن عبدك فلاناً قد أحسن إلى عبد من عبادك . إن عبدك فلاناً قد دعاه الشيطان إلى الشر فلم يجبه . . حين يعلم ذلك كله ألا يحب أن تكثر الملائكة من ذكره عند الله بالخير ، فيكثر من صالح الأعمال ؟ .

• • •

وظائف الملائكة

من تمام العلم بهذه الكائنات أن نعرف جملة من الوظائف التى تقوم بها بتكليف من الله .

إن أعمال الملائكة مرتبطة كلها بالحق ، ولا شىء غير الحق . فليس فيها زيغ عن الحق لحظة واحدة من ليل أو نهار ، كالذى يحدث من عالم الجن أو عالم الإنسان .

فالجن والإنس تحدث منهما المعصية ويحدث منهما الزيغ عن الحق الذى يصل والعياذ بالله إلى حد الكفر والإلحاد . أما الملائكة الأطهار فهم يعيشون للحق وحده ولا يقومون بعمل من الأعمال إلا ما يرتبط بالحق .

١ ـ فأول وظائفهم عبادة الله بالتسبيح له فى الليل والنهار دون ملل ولا فتور ولا غفلة ، والطاعة الدائمة ، والمبادرة لامتثال أمر الله عز وجل ، والعبادة الخالصة هى حق الله على خلقه ، إذ التوحيد ـ وهو مقتضى العبادة الخالصة لله ـ هو الحق الذى تقوم به السموات والأرض .

يقول القرآن عنهم :

﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الأنبياء : ١٩ ـ ٢٠)

﴿ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

(سورة فصلت : ٣٨)

﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ (١) سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ (٢) إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة الأنبياء : ٢٦ ـ ٢٨)

ويقول عنهم كذلك :

﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾

(سورة التحريم : ٦)

٢ ـ ومن وظائفهم حمل الوحى إلى الأنبياء والرسل ، وقد كلف الله بذلك جبريل عليه السلام ، ووصفه فى القرآن بالروح الأمين . والوحى كلام الله المنزل إلى البشر عن طريق رسله ليتبعوه :

---

(١) أى من الملائكة .   (٢) أى لا يقترحون على الله سبحانه وتعالى ، وذلك رد على زعم المشركين ان الملائكة تشفع لهم عند الله من ذات نفسها .

وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ﴿١٩٥﴾

(سورة الشعراء : ١٩٢ ـ ١٩٥)

وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٖ[1] فَٱسۡتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ[2] مَآ أَوۡحَىٰ ﴿١٠﴾

(سورة النجم ٣ ـ ١٠)

إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ[3] أَمِينٖ ﴿٢١﴾

(سورة التكوير : ١٩ ـ ٢١)

٣ ـ ومن وظائفهم ـ مع التسبيح والعبادة ـ الاستغفار للمؤمنين عند الله ، وهو استغفار بالحق ـ فهم لا يستغفرون إلا لمؤمن ـ وبإذن الله لا من عند أنفسهم :

ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٩﴾

(سورة غافر : ٧ ـ ٩)

---

(١) أى قوة عظيمة .

(٢) أى عبد الله إشارة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم.

(٣) أى بين الملائكة .

٤ ـ ومن وظائفهم تسجيل أعمال البشر . وحفظها . .

﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ(١) عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝﴾

(سورة ق : ١٧ ـ ١٨)

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝﴾

(سورة الانفطار ١٠ ـ ١٢)

فكل إنسان على وجه الأرض ، منذ الإنسان الأول إلى يوم تقوم الساعة ، قد وكل به اثنان من الملائكة ، أحدهما عن يمينه يسجل له ما يقوم به من حسنات ، والآخر عن شماله يسجل عليه ما يقع منه من سيئات . وتظل هذه الحسنات والسيئات محفوظة فى سجلاتها حتى يأتى يوم البعث ، فيحاسب بمقتضاها الإنسان وهو بين يدى مولاه ، فإن كان مؤمناً فإن شاء الله عذبه بسيئاته وإن شاء غفر له ، وأما إن كان كافراً فمصيره الخلود فى النار .

٥ ـ والموت حق . ومن وظائف الملائكة قبض الأرواح حين ينقضى أجلها الذى حدده الله لها :

﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ۝﴾

(سورة السجدة : ١١)

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا﴾

(سورة آل عمران : ١٤٥)

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ (٦١)﴾

(سورة الأنعام : ٦١)

---

(١) أى الملكان اللذان يسجلان الأعمال .

٦ - وانتهاء الحياة فى الكون حق . والبعث والقيامة حق . ومن وظائف الملائكة النفخ فى الصور - بأمر الله - مرتين . المرة الأولى يصعق بها من بقى حياً فى السموات والأرض إلا من شاء الله . والمرة الثانية يبعث فيها الموتى ليقضى بينهم بالحق :

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ۝٦٨ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٦٩ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ۝٧٠ ﴾

(سورة الزمر - ٦٨ : ٧٠)

﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٥ ﴾

(سورة الزمر : ٧٥)

٧ - ومن وظائفهم الترحيب فى الجنة بالمؤمنين الذين فازوا برضوان الله ، وتعذيب الكافرين فى النار . وكلاهما حق . فقد أخبر الله عباده على ألسنة رسله أنه خلق السماوات والأرض بالحق ، وأن مقتضى هذا الحق أن الحياة الدنيا ليست خاتمة المطاف ، لأنه لا يتم فيها الجزاء على الحسنات ولا السيئات ، إنما يتم ذلك عند البعث فى اليوم الآخر ، فيحق الحق بدخول المحسنين الجنة ودخول المسيئين النار ، فقيام الملائكة بالترحيب بالمؤمنين وتعذيب الكافرين هو تمام هذا الحق الذى خلقت به السموات والأرض :

﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ۝٢٤ ﴾

(سورة الرعد : ٢٣ - ٢٤)

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ۝٧٣ ﴾

(سورة الزمر : ٧٣)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾

(سورة التحريم : ٦)

وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۚ قَالُوا فَادْعُوا ۗ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾

(سورة غافر : ٤٩ ـ ٥٠)

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٨﴾

(سورة الزخرف ٧٤ ـ ٧٨)

٨ ـ ومن وظائفهم القيام بأعمال أخرى يأمرهم الله بها ، ورد ذكرها فى القرآن دون بيان تفصيلى عنها ، كقوله تعالى :

وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾

(سورة الصافات : ١ ـ ٣)

وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾

(سورة الذاريات : ١ ـ ٤)

وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا[1] ﴿١﴾ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾

(سورة المرسلات : ١ ـ ٦)

---

(١) على قول أنها ملائكة .

(١)
﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۝ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ۝ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ۝ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ۝ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ۝﴾

(سورة النازعات : ١ ـ ٥)

أثر الإيمان بالملائكة فى حياة الإنسان

عرضنا من قبل بعض آثار الإيمان بالملائكة فى حياة الإنسان ، وقلنا : إن هذا الإيمان :

١ ـ يزيد من استشعار القلب البشرى لعظمة القدرة الربانية المعجزة التى تخلق من النور ملائكة ذوى أجنحة مثنى وثلاث ورباع .

٢ ـ يزيد من إيمان الإنسان بالوحى المنزل من عند الله لأن الوحى تحمله الملائكة إلى الأنبياء والرسل .

٣ ـ يزيد من رغبة الإنسان فى التقرب إلى الله بالعبادة والعمل الصالح تشبها بالملائكة الذين لا يفترون عن عبادة الله .

٤ ـ يملأ قلب الإنسان أنساً بهذا الكون الرحيب من حوله إذ يعلم أنه معمور بتلك الأرواح النورانية الشفيفة وأنها تتنزل على المؤمنين بالسكينة والطمأنينة .

ومما استعرضناه من وظائف الملائكة نستطيع أن نضيف آثاراً أخرى :

٥ ـ الإقبال على عمل الحسنات والبعد عن عمل السيئات حين يستشعر الإنسان وجود الملكين اللذين يسجلان عليه أعماله .

٦ ـ الانتباه إلى أن هذه الحياة الدنيا فانية لا تدوم ، حين يتذكر ملك الموت المأمور بقبض الأرواح حين يتوفاها الله ، ومن ثم فلا تستحق هذه الحياة الدنيا أن ينشغل بها الإنسان عن الآخرة ، ويكفيه منها المتاع الطيب الحلال الذى أباحه الله .

٧ ـ عمل الحساب للآخرة حين يتذكر الإنسان ترحيب الملائكة بالمؤمنين فى الجنة وتعذيبهم للكفار فى النار ، فيحب أن يكون ممن أنعم الله عليهم بجنته ورضوانه ووقاهم عذاب السموم .

---

(١) هى الملائكة كذلك على احد الأقوال .

الباب الثالث

الإيمان بالكتب

الكتب السماوية التى ورد ذكرها فى القرآن هى بترتيبها التاريخي : صحف إبراهيم ، والتوراة ، والزبور ، والإنجيل ، والقرآن الكريم .

جاء فى ذكر صحف إبراهيم :

قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾

(سورة الأعلى : ١٤ـ ١٩)

أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾

(سورة النجم : ٣٦ـ ٤٢)

وذكرت التوراة فى مواضع عديدة من القرآن كقوله تعالى :

إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ

(سورة المائدة : ٤٤)

ويشار إليها أحياناً باسم « الفرقان » كقوله تعالى :

وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾

(سورة البقرة : ٥٣)

وأحياناً باسم « الذكر » كما فى هذه الآية التى تشير إلى التوراة والزبور معاً :

وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾

(سورة الأنبياء : ١٠٥)

وجاء فى ذكر الزبور خاصة :

إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾

(سورة النساء : ١٦٣)

وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾

(سورة الإسراء : ٥٥)

وذكر الإنجيل فى أكثر من موضع فى القرآن :

وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾

(سورة المائدة : ٤٦)

ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ

(سورة الحديد : ٢٧)

كما جاء ذكر التوراة والإنجيل معاً فى هذه الآيات من سورة آل عمران :

الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ

(سورة آل عمران : ١ ـ ٤)

أما القرآن الكريم فقد ورد ذكره فى آيات كثيرة إما باسم القرآن وإما باسم الفرقان وإما باسم الكتاب وإما باسم الذكر .

(سورة ق : ١)

قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾

(سورة يوسف : ٢)

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾

(سورة الفرقان : ١)

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ﴿١﴾﴾

(سورة الكهف : ١)

﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

(سورة القلم : ٥١ ـ ٥٢)

ثم جاء الأمر الربانى بالإيمان بالكتب المنزلة كلها ـ كما جاء الأمر بالإيمان بالملائكة من قبل ـ وأن هذا جزء من الإيمان ، لا يتم إيمان المرء إلا به .

كما جاء الإخبار بأن الكتب السابقة قد حرفها أهلها ولم تعد على صورتها التى أنزلها الله بها .

وجاء الإخبار كذلك بأن القرآن قد نسخ الكتب السابقة كلها ، وأن الله تكفل بحفظه من كل عبث أو تحريف .

وجوب الإيمان بالكتب السماوية

يجىء ذكر الإيمان بالكتب السماوية فى القرآن فى صيغة الأمر تارة ، وصفةً للمؤمنين تارة أخرى ، كما يجىء عدم الإيمان بالكتب المنزلة أو الإيمان ببعضها دون البعض الآخر علامة على الكفر تارة ثالثة .

فمن أمثلة الأمر :

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾

(سورة البقرة : ١٣٦)

كما جاء فى صيغة مشابهة له فى سورة آل عمران :

قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾

(سورة آل عمران : ٨٤)

وقد يجىء الأمر فى صيغة مجملة فى مثل قوله تعالى فى سورة النساء :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ

(سورة النساء : ١٣٦)

أما وصف المؤمنين بأنهم هم الذين يؤمنون بالكتب المنزلة كلها فيجىء فى مثل هذه الصيغة :

الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾

(سورة البقرة : ١ ـ ٤)

أو فى قوله تعالى :

ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ

(سورة البقرة : ٢٨٥)

أما وصف الذين لا يؤمنون بالكتب كلها أو الذين يؤمنون ببعضها ويكفرون ببعض بأنهم كفار فيجىء فى مثل قوله تعالى :

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ (سورة النساء : ١٣٦)

﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾

(سورة البقرة : ٩٠ـ ٩١)

ومفهوم هذه الآيات وأمثالها ، سواء كانت أمراً مباشراً أو وصفاً للمؤمنين أو وصفاً للكافرين ، هو أن الإيمان بالكتب السماوية كلها أمر واجب لا يتم إيمان المرء إلا به .

وذلك أمر بدهى بالنسبة للمؤمن . فما دام يؤمن بالله وصدق ما نزل من عنده من الوحى ، وما دام الله يخبره فى كتابه الكريم أنه قد أنزل كتباً سابقة على الأنبياء والرسل ، فالواجب أن يؤمن بهذه الكتب المنزلة ويعتقد يقيناً أنها منزلة من عند الله .

ولو شك فى هذه الحقيقة أو كذب بها فهل يكون مؤمناً على الإطلاق ؟!

وكيف يكون مؤمناً بالله حقاً وهو يكذب خبراً آتيا إليه من عند الله ؟!

كذلك لو قال إنه يؤمن ببعض الكتب أنها منزلة من عند الله حقاً ويشك أو يكذب أن غيرها من الكتب منزل من عند الله ، فهل يكون مؤمناً بالله ولو زعم ذلك ؟

إن من بين دعائم الإيمان التصديق . فكيف يوجد الإيمان إذا كذب الإنسان حرفاً واحداً مما أخبره الله به ؟ وما قيمة دعواه أنه مؤمن بالله ، أو مؤمن ببعض الكتب التى أنزلها الله ؟! إنها دعوى مردودة على صاحبها لأن الدليل العملى يكذبها . .

ثم إن الكتب السماوية كلها تحتوى على حقيقة واحدة ، هى الأمر بعبادة الله وحده .

لقد اختلفت الكتب المنزلة فى اللغات التى نزلت بها ، لأن الله يقول :

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾

(سورة إبراهيم : ٤)

وهذه الكتب نزلت على أقوام مختلفين فاختلفت من ثم لغاتها .

كذلك اختلفت هذه الكتب فيما تحتويه من شرائع ، فالله يخبرنا أنه أنزل شرائع مختلفة للأقوام المختلفين :

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾

(سورة المائدة : ٤٨)

ولكن القضية الأصيلة فى هذه الكتب كلها واحدة لم تتغير :

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾

(سورة الأنبياء : ٢٥)

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾

(سورة النحل : ٣٦)

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ (١)

(سورة الشورى : ١٣)

كذلك نزلت الكتب كلها لتنذر الناس بيوم الحساب :

﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾

(سورة غافر : ١٥ - ١٧)

---

(١) أى أقيموا الدين لله وحده ولا تعبدوا آلهة متفرقة .

وما دام الأمر كذلك فالإيمان بالكتب كلها هو كالإيمان بالكتاب الواحد سواء . والقضية عند المؤمن واضحة لا تحتاج إلى جدال . إنما الجدال قد جاء فى الحقيقة من أهل الكتاب لأنهم الذين رفضوا أن يؤمنوا بأن القرآن منزل من عند الله . وحساب هؤلاء على الله .

تحريف الكتب السابقة

أخبرنا الله فى كتابه المنزل أن أهل الكتاب حرفوا كتبهم ، فلم تعد فى صورتها التى أنزلها الله بها .

فقد جاء عن اليهود :

مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ

(سورة النساء : ٤٦)

فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ

(سورة المائدة : ١٣)

يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ

(سورة المائدة : ٤١)

وجاء عن النصارى :

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾

(سورة آل عمران : ٧٨)

وإذا تدبرنا هذا الأمر وجدنا أن هناك ثلاثة أنواع من التحريف على الأقل قد وقعت فى كتب أهل الكتاب ، وكلها قد أشار إليها القرآن :

١ ـ تحريف المعنى مع بقاء اللفظ على ما هو عليه .

٢ ـ التحريف بالتغيير والإضافة .

٣ ـ التحريف بالكتمان .

فمن أمثلة النوع الأول من التحريف أن الله قد حرم الربا فى جميع كتبه المنزلة التوراة والإنجيل والقرآن . والتوراة التى بين أيدى اليهود اليوم ـ رغم كل ما حدث فيها من تحريفات شنيعة ـ ما تزال تحمل نصاً بتحريم الربا ! ونصاً بوجوب الأمانة فى التعامل مع الناس .

ومع ذلك فاليهود ـ كما هو معلوم ـ يتعاملون بالربا على النطاق الدولى ، ويسلبون عن طريقه أموال الناس بغير حق ، وإلى ذلك يشير القرآن :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ ﴾

(سورة النساء : ١٦٠ ـ ١٦١)

فكيف تحايلوا على النص الموجود فى كتابهم ، أو بعبارة أخرى كيف حرفوه ، ليبيحوا لأنفسهم التعامل بالربا مع الناس وسلب أموالهم ؟!

لقد قالوا : إن الربا غير جائز فى التعامل بين اليهودى ، وكذلك الأمانة واجبة فى تعامل اليهود بعضهم مع بعض . . أما إن كان الذى تتعامل معه من غير اليهود فلا بأس عليك أن تتعامل معه بالربا ولا بأس عليك أن تأكل ماله . . وإلى ذلك يشير القرآن :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾

(سورة آل عمران : ٧٥)

أى أنهم قالوا : لا حرج علينا فى سلب أموال « الأميين » الذين ليسوا يهوداً ويزعمون أن الله أباح لهم ذلك وهم يعلمون أن هذا كذب على الله فإنه حرم عليهم

الربا إطلاقاً وحرم عليهم سلب أموال الناس جميعاً ، أميين وغير أميين ! (١) .

أما التحريف بالتغيير والإضافة فله أمثلة كثيرة .

فأما اليهود فقد أضافوا إلى التوراة مجموعة من القصص والأساطير ما أنزل الله بها من سلطان ، بعضها يصل إلى حد الفحش فى حق أنبيائهم . وما من نبى من أنبيائهم إلا ألصقوا به سلوكاً لا يليق بالشخص العادى فضلا عن النبى المعصوم . بل إنهم تجرءوا على مقام الألوهية وقالوا فى حق الله سبحانه وتعالى كلاماً لا يخرج من فم مؤمن قط ولا يخطر له على بال . وقد ظلوا يرددون هذه الأقوال وغيرها حتى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم وسجل عليهم القرآن اثنتين منها على الأقل :

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾

(سورة آل عمران : ١٨١ ـ ١٨٢)

وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ۚ

(سورة المائدة : ٦٤)

أما التوراة ففيها أبشع من ذلك فى حق الله مما يقشعر بدن المؤمن من نسبته إلى الله عز وجل (٢) .

أما الإنجيل فيحوى من التغيير والإضافة ما لا يقل سخفاً وبشاعة ولكن فى اتجاه آخر ، ذلك هو تأليه عيسى عليه السلام والزعم بأنه ابن الله .

(١) كان اليهود يطلقون على العرب لفظ « الأميين » أى الذين ليس لهم كتاب منزل . ومازالوا يطلقون هذا اللفظ على البشرية كلها من غير اليهود ، لأنهم يزعمون أنهم هم وحدهم أصحاب الكتاب الحقيق ومن عداهم ليس له كتاب ! وأحياناً يسمونهم « الأمميين » أى كل الأمم من غير اليهود !

(٢) من أبسط الأمثلة على ذلك قولهم : إن الله قد خاف على سلطانه بعد أن أكل الإنسان من الشجرة المحرمة وهى فى زعمهم شجرة المعرفة ، وخشى ـ سبحانه ـ أن يأكل الإنسان أيضا من شجرة الحياة فيحيا إلى الأبد ! ومن أجل ذلك طرده من الجنة ، وأقام حراسة شديدة على شجرة الحياة لكى لا يصل الإنسان إليها ! وقولهم أيضاً إن الله غضب على بنى اسرائيل من كثرة جرائمهم فأقسم أن يهلكهم ، فراجعه سيدنا موسى حتى رضى عن بنى إسرائيل « وندم الرب الإله على الشر الذى كان ينوى عمله بشعب إسرائيل » !

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾

(سورة آل عمران : ٧٨ ـ ٨٠)

وأسطورة ألوهية عيسى وبنوته لله وكون الله ثلاثة : الأب والابن وروح القدس كلها إضافة أضيفت إلى الإنجيل المنزل من عند الله ، كتبوها بأيديهم وزعموا أنها من عند الله .

وقد رد القرآن عليهم رداً مفصلا فى أكثر من سورة ، وبيّن حقيقة التوحيد ، وأن عيسى عليه السلام لم يقل إلا كلمة التوحيد :

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾

(سورة المائدة : ١١٦ ـ ١١٧)

ولكن المهم أن أناجيلهم الأربعة المعتمدة (إنجيل مرقص وإنجيل لوقا وإنجيل متّى وإنجيل يوحنا (١)) متضاربة بعضها مع بعض فى هذا الشأن ، مما ينفى أن تكون كلها من مصدر واحد ، فضلا عن أن يكون مصدرها هو الله !

وفضلا عن ذلك كله فإن هناك إنجيلا خامساً هو « إنجيل برنابا » منعت الكنيسة تداوله ، وأحرقت ما وقع فى يدها من نسخه ، وهددت من يوجد عنده بإصدار قرار حرمان ضده (أى الحرمان ـ فى زعمهم ـ من رضوان الله ومغفرته) لأنه يقرر أن عيسى رسول بشر ، وليس رباً ولا إلها ، وأنه بشّر ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم من بعده ! .

وأما التحريف بالكتمان فهو على نوعين : كتمان أحكام الشريعة ، وكتمان الإشارة إلى بعثة محمد صلى الله عليه وسلم .

والقرآن يسجل عليهم أنهم أمروا بعدم الكتمان فعصوا الله .

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾

(سورة آل عمران ، الآية ١٨٧)

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾

(سورة البقرة : ١٤٦)

ويسجل عليهم أن الله أخذ عليهم ميثاقاً بأن يؤمنوا بكل رسول يأتى من عند الله مصدقاً لما معهم ، كما يسجل عليهم أن خبر بعثة محمد صلى الله عليه وسلم موجود عندهم فى التوراة والإنجيل .

---

(١) نسبة إلى الرجال الذين كتبوها . وقد كتبوها فى أزمنة متفاوتة وبعد مدة من غياب المسيح عنهم ، وكلهم كتبها من ذاكرته لا من النص المنزل .

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَٰقَ النَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ الشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾

(سورة آل عمران ، الآيتان ٨١ ، ٨٢)

وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى اسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِالْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾

(سورة الصف ، الآية : ٦)

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِىَّ الْأُمِّىَّ الَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى التَّوْرَىٰةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَٰلَ الَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾

(سورة الأعراف ، الآية ١٥٧)

وعلى الرغم من هذه الوصايا كلها لأهل الكتاب فقد عصوا أمر ربهم وكتموا الحق الذى أمروا بإعلانه على الناس .

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أُتى بيهودى ويهودية قد زنيا ، فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جاء يهود فقال : « ما تجدون فى التوراة على من زنى » ؟ قالوا : نُسوِّد وجوههما ونحملهما ونخالف بين وجوههما ويطاف بهما ، قال : « فأتوا بالتوراة إن كنتم صادقين »

فجاءوا بها فقرءوها حتى إذا مرّوا بآية الرجم وضع الفتى الذى يقرأ يده على آية الرجم وقرأ ما بين يديها وما وراءها . فقال له عبد الله بن سلام وهو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم : مره فليرفع يده . فرفعها فإذا تحتها آية الرجم ، فأمر بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجما » رواه البخارى ومسلم واللفظ لمسلم .

وإذا كانوا بهذا التبجح فى إنكار أحكام الشريعة أمام الرسول صلى الله عليه وسلم وهم يعلمون أنه رسول مؤيد بالوحى ، وأن الوحى يخبره بحيلهم وكيدهم ، فكيف يصنعون مع عامة الناس الذين لا يتنزل الوحى عليهم ليكشف لهم ما خبئوه ؟! .

أما إنكارهم لبعثة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد اجتهدوا فى محو كل ذكر صريح له عليه الصلاة والسلام فى كتبهم وأخفوه عن الناس . ومع كل اجتهادهم هذا فقد بقيت إشارات فى التوراة والإنجيل لا يمكن تفسيرها إلا بأنها إشارة لمجىء الرسول صلى الله عليه وسلم .

جاء فى العهد القديم فى سفر أشعياء فى الإصحاح الحادى والعشرين :
« وحى من جهة بلاد العرب . فى الوعر فى بلاد العرب تبيتين يا قوافل الددانيين . هاتوا ماءً لملاقاة العطشان . يا سكان أرض تيماء وافوا الهارب بخبزه ، فإنهم من أمام السيوف قد هربوا . من أمام السيف المسلول ومن أمام القوس المشدودة . ومن أمام شدة الحرب . وإنه هكذا قال لى السيد : فى مدة سنة كسنة الأجير يفنى كل مجد وبقية عدد قسيّ أبطال بنى قيدار تقلّ ، لأن الرب إله إسرائيل قد تكلم » (١) .

وجاء فى الإنجيل على لسان عيسى عليه السلام : « يأتى من بعدى الفارقليط » .
وهذه كلمة يونانية معناها « الحمد » . أى أنها مشتقة من « أحمد » وقد أبوا أن يترجموها فى النسخة العربية وأبقوها هكذا لكى تظل غير مفهومة للقارىء ولكيلا يعلم مَن هذا الذى سيأتى بعد المسيح !

---

(١) الددانيون اسم قديم لبعض القبائل العربية ، وقيدار اسم قديم لقريش . وسكان أرض تيماء إشارة إلى أهل المدينة . والهاربون هم المهاجرون من مكة إلى المدينة . والنص كله يشير إلى نزول الوحى فى جزيرة العرب واضطهاد المؤمنين وهجرتهم إلى المدينة ووقوع معركة بدر بعد سنة من الهجرة وضياع مجد الكفار من قريش ومقتل عدد من أبطالهم فى المعركة .

وقد مر الزمن .. ولم يأت بعد المسيح إلا محمد صلى الله عليه وسلم ! .

وفى عام ١٣٦٥ هـ (١٩٤٥ م) نشرت صحيفة الأهرام المصرية هذا النبأ على إحدى صفحاتها :

« عثر فى دير سانت كاترين بسيناء على نسخة قديمة من التوراة جاء فيها ذكر محمد عليه الصلاة والسلام » .

ثم اختفت هذه النسخة ولم تعد مرة أخرى إلى الظهور ! .

وصدق الله العظيم إذ يقول :

ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾

سورة البقرة ، الآية ١٤٦ .

حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ

سورة البقرة ، الآية ١٠٩ .

لقد كرم الله إبراهيم عليه السلام حين ابتلاه الابتلاء العظيم فنجح فى الابتلاء إذ أمره الله أن يذبح ابنه إسماعيل فاستسلم لأمر الله واستعد بالفعل للتنفيذ ، ففداه الله بذبح عظيم ، وكافأ إبراهيم بأن جعله للناس إماماً .

وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ

سورة البقرة ، الآية ١٢٤ .

وفى لحظة التكريم تطلع إبراهيم عليه السلام أن يظل هذا العهد لذريته من بعده فسأل ربه : « ومن ذريتى ؟ » فأجابه الله سبحانه : « قال : لا ينال عهدى الظالمين » .

ومعنى ذلك أن العهد يظل فى ذرية إبراهيم إلا إذا ظلموا فيؤخذ منهم العهد .

ولقد بقى العهد بالفعل فى بنى إسرائيل ، وهم من ذرية إبراهيم عليه السلام عن طريق ابنه إسحق .

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ ۖ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾

سورة السجدة ، الآيتان ٢٣ ، ٢٤ .

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾

سورة البقرة ، الآية ٤٧ .

ولكنهم ظلموا فنزع الله العهد منهم وأعطاه لفريق آخر من ذرية إبراهيم عليه السلام هم أبناء إسماعيل جد النبي صلى الله عليه وسلم . وعندئذ ملأ الحقد قلوبهم وكفروا بالرسول صلى الله عليه وسلم بعد ما كانوا يترقبون مبعثه ويستفتحون به على كفار قريش ، يقولون لهم : سيظهر فى جزيرة العرب نبى وسنتبعه ونزداد به عزاً ونقهركم به ، ظناً منهم أنه سيكون من أبناء إسحق ، فلما جاء من أبناء اسماعيل كفروا به ! .

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۚ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾

سورة البقرة ، الآيتان ٨٩ ، ٩٠ .

• • •

القرآن نسخ الكتب السابقة كلها

شاءت إرادة الله جل وعلا أن ينسخ الكتب السابقة كلها وينزل كتابه الأخير لتبقى فى الأرض إلى قيام الساعة .

كان كل رسول من السابقين يرسل إلى قومه خاصة ، بينما بعث الرسول صلى الله عليه وسلم إلى البشرية كافة :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾

سورة الأعراف ، الآية ١٥٨ .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾

سورة سبأ ، الآية ٢٨ .

وكذلك كانت الكتب السابقة تنزل لأقوام معينين بينما أنزل القرآن للناس كافة :

﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ سورة القلم ، الآية : ٥٢ .

لذلك اقتضت مشيئة الله أن ينسخ هذا الكتاب الشاملُ الكاملُ ما سبقه من الكتب جميعاً ويهيمن عليها :

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

سورة المائدة ، الآيات ٤٨ ـ ٥٠ .

ولم يعد يقبل من أحد أن يستمسك بما سبق من الكتب ويرفض القرآن :

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾

سورة المائدة ، الآية ٦٨ .

وإقامة التوراة والإنجيل بالنسبة لأهل الكتاب المخاطبين بهذه الآية معناها : الإقرار بوحدانية الله ، ذلك أن التوراة والإنجيل المنزلين من عند الله يقرران هذه الوحدانية تقريراً جازماً ، ولكن أهل الكتاب حرفوهما . فالمطلوب منهم هو إقامتهما مرة أخرى ، أى الرجوع إلى أصل التوحيد . ثم إن التوراة والإنجيل قد ذكرا محمداً صلى الله عليه وسلم وأمرا باتباعه عند ظهوره ، فإقامتهما معناها الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم وما نزل عليه من وحى . . أى الإسلام .

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾

سورة آل عمران ، الآية ١٩ .

﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

سورة آل عمران ، الآية ٨٥ .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « والذى نفس محمد بيده ، لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم يموت ولم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار » متفق عليه .

• • •

على ذلك يمكن تلخيص موقف المؤمن من الكتب السابقة على هذا النحو :

١ - يؤمن بأن الله أنزل كتباً ورد ذكرها فى القرآن هى بترتيبها التاريخي كما يأتى :
صحف إبراهيم - التوراة - الزبور - الإنجيل - القرآن .

٢ ـ وأن هذه الكتب جميعاً تحتوى على حقيقة أساسية واحدة هى وحدانية الله عز وجل ووجوب إخلاص العبادة له بغير شريك ، وطاعته فيما يأمر به وينهى عنه .

٣ ـ أن الكتب السابقة على القرآن لم يعد لها وجود فى صورتها المنزلة لأنها إما ضاعت ولم يعد لها أثر معروف كصحف إبراهيم ، وإما حرفت على أيدى أصحابها كالتوراة والإنجيل .

٤ ـ أن التحريف الغالب كان إما بالتغيير والإضافة وإما بالكتمان . ومن أبرز الإضافات أساطير التوراة وقصة تأليه عيسى وقصة التثليث . ومن أبرز ما كتموه الإخبار عن بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم .

٥ ـ أن مشيئة الله قد اقتضت نسخ الكتب السابقة كلها ما ضاع منها وما حُرّف . وأنزل القرآن مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ، وناسخاً لكل ما سبق تنزيله من عند الله .

• • •

تولى الله حفظ القرآن :

أنزل الله القرآن مصدقاً لما بين يديه كما ذكرنا آنفاً وناسخاً له . ثم تكفّل الله سبحانه وتعالى بحفظ كتابه الأخير مما تعرضت له الكتب السابقة كلها من ضياع أو تحريف :

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾

سورة الحجر ، الآية : ٩ .

ولقد ظل القرآن ـ كما أراده الله ـ محفوظاً خلال أربعة عشر قرناً من الزمان ، وسيظل باقياً ما شاء الله له أن يبقى ، لم يصبه تغيير ولا تحريف . لم ينقص منه ولم يزد عليه حرف واحد منذ أنزله الله على رسوله صلى الله عليه وسلم .

لقد منَّ الله على هذه الأمة بأن تكون خير أمة فى التاريخ .

كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ

سورة آل عمران ، الآية ١١٠ .

ومنَّ عليها ببعثه الرسول صلى الله عليه وسلم من بينها :

لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾

سورة آل عمران ، الآية ١٦٤ .

ومنَّ عليها كذلك بحفظ الكتاب المنزل إليها ، وعدم تعرضه للضياع والتحريف .

إن التوراة تولاها قوم غضب الله عليهم لأنهم كفروا بالله وقتلوا أنبياءه وعاثوا فى الأرض فساداً .

وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾

سورة البقرة ، الآية ٦١ .

ومن هذه الصفات كلها التى اتصفوا بها عاثوا فساداً فى كتابهم المنزل عليهم فمحوا منه ما لم يوافق أهواءهم ، وأضافوا إليه أساطير ما أنزل الله بها من سلطان .

فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ[1] ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾

سورة البقرة ، الآية : ٧٩ .

وأما الإنجيل فإن أصحاب عيسى وحوارييه كانوا يعيشون فى حالة اضطراب وتشتت بسبب الاضطهاد الواقع عليهم من الدولة الرومانية ، فلم يدونوا الإنجيل كما سمعوه من عيسى عليه السلام ، إنما تناقلوه ، أو تناقلوا ما وعت ذاكرتهم منه

---

(١) اى يختلقون كلاما من عند انفسهم .

سراً وعلى خوف من عيون الدولة الرومانية . فلما بدئ بتدوينه بعد ثلاثين عاماً على الأقل من رفع عيسى عليه السلام (١) كان الأصل قد فقد ، وكانت الإضافات الدخيلة هى التي يتناقلها المسيحيون . ثم إن الأناجيل الموجودة الآن ليست هى نص الكتاب المنزل باعتراف أصحابها . إنما هى ذكريات شخصية كتبها كل مؤلف منهم على حدة وضمنها بعض الأقوال المنسوبة إلى المسيح .

أما القرآن فقد هيأ الله له ظروفاً مختلفة تماماً ، تم بها الحفظ الذى قدره الله له منذ الأزل وهو فى اللوح المحفوظ :

١ ـ هيأ له أمة قوية الحافظة بصورة غير عادية . فقد كان العرب فى الجاهلية يروون ألوفاً من أبيات الشعر بغير تدوين ، إنما يحفظونها فى ذاكرتهم ويتداولون روايتها .

٢ ـ هيأ له سهولة فى الحفظ :

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾

سورة القمر ، الآية : ١٧ .

٣ ـ هيأ له أمة مستقرة آمنة ممكنة فى الأرض ، لديها الفرصة الكاملة للحفظ والتدوين ، فكان الحفاظ يحفظون على يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يتقنوا الحفظ ثم يدونون ما يحفظون ويراجع عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه .

٤ ـ وأخيراً هيأ له مراجعة من الملأ الأعلى . فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحفظ ما يوحى إليه ثم يراجعه على جبريل عليه السلام مرة كل سنة . وفى السنة الأخيرة راجع جبريل القرآن كله على رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتين .

٥ ـ ثم إنه بعد تدوينه لم يعد هناك مجال لعبث عابث . بل إن الحفاظ ظلوا خلال القرون يراجعون كل نسخة تكتب من المصحف مراجعة دقيقة . فلما أن صار المصحف يطبع طباعة صارت لجان من كبار الحفاظ تراجع كل حرف منه قبل أن تأذن بطبعه .

وبهذه الوسائل كلها تحقق للقرآن ذلك الحفظ الذى قدره له الله منذ الأزل :

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾

صدق الله العظيم .

(١) فى رواية أنه بدىء بتدوينه بعد سبعين سنة .

مكانة القرآن فى نفس المؤمن

للقرآن فى نفس المؤمن مكانة ليست لأى كتاب آخر على الإطلاق.

فالقرآن هو كلام الله المنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم، المتعبد بتلاوته. وكفى بذلك تعظيماً فى نفوس المؤمنين.

فالمؤمن يعظم ربه ابتداء، فيعظم بالتالى كل شىء يأتيه من عند ربه، فكيف بكلام ربه المنزل، الموجه إليه ليهديه سواء السبيل، وينير قلبه وطريقه، ويهديه خير الدنيا وخير الآخرة ؟.

إن الكتاب الذى يصلنى من مؤلف قدير فى مادته يكون عزيزا عندى بمقدار ما أعرف عن ذلك المؤلف من مكانة فى العلم. فكيف بكتاب رب العالمين القادر المقتدر العليم الحكيم ؟.

وإن الكتاب الذى يعطينى جزءاً صغيراً من المعلومات، وفى باب واحد من أبواب المعرفة يكون عزيزاً عندى بمقدار فائدتى منه. فكيف بالكتاب الذى يحوى الخير كله ويدل عليه ؟.

وإن الكتاب الذى أعلم أن قراءتى له ترفع منزلتى بين أصحابى يكون أثيراً عندى بمقدار هذه الرفعة. فكيف بالكتاب الذى يرفع منزلتى فى الملإ الأعلى، ويرفع منزلتى عند رب العالمين ؟.

وإن الكتاب الذى يقدمه إلىّ أستاذى وأعلم أن قراءتى له ستزيد درجاتى عنده أكون حريصاً على قراءته بقدر ما يزيدنى من درجات وعلامات، فكيف بالكتاب الذى تكون تلاوته تعبداً يرفع درجاتى عند الله ؟.

ولله المثل الأعلى فى السموات والأرض.

إنه لا يوجد كتاب فى تاريخ البشرية كله نال من المكانة فى نفوس أصحابه كما نال القرآن فى نفوس المؤمنين.

ولا يوجد كتاب قُرئ وحفظ فى تاريخ البشرية بقدر ما قرئ هذا الكتاب، ولا عجب أن سماه رب العالمين « القرآن » فهو الكتاب المقروء، الذى لا تفتر قراءته فى ليل أو نهار فى صلاة أو ذكر أو حلقة درس أو ترتيل.

وإن علينا ـ إلى جانب القراءة ـ أن نتدبر معانى القرآن، فقد أمرنا بذلك فى الكتاب العزيز:

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾

سورة ص ، الآية : ٢٩ .

والله يندد بالذين لا يتدبرون القرآن فيعمون عن آياته :

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾

سورة محمد ، الآية : ٢٤ .

وحين نتدبر القرآن فستتضح لنا معان عدة ينبغى أن نكون على وعى منها :

١ ـ القرآن هو منهج التربية الإسلامية :

فالقرآن هو كتاب التربية الذى ربى هذه الأمة التى وصفها خالقها بقوله سبحانه : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » . ومن ثم فإنه يحوى جميع عناصر التربية الصالحة بين دفتيه . ومن ناحية أخرى فإن كل كلمة فيه هى توجيه تربوى لإنشاء « الإنسان الصالح » فى هذه الأرض . سواء كان أمراً بعبادة ، أو توجيهاً أخلاقياً ، أو نهياً عن أمر لا يحبه الله ولا يرضاه لعباده ، أو تشريعاً منظماً لحياة البشر ، أو قصة من قصص المؤمنين أو قصص المكذبين ، أو حديثاً عن اليوم الآخر ، ووصفاً لمشاهد الحساب والثواب والعقاب ، أو توجيهاً عقلياً لتدبر آيات الله فى الكون أو سننه فى الحياة .

كلها جاءت فى القرآن للتربية والتوجيه . وكان من حصيلة تدبرها على الوجه الأكمل وتنفيذها بالجدية الواجبة أن خرج هذا الجيل الفذ من المؤمنين ، صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذين استحقوا وصف الله لهم بالكامل ، وكانوا بالفعل خير جيل فى خير أمة أخرجت للناس .

٢ ـ القرآن كتاب الشريعة :

والقرآن هو كتاب الشريعة المنظمة لحياة البشر على الأرض .

وهو منهج حياة كامل .

فهو لم يدع جانباً من جوانب البشرية إلا تناوله بما يصلحه ويصلح له ، علاقة الفرد بربه . علاقة الفرد بالمجتمع . علاقة الحاكم بالمحكوم . علاقات الأسرة . علاقات الجنسين . علاقات المسلمين بالفئات غير المسلمة داخل المجتمع الإسلامى . علاقة الدولة الإسلامية بغيرها من دول الأرض .

كل شيء فى حياة الإنسان تناوله هذا الكتاب المعجز بالتفصيل أو الإجمال (١) .

ومن ثم فلا شيء فى حياة المسلم السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو الأخلاقية أو الفكرية أو الروحية يرجع فيه إلى مصدر آخر غير هذا الكتاب (وشرحه وتفصيله فى سنة الرسول صلى الله عليه وسلم) ولا شيء فى حياته يجوز أن يخرج عن تعاليم هذا الكتاب ، مهما استجد فى حياته من أمور ! .

لقد أنزل الله هذه الشريعة لتحكم حياة الناس إلى قيام الساعة . فقول القائلين من مرضى القلوب : إن هذه الشريعة قد نزلت قبل أربعة عشر قرناً ، فهى لا تصلح للتطبيق اليوم ، معناه اتهام لله عز وجل - والعياذ بالله من الكفر - أنه لم يكن يعلم وقت تنزيل هذه الشريعة أنه ستجد فى حياة الناس أمور غير التى كانت وقت نزول القرآن ! أو اتهام له - تعالى عن ذلك علواً كبيراً - أنه نزل شريعة ناقصة وفرض على الناس ألا يحكموا بغيرها وهددهم على ذلك بالخلود فى النار ! .

إنما عرف المسلمون خلال التاريخ أن نظام حياتهم كله موجود فى هذه الشريعة ، وأن عليهم - حين يجدّ فى حياتهم أمر - أن يستنبطوا له حكماً من الشريعة الثابتة الأركان .

وعرفوا - فوق ذلك - أن هناك أموراً تركها رب العزة بغير نص ، لا نسياناً منه جلت قدرته ولكن رحمة منه بعباده ، كما أخبر بذلك الرسول صلى الله عليه وسلم فهذه يجتهدون فيها بما يحقق مصالح الناس دون أن يخالفوا مقاصد الشرع .

وفى جميع الحالات تكون شريعة الله هى الحاكمة فى حياة الناس :

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾

سورة المائدة ، الآية : ٤٤ .

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾

سورة النساء ، الآية : ٦٥ .

---

(١) ما أجمله القرآن فصلته السنة النبوية المطهرة . وهناك أمور متغيرة تجد فى حياة البشرية يجتهد فيها الفقهاء ولكنهم فى اجتهادهم لا يخرجون على أصول الشريعة المبينة فى الكتاب والسنة .

٣ ـ القرآن مرشد السالكين فى رحلة الحياة

والقرآن هو الذى يعرفنا حقيقة الإنسان ، ودوره فى الأرض ، وغاية خلقه ، وحدود طاقاته ، ومنشأه ومصيره .

بعبارة أخرى هو دليل الرحلة البشرية من مبدئها إلى منتهاها .

إن السائر فى رحلة يحتاج إلى دليل يبين له من أين تبدأ وأين تنتهى وأى شىء يجد فى الطريق ، وأين يمضى ، وأين يتوقف ليتزود بالزاد . فإن لم يكن معه هذا الدليل فإنه يخبط خبط عشواء ، ونهايته إلى البوار .

والرحلة البشرية الكبرى فى حاجة إلى دليل ، يبين للسائر فيها معالم الطريق .

وحين تضل البشرية عن دليلها ـ فى فترات جاهليتها ـ فإنها تتخبط وتصيبها الحيرة والقلق والضياع ، كما يعبر عنها الشاعر الجاهلى المعاصر(١) حين يقول :

جئت لا أعلم من أين ، ولكنى أتيت !
ولقد أبصرت قدامى طريقاً فمشيت !

وليس أبلغ من هذا فى التعبير عن الضلال ! وهذه الأزمة تكررت بصورة أو بأخرى فى كل جاهلية من جاهليات التاريخ ، ولكنها أحدّ ما تكون فى الجاهلية المعاصرة ، التى لا مثيل لها فى التاريخ ! .

إن الإنسان ليتساءل ، بوعى منه أو بغير وعى : من أنا ؟ من أين جئت ؟ إلى أين أذهب بعد الموت ؟ لأى شىء أعيش ؟ على أى نهج أعيش ؟

وإذا لم يجد إجابة واضحة شافية لهذه الأسئلة التى تخطر على الفطرة فإنه يشق ويضل ، ويتحير ويحس بالضياع .

والله خالق هذه النفس البشرية يعلم أن هذه الأسئلة تخطر على الفطرة وتحتاج إلى جواب ، كما يعلم سبحانه أن طريقة حياة الإنسان فى الدنيا ، ومصيره فى الآخرة مرهونان باهتدائه إلى الأجوبة الصحيحة على هذه الأسئلة أو عدم اهتدائه إليها . لذلك فقد نزّل له فى كتابه الحكيم إجابة كاملة واضحة لتلك الأسئلة التى يتوقف على إجابتها كل شىء فى حياة الإنسان .

عرفه مم خلق أول مرة : من قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله :

---

(١) هو «إيليا أبو ماضى» فى ديوان له يسمى «الجداول» .

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾

(سورة ص : ٧١ ـ ٧٢)

فعرف من ثم أنه جسد وروح . وأن حياته ينبغى أن تشمل جانب الجسد وجانب الروح ، متصلين غير منفصلين ، فلا يستغرقه جانب الجسد وحده ولا جانب الروح .

وعرّفه مهمته فى الأرض :

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾

(سورة البقرة : ٣٠)

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾

(سورة هود : ٦١)

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾

(سورة الذاريات : ٥٦)

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾

سورة الأنعام : ١٦٢ ـ ١٦٣)

فعرف أنه مستخلف فى هذه الأرض ليقوم بعمارتها . وأن غاية وجوده هى عبادة الله بمعناها الواسع الذى يشمل شعائر التعبد كما يشمل نشاط الحياة كلها ، أى التوجه بنشاط الإنسان كله إلى الله ، وسيره فيه بمقتضى أوامر الله .

وعرّفه بالمنهج الذى ينبغى أن يعيش بمقتضاه :

﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾

(سورة البقرة : ٣٨)

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾

(سورة الأعراف : ١٥٨)

وأعطاه تفاصيل هذا المنهج فى كتاب الله وسنّة رسوله .

وعرّفه كذلك بمصيره بعد الموت : إن الحياة لا تنتهى بانتهاء هذه الجولة فى الحياة الدنيا ، وإلا فهى عبث لا يصدر عن إله حكيم :

أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾

(سورة المؤمنون : ١١٥ - ١١٦)

إنه لا بد من البعث والحساب والجزاء لكى ينتفى العبث عن خلق الله ، ولكى لا يستوى المحسن والمسىء فى نهاية المطاف :

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾

(سورة ص : ٢٧ - ٢٨)

وهو يحاسب فى الحياة الآخرة بمقتضى ذات المنهج الذى نزل ليحكم حياة الناس فى الأرض :

فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾

(سورة البقرة : ٣٨ - ٣٩)

ثم يكون الجزاء هو الخلود فى الجنة أو النار :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ ﴾ (سورة النساء : ٥٦ ـ ٥٧)

وهكذا يعطيه القرآن دليل الرحلة كاملا من بدء الرحلة إلى منتهاها ، ويبين له كل معالم الطريق .

٤ ـ القرآن يدعو إلى تدبر آيات الله فى الكون :

والقرآن يوجه أنظارنا ـ بصورة ملحوظة ـ إلى تدبر آيات الله فى الكون : فى السموات والأرض ، والشمس والقمر ، والجبال والبحار ، والنبات والحيوان . وكل ما يقع عليه الحس من كائنات .

يوجه أنظارنا إليها لنتعرف على قدرة الله المعجزة فى الخلق والتدبير ، فنؤمن بالله ونعبده حق عبادته :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ

مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾

(سورة النور : ٤١ ـ ٤٦)

ويوجه أنظارنا إليها لنتعرف ـ فى ذات الوقت ـ على السنن الربانية التى يجري بمقتضاها نظام هذا الكون ، لكى نحقق ـ بالعلم ـ استغلال الطاقات الكونية المسخرة لنا أصلا من عند الله :

وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ (سورة الجاثية : ١٣)

ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾

(سورة إبراهيم : ٣٢ ـ ٣٣)

فهذه الطاقات الكونية مسخرة من عند الله للإنسان . نعم .. ولكنها تحتاج لأن يتعرف الإنسان على السنن التى تجرى بها لكى يستغلها فى عمارة الأرض .

والقرآن يوجهنا إلى هذه المعرفة التى توصلنا إلى استغلال ما سخر لنا من الطاقات :

وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾

(سورة الإسراء : ١٢)

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ (سورة البقرة : ١٨٩)

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ﴾
(سورة الملك : ١٥)

﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ(١) وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾
(سورة الحديد : ٢٥)

ويقول عن نبى الله داود :

﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴾(٢)
(سورة سبأ : ١٠)

﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ ﴾(٣)
(سورة الأنبياء : ٨٠)

ومن هذه التوجيهات وغيرها فى القرآن اتجه المسلمون إلى العلم ، وإلى العلم التجريبى خاصة ، فأنشئوا المنهج التجريبى فى البحث العلمى ، الذى تقوم عليه النهضة العلمية الحاضرة فى أوروبا ، بعد أن تعلمت أوروبا ما تعلمت فى مدارس المسلمين . ومن قبل ذلك كان العلم على يد اليونان علماً نظرياً بحتاً لا يؤدى إلى تقدم كبير .

٥ - وتدبر السنن التى تحكم حياة الإنسان :

ويوجه القرآن أنظارنا كذلك إلى السنن الربانية التى تجرى بها حياة البشر على الأرض ، لنتعرف على هذه السنن ونقوّم حياتنا بمقتضاها ، لأنها سنن ثابتة لا تتغير ولا تتبدل :

﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾
(سورة فاطر : ٤٣)

فمن هذه السنن أن المؤمنين حين يستقيمون على أمر الله يستخلفهم ويمكن لهم فى الأرض ويمنحهم الأمن والطمأنينة ، ويبارك لهم فى حياتهم كذلك :

---

(١) أى قوة وصلابة .

(٢) إشارة إلى السلاح الذى يصنع من الحديد الصلب ويستخدم فى القتال .

(٣) إشارة إلى الدروع التى تستخدم فى الحرب .

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ﴾

سورة النور ، الآية : ٥٥ .

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

سورة الأنبياء ، الآية : ١٠٥ .

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾

سورة الأعراف ، الآية : ٩٦ .

ولكن الكافرين ليسوا ممنوعين من التمكين في الأرض ولكن على وجه آخر :

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾

سورة الإسراء ، الآيات ١٨ ـ ٢٠ .

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

سورة هود ، الآيتان ١٥ ، ١٦ .

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾

سورة الأنعام ، الآية : ٤٤ .

فالمؤمنون يمكنون فى الدنيا لإصلاح الأرض ، ثم تكون هم العاقبة الحسنة فى الآخرة فينعمون بالجنة والرضوان :

﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١)﴾

سورة الحج ، الآية : ٤١ .

أما الكافرون فيمكنون ابتلاء وفتنة ، وحين يوغلون فى البعد على الله تفتح عليهم أبواب القوة والاستمتاع وتنهال عليهم الأسباب . لا رضاً من الله عليهم بل ليزدادوا إثماً ليأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر :

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

سورة يونس ، الآية : ٢٤ .

كذلك فإن التمكين للمؤمنين يختلف عن التمكين للكافرين من وجه آخر . فالمؤمنون يمنحهم الله « بركات من السماء والأرض » فيعيشون فى أمن وطمأنينة وبركة فى الوقت والصحة والأموال والأولاد . . أما الكافرون فيفتح عيهم أبواب كل شيء « من الرزق المادى ، ولكن بلا بركة ولا أمن ولا طمأنينة ، لأن الطمأنينة إنما تجيء من ذكر الله وهم لا يذكرون الله » :

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾

سورة الرعد ، الآية : ٢٨ .

ومن السنن الربانية كذلك أن أعمال البشر من سيئة أو حسنة تترتب عليها نتائج حتمية لا يمكن تغييرها ، لأن سنة الله لا تحابى أحداً ، ولا تتغير مجاملة لأحد :

ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾

سورة الروم ، الآية : ٤١ .

وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾

سورة الإسراء ، الآية : ١٦ .

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ

سورة الأنفال ، الآية : ٥٣ .

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ

سورة الرعد ، الآية : ١١ .

وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾

سورة محمد . الآية : ٣٨ .

والنتائج تترتب بقَدَرٍ من الله . ولكن الله يخبرنا أنه يجرى قدره فى الأرض بحسب ما يكون من سلوك الناس .

٦ـ معرفة الأحداث التاريخية الكبرى :

ومن تتبعنا لسنة الله التى يجرى بها فى حياة الناس نستطيع أن ندرك الأحداث الكبرى فى التاريخ ، ونستطيع كذلك أن نقدر حاضرنا الذى نعيش فيه ، وأن نزن تطلعاتنا إلى المستقبل بميزان الواقع .

فمن أحداث التاريخ الكبرى تمكين الأمة المسلمة فى الأرض فترة طويلة من الزمن وفى رقعة فسيحة من الأرض ، حين كانت مستقيمة على أمر الله ، تحقيقاً لوعد

الله بالاستخلاف ، والتمكين والتأمين للذين آمنوا من هذه الأمة وعملوا الصالحات ، قيام هذه الأمة فى فترة استخلافها بنشر الخير فى ربوع الأرض وإقامة العدل الربانى فى أرجائها .

ومن أحداث التاريخ الكبرى كذلك انحسار المد عن الحركة الإسلامية ، سواء السياسية أو العسكرية أو الاقتصادية أو العلمية أو الحضارية حين تخلى المسلمون عن رسالتهم التى أهلهم الله لها ، وهى أن يكونوا رواد البشرية وقادتها بعد أن يستقيموا هم أنفسهم على أمر الله . فلما انحرفوا عن طريق الله وتخلوا عن حقيقة إسلامهم لم تجاملهم سنّة الله ، ولم يغنهم أنهم من ذرية قوم مؤمنين :

قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾

سورة البقرة ، الآية : ١٢٤ .

ومن أحداث التاريخ الكبرى أن أوربا ـ وهى أمة أو مجموعة من الأمم الجاهلية لا تؤمن بالله ورسوله ولا تحكم بما أنزل الله ـ قد مكن لها فى الأرض ، وفتح عليها أبواب كل شىء : فى السياسة والحرب والمال والقوة العلمية والعملية .

وكثير من الناس ينبهر بهذا السلطان الذى أوتيته أوربا ، وبهذا التمكين ، ويظن أنه مخالف لسنّة الله ! ولكن تدبر آيات القرآن يرينا أنه لا شىء مما حدث فى التاريخ يجرى مخالفاً لسنّة الله ، ولا يمكن أن يحدث ذلك قط :

فالذى حدث :

أولا : أن هذه الأمة أو الأمم الجاهلية قد مكنت فى الأرض بعد أن تخلت الأمة المسلمة عن دورها ، ونتيجة لهذا التخلى من جانب المسلمين تمكنت هذه الدولة الكافرة .

ثانياً : أن هذه الأمة حين مكنت انتشر الفساد فى الأرض « بما كسبت أيدى الناس » .

ثالثاً : أن هذا التمكين الذى يعبر عنه القرآن بقوله : « فتحنا عليهم أبواب كل شىء » تنقصه البركة التى لا تعطى إلا للمؤمنين حين يمكنون فى الأرض ، وليس فيها الطمأنينة التى تأتى من ذكر الله . إنما فيها الأمراض النفسية والعصبية والجنون والانتحار والجريمة والقلق والاضطراب والحيرة والضياع .. وكلها كما تقول إحصاءاتهم آخذة فى الازدياد .

رابعاً : أن حضارتهم الجاهلية فى سبيلها إلى الانهيار بحسب سنة الله كما ترى العين الفاحصة من وراء صور التقدم المادى الذى يبهر العيون ، وكما يقول مفكروهم أنفسهم . ولكن هذا الانهيار لا يحدث بين يوم وليلة ، لأن الله يقول :

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ ﴾

سورة الحج ، الآيتان ٤٧ ، ٤٨ .

ذلك بالنسبة لرؤية الماضى والحاضر على ضوء السنن الربانية التى أمرنا الله أن نتدبرها ونحن نقرأ القرآن .

أما بالنسبة لتطلعاتنا نحو المستقبل ، فنحن نتطلع لأن نستعيد ما فقدناه من القوة والاستخلاف والتمكين والتأمين . وذلك من واجبنا ، لأن الله لم يخرج هذه الأمة لتكون فى وضع الاستخذاء والضعف ، ولا الذلة ولا الهوان :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾

سورة الأنفال ، الآية : ٦٠ .

﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

سورة المنافقون ، الآية ٨ .

ولكن هذا الأمر لا يتم بالتمنى . ولا يتم حتى يغير الناس ما بأنفسهم . ولا يتم دون جهد يبذل ودون جهاد :

﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾

سورة النساء ، الآية : ١٢٣ .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾

سورة الرعد ، الآية : ١١ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨) إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) ﴾

سورة التوبة ، الآيتان ٣٨ ، ٣٩ .

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦) ﴾

سورة النساء ، الآية : ٧٦ .

فحين يريد المسلمون أن يستعيدوا مكانتهم فى الأرض فهذا هو الطريق ! .
وهذا الذى نتعلمه من سنن الله ونحن نتدبر القرآن .

• • •

مقتضى الإيمان بالقرآن :

إن الإيمان بأن القرآن هو كلام الله المنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم ، يقتضى أن تكون له آثار واقعية فى حياتنا .

يقتضى أولا أن نعيش معه ونتعبد بتلاوته وحفظه . فالقرآن ينبغى أن يكون هو الصاحب والأنيس قبل أى صاحب آخر أو أنيس .

يكفى أن يستشعر المؤمن فى قلبه أن الله يخاطبه هو شخصياً بهذا القرآن ، رجلا كان أو امرأة ، فتى كان أو فتاة . وأن الله فى عليائه يهتم بشئون البشر الذين خلقهم ، فلا يتركهم ضياعاً ، ولا يتركهم سدى . إنما يرسل لهم الهدى والنور ، ويتعهدهم بالرحمة والفضل .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ ﴾

سورة النساء ، الآيتان ١٧٤ ، ١٧٥ .

يكفى أن يستشعر أنه هو شخصياً موضع نظر الله وعطفه ورحمته :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ ﴾

سورة البقرة ، الآية : ١٨٦ .

وأنه أقرب ما يكون إلى ربه وهو قائم وساجد لربه يصلى ، وكذلك وهو يتلو القرآن تعبداً وتدبراً وتقرباً إلى الله .

والحياة مع القرآن تستجيش الحس ، وتفتح القلب ، وتمنح الروح شفافيتها لأنها تعيش مع النور الربانى المنزل فى الكتاب ، فيخف الإنسان من ثقلة الجسد وجذبة الأرض ، ويرفرف ـ ولو ساعة ـ مع الملائكة الأطهار .

• • •

ويقتضى ثانياً : أن نربى أنفسنا بهذا القرآن .

فالقرآن ـ كما ذكرنا ـ هو كتاب التربية الشامل الذى أخرج الأمة التى كانت « خير أمة أخرجت للناس » .

وحين نقرؤه أو نحفظه للتعبد ، فإننا فى ذات الوقت نقرؤه لنصوغ أنفسنا بحسب أوامره وتوجيهاته .

سئلت عائشة رضى الله عنها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : « كان خلقه القرآن » ! وهى جملة بليغة على إيجازها ، تعنى أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان هو الترجمان الصادق لكل ما جاء فى القرآن من أوامر وتوجيهات .

ولن يستطيع أحد من البشر ـ مهما اجتهد ـ أن يكون مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولكن الله يأمرنا بأن نتخذ منه الأسوة الحسنة :

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾

سورة الأحزاب ، الآية : ٢١ .

ثم قال لنا من رحمته سبحانه :

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾

سورة التغابن ، الآية : ١٦ .

فواجبنا إذن أن نحاول ـ ما استطعنا ـ أن نربى أنفسنا بالقرآن ونحن نحفظه ونتلوه .

ولنعلم أن أداة التربية العظمى فى هذا الكتاب هى العقيدة .

العقيدة الصحيحة الراسخة كانت هى الأداة الأولى لتربية هذه الأمة الفذة فى التاريخ ، وبصفة خاصة ذلك الجيل الأول الفذ الذى صنعه القرآن على يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان قمة لا يدانيها شىء فى تاريخ البشرية كله .

والعقيدة ليست كلمة تقال باللسان : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله . . وإنما هى واقع يعاش ، ومنهج كامل للحياة . . إنها حياة كاملة فى ظل الله تستمد من أوامره وتوجيهاته ، وتعمل بمقتضاها فى واقع الأرض .

وإن المساحة العظيمة التى يشملها الحديث عن العقيدة فى كتاب الله لم تكن من أجل هذه الكلمة التى تقال باللسان ، وإنما من أجل أن تتحول إلى عمل مشهود فى عالم الواقع ، وتترجم إلى وجدان وسلوك :

﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾

سورة الرعد : ١٩ ـ ٢٢ .

ولنعلم كذلك أن أسماء الله الحسنى وصفاته وأعماله الواردة فى كتاب الله فى معرض الحديث عن العقيدة لم تتنزل لنحولها إلى أمور جدلية عقيمة كما فعلت الفرق الضالة الشاردة فى تاريخ الإسلام . إنما نزلت للتعريف بالله سبحانه والإيمان بها واثباتها كما جاءت من غير تحريف ولا تأويل ، ومن غير تشبيه ولا تمثيل ، يجعل المؤمنين يتربون على حقائق الإيمان الموروث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الأخيار .

حين يقول الله سبحانه وتعالى : « إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » فهو يعرفنا ـ من ناحية ـ بخصيصة من خصائص الألوهية ، هى أن الله ـ وحده ـ هو الرزاق دون شريك يشاركه فى الرزق . وهو يربينا ـ من جهة أخرى ـ على هذه الحقيقة الإيمانية لنوقن ـ فى السراء وفى الضراء سواء ـ أنه لا أحد على الإطلاق يملك قطرة واحدة من الرزق ، لا أن يزيدها ولا أن ينقصها ولا أن يقطعها سوى الله . ومن ثم فلا يجوز لنا أن نتوجه لغير الله فى طلب الرزق ، ولا يجوز لنا أن نميل عن قولة الحق حفاظاً على الرزق أو نتبع أحداً من الظالمين ـ بالباطل ـ خشية أن يقطع عنا الرزق ، لأن شيئاً من ذلك لا يتم بأيدى البشر فى الحقيقة إنما يتم بتقدير الله ، وإن كان البشر ـ فى الظاهر ـ هم الذين يصنعون هذا أو ذاك .

والتربية على العقيدة أمر غير مجرد المعرفة النظرية بحقائق العقيدة ، فكثير من الناس إذا قلت له إن الله هو الرزاق وحده قال : نعم ! فإذا تعرض لمحنة أو ضيق أو هدد فى رزقه تزلزلت هذه الحقيقة من قلبه لأنها لم تكن راسخة بالفعل . . لم تكن تحولت إلى يقين ، وإلى سلوك مبنى على ذلك اليقين ! .

وكل صفات الله وأسمائه وأفعاله واردة فى القرآن على هذا النحو ، للتعريف بحقيقة الألوهية ، وللتربية على حقيقة الإيمان ، وأن الله هو الضار النافع . المحيى المميت . القابض الباسط . . كلها ينبغى أن تتحول فى قلوبنا إلى يقين ، ثم تتحول فى حياتنا إلى سلوك مبنى على هذا اليقين ، وعندئذ نكون تربينا ـ كما تربت الأمة المسلمة الأولى ـ على حقائق الإيمان الواردة فى القرآن .

• • •

ويقتضى ذلك أن تتحول حياتنا كلها إلى واقع إسلامى ، فى كل منحى من مناحى الحياة .

فكما ينبغى أن يستقيم سلوكنا الشخصى على مقتضى كتاب الله ، من صدق وأمانة ونظافة وتطهر ، وبعد عن الإثم والبغى :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾

سورة الأنعام : ١٥١ ـ ١٥٣ .

كذلك ينبغى أن يكون القرآن هو منهج حياتنا العامة إلى جانب حياتنا الفردية ، لأن الإسلام لا يفرق بين الفرد والمجتمع فى الالتزام بأوامر الله .

فالحكم ينبغى أن يكون بشريعة الله .

وتعاملاتنا الاقتصادية ينبغى أن تكون فى حدود ما حلل الله .

وصلاتنا الاجتماعية ينبغى أن تكون محكومة بأوامر الله . فى داخل الأسرة وخارجها . فى علاقات الجنسين . فى علاقات الناس بعضهم ببعض . فيما يحل للمرأة أن تبديه من زينتها ، وما يحل للرجل من نظر أو كلام .

والأفكار التى نتعلمها والتى نبثها ينبغى أن تكون متمشية مع مفاهيم الإسلام وتوجيهاته ، غير متعارضة مع شىء ألزمنا الله به فى كتابه الحكيم .

وبذلك نكون حقاً أمة القرآن . . .

والله الموفق إلى ما فيه الخير .

كتاب منهج علم التوحيد
لطلاب المعاهد الإسلامية

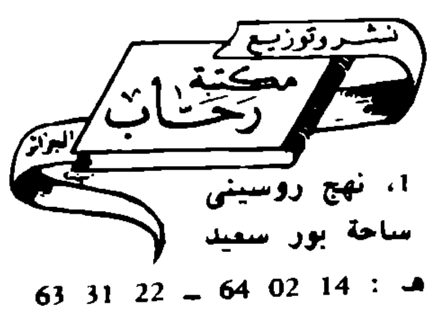
تأليف

محمد قطب

الجزء الثالث

الطبعة السادسة

١٤١٥ هـ - ١٩٩٠ م



١، نهج روسيني
ساحة بور سعيد
هـ : 14 02 64 - 22 31 63

طبع « دار البعث » قسنطينة ـ الجزائر

رقم الايداع القانوني : 90/45168 ـ و· قسنطينة

فهرست

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي بعث فى الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ، ويعلّمهم الكتاب والحكمة وإنْ كانوا من قبل لفى ضلال مُبين .

نحمده ونستغفره ونستهديه ، ونرجو رحمته ونخاف عذابه ، ونتطلع إليه من مقام العبودية الخالصة له سبحانه أن يتقبّلنا في عباده الصالحين ، ونثنى عليه بما يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه .

ونصلّى ونسلّم على سيّد رسله وخاتم أنبيائه محمد ﷺ وعلى صحابته ومن تابعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد ، فهذا هو الكتاب الثالث من مقرر التوحيد يحتوى على منهج السنة الثالثة الثانوية بقسميها الأدبى والعلمى ، مكملاً لما سبقت دراسته فى السنتين الأولى والثانية الثانويتين

وهو يشتمل على جملة أبواب يكتمل بها الحديث عن العقيدة الإسلامية وأركانها .

ففيه باب عن الإيمان بالرسل يتناول وجوب الإيمان بهم . وحقيقة النبوة والوحى وحاجة البشرية إلى الرسالة ومهمة الرسل صلوات الله عليهم ، وصفاتهم ، والكلام عن بعض أولى العزم من الرسل .

وباب عن الرسالة المحمدية يتناول حال العالم قبل الإسلام ونبذة عن السيرة المحمدية وصفات الرسول ﷺ وما اشتمل عليه الإسلام وما تفردت به الرسالة المحمدية .

وباب عن المعجزة عامة والمعجزة القرآنية خاصة .

وباب عن الإيمان باليوم الآخر يتناول الإيمان بالغيب ووجوب الإيمان باليوم الآخر ومقتضياته ، والساعة وأماراتها ، والبعث ، والحشر ، والحساب ، والصراط ، وأوصاف الجنة والنار كما جاءت في القرآن الكريم .

وباب عن الإيمان بالقدر : حقيقته ووجوب الإيمان به ومراتبه وأثره فى حياة المؤمنين .

ويختم الكتاب بباب أخير عن العقيدة الإسلامية وخصائصها وترابط أركانها وأثرها فى الحياة الإنسانية .

وقد سِرْتُ فى هذا الكتاب بعون الله على ذات النهج الذي التزمته فى الكتابين السابقين ، من تبسيط قضايا العقيدة وتقريبها إلى أذهان الدارسين بالشرح المفصل لجزئياتها ، والرجوع إلى القرآن الكريم لاستمداد الشواهد والأدلة منه ، والإشارة إلى بعض الأحاديث النبوية الواردة فى الأبواب المختلفة حتى يتعود الدارس أن يعيش فى جوّ القرآن والحديث ويستمد مفاهيمه الإسلامية من مصدرها الرئيسى . وإذا كنت قد أكثرت من النماذج والشرح فى هذا الكتاب خاصة فليس المقصود هو استيعاب كل ما فيه عن طريق الحفظ ، بل المقصود فقط هو توسيع مدارك الطالب وتعويده الاستيعاب بالفهم مع تدريبه على تلخيص الفكرة لنفسه بأسلوبه الخاص .

وبتمام هذا الكتاب يتم مقرر الدراسة الثانوية فى علم التوحيد ، والحمد لله أولاً وأخيراً ، ومن الله وحده التوفيق .

محمد قطب

الباب الأوّل

الأيمانُ بالرسُل

(١) وجوب الإيمان بالرسل

الإيمان بالرسل ركن من أركان الإيمان ، فلا يعتبر الإنسان مسلماً ولا مؤمناً حتى يؤمن بأن الله قد أرسل للبشر رسلاً من أنفسهم يبلغونهم الحق المنزل إليهم من ربّهم ، ويبشرونهم وينذرونهم ، ويبيّنون لهم حقيقة الدين. كذلك لا يعتبر مسلماً ولا مؤمناً حتى يؤمن بالرسل جميعاً ، لا يفرق بين أحد منهم ، وأنهم جميعاً جاءوا بالحق من عند الله .

﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾ (سورة البقرة : ١٧٧) .

﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (سورة آل عمران : ٨٤) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾

(سورة النساء : ١٣٦) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (سورة النساء : ١٥٠-١٥٢) .

وجاء فى حديث (هَذَا جِبْرِيلُ أَتاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ أَمْرَ دِينِكُمْ) : (قالَ : ما الإيمانُ ؟ قالَ : الإيمانُ أَنْ تُؤْمنَ باللهِ وملائكتِهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ ...) رواه مسلم .

يتبين لنا من النصوص السابقة ـ وأمثالها كثير فى القرآن والحديث ـ أن الإيمان بالرسل ركن أساسى من أركان الإيمان ، لا يتم إسلام المرء إلا به . وأنه يستوى عند الله من أنكر الرسل جميعاً ومن أنكر واحداً منهم بعينه ، فالمنكرون كلّهم عند الله كفار . إنما المؤمن هو الذى يُؤْمن بالرسالات جميعاً وبالرسل جميعاً دون تفريق .

وإذا سألنا أنفسنا لماذا أوجب الله الإيمان بالرسل وجعله ركناً من أركان الإيمان ، ولم يكتفِ ـ سبحانه وتعالى ـ من البشر بوجوب الإيمان به وحده ، مع أنّ الإيمانَ بالله هو أساس كل شيء ، وعبادته هى غاية كل شيء ، فالإجابة على هذا السؤال واضحة . فكيف يعرف الإنسان ربه معرفة الحق إلا عن طريق الرسل ؟ وكيف يعبده العبادة الحقة إلا بإرشادهم ؟

انظر إلى ضلالات البشرية في أمر ربها خلال التاريخ !

كيف تصورته ، وكيف عبدته في جاهلياتها المختلفة ؟

مرة تصورته فى قرص الشمس كما فعلت الجاهلية الفرعونية ، ومرة تصورته في النار الملتهبة كما فعلت الجاهلية الفارسية . ومرة تصورته على هيئة بشر ذى خصائص فائقة كما فعلت الجاهلية اليونانية والجاهلية الرومانية . ومرة في القمر ومرة في النجم ومرة فى صنم من الأصنام ! وهكذا اختلفت التصورات وضلّت كلها عن معرفة الله الحق ، لأنها استرشدت بخيالها وأهوائها وعلمها القاصر ، ولم تأخذ الحقّ من طريقه الصحيح المعتمد من عند الله ، وهو طريق الرسل الموحى إليهم بالحق .

ولا يقل عن ذلك ضلالاً ما تصورته الجاهليات المختلفة من وجود أرباب صغيرة مع رب الأرباب ، تقوم ببعض اختصاصاته سبحانه ! فإلّهٌ للمطر ، وإلّه للبرق ، وإلّه للرعد ، وإلّه للريح ، وإلّه للبحر ، وإلّه للخصب ، وإلّه للنسل ، وإلّه لكل شأن من شئون الحياة يختص به من دون الله أو مع الله كما كان العرب يقولون فى الجاهلية :

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ (سورة الزمر : ٣) .

أما العبادة فقد ضلت مثل ضلال التصور ! وذلك أمر طبيعى ! فما دام البشر لا يرجعون فى أمر العبادة إلى المرجع الصحيح الذي يبصّرهم بالحق ، فسوف يضربون فى التيه كما تملى لهم أهواؤهم وخيالاتهم ، أو ـ بالأحرى ـ كما يملى الشيطان عليهم لإغوائهم ، فكانت النتيجة دائماً أنهم قدموا شعائر التعبد لغير الله ، ودعوا غير الله ، واستعانوا بغير الله ، وحرّموا وأحلّوا بغير سلطان من الله !

فإذا آمنا أن قضية الألوهية والربوبية هى القضية الكبرى في حياة الإنسان ، وأن عبادة الله هى غاية الوجود الإنسانى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (سورة الذاريات : ٥٦) أدركنا على الفور لماذا كان الإيمان بالرسل ركناً رئيسياً من أركان الإيمان ، لأنه يستحيل على البشرية ـ كما رأينا من الواقع التاريخى ـ أن تهتدى إلى الحق فى شأن الألوهية ولا فى شأن العبادة إلا عن طريق ذلك المصدر الموثق ، وهو الرسل المرسلون من عند الله .

وكذلك الشأن فى وجوب الإيمان بالرسل كلهم دون تفريق بين أحد منهم .

لقد جاءوا كلهم بقضية واحدة وكلمة واحدة . جاءوا يبينون أنه لا إله فى هذا الوجود كله إلا إله واحد هو الله سبحانه وتعالى بلا شريك . وجاءوا يقولون للناس ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ (سورة هود : ٥٠ ، ٦١ ، ٨٤) .

فما معنى الإيمان بواحد منهم دون الآخر ؟! إن إنكار واحد منهم مثل إنكارهم جميعاً ما داموا كلهم جاءوا من عند الله ، وبلغوا شيئاً واحداً أوحى الله به إليهم ليبلغوه إلى الناس : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (سورة الأنبياء : ٢٥) .

(٢) حقيقة النبوة والرسالة

لقد اقتضت حكمة الله أن يرسل الأنبياء والرسل لهداية الناس إلى الحق :

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ (سورة النحل : ٣٦) ،
﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ (سورة فاطر : ٢٤) ،
﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾
(سورة النساء : ١٦٥) .

وإذ اقتضت حكمة الله ذلك فقد كان من سنة الله فى خلقه أن يصطفى بعض عباده فيمنّ عليهم بالنبوة أو الرسالة ، ويمنّ على أقوامهم ببعثهم إليهم .

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ (سورة الصافات : ١١٤) .
﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (سورة آل عمران : ١٦٤) .

والنبوة والرسالة اصطفاء خالص من عند الله يختص به من يشاء من عباده ، وليست شيئاً يكتسبه العباد من ذات أنفسهم بعمل يعملونه من جانبهم .

وكل ما يقع للبشر فى حياتهم هو من عند الله . وكل موهبة توهب لهم فى ذات أنفسهم أو فيما بين أيديهم هى من عند الله . ولكن الله قدر أن يكون للإنسان جانب من الكسب فى كل ذلك . فقد أعطى الإنسان القدرة على المعرفة ووهب له ذكاء يتفاوت من شخص إلى شخص ، ومنحه طاقات مختلفة ، ثم كلفه أن يعمل ، وأن يبذل جهداً

معيناً لتحصيل المعرفة واستخدام الذكاء فى عمارة الأرض وغيرها من شئون الحياة :

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾

(سورة الملك : ١٥) .

﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ (سورة هود : ٦١) .

﴿ عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (سورة العلق : ٤-٥) .

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ . (سورة النحل : ٧٨) .

ويستطيع الإنسان بتحصيله الشخصى أن ينمى ما وهب الله له من مواهب . فيستطيع مثلاً أن ينمى قوته الجسدية بالرياضة البدنية والتدريب فيصبح قوى الجسم متين العضلات . ويستطيع أن ينمى قوته الذهنية بالتدريبات العقلية وتعلم العلم وإمعان الفكر ، فيستنبط ويكتشف ويخترع ويدبر ويخطط . ويستطيع أن ينمى قوته الروحية بالامتناع عن بعض لذائذ الحس ، وبالتأمل ، وبإبعاد النفس شيئاً من الوقت عن عالم الحس القريب بصورة من الصور ، فتصفو روحه ، ويكتسب طاقة روحية كبيرة .

كل هذه الأعمال هى فى أصلها موهبة من الله ، وهى فيما تنتهى إليه كسب يكسبه البشر بجهد يبذلونه وتحصيل يكدون فيه ويكدحون .

أما الرسالة والنبوة فوهبة من الله ذات طبيعة مختلفة . إنه لا يدَ للإنسان فيها ولا كسب ولا اختيار ، إنما هى اصطفاء خالص من جانب الله سبحانه وتعالى لعبد من عباده ، يجتبيه وينعم عليه ويبعثه بالهداية إلى الناس .

لا يوجد عمل معين يعمله الإنسان من جانبه فيرتقى به إلى مرتبة النبوة ولو أنفق عمره كله فيه !

يستطيع الإنسان بالتدريب المستمر أن يصبح بطلاً من أبطال الرياضة إذا كان عنده استعداد جسمى معين .

ويستطيع بالتدريب المستمر أن يكون مهندساً بارعاً أو طبيباً نابغاً أو عالماً مبرزاً ،

إذا كان عنده الاستعداد العقلى المناسب .

ويستطيع بالتدريب المستمر أن يحصل على صفاء روحى يناسب استعداده .

ولكنه لا يستطيع بأى جهد يبذله أن يكون نبياً ولا رسولاً . ولكن الله يصطفيه فيكون ! ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ (سورة الحج : ٧٥) .

وحقيقة إن الذين يصطفيهم الله ليكونوا رسلاً وأنبياء هم خيار الناس وأفضلهم : ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴾ . (سورة ص : ٤٧) .

ولكنا نحن لا نستطيع ـ بمقاييسنا ـ أن نقول إن فلاناً من البشر يستحق النبوة أو إنه أولى بها من غيره ! ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ (سورة الإنعام : ١٢٤) .

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾ (سورة الزخرف ٣١-٣٢) .

والأنبياء أنفسهم يتفاوتون فى مراتبهم : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ (سورة البقرة : ٢٥٣) .

ولكن النبوة فى حد ذاتها مرتبة فوق مراتب البشر العاديين . فالبشر يتفاوتون فى مراتبهم ، منهم الحقير ومنهم العظيم . ولكنهم ـ فى أعلى درجات عظمتهم ـ يقفون عند حد معين هو أدنى من مرتبة النبوة . فإذا اختار الله واحداً من البشر الممتازين ليجعله نبياً فإنه يرفعه رفعاً من مكانه الذي كان فيه ليضعه فى مرتبة جديدة عالية لم يكن ليصل إليها من ذات نفسه مهما اجتهد ، لأنها خارج الحدود التى يستطيع البشر أن يصلوا إليها باجتهادهم . ويصبح منذ لحظة اصطفائه شخصية أخرى ، بشرية ـ نعم ـ فى كل تصرفاتها العادية ، ولكنها مشتملة على عنصر جديد لا يتاح للبشر العاديين ، ذلك هو الاتصال بالله عن طريق الوحى .

﴿ وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا . . .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ﴾

(سورة الفرقان : ٧ ، ٢٠) .

فهم بشر فيما يتعلق بالأمور العادية ، يولدون ويموتون ، ويأكلون الطعام ، ويسعون وراء الرزق ، ويتزوج منهم من يتزوج ويكون لهم ذرية أو لا يكون حسبما قدر الله لهم ، ويفرحون ويتألمون ، ويجرى عليهم كل ما يجرى على البشر فى هذه الشئون. ولكنهم ينفردون بهذه الخاصية الفريدة وهى تلقى الوحى من عند الله ، وإرسالهم للناس ليبلغوهم ما أوحى الله به إليهم من الهدى والتبيان : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (سورة الأنبياء : ٢٥) .

﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴾

(سورة غافر : ١٥) .

كيف تتم لهم هذه الخاصية ، وكيف تكون نفوسهم ومشاعرهم حين توهب لهم القدرة على تلقى الوحىْ من الله ؟!

لا نستطيع نحن البشر العاديين أن نعرف ذلك يقيناً لأنها تجربة خارجة عن حدود بشريتنا ، ولكنا نستطيع القياس للتقريب .

إن الإنسان منا ليحس أحياناً ـ ولو نادراً ـ بشىء من الصفاء الروحى ، فيحس كأن فيضاً من النور يشع من حوله ويملأ نفسه ومشاعره ، ويحس كأنه أصبح كائناً جديداً غير الذى كان من قبل ، لا تثقله ثقلة الأرض ، ولا ينحبس فى إطار جسده المحدود ، ولكنه يرفرف بروحه طليقاً من القيود . ويعود ينظر إلى الناس وإلى الوجود كله من حوله بنظرة جديدة وروح جديدة . فإذا بينه وبين الناس تعاطف ورحمة ، وبينه وبين الوجود مودة وتجاوب . ويحس فوق ذلك كله أنه قريب من الله ، لأن مشاعره صارت أنظف وأطهر ، وشعوره بعظمة الله أكبر ، وتطلعه إلى رحمة الله أشد .

كم تستغرق هذه اللحظات من حياة البشر ؟ وكم يطيقون أن يرتفعوا إليها ؟

إنها لحظات قليلة ولا شك فى حياة الإنسان . ولكنها فى نفسه عميقة الأثر . وإن

آثارها لتظهر فى طمأنينة نفسه من الداخل وفى طريقة تعامله مع الناس فى الخارج . فيعاملهم بالمودة والرأفة ، وتتسع نفسه لاحتمال الجهد والصبر على ما يلقاه من الناس !

وحين تتكرر هذه اللحظات وتتقارب فإنها تعطى صاحبها سمة واضحة ، ويعرف الناس أن صاحبها عظيم النفس ، وأنه ليس كالآخرين الذين يعيشون فى إطار مصالح الأرض القريبة وشهوات النفس الهابطة .

ولكن للبشر على أى حال طاقة معينة يقفون عندها فى هذه الأمور ، وبقدر ما يحصّلون منها تكون عظمتهم بالقياس إلى غيرهم من البشر .

والآن فلنتطلع إلى أفق آخر ..

فلنتصور إنساناً لا يعيش هذه المشاعر لحظات متفرقة ، ولا حتى لحظات متقاربة ، إنما هى الأصل فى حياته ، وهى الزاد الدائم الذى تتغذى به روحه ، والأفق الدائم الذى يحلق فيه .. كيف يكون نوع مشاعره ، وعلى أى درجة من العظمة يكون ؟

ذلك ، بشىء من التقريب ، هو النبى ـ كل نبى ! ـ ثم تتفاوت مراتبهم بعد ذلك فى الفضل !

ولنأخذ القضية كذلك من الجانب الآخر ..

إن الإنسان ليحس فى بعض اللحظات أن الله راض عنه ، وقريب برحمته منه ، فكيف يكون أثر هذا الإحساس فى نفسه ومشاعره ؟ ألا يحس أن نفسه تتسع وتتسع . وروحه تصفو وترتفع ؟ ألا يحس بأن ذلك الفيض الإلهى قد ملأ قلبه بالنور ، ورفعه درجات عن الأرض ، حتى لكأنه ليس جسداً جاثماً على الأرض ، ولكنه روح ترفرف فى السماء ؟

ألا يجعله ذلك الفيض الإلهى أقرب إحساساً بعظمة الله ، وأشد رغبة فى عبادته ، وأشد إخلاصاً فى دعائه والتوكل عليه ، وأقرب إلى استجابة أمره ، والعمل بما يرضيه ؟

ثم ، ألا ينعكس ذلك كله على تكوين نفسه وعلى تعامله مع الناس ؟

فإذا كان ذلك من أثر لحظات عابرة يحس فيها الإنسان بذلك القرب من الله .. فكيف

بمن يكلمه الله ؟ كيف بمن يتنزل عليه الله بالوحى ، فيشعر بتلك الصلة الموصولة بالله ؟!

ذلك ـ بالتقريب ـ شأن الأنبياء ، ثم يتفاوتون فيما بينهم بما شاء لهم الله من درجات .

أما كيف يتم ذلك فأمر لا نعلمه نحن ، ولكنا نعلم أنه يتم بتهيئة خاصة من الله يمنّ بها على عبده الذى اصطفاه . كما قال سبحانه وتعالى عن نبيه موسى : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴾ (سورة طه : ٣٩) .

وكما قال عن نبيه المصطفى عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (سورة الشورى : ٥٢) .

(٣) الوحى وأنواعه

يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة الشورى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ (سورة الشورى : ٥١) .

وتبين هذه الآية أنواع الوحى الربانى إلى عباده المصطفين ليكونوا رسلاً وأنبياء . إن الله لا يكلم أنبياءه مواجهة ، لأن هذه المواجهة لا يقوى عليها البشر فى الحياة الدنيا. إنما يكلمهم بإحدى طرق ثلاث :

١) وحياً يُلقى فى النفس مباشرةً فتعرف أنه من الله . ويسمى ذلك أيضاً بالإلهام ومنه رؤى الأنبياء كرؤيا سيدنا إبراهيم أنه يذبح ولده إسماعيل : ﴿ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ (سورة الصافات : ١٠٢) .

٢) أو من وراء حجاب ، كما كلم الله موسى عليه السلام : ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (سورة القصص : ٣٠) دون أن يرى الله ، لأنه ذلك مستحيل بالنسبة إليه ، فلما طلب الرؤية حين جاء إلى ميقات ربه لم يُجَبْ إلى طلبه : ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ (سورة الأعراف : ١٤٣) .

٣) أو يرسل الله الملك المكلف بالوحى فيوحى إلى الرسول ما يشاء الله بطريقة من الطرق التى بيَّنها رسول الله ﷺ :

الأولى : ما كان يلقيه الملك فى روعه وقلبه دون أن يراه ، كما قال ﷺ : (إنَّ رُوْحَ القُدُسِ نَفَثَ فى رُوْعى أنَّهُ لَنْ تَمُوْتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَها ، فاتَّقُوا اللهَ وأَجْمِلوا فى الطَّلَب) .

الثانية : أن يتمثل الملك لرسول الله ﷺ فى صورة رجل فيخاطبه حتى يعى عنه ما يقول .

الثالثة : أنه كان يأتيه فى صورة صلصلة الجرس . وكان أشده عليه حتى أن جبينه ليتفصد عرقاً فى اليوم الشديد البرد ، وحتى أن راحلته لتبرك به إلى الأرض إن كان راكبها .

الرابعة : أن يرى الملك فى صورته التى خلق عليها ، فيوحى إليه ما شاء الله أن يوحيه . وهذا وقع للرسول ﷺ مرتين كما جاء فى سورة النجم : ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ⑧ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ⑨ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ⑩ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ⑪ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ⑫ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ⑬ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ (سورة النجم : ٨-١٤) .

(٤) حاجة البشر إلى الرسالة

خلق الله البشر وهو أعلم باحتياجاتهم .

لقد خلق لهم أجساداً تحتاج إلى الغذاء لكى تنمو وتعيش حتى تقضى أجلها المقدَّر لها ، كما تحتاج إلى الكساء والمأوى . وخلق لهم عقولاً تحتاج إلى المعرفة والتعليم لتقوم بما تطلبه الأجساد من غذاء وكساء ومأوى ، وتقوم بما كلف الإنسان به من عمارة الأرض : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ (سورة هود : ٦١) . وخلق لهم أرواحاً تحتاج إلى الهداية لتستقيم حياة الإنسان فى الدنيا والآخرة .

ثم إن الله تكفّل بكل احتياجات البشر ، لأنهم لا يملكون شيئاً بغير تلك الكفالة الربانية التى تعطيهم كل شىء ، وبغيرها لا يملكون شيئاً على الإطلاق .

تكفل بالرزق كله ، وجعله فى متناول الإنسان فى الأرض التي نشأ منها وفيما يحيط بها من ماء وهواء وأفلاك :

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴾

(سورة فصلت : ١٠) .

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ﴾ (سورة الملك : ١٥) .

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ۝ وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۝ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾

(سورة إبراهيم : ٣٢ ـ ٣٤) .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ (سورة الجاثية : ١٣) .

وتكفل بالمعرفة التى تحتاج العقول إليها ، وزود الإنسان بالأدوات اللازمة لتحصيلها :

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ (سورة البقرة : ٣١) .

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (سورة النحل : ٧٨) .

﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (سورة العلق : ٣-٥) .

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴾ (سورة الإسراء : ١٢) .

وتكفل كذلك بالهداية التى تحتاج إليها الأرواح فأرسل الأنبياء والرسل ليبينوا للناس الحق ويهدوهم إليه : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ (سورة النحل : ٣٦) .

ومع أن الله سبحانه وتعالى قد تكفّل بكل ذلك رحمة منه بعباده بغير إلزام (فمنذا الذى يملك إلزام الله جل وعلا بأىّ شىء على الإطلاق ؟!) .. مع ذلك فإن الإنسان ليطغى ، ويظن فى لحظة غفلته أنه مستغنٍ عن كفالة الله فى أى أمر من الأمور !

﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴾ (سورة العلق : ٦-٧) .

يظن أحياناً أنه ـ بجهده الذاتى ـ هو الذى يخرج الزرع من الأرض ليأكله ، ويستخرج الماء ليشربه ، ويَعمر الأرض ليسكنها ويستمتع بها ، ويقول : أنا الذى فعلت ذلك !

من أجل ذلك يذكره الله :

﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ۝ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ۝ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۝

﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۝ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ۝ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ[1] ۝ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ۝ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ۝ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ۝ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ ۝ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ (سورة الواقعة : ٦٣-٧٤) .

وبذلك يرده إلى الحقيقة ، وهى أن الله هو المنشئ والصانع ، وأنه إذا كان ـ سبحانه ـ قد يسر للإنسان تسخير طاقات السموات والأرض لعمارة الأرض وسكناها والاستمتاع بخيراتها ، فكل ذلك من عنده ـ سبحانه ـ وبما أودع الإنسان من قدرة على التعرف على سنن الله التى يدير بها الكون ، واستخدام هذه المعرفة لمنفعته . ولكن الإنسان بذاته لا يملك شيئاً ! ولو شاء الله لجعل الزرع حطاماً بعد أن يبذل الإنسان كل جهد فيه ! ولو شاء لجعل الماء النازل من السحاب أجاجاً لا يصلح للشرب[2] ولو شاء كذلك لم ينشئ المادة التى تتولد منها الطاقة الحرارية التى يستدفئ بها الإنسان فأوجعه البرد أو قضى عليه !

---

(١) قد يظن بعض الناس لأول وهلة أن إنزال المطر من السحاب ، أو ما يسمونه المطر الصناعى ، يتعارض مع هذه الآية ، وأن الإنسان أصبح هو الذى ينزل الماء من المزن وليس الله جل جلاله ! وهذا الوهم السطحى لا حقيقة له . فالإنسان لا يخلق السحاب ، وليس هو الذى خلق الماء الذى يتصاعد إلى الجو فى هيئة بخار ويتكون منه السحاب الذى ينزل منه المطر . وحين يتحكم الإنسان فى استنزال الماء من بعض السحب فهو يستخدم السنن الربانية التى يتكاثف بها السحاب ويمطر ، ولا يأتى بشيء من عند نفسه ! ولقد جاءت الأخبار من أوروبا هذا العام (عام ١٣٩٦ من الهجرة الموافق لعام ١٩٧٦ من ميلاد المسيح) بأن الجفاف قد حل بأوروبا بصورة لم يسبق لها مثيل منذ مائة وخمسين عاماً فاحترقت الزروع والأشجار ومات منها الكثير ونفقت الماشية ووزعت المياه على الناس بالبطاقات فى بعض بلدان أوروبا ووقف الإنسان بكل علمه واختراعاته عاجزاً أمام هذا الأمر الربانى .

(٢) إن مشيئة الله هى التى جعلت عملية البخر التى ينشأ منها السحاب والمطر تصعّد الماء العذب إلى السماء وتترك الملح فى جوف البحر ، فينزل المطر من السحاب عذباً صالحاً للشرب ، ولو شاء الله لغير سنته فجعل المطر ينزل أجاجاً كماء البحر فيموت الإنسان عطشاً . وإلى ذلك تشير الآية : ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾

كذلك يفرح الإنسان بما عنده من العلم ويحسب أنه من عند نفسه ، وأنه مستغن به عن الله . فيذكّره الله :

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

(سورة النحل : ٧٨) .

فأدوات المعرفة هى أصلاً منحةٌ من عند الله ، فضلاً عن أنها لا تؤدى إلى المعرفة بذاتها ، وإنما بما أودعها الله من قدرة على التعلم : ﴿ عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾

ولو شاء الله لذهب بسمع الناس وأبصارهم وأفئدتهم فلا يقدرون على شىء ! أو لو شاء لسلب قدرتهم على التعلم فلا يقدرون على شىء مع وجود السمع والابصار !

كذلك يظن الإنسان أنه مستغن عن هداية الله ، أو أنه أعلم بأموره ومصالحه من الله !

والجاهلية المعاصرة أوضح مثال على ذلك ، وإن كانت الجاهليات كلها ـ لسبب أو لآخر ـ تتنكب طريق الهداية الربانية .

يقول الإنسان لنفسه فى كل جاهلية ، وفى الجاهلية المعاصرة بصفة خاصة : إن لى عقلاً يفكر ، فأنا أفكر بعقلى وأدبر أمرى كله بغير حاجة إلى هداية الله .

ثم يكون من نتيجة ذلك كل الضلال والظلم والاضطراب الذى تعج به كل جاهلية ، وهذه الجاهلية بصفة خاصة !

إن الانسان الجاهلى حين يقول هذه القولة الضالة يغفل عن مجموعة من الحقائق :

١) يغفل **أولاً** عن أن هذا العقل الذى يتيه به عجباً هو موهبة من عند الله وليس كسباً ذاتياً من عند الانسان ! فواجب الشكر على هذه النعمة ذاتها يقتضى أن يرجع الإنسان إلى ربه فيما أمر به من منهج لاستخدام هذا العقل والاستفادة بطاقته . وقد رسم الله منهجاً للتفكر فى ملكوت الله يؤدى بالانسان إلى معرفة الله الواحد الحق ، وما ينبغى تجاه الله من عبودية وطاعة والتزام .

٢) ويغفل **ثانياً** عن أن الله منشىء هذا العقل ومانحه للانسان قد جعل لطاقته

حدوداً معينة لا يستطيع أن يتعداها ، ثم كلفه ما يدخل فى طاقته ، ولم يكلفه ما لا يقدر عليه وما ليس من شأنه .

فهذا العقل ـ مثلاً ـ مهيأ للتعامل مع الكون المادى ، واستنباط السنن التى يجرى بها الله هذا الكون (أى ما نسميه في علم الفيزياء : خواص المادة) واستخدام هذه المعرفة فى تسخير طاقات السماوات والأرض من أجل عمارة الأرض والاستمتاع بما فيها من متاع .

ولكنه ليس مهيأ لمعرفة الغيب مهما اجتهد ومهما حاول .

وليس قادراً على الإحاطة بالأشياء كلها ، وأوضح دليل على ذلك « العلم » ذاته ، فهو يصف ما يستطيع معرفته من « ظواهر » الأشياء ولكنه لا يتعرض « لكنهها » لأن « الكنه » خارج عن إدراكه ! يتحدث مثلاً عن ظواهر الكهرباء ولكنه لا يعرف ما سرها . يتحدث عن خواص المادة ولكنه لا يتحدث عن المادة ذاتها ولقد حللها إلى أبسط تكويناتها وهى الذرة ، ثم حلل الذرة فقال إنها طاقة كهربية سالبة وموجبة ومتعادلة . وبقى السؤال الذى لا جواب له عند العلم ، ولا عند العقل : ما الطاقة ذاتها ؟! سؤال لا إجابة له إلا هذه الإجابة : إنها شيء أودعه الله فى بنية هذا الكون فحسب !

فإذا كان هذا موقف العقل من الأشياء فكيف يكون هو الحكم فى الغيبيات التى لا سبيل له إلى إدراكها ، وفى الأمور التى يحتاج الحكم فيها إلى الإحاطة الكاملة بكل شيء ؟! .

٣) على أن هذا الإنسان الجاهلى حين يقول هذه القولة الضالة يغفل عن شيء آخر شديد الأهمية (أو هو يغالط فيه فى الحقيقة) وهو أن الذى يتحكم فى حياة الناس فى الجاهلية ليس هو العقل فى الحقيقة ولكنه الهوى والشهوات ، سواء كان هوى فرد واحد أو مجموعة من الأفراد أو هوى كل الناس !

والجاهلية المعاصرة أوضح نموذج لذلك .

وإلا فأين مكان « العقل » عند الناس فى الفوضى الخلقية المتفشية اليوم فى أرجاء الأرض ، وكل تجارب التاريخ تؤكد أنه ما من أمة فشت فيها الفوضى الخلقية إلا كان مصيرها إلى الانهيار ؟! .

وأين العقل عند الدول الكبرى وهى تنفق على أسلحة الدمار ما لو أنفقته فى شئون السلم ما بقى فى الأرض كلها جائع واحد ولا محتاج ؟! .

وأين ذهب العقل عن « الإنسان » كله فى هذه الجاهلية ، وهو يرى نتيجة بعده عن الله : الاضطراب والحيرة والأمراض النفسية والعصبية والقلق والجنون والضياع ، ومع ذلك يصر على المضى فى طريق الغواية ويتنكب طريق الله ؟! .

كلا ! إنه ليس العقل هو الذى يتحكم فى حياة الناس فى الجاهلية ، ولكنه الهوى والشهوات .. ثم يزعم الإنسان لنفسه أنه فى غنى عن هداية الله !

على أن الجاهلية المعاصرة ـ وان كانت أسوأ جاهليات التاريخ وأشدها عتواً ـ ليست هى النموذج الوحيد لضلال البشرية حين تبعد عن هداية الله . والتاريخ ملىء بالنماذج الصارخة على ذلك الضلال .

ففى الجاهلية الفرعونية كان الفرعون ـ وهو بشر يولد من أبوين بشريين ـ يعتبر إلهاً ! وتصل به الجرأة على الله أن يقول على ملأ من الناس : ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾ ! ويعبده الناس ويتقدمون له بشعائر العبادة !

وفي الجاهلية الهندية تعتبر البقرة إلهاً ! ويتبرك الناس بالاستحمام من بولها المقدس !

وفى الجاهلية العربية ـ وغيرها ـ كانوا يعبدون أصناماً ينحتونها بأيديهم ثم يقدمون إليها القرابين والصلوات !

وبالإضافة إلى هذه الضلالات التى تقع فيها الجاهليات فهنالك لون آخر من الشرك تقع فيه كل جاهلية حين لا تتحاكم إلى شريعة الله .

فحين لا يكون شرع الله هو المتبع فلا بد أن يشرع البشر لأنفسهم ، وعندئذ يصبح بعض الناس أرباباً لبقية الناس . فالذين يشرعون من دون الله ويحلون ويحرمون على

هواهم يتخذون من أنفسهم أرباباً فى الواقع ، ويستعبدون الناس بسلطانهم ويخضعونهم لأهوائهم . والآخرون عبيد لهذه الأرباب ، ينفذون إرادتها ولا يملكون مخالفتها ، لأنها تملك السلطة التى تخضعهم بها . ومن هنا يصبح الإنسان عبداً لبشر مثله ، بدلاً من أن يكون على وضعه الكريم الذى كرمه به الله : عبداً لله وحده دون شريك .

وفضلاً عن ذلك فإن الفئة التى تشرع تضع التشريعات دائماً لصالحها على حساب المستضعفين الذين يقع عليهم عبء هذه التشريعات دون أن ينالوا من خيراتها إلا الفتات . فحين كان الإقطاع سائداً فى الأرض كان الإقطاعى هو السيد الذى يملك السلطة والباقون هم العبيد . وفى الرأسمالية يكون الرأسماليون هم السادة المسيطرون والعمال هم العبيد . وفى الشيوعية يكون الحكام ـ أعضاء الحزب الشيوعى ـ هم السادة المستمتعين بكل الخيرات وبقية الشعب هم العبيد . ولا يكون الناس أحراراً أبداً إلا حين تكون شريعة الله هى الحاكمة فى الأرض . فعندئذ فقط يكون الحاكم والمحكوم سواء أمام القانون ، لأنه قانون الله المنفذ على الجميع ، لم يضعه فرد ولا طائفة لمصلحتهم الخاصة . ويكون الحاكم والمحكوم معاً عبيداً لله على سواء ، خاضعين لحكم واحد هو شريعة الله .

كذلك توجد دائماً فى كل جاهلية ألوان من الاختلالات الاجتماعية والخلقية والنفسية والفكرية تنشأ كلها من الابتعاد عن منهج الله .

فى الجاهليات القديمة نجد أمثلة مضحكة ومقززة فى ذات الوقت .

فقد كان المجرم فى الجاهلية الإغريقية يعتبر بطلاً إذا استطاع أن يرتكب جريمته ويفلت من العقاب ! أما إذا لم يستطع الإفلات ووقع فى يد الشرطة فعندئذ فقط يعتبر مجرماً يستحق العقاب ... .

وفى الجاهلية العربية كانوا يئدون البنات وكان الرجل يرث عن أبيه كل شىء حتى زوجاته (غير أمه) فيصبحن جزءاً من الميراث ! !

وفى بعض بلاد الهند والتبت كانت المرأة التى يموت عنها زوجها تدفن معه حية ولا يعتبر ذلك جريمة فى نظر الناس ، وإنما يعتبر قياماً بواجب الوفاء من الزوجة لزوجها !

وأما الجاهلية المعاصرة فلا تقل سوءاً إن لم تكن أسوأ ! ونظرة سريعة إلى المجتمع البشرى المعاصر تكشف عن بشاعة ما فيه من اختلالات .

تقول الإحصاءات الأمريكية إن نسبة الطلاق فى أمريكا تزيد على ٤٠ ٪ من مجموع الزيجات ، ومعنى ذلك اضطراب أحوال الأسرة وعدم استقرارها .

وتقول إن مرض الجنون يفتك بعدد من أفراد الشعب الأمريكى يزيد على أى وباء آخر من الأوبئة الفتاكة ، ومعنى ذلك أن نوع الحياة الذى تقدمه الجاهلية المعاصرة لا يتلاءم مع فطرة الإنسان ولا يسعدها .

وتقول إن نسبة الجريمة فى ارتفاع مستمر ، وإن وسائل الاعلام و« التليفزيون » بصفة خاصة من العوامل المؤثرة فى ارتفاع نسبة الجريمة .

وتقول إن الجنوح الإجرامى عند الأطفال والمراهقين أصبح يشكل خطراً على مستقبل الأمة . وإن من أهم أسباب هذا الجنوح غياب الأم عن البيت لانشغالها فى العمل ، وعدم وجود من يرعى الأطفال وينشئهم التنشئة الصالحة لأن المحاضن لا يمكن أن تغنى غناء البيت ...

وهذا كله رغم الرفاهية الظاهرية التى يعيش فيها الشعب الأمريكى !

كلا ، لا يستطيع الإنسان أن يحيا حياة سليمة بعيداً عن الهداية الربانية .

وكل حياة البشر بعيداً عن المنهج الربانى خلال التاريخ مصداق لهذه الحقيقة وشاهد عليها .

ولم يستطع العقل البشرى مرة واحدة أن يضع منهجاً متكاملاً خالياً من العيوب ... وكلما أبرز التطبيق العملى عيباً فى تلك المناهج البشرية حاول البشر إصلاحه بعيب جديد تظهر نتائجه المنحرفة بعد حين من الزمان .

ذلك أن وضع المنهج الصالح لحياة البشر يحتاج إلى جملة أمور يقصر عنها العلم البشرى .

يحتاج **أولاً** : إلى معرفة حقيقية كاملة بالكيان البشرى ذاته . والإنسان ـ على الرغم

من كل العلم المادى الذى عرفه ـ ما يزال شديد الجهل بكيانه الذاتى ، كما يقول « ألكسيس كاريل » أحد المفكرين الغربيين ، وهو بالتالى شديد الجهل بما يصلحه وما يصلح له[1] .

ويحتاج **ثانياً** : إلى إحاطة كاملة بماضى الجنس البشرى وحاضره ومستقبله ، والتجارب التى خاضها وأسبابها ونتائجها . وهذا يستحيل استحالة كاملة على الإنسان ، لأن كثيراً من أحداث الماضى مجهول له ، وهو عاجز عن الإحاطة بكل أحداث الحاضر الذى يعيشه ، أما المستقبل فهو غيب موصد أمامه لا يستطيع الاطلاع عليه .

ثم إنه يحتاج **ثالثاً** إلى أن يكون واضع المنهج غير متحيز ، لا مصلحة له فى أمر من الأمور ، ولا هوى ولا شهوات . وهذا أمر لا يتوفر أصلاً فى الإنسان ، الذى ينجذب دائماً إلى مصلحته الذاتية (كما يراها من وجهة نظره وكثيراً ما تكون خاطئة) وتحركه دائماً الأهواء والشهوات ما لم يلتزم بأمر الله : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴾ (سورة المعارج : ١٩-٢٢) .

ويحتاج **رابعاً** : واضع المنهج إلى علم كامل بمن يطيعه في السر والعلن ، وإلى قدرة تامة على مجازاة من يطيع ومعاقبة من يعصي حتى يكون المنهج محترماً ومطبقاً ، وهذه الأوصاف لا تتوفر في الجنس البشري ، فالإنسان لا يرى إلا في حدود ما تبصر عيناه ، ولا يسمع إلا في حدود ما يبلغ سمعه .

أما الله عز وجل فإنه يعلم جميع ما يفعله الإنسان من خير وشر قال تعالى :

---

(١) ألكسيس كاريل طبيب وعالم فرنسى ألف مجموعة من الكتب فى شتى الأبحاث العلمية والاجتماعية ، من أهمها كتاب بعنوان « الإنسان ذلك المجهول » نص فيه على أن الحضارة الغربية تضع مناهج سياسية واقتصادية واجتماعية وفكرية وتعليمية للإنسان وهى تجهل طبيعة ذلك الإنسان الذى تضع له هذه المناهج ! ومن ثم تكون النتيجة هى الخطأ الدائم والاضطراب وهذا هو السبب فى أننا نزيد تأخراً وهمجية كلما ازددنا تقدماً فى الظاهر . وقال : إن عجز الإنسان عن معرفة طبيعة نفسه هو عجز أصلى لا سبيل إلى التغلب عليه ، وأنه لا مناص لنا من الرجوع إلى حكمة الخالق ، لأن حكمتنا الذاتية قاصرة ومضللة !

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (١).

والله عز وجل قادراً على أن يجازي من أطاعه ويعاقب من عصاه على الدقيق والجليل قال تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (٢).

ومن ثم فإن المنهج الصالح لا يمكن أن يأتي إلا من مصدر واحد هو الله .

فالله هو الذى يعلم حقيقة الإنسان لأنه هو الذى خلقه سبحانه : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (سورة الملك : ١٤) .

والله هو الذى يعلم كل شىء فى حياة البشر - وفى الكون كله - علم إحاطة واطلاع :

﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴾

(سورة سبأ : ٢) .

﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ (سورة سبأ : ٣) :

والله هو الذي شرع التشريع الحكيم لأنه هو الغني القادر ، وليس محتاجاً إلى شيء مما عند الناس وهو الواهب لهم كل شيء ، وهو الذي لا يزيد في ملكه أن يكون الناس كلهم على أتقى رجل منهم ، ولا ينقص في ملكه أن يكونوا على قلب أفجر رجل منهم كما يقول الحديث القدسي .

والهداية الربانية التي تشتمل على المنهج الصالح لحياة البشر طريقها هو الرسل والرسالات .

ومن ثم تصبح الرسالة حاجة بشرية لا غنـى عنها ، ولا استقامة لحياة البشر بدونها .

وكما تكفل الله سبحانه وتعالى ــ رحمة منه بعباده ــ بكل ما يحفظ حياتهم من الطعام والكساء والمأوى والعقل المدبر المنظم ، فقد تكفل ــ سبحانه ــ كذلك بإرسال الرسل وإنزال الكتب لتستقيم حياة الناس في الأرض .

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾

(سورة الحديد : ٢٥) .

---

(١) سورة المجادلة آية (٧) .

(٢) سورة الزلزلة آية (٧ ــ ٨) .

(٥) مهمة الرسل

١) إن المهمة الأولى للرسل هى هداية البشرية إلى معرفة الخالق وتوحيده .

ولقد قلنا من قبل (فى كتاب السنة الأولى) إن الفطرة البشرية بذاتها تعرف وجود الخالق وتتجه إليه بالعبادة . ولكنها كثيراً ما تضل ، فتتصور الخالق على غير حقيقته وتشرك معه آلهة أخرى . ومن ثم يرسل الله الرسل ليعرّفوا البشر بحقيقة خالقهم وينفوا من عقولهم ونفوسهم التصورات الباطلة عن الله سبحانه وتعالى وما يترتب عليها من انحرافات فى الفكر والسلوك ، وليعالجوا بصفة خاصة قضية الشرك ، وهى أشد ما يتعرض له البشر من انحراف فى تصورهم للخالق وسلوكهم نحوه .

يقول الرسل جميعاً لأقوامهم : ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾

(سورة الأعراف : ٥٩ ، ٦٥ ، ٧٢ ، ٨٥) .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾

(سورة الأنبياء : ٢٥) .

فالله سبحانه وتعالى واحد أحد : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ (سورة الإخلاص) .

ومن ثم تنتفى كل بنوة لله أو قرابة لأحد من البشر أو الجن أو الملائكة مما تعج به خرافات الجاهلية ، ما باد منها وما لا يزال باقياً حتى اليوم .

كذلك ليس الله متمثلاً فى صنم أو وثن أو فى الشمس أو القمر أو النجوم أو غيرها

من الكائنات فكلها مخلوق والله هو الخالق : ﴿ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ ﴾ (سورة فصلت : ٣٧) .

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى ﴾ (سورة النجم : ٤٩) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ (سورة الأعراف : ١٩٤) .

وكذلك فإن الله لا يشرك فى حكمه أحداً ولا يوزع اختصاصاته سبحانه على أحد من خلقه ولا ينتزعونها هم منه قهراً عنه ! .

﴿ لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ (سورة الكهف : ٢٦) .

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾ (سورة سبأ : ٢٢) .

﴿ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ (سورة الأنبياء : ٢٩) .

كما يقوم الرسل بتعريف البشر بإلههم بصفاته كلها وأسمائه الحسنى : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ (سورة الأعراف : ١٨٠) .

﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (سورة الحشر : ٢٢-٢٤) .

فإذا عرف البشر ربهم على هذه الصورة ، وانتفى كل وهم باطل عنه فى أذهانهم وفى مشاعرهم ، بقيت القضية الثانية التى يضل البشر بشأنها فى جاهليتهم ، وهى الطريقة الصحيحة لعبادة الله .

العبادة الصحيحة

إن العبادة ليست فقط فى الاعتقاد بأن الله واحد لا شريك له . ولا فى تقديم شعائر التعبد من صلاة ونسك ودعاء لله وحده دون شريك ، بل هناك أمر آخر :

﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾

(سورة الأعراف : ٣) .

إنه لا بد من اتباع ما أنزل الله وإلا فقد بطلت العبادة ولم يصبح المعبود إلهاً واحداً وإنما إلهين اثنين . واحد تقدم له شعائر التعبد ، وواحد يشرع وتطاع تشريعاته من دون الله[1] : ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ (سورة النحل : ٥١) .

تلك هى المهمة الكبرى للرسل جميعاً صلوات الله عليهم وسلامه : أن يهدوا البشرية لإلهها الواحد ، ويدلوهم على الطريقة الصحيحة لعبادته ، وبذلك تقوم حياتهم على قاعدتها الصحيحة : إفراد الله سبحانه وتعالى بالألوهية والربوبية ، وتوحيد العبادة له فى الاعتقاد وشعائر التعبد واتباع ما أنزل الله من التشريع ، أى الحكم بما أنزل الله .

٢) وتبعاً لهذه المهمة تجىء المهمة الثانية وهى تعريف الناس بالمنهج الحق الذى تستقيم به حياتهم فى الدنيا وينالون به رضوان الله فى الآخرة . وذلك بتبليغ ما أوحى به الله إليهم ، وشرحه وبيانه ، وتعريف الناس بطريقة تطبيقه وتدريبهم على ذلك كما يفعل المعلم مع تلاميذه حتى يطمئنوا أن أتباعهم قد وعوا ما أنزل الله وعياً صحيحاً وطبقوه التطبيق الصحيح .

وهذه المهمة تحتاج منهم إلى الصبر والمثابرة وسعة الصدر لأنها ليست مجرد إلقاء دروس عابرة ، ولا قراءة من كتاب . إنما هى مهمة التعليم ، بكل ما يشتمل عليه التعليم من مشقات .

٣) ولا تقتصر مهمة الرسل على التعريف والتعليم ، على ما لهذا الأمر من أهمية بالغة فى حياة الناس . إنما تمتد إلى التربية . فليس دين الله معلومات تلقى ثم تحفظ . إنما هو سلوك عملى بمقتضى التعليم الربانى . والسلوك العملى لا يكتسب فجأة ، ولا يكتسب بغير جهد يبذله المربِّى والمربَّى على حد سواء . المربِّى ـ وهو هنا الرسول ـ يبذل جهده فى التوجيه والملاحظة والمتابعة والتذكير والصبر الطويل على انحرافات

---

(١) راجع كتاب السنة الأولى ص ١٠٣ .

الناس حتى تستقيم ، وبذل النصح باللين والمودة حتى تتقبله النفوس وتعمل بمقتضاه . والمربِّى يبذل الجهد فى ضبط أهوائه حتى تستقيم مع المنهج المنزل ، ومقاومة الشهوات التى تجنح به عن الطريق ، ودفع وساوس الشيطان التى تزين له المعصية والبعد عن طاعة الله .

ومهمة التربية من أشق المهام التى يقوم الرسل بأدائها . لأن النفوس لا تستقيم على المنهج الصحيح بمجرد دعوتها إليه ! حتى لو عرفت وآمنت بأنه هو الحق ، وأنه هو الأولى بالاتباع ! ذلك أن فى النفوس نزعات دائمة التطلع إلى متاع الحياة الدنيا ولذائذها ، ويحتاج ضبطها داخل حدود الله التى يقول الله عنها : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾ (سورة البقرة : ٢٢٩) . ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾ (سورة البقرة : ١٨٧) ، يحتاج هذا الأمر إلى جهد ليس بالقليل ، وإلى تذكر دائم بالله وخشية منه ، لأن لحظة الغفلة التى ينسى فيها الإنسان ذكر ربه هى التى يتحينها الشيطان لينفذ منها إلى قلب الإنسان : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ ﴾ (سورة طه : ١١٥) . ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا ۗ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ (سورة الأعراف : ٢٧) . ﴿ وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ اللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ ﴾ (سورة النساء : ١١٧-١١٩) . (إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ الإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ مِنَ العُرُوق ..)[١]

أ) ووسيلة الرسل ـ صلوات الله عليهم وسلامه ـ إلى تربية أتباعهم وتقويم نفوسهم حتى تستقيم على أمر الله وتتحصن من غواية الشيطان ، تبدأ من ذات أنفسهم ، بأن يكونوا هم أنفسهم القدوة فى كل ما يدعون الناس إلى اتباعه .

(١) متفق عليه .

سئلت عائشة رضى الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ فقالت : (كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآن)[1] .

لذلك يختار الله أنبياءه ـ وهم صفوة الخلق ـ من ذوى الأخلاق العالية التى تكون نموذجاً للناس: ﴿ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ ﴾ (سورة ص : ٤٨) . ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (سورة القلم : ٤) .

ب) ثم إنها تحتاج إلى الصبر والحلم وسعة الصدر : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ (سورة الكهف : ٢٨) .

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ (سورة آل عمران : ١٥٩) .

ج) وتحتاج إلى التذكير الدائم بالله : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (سورة الذاريات : ٥٥) .

د) وتحتاج إلى معايشة الناس ومصاحبتهم وملازمتهم لا العزلة والانقطاع عنهم ، حتى تقدَّم لهم التوجيهات والتعليمات فى مناسباتها ، وتتم الملاحظة والمتابعة المطلوبة التى لا بد منها حتى يستقيم الناس على الخلق المطلوب ، وتكون هناك فرصة لبذر العادات الصالحة فى نفوسهم .

هـ) وتحتاج إلى معرفة بطبائع النفوس ومداخلها لتقديم التوجيه المناسب لها بالطريقة التى تقوّمها ولا تنفرها : (أُمِرْتُ أَنْ أُخَاطِبَ النَّاسَ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ)[2] (كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَتَخَوَّلُنا بِالْمَوْعِظَةِ مَخَافَةَ السَّآمَة)[3] .

٤) ومن مهام الرسل كذلك تعريف الناس بالقيم الحقيقية التى تستحق الاعتبار وتستحق أن يحرص الناس عليها ويسعوا إلى تحصيلها .

---

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه الديلمى بسند ضعيف بلفظ (أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم) .

(٣) رواه مسلم .

إن الناس بطبيعتهم منجذبون دائما إلى متاع الأرض: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (سورة آل عمران : ١٤) .

وهم يحتاجون دائماً إلى من يرفعهم من ثقلة الأرض هذه ويبصرهم بالقيم العليا التى ينبغى أن يتجهوا إليها من صدق وإخلاص وأمانة وتضحية وكرم وشجاعة وإيثار وعدل ، مما يليق بالإنسان الذى كرمه الله وفضّله وجعله خليفة فى الأرض وحمّله الأمانة الكبرى : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (سورة البقرة : ٣٠) . ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (سورة الإسراء : ٧٠) . ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ (سورة الأحزاب : ٧٢) .

وهذه المهمة هى فى الحقيقة جزء من مهمة التربية التى أشرنا إليها من قبل ولكنا نفردها بالحديث لأهميتها ، ولأن الرسل يخوضون صراعاً مريراً من أجل تقريرها أولاً ، ثم تربية فريق من الناس عليها .

فإن الذى يصد الناس عن الإيمان بالرسل بادىء ذى بدء هو حرصهم على متاع الدنيا الزائف وخوفهم من أن يحرمهم منه الإيمان بالله والحكم بما أنزل الله !

فأما الملأ فإنهم يكونون مستحوذين على سلطان باطل يستعبدون به الناس لأهوائهم ومطامعهم ويخضعونهم بالقوة لذلك السلطان . لذلك فإنهم يحاربون الرسل ويصدون عن دعوتهم ، لأن هذه الدعوة تحرمهم من سلطانهم وطغيانهم برد الحكم لله ونزع حق التشريع من أيدى البشر ورده إلى الله الذى يشرع بالعدل بين الناس ويأمر به : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ (سورة النساء : ٥٨) .

وأما العبيد فعلى الرغم من أن الرسول المرسل من عند الله يجىء لتحريرهم من العبودية للملأ ، ورد إنسانيتهم المسلوبة إليهم بجعلهم عبيداً لله وحده الذى يستحق

العبادة ، لا عبيداً لبشر مثلهم يتحكمون فيهم بالهوى والطغيان .. على الرغم من ذلك فإن الغالبية منهم تصد عن الرسل فى مبدأ الأمر ولا تتبع هدايتهم .. وذلك لأنهم يكونون دائماً غارقين فى الشهوات التى يأتى دين الله ليطهرهم منها ، ولكنهم ـ قبل أن يهتدوا ـ لا يرون ذلك تطهيراً وإنما يرونه ـ بنفوسهم المنحرفة ـ حرماناً من لذائذ الأرض المتاحة !

﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ (سورة البقرة : ٢١٢) .

﴿ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴾ (سورة الرعد : ٢٦) .

﴿ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ (سورة إبراهيم : ٢-٣) .

وهؤلاء الكفار ، والملأ بصفة خاصة ، لا يتركون النبى المرسل يؤدى رسالته ، بل يتعرضون له بالأذى الذى يصل أحياناً إلى التهديد بالقتل أو السجن أو الطرد والنفى ، بل يصل فى بعض الأحيان إلى التنفيذ ، كما قتل النبى يحيى والنبى زكريا .

﴿ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾ (سورة الشعراء : ١١٦) .

﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ (سورة الأعراف : ٨٨) .

﴿ قَالَ(١) لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ (سورة الشعراء : ٢٩) .

وهنا ـ حين يتعرض الرسل لتلك المحنة ـ فإنهم ـ بسلوكهم العملى ـ يبرزون القيمة الحقيقية التى تستحق الحرص عليها والجهاد من أجلها .

لقد كانوا يملكون أن يتخلوا عن عقيدتهم وإيمانهم ويركنوا إلى المسالمة فينجوا من العذاب الذى يلقونه هم وأتباعهم والاضطهاد الذى يتعرضون له . أو كانوا يملكون فى القليل أن يحتفظوا بالحق الذى عرفوه فى دخيلة أنفسهم ويكفوا عن الدعوة التى تزعج الكفار والملأ بصفة خاصة ، فلعلهم لا يتعرضون لهم إن بقوا مؤمنين فى ذات أنفسهم

---

(١) فرعون لموسى .

دون أن يدعوا أحداً غيرهم إلى الإيمان !

ولكن الرسل جميعاً يأبون ذلك على أنفسهم . يأبون أن يشتروا بكلام الله ثمناً قليلاً هو متاع الحياة الدنيا الزائل الزائف الرخيص . يأبون أن يتخلوا عن دعوتهم حتى من أجل سلامتهم الشخصية وراحتهم .

بل إن الرسول ﷺ قد عرض عليه الملك والثروة والجاه والسلطان وكل مغريات الأرض فقال قولته الخالدة لعمه أبى طالب : (وَاللهِ يَا عَمِّ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فى يَمِينِى وَالقَمَرَ فى شِمالِى لأَتْرُكَ هَذَا الأَمْرَ ما فَعَلْتُ حَتَّى تَنْفَرِدَ سَالِفَتِى) أو قال : (حَتَّى أَهْلَكَ دُونَه)[1] .

وهنا يقررون ــ بصورة واقعية مشهودة ــ أن القيمة الحقيقية العليا هى الإيمان بالله ، والدعوة إلى الله ، والجهاد فى سبيل الله . وأن ذلك أفضل وأعلى وأغلى من متاع الأرض كله ، ومن الذهب والسلطان .

عندئذ تتغير القيم والمعايير فى حياة الناس .

فأما الأتباع الذين آمنوا فانهم يرون رسولهم الذى اقتدوا به وآمنوا على يديه يصبر على الأذى فى سبيل عقيدته ويصر عليها ولا يتخلى عنها تحت أى ضغط من إغراء أو تهديد ، فيقتدون به ويصبرون معه على الأذى والاضطهاد والتشريد والتعذيب والحرمان ، ويستعلون بالعقيدة على متاع الأرض كله كما استعلى سحرة فرعون بعد إيمانهم ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ۝٧٠ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ۝٧١ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ۝٧٢ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ (سورة طه : ٧٠ــ٧٣) .

وأما بقية الناس فإنهم ــ تدريجياً ــ يستيقظون من غفلتهم ، إذ يرون قوماً من الناس يهدَّدون فى أمنهم وراحتهم ، وفى كل المتاع الذى يحرصون هم عليه ويرون أنه

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام .

غاية الحياة كلها وأغلى ما فيها ، ومع ذلك لا يتخلون عن إيمانهم وعن عقيدتهم . فيتعلمون أن هناك فى الحياة ما يحرص عليه أكثر من المتاع ، وما يضحى من أجله بالمتاع . وذلك هو رضوان الله ومتاع الآخرة : ﴿ وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ[1] لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (سورة العنكبوت : ٦٤) . ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ (سورة آل عمران : ١٨٥) . وعندئذ يعدلون معايير حياتهم ليرتفعوا كما ارتفعت تلك الفئة المؤمنة ويدخلون فى الإيمان .

وأما الذين أصروا على الباطل واستحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ورفضوا الهدى الربانى فأولئك مآلهم الدمار والبوار إما فى الآخرة وإما فى الدنيا والآخرة معاً : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ۝ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ۝ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ (سورة إبراهيم : ٢٨ - ٣٠) .

وهكذا تتقرر القيم العليا - فى ذروتها - من خلال الصراع الذى يخوضه الرسل وأتباعهم بين الحق والباطل ، ويتميز النفع الحقيقى من الزيف : ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾ (سورة الرعد : ١٧) . ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾ (سورة البقرة : ٢٥) . ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (سورة الحج : ٤٠) .

---

(١) أى الحياة الحقيقية التى تستحق أن يحرص عليها والحاوية للمتاع الحقيقى .

(٦) أثر الرسل فى حياة الناس

الرسل أعظم الناس أثراً فى التاريخ الإنسانى ، ذلك لأنهم يحملون معهم الإصلاح الجذرى الذى يصلح النفس البشرية ويقومها . ولأنهم هم القدوة الصالحة لكل خير.

لقد كان فى تاريخ البشرية « قادة » كثيرون و« زعماء » و« مصلحون » . ولكنهم - ما عدا القلة المؤمنة منهم - كانوا محدودى الأثر فى حياة الناس . ولا يعدو تأثيرهم - مهما عظموا - الجيل الذى عاشوا فيه ، أو على الأكثر بضعة أجيال قليلة بعدهم .

والسبب فى ذلك واضح :

١) فهم غالباً ما يتصدون لحل مشكلة جزئية فى حياة أقوامهم . ويحلونها فى حدود البصيرة البشرية المحدودة الآفاق .

٢) ثم إن أشخاصهم لا تخلو قط من انحراف من الانحرافات البشرية العديدة ، ومن نقص وهبوط فى بعض الجوانب .

ولهذين السببين معاً يكون تأثيرهم - مهما عظم - محدود النطاق .

انظر إلى الزعيم السياسى - أىّ زعيم سياسى فى حياة البشرية - ما مهمته التى يسعى إلى تحقيقها ؟

إن مهمته محصورة فى تجميع أمته من شتات . أو تخليصها من نفوذ أجنبى مسيطر عليها . أو السعى إلى تغليبها على الأمم الأخرى .

لكن ، ما القيم والمعايير التى يبنى جهاده عليها ، ويوجه أمته إليها ؟

إنها ـ مهما كانت ـ قيم ومعايير محدودة لأنها مرتبطة بمتاع الأرض القريب ، منقطعة عن الله والآخرة . ومن ثم فهي قيم هابطة وإن بدت مرتفعة في أعين الناس في فورة حماستهم السياسية التي يدفعهم زعماؤهم إليها ! وستظل أخلاق الناس معوجة في مجموعها وإن حسنت بعض جزئياتها ، لأنها أخلاق محكومة بتلك القيم الأرضية المحدودة . وستظل النفوس في انحرافها وإن ارتفعت مؤقتاً في فورة حماستها ، لأن الأهداف التي تسعى إليها أهداف لا تتعلق بأصل الوجود الإنساني بقدر ما تتعلق بعارض من عوارض هذا الوجود . وقد يصلح العارض ويظل الأصل بعيداً عن الصلاح .

لذلك تقرأ سِيَرَ الزعماء السياسيين في تاريخ البشرية ـ غير القلة المؤمنة ـ وتبحث عما خلّفوا في الأرض فلا ترى إلا آثاراً كالأطلال !

واقرأ سيرة أي قائد حربي من عظماء التاريخ .. فما المهمة التي قام بها وما الآثار التي خلفها ؟

إن مهمته محصورة في قيادة الجند وتوجيههم إلى القتال ، والانتصار بهم في أكبر قدر من المعارك التي يخوضونها .

نعم ! ولكن فيم كانت الحرب ذاتها ؟ لأي هدف خاضها ، ولأي شيء انتصر بجنده فيها ؟

أمن أجل الحق والعدل ؟ أمن أجل تثبيت مثل أعلى وإقرار وجوده في حياة البشر؟ أم من أجل الغلبة وتوسيع الرقعة الأرضية وشهوة السيطرة على الآخرين وإذلالهم ؟ وفي أي شيء يختلف الغالب والمغلوب ؟ أم أنهما سواء ، كل منهما يتمنى أن يفتك بالآخرين لو استطاع ؟!

ما سمعنا ـ في غير القلة المؤمنة من قواد التاريخ ـ أن أحداً منهم قام من أجل مثل أعلى يريد إقراره في الأرض ، أو قيمة عليا يجاهد من أجلها ، ليرفع من نفوس البشر ويقربهم إلى مستوى الإنسانية ! إنما الذي يغلب عليهم هو شهوة الفتح وزهو الغلبة والمطامع الأرضية المتمثلة في توسيع الرقعة وزيادة الثروة على حساب المغلوبين و« ويل

للمغلوب » ! كما قال واحد ممن يحسبون قادة فى التاريخ[1] ، لأن الحرب ليست لها أخلاق ! ولا قانون يحكمها إلا قانون الغاب : القوى يأكل الضعيف !

لذلك تبحث عن آثارهم الباقية فى التاريخ فلا ترى إلا بعض البطولات الفردية فى القتال ، ولكن لا تجد قيماً باقية . وحتى الإمبراطوريات الضخمة التى يكونونها على عهدهم سرعان ما تتفسخ وتنطوى لأنها لا تمثل « قيماً » إنسانية ، إنما تمثل شهوات بشرية فحسب !

وانظر سير « المصلحين » الاجتماعيين .. كيف يصلحون ؟ وما آثارهم الباقية فى التاريخ ؟

أغلبهم ـ فيما عدا القلة المؤمنة المهتدية بهدى الله ـ ذوو نظرات جزئية ، تتفق مع جزئية التفكير البشرى وعدم قدرته على الإحاطة ، فضلاً عن الجهل الأصيل بطبيعة النفس البشرية ودروبها ومنحنياتها ، وما يصلحها وما يصلح لها !

أغلبهم يتناولون مشاكل اجتماعية جزئية يجدونها قائمة فى مجتمعاتهم دون أن يتعمقوا إلى الأصول التى تنشأ عنها المشكلات . ثم يحلونها حلولاً جزئية كذلك بغير تقويم شامل لنفوس البشر ذاتها التى نشأ من انحرافها ما نشأ من خلل فى تلك المجتمعات . فضلاً عن التعسف فى معالجة الأمور فى كثير من الأحيان لما ركب فى طبع الإنسان من عجلة : ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ (سورة الأنبياء : ٣٧) . ولرغبته فى أن يرى الثمرة السريعة فى عمره المحدود .

وكثيراً ما يحدث ـ كما وقع فى قضية تحرير المرأة فى أوروبا ـ أن « الإصلاح » لا يكون جزئياً وقاصراً فحسب ، بل يكون على حساب جوانب أخرى يفسدها ذلك الإصلاح المزعوم ويخربها . فرفع الظلم الواقع على المرأة الغربية ، دون الرجوع إلى الحلول الصحيحة المتضمنة فى المنهج الربانى ، قد أدى ـ كما نراها اليوم ـ إلى إشقاء

---

(١) هو الأمبراطور « غليوم » أمبراطور المانيا وأحد قادتها العسكريين .

المرأة ذاتها بإنهاكها فى العمل خارج البيت بالإضافة إلى تكاليف الأسرة والأولاد ، وتمزيق أعصابها بين أبنائها المتشبثين بها وبين مقتضيات العمل فى الخارج ، كما أدى إلى تحول المرأة إلى سلعة فى السوق ، رخيصة الثمن لمن أراد . وذلك فضلاً على الفساد الخلقى الذى ملأ المجتمع ، وتفسخ روابط الأسرة وضياع النشء الجديد الذى ليس له أمٌّ ترعاه وتربيه التربية الصحيحة .

وليس هذا هو النموذج الوحيد لضلال « المصلحين » وتقديمهم للحلول التى تفسد أكثر مما تصلح . فإليك مثلاً آخر فى اتجاه آخر .

لقد قام « مصلحون » ينددون بالظلم الواقع على العمال فى المجتمع الرأسمالى ، وينادون بضرورة رفع هذا الظلم وإصلاح الانحراف . وكان كلامهم صحيحاً من حيث المبدأ بصرف النظر عن صحة الأدلة التى يستدلون بها أو عدم صحتها . فإن الرأسمالية نظام جاهلى منحرف ، يقوم على أساس المعاملات الربوية التى حرمها الله ، ويؤدى حتماً إلى أن فريقاً قليلاً من الناس يظل يأكل الربا أضعافاً مضاعفة كما وصف القرآن ، فيزدادون ثراء على حساب الكثرة المستضعفة التى تظل تهبط مواردها على الدوام وتتضاءل ، فيقع عليها الظلم المتزايد ، بينما الفئة القليلة تعيث فى الأرض فساداً بثرائها الفاحش تفسد به الأخلاق ، وتنتهك به الأعراض ، وتدوس به على كرامة الآدميين . ويزيد الأمر سوءاً فى تلك المجتمعات الجاهلية أن هذه الفئة الطاغية هى التى تشرع ـ لأن تلك المجتمعات لا تتحاكم إلى شريعة الله ـ ومن ثم فإنها تضع التشريعات التى تضمن لها مزيداً من الثراء ، وتوقع مزيداً من المظالم على المستضعفين !

فالرأسمالية انحراف جاهلى ظالم . هذا صحيح .

وقد قام « المصلحون » يندون بمظالمه ويطالبون بضرورة إصلاحه .

ولكن كيف أصلحوه ؟!

إنهم ـ وهم لا يتبعون منهج الله ولا يستمدون منه الحلول لمشاكلهم ـ لا بد أن يخرجوا من مأزق إلى مأزق ، ومن انحراف إلى انحراف .

لقد قالوا إن الملكية الفردية هى سبب الظلم كله فلنُلْغِ الملكية الفردية ! ولننشىء مجتمعاً بلا تملك ! أما الذين فى أيديهم الملكية اليوم فلا بد من إبادتهم بادىء ذى بدء ، وجعل الملكية كلها فى يد الدولة ـ نيابة عن المجتمع ـ والدولة يشرف عليها الحزب الشيوعى الذى يعتنق هذه الأفكار !

وماذا كانت النتيجة العملية لتطبيق هذه المبادىء ؟!

لقد أصبح الناس جميعاً أُجَرَاء للدولة ، هى التى تعيِّن لهم أعمالهم ، وتحدد لهم أجورهم ، وساعات عملهم ، ومكان عملهم كذلك . وبالتالى لم يعد أحد يجرؤ أن يفتح فمه بكلمة نقد واحدة للدولة ، والا فَقَدَ عمله فمات من الجوع إن لم يتعرض للهلاك فى السجن والتعذيب والتشريد ! وبعبارة أخرى أصبح الناس عبيداً على نطاق واسع ، وأصبحوا من خوف الموت الحسى فى موت معنوى ، تحت ضغط الحديد والنار والتجسس الذى يجعل الأب لا يثق بابنه والأخ لا يثق بأخيه !

وفى الوقت الذى تستعبد فيه الدولة الناس لقاء لقمة الخبز وعيش الكفاف ، يمرح أعضاء الحزب الشيوعى الحاكم فى بحبوحة من العيش وترف لا يقل بذخاً عن الرأسماليين فى الغرب الرأسمالى !

وهكذا يفعل « المصلحون » الذين لا يستمدون من منهج الله .

* * *

أما « الفلاسفة » فلهم شأن آخر !

إنهم قوم يعيشون فى « الأبراج العاجية » كما يقال ! أى يعيشون فى عالم الأفكار المجردة فى عزلة عن الممارسة وعزلة عن الناس .

إنهم ينظرون إلى المجتمع البشرى فيرون فيه مجموعة من العلل والانحرافات فيحللون أسبابها ويفكرون فى علاج لها . وبصرف النظر عن صحة تحليلاتهم أو فسادها وجدوى حلولهم أو عدم جدواها ، فإنهم هم أنفسهم لا يقومون بتجربة عملية لها فى

عالم الواقع . إنما هى أفكار . مجرد أفكار . عمل يتم كله فى داخل الذهن ولا يمتد إلى دنيا الواقع .

وقد يتوصل بعضهم بالفعل إلى نظرة عميقة شاملة ، ودراية ـ نظرية ـ بالنفس البشرية وطبيعتها ، ولكنهم ـ وهم بعيدون عن ميدان التجربة الواقعية ، والاتصال المباشر مع الناس ـ لا يستطيعون أن يقدموا حلولاً واقعية قابلة للتطبيق ، فيظل جهدهم محصوراً فى تقديم أفكار جميلة براقة ، قد تعجب القارىء أو السامع لأول وهلة ، ولكنها نادراً ما تحركه لعمل شىء فى عالم الواقع . فيظل المجتمع بعلله وانحرافاته على ما هو عليه ، وتظل أفكار الفيلسوف البراقة مُثُلاً معلقة فى الفضاء ! وتبحث فى التاريخ عن الآثار الباقية لهؤلاء الفلاسفة فلا تجد إلا تأثرات فردية ، ولا تكاد تجد مجتمعاً تحول عن طريقه أو قوّم انحرافاته نتيجة فِكْر فكّر فيه فيلسوف ! إلا أن يعتنق فكره قوم من الناس فيتحول فى نفوسهم إلى عقيدة يقومون بالدعوة إليها والجهاد فى سبيلها ، وعندئذ تؤثر ـ لا بذاتها ، ولا بعمل الفيلسوف الذى فكر فيها ـ وإنما بجهد الذين اعتنقوها ودعوا إليها . وكثيراً ما يتضح عند التطبيق أن أفكار الفيلسوف فى صورتها التى قدمها بها غير قابلة للتطبيق العملى ، وأنها فى حاجة إلى تعديلات جوهرية أو صياغة جديدة ليمكن الاستفادة بها فى عالم الواقع .

* * *

أما الأنبياء فشأنهم مختلف .

١) إنهم **أولاً** لا يتكلمون بأهوائهم ولا بتصوراتهم الخاصة ، ولا بتصورات البشر القاصرة المحدودة : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ (سورة النجم: ٣ ـ ٤) . لذلك فإن ما يدعون إليه الناس من قيم ومثل ومبادىء وأخلاق وسلوك عملى ليس متأثراً برؤيتهم الشخصية كالزعماء و« المصلحين » ولا بمصالحهم الذاتية أو أطماعهم أو أحقادهم (كما تقوم الشيوعية على الأحقاد !) ولا بالقصور البشرى

الذى يعجز عن الإحاطة ، ومن ثم يعجز عن تقديم الحل الصحيح .

٢) وهم ثانياً ـ بالتوجيه الربانى ـ لا يتعاملون مع المشكلات الجزئية العارضة ، إنما يتعاملون مع الجذور الأصلية العميقة . يتعاملون مع النفس البشرية مباشرة فيقوّمون انحرافاتها من الجذور قبل أن يتجهوا لإصلاح المظاهر الخارجية للانحراف .

إنهم لا يعالجون المشاكل الاقتصادية منفصلة كما صنعت الشيوعية . ولا المشاكل الاجتماعية منفصلة كما صنع دعاة تحرير المرأة . ولا المشاكل السياسية منفصلة كما يصنع الزعماء السياسيون فى بلادهم .. فتكون الحلول كلها غير مجدية جدوى حقيقية لقصورها وجزئيتها ، فضلاً عن إفسادها لجوانب الحياة الأخرى ، لأن كل زعيم أو مصلح من هؤلاء حين يحاول علاج الجزئية الخاصة به يغفل عن آثارها فى الجوانب الأخرى ، أو لا تهمه الجوانب الأخرى ـ وخاصة الأخلاقية والروحية ـ كما قال قائلهم : الاقتصاد لا علاقة له بالأخلاق ! والسياسة لا علاقة لها بالأخلاق !

أما الأنبياء المؤيدون بالوحى فلا يقعون فى هذا الخطأ الفادح الذى يقع فيه الزعماء و« المصلحون » . إنما يعنون بتقويم النفس من أساسها ثم يقدمون الحلول الشاملة التى يوحى بها الله إليهم لعلاج انحرافات المجتمع ، فيقوم الإصلاح على أساس مكين من داخل النفس ، فضلاً عن تكامل هذا الإصلاح المتمثل فى منهج شامل ، لا يحل جزئية ويدع جزئية أخرى ، كما أنه لا يحل جزئية على حساب جزئية أخرى . فلا ينشأ عنه الخلل الذى تتسم به مناهج البشر الجاهلية .

٣) ثم إن الحلول التى يقدمونها ـ بالتوجيه الربانى ـ ليست أفكاراً إصلاحية كأفكار الفلاسفة ، وإنما هى مناهج عملية منزلة من لدن اللطيف الخبير الذى يعلم كل شىء عن النفس البشرية والمجتمع البشرى ، ويعلم الطريقة الصحيحة التى تستقيم بها حياة البشر على الأرض : ﴿ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ﴾ (سورة البقرة : ١٤٠) .

﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

(سورة البقرة : ٢١٦)

٤) والأنبياء بذواتهم هم القدوة الحية التي تتمثل فيها بادئ ذي بدء المبادئ والقيم والأفكار التي يدعون إليها . فالله سبحانه وتعالى يختار أنبياءه ورسله من الأخيار ، ثم يصوغ نفوسهم الصياغة التي تؤهلهم لحمل الحق الذي يبلغونه للناس (أدَّبني ربِّي فأحسَنَ تأديبي)[1] فليس فيهم النقائص ونقط الضعف التي تعتور الزعماء والمصلحين من البشر العاديين ، والتي لم ينج منها زعيم واحد ولا قائد ولا مصلح خلال التاريخ البشري كله . إنما يبعثهم الله أنقياء أتقياء ، طاهرين مطهرين فيكونون هم النموذج الذي يحتذى ، ولا تقع الفرقة - كما تقع دائماً في حياة المفكرين والمصلحين - بين ما يفعلونه وما يدعون إليه .

٥) والأنبياء ليسوا كالفلاسفة الذين يقدمون الأفكار وهم محتجبون عن الناس في أبراجهم العاجية . إنما هم يختلطون بالناس ويدعونهم دعوة مباشرة إلى الأفكار والمبادئ والقيم التي يحملونها . وأهم من ذلك أنهم يربون أتباعهم عليها . وذلك هو الجهد الحقيقي الذي يبذله الأنبياء ويؤتي ثماره في واقع الأرض . إن الأفكار التي يحملونها لا تظل مُثُلاً معلقة في الفضاء ، إنما تتحول إلى واقع حي من خلال أشخاصهم أولاً ثم من خلال هذا الفريق من البشر الذين يربونهم . ومن ثم يصبح الأمر الذي يدعى الناس إليه واقعاً مشهوداً يعرف الناس صورته الواقعية ، فيقبلون عليه حين يرون ثماره الجميلة متمثلة في واقع بشري يرونه أمام أعينهم .

٦) ثم إن الوسيلة الحقيقية العظمى التي يسلكها الأنبياء في إصلاح الحياة البشرية وتقويمها هي ربط القلب البشري بالله ، يتطلع إليه ويخشاه . وتلك أفعل الوسائل في الإصلاح وأبعدها أثراً في واقع الحياة . وذلك قبل اللجوء إلى الوسائل الأخرى كلّها التي تستخدم عادةً في تنظيم الحياة البشرية . ومن أجل ذلك يكون بناؤهم راسخاً شديد الرسوخ لأنه يعتمد على عنصر أصيل عميق في داخل النفس . بينما لا تملك

---

(١) سئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن هذا الحديث فقال « الحمد لله المعنى صحيح لكن لا يعرف له إسناد ثابت » . وقد أورده السيوطي مروياً عن ابن مسعود .

النظم الأخرى كلها - التى تقوم على مناهج البشر - إلا أن تغرى الناس بالمنافع والمصالح أو ترغمهم بقبضة السلطان . ومن ثم تنهار تلك النظم بمجرد أن تنتهى المنافع والمصالح أو تضعف قبضة السلطان . بينما يبقى البناء الذى يبنيه الأنبياء على مدار التاريخ راسخ الأركان .

٧) وكما ينفرد الرسل بمنهجهم الإصلاحى الشامل - الموحى به من عند الله - وبالطريقة التى يثبتون بها دعائم هذا المنهج فى واقع البشر عن طريق القدوة والتربية ، فإنهم ينفردون كذلك بالعلم النافع الذى يقرب من الله وينجى من عذابه يوم القيامة .

إن « المصلحين » جميعاً - فيما عدا القلة المؤمنة منهم - لا يوجهون البشر إلا إلى النفع القريب الحاصل فى الحياة الدنيا ، ولا يوجهونهم أبداً إلى الله واليوم الآخر !

إن آفاقهم محصورة فى الحياة الدنيا ، بحكم أنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر . لذلك فإن توجيهاتهم لأقوامهم لا تخرج عن نطاق آفاقهم المحدودة . كما أنهم - بحكم بشريتهم من ناحية ، وبعدهم عن الإيمان بالله من ناحية أخرى - يوجهون أقوامهم إلى الالتفاف حول أشخاصهم ، أو - فى أفضل الأحوال - حول مبادئهم وقيمهم المحدودة الآفاق .

وهذا العلم الذى يعلّمونه لأقوامهم عن طريق توجيهاتهم ومناهجهم قد يكون مفيداً فى الحياة الدنيا (على فرض خلوه من العيوب وهو عادةً لا يخلو منها !) وقد يعطى الناس بعض ما يشتهونه فى الحياة الدنيا من متاع يتمثل فى المأكل والمشرب والملبس والمسكن والسلامة والصحة والرفاهية والمال والأولاد ..

ولكنه - على فرض خلوه من النقائص والعيوب والانحرافات . وتحقيقه لمصالح الناس فى الأرض[1] - فإنه ينتهى بأصحابه إلى البوار ، لأنهم كما وصفهم القرآن :

(١) رأينا من الواقع التاريخى ، والتاريخ المعاصر بصفة خاصة . أن هذا لا يتحقق بتمامه أبداً فى واقع البشر . فمن ناحية ينقسم الناس فى الجاهلية دائماً إلى سادة وعبيد . ومن ناحية أخرى تتحقق بعض المصالح دائماً على حساب المصالح الأخرى . وتصلح بعض الأمور بفساد أمور أخرى ! ولكننا نفترض هذا جدلاً .

﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ (سورة الروم : ٧) .

إن حياة الإنسان لا تنتهى بانتهاء الحياة الدنيا ، وإنما تنتهى مرحلة منها فحسب ، وتبدأ مراحل أخرى تنتهى بالبعث والنشور ، والامتحان الذى يكرم المرء فيه أو يهان ، فيصل إلى النعيم الخالد أو العذاب المقيم .

ولو كانت الحياة الدنيا هى نهاية المطاف لصحت دعوى أولئك المصلحين فيما يدعون إليه من ألوان « الإصلاح » ! وإن كانت فى واقع الأمر لا تحقق كل مصالح الناس وتورث كل جيل مفاسد الجيل الذى قبله !

فكيف والحياة التى يحياها الناس على الأرض هى أقصر مراحلها ؟! سنوات معدودة هى سنوات العمر المحدود ، وبعد ذلك من الآماد ما لا يحصيه إلا الله ! ثم بعد ذلك الخلود !

ألا إنه هو الخسران المبين حين ينحصر تفكير الناس فى الحياة الدنيا ، ولو أصلحوا كل أمور الحياة الدنيا واستمتعوا فيها بكل ما يشتهون ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ۝ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ۝ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴾ (سورة الشعراء : ٢٠٥ ـ ٢٠٧) . فكيف وهم لا يصلحون كل أمور الأرض ؟ وكيف ونعيم الأرض دائماً مشوب ، وأقل عيوبه القلق الدائم عليه من تقلب الأحوال ، وهى دائماً تتقلب ، ومن الموت وهو لا بد أن يجيء ؟!

إنها الخسارة المضاعفة .. فى الحياة الدنيا وفى الحياة الآخرة : ﴿ وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (سورة العنكبوت : ٦٤) .

لذلك فكل علم الأرض لا ينفع ، إذا انقطع بالإنسان عن الله واليوم الآخر . إنما العِلْم النافع هو الذى ينفع الناس فى دنياهم وآخرتهم معاً ، فيحقق لهم مصالحهم الحقيقية فى الدنيا ، ويصل بهم إلى دار الأمان فى الآخرة : ﴿ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾ (سورة إبراهيم : ٢٣) . ﴿ وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ۝ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ

﴿ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ (سورة الأنبياء : ١٠٢ ـ ١٠٣) .

العلم النافع هو المعرفة اليقينية بالله واليوم الآخر ، واتباع ما أنزل الله فى الحياة الدنيا . هذا هو الذى يضمن للناس حاضرهم ومستقبلهم . فأما حاضرهم فيصلح ويستقيم باتباع المنهج الربانى ، وأما مستقبلهم فيصلح بدخول الجنة التى وعد الله بها المتقين من عباده ، الذين آمنوا به فى الحياة الدنيا واستقاموا على أوامره وانتهوا عن نواهيه . وعندئذ يكون العلم الأرضى كله ـ من طب وهندسة وعلوم ورياضيات وكيمياء وفيزياء .. إلخ ـ محقق الفائدة لأنه يعين الناس على تحقيق المنهج الربانى ولا يفتنهم عن الآخرة . وإلا فإنه ـ هو ذاته ـ يصبح علماً ضاراً إذا استخدم فى تزيين الحياة الدنيا بحيث تفتن الناس عن عبادة ربهم الحق ، وتنسيهم ثواب الله وعقابه ، وتغرقهم فى ضلال الشهوات !

وهذا العلم النافع ينفرد به الأنبياء والرسل لأنهم يتلقونه تلقياً مباشراً من الله سبحانه وتعالى عن طريق الوحى ، ويؤمنون به إلى درجة اليقين ، ثم يدعون الناس إلى الإيمان به لتصلح دنياهم وآخرتهم .

أما الدعاة الآخرون والمصلحون ، الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، فإنهم يرفضون هذا العلم النافع ابتداء ، فكيف يعلمونه للناس ؟ ويستنكفون عن عبادة الله فكيف يدعون إلى عبادته ؟

وبالعلم النافع وحده صلحت أحوال الناس خلال التاريخ ، واستخدم العلم الأرضى فى ظله فى نفع الناس وفى الخير . وبغير هذا العلم ـ الذى تفرد به الأنبياء والرسل ، ودعا به الدعاة المؤمنون من بعدهم ـ ظل العلم الأرضى ينفع ويضر ، ويزداد ضرره عن نفعه على مر الأجيال ، حتى يصبح فى الجاهلية المعاصرة كما نراه اليوم : أداة للإفساد والتدمير أكثر مما هو أداة للاصلاح والتعمير !

(٧) فضل الرسل على تقدم البشرية

حين نتحدث عن تقدم البشرية يتبادر إلى ذهن البعض منا ـ بتأثير الجاهلية المعاصرة ـ أننا سنتحدث عن التقدم المادى من سيارات وطائرات وما إليها من الوسائل والأدوات .. !

ولا ينبغى أن يظن هذا الظن من ينظر إلى الأمور نظرة عميقة ونظرة جادة !.

فالتقدم المادى جانب من التقدم البشرى ، نعم ، مهم وضرورى ، ولكنه ليس هو الذى يضع الإنسان فى مكانه من سلم الرقى « الإنسانى » . إنما الذى يضعه فى ذلك المكان هومقدار ما يشتمل عليه من القيم والمبادىء « الإنسانية » تصوراً وسلوكاً ، وفكراً ومشاعر . ولنعقد مقارنة سريعة تحسم لنا الحكم فى هذه القضية : هل مجتمع الصحابة رضوان الله عليهم أفضل فى المقياس الإنسانى أم المجتمع الغربى المعاصر بما يعج به من مفاسد ومظالم واضطرابات وانحرافات ؟

أيهما أقرب إلى صورة الإنسان « فى أحسن تقويم » كما خلقه الله وكما أراده أن يكون : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝ ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾ (سورة التين : ٤ ـ ٦) .

أيهما أحب إلى الله وأحب اليك : ذلك الصحابى الجليل فى تقواه وورعه ، وصدقه وأمانته ، ونظافة سلوكه ونظافة مشاعره ، وعدله واستقامته ، وتواضعه لله عز وجل مع ترفعه عن السفاسف والدنايا ، وشجاعته فى الحق ، وحرصه على الموت فى سبيل الله والعقيدة التى يعتنقها ، وفى سبيل تحرير الناس من عبادة العباد وعبادة

الشهوات إلى عبادة الله الواحد بلا شريك .. أم ذلك الغربى المنتفش بما لديه من علم ظاهرى المتجبر فى الأرض بما لديه من إمكانات مادية ، الهابط فى حمأة الشهوات ، المتردى فى تعامله مع نفسه وتعامله مع الآخرين إلى عالم الحيوان : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾. لعل القضية لا تحتاج إلى بيان !

حقيقة أن المسلمين ـ بعد أن استقر لهم أمر الدين ، ومكنوا فى الأرض ـ قاموا يسعون إلى تحصيل العلم الأرضى والتقدم المادى ، وبلغوا فيه شأواً لم يبلغه غيرهم فى وقتهم ، شعوراً منهم بأن هذا واجب عليهم للقيام بعمارة الأرض بالحق كما أمرهم الله .. ولكن ظل المقياس الذى يقيسون به حياتهم هو المقياس « الإنسانى » لا المقياس المادى . المقياس الذى وضعه الله العليم الحكيم لتقويم « الإنسان » ، لكى يكون « فى أحسن تقويم » منفرداً بين خلق الله بالخلافة فى الأرض وحمل الأمانة الكبرى التى أشفقت من حملها السماوات والأرض والجبال : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾

(سورة الإسراء : ٧٠) .

فحين نتحدث عن تقدم البشرية فإنما نتحدث عن تلك القيم والمبادىء التى تجعل من الإنسان إنساناً بصرف النظر عن حظه من التقدم المادى : كيف يتعامل مع ربه . كيف يتعامل مع نفسه . كيف يتعامل مع الآخرين .

وفى هذا المجال ـ وهو مجال الحياة الأصيل فى الحقيقة ـ نجد أن الفضل الأكبر هو للأنبياء والرسل قبل كل الخلق ، لأنهم هم ـ بما أوحى إليهم ربهم ، وبما جاهدوا فى سبيل الله ـ هم الذين قرروا تلك المبادىء والقيم فى واقع الأرض ، وجعلوها حقيقة واقعة فى عهدهم ، وتراثاً يتناقل من بعدهم .

ونستطيع أن نقول فى اطمئنان إن كل ما عرفته البشرية من خير حقيقى مرجعه إلى الوحى الربانى الذى حمله الرسل ودعوا إليه ، ووثقوا وجوده الواقعى فى الأرض بجهادهم ، وإن كل ما أصاب البشرية من شر كان سببه الانحراف عن تعاليم الرسل

وعدم الاقتداء بهم . وحين يختلط الحق بالباطل كما هو اليوم ، ويختلط الخير بالشر كما يحدث فى كل جاهلية ، يكون ما بقى من الخير فى الأرض ـ أياً كان مقداره ـ راجعاً إلى الأنبياء والرسل ، وما فيها من الشر راجعاً إلى الناس .

إن كل ما تتشدق به البشرية اليوم من الحق والعدل والحرية والإخاء والمساواة مستمد ـ فى أصله ـ من تعاليم الرسل ، مع فارق واحد : أنه كان على يد الرسل حقيقة واقعة ، ربوا عليها أتباعهم ، وجعلوها سلوكاً واقعياً فى حياتهم ، وهى على يد الأفاقين اليوم كلام جميل يخدع به الناس دون أن يكون له رصيد من الواقع !

وإن الفترات المشرقة فى تاريخ البشرية كله هى الفترات التى سادت فيها تعاليم الرسل وكانت واقعاً يعاش بالفعل ولا يكتفى بأن يردد بالقول .

وتلك الفترات هى فترات الحضارة الحقيقية والمدنية الفاضلة . وما عداها فهو حضارات جاهلية زائفة ، يختلط فيها الخير بالشر ، ثم يظل الشر يتزايد حتى يصبح هو الغالب على حياة الناس ، ويظل يأكل ما بقى من خير متضائل حتى ينهار البناء كله على من فيه كما يوشك أن يحدث اليوم .

ولن ينقذ البشرية من الدمار اليوم ـ ولا فى أى يوم ـ إلا أن تعود إلى تعاليم الرسل تطبقها فى واقع حياتها ، وإلا أن تعود مسلمة إلى ربها : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ (سورة آل عمران : ١٩) . ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (سورة آل عمران : ٨٥) .

(٨) مهمة التعليم الأساسية

إن مهمة التعليم الأساسية هي تربية الناس على تلك القيم والمبادئ التي جاء الرسل ليحققوها في واقع الأرض، قبل أن تكون هي إعطاء المعلومات وتكثيفها في أذهان الناس.

إن البشرية لا تتقدم بحشو المعلومات في أذهان الناس، ولا بتحويل هذه المعلومات إلى سيارات وطائرات، وأدوات للمتاع الأرضي، أو إلى قنابل ومدمرات!

إنما تتقدم - كما رأينا في الفقرة السابقة ونحن نتحدث عن فضل الرسل على تقدم البشرية - بالقيم والمبادئ «الإنسانية»، على أن تكون واقعاً عملياً لا كلمات تلاك في الأفواه بغير رصيد من الواقع.

والسبيل إلى بذر تلك القيم والمبادئ هو التعليم[1].

وكما كان الرسول ﷺ هو المعلم الأول، بعد الله سبحانه وتعالى ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ وكان هو المربي الأكمل، فمهمة المعلم كذلك أن يكون هو القدوة لتلاميذه فيما يربيهم عليه من مكارم الأخلاق وأن يهتم بتربيتهم عليها، ولا يكتفي بتلقينهم المعلومات وتدريبهم على الخبرات، أياً كانت قيمة تلك المعلومات والخبرات. فهي وحدها لا تصنع «إنساناً» ولا تحرك البشرية إلى عمل واحد من أعمال الخير. إنما الذي يحركها إلى عمل الخير هو إيمانها بالقيم العليا والمبادئ الإنسانية. والمدفع هو المدفع. ولكنه في يد المؤمن أداة لتمكين الحق في الأرض وإقامة

---

(١) التعليم في المصطلح الإسلامي يعني التربية أساساً، ويشمل المعلومات كذلك وليس مقصوراً على إعطاء المعلومات والخبرات كما هو الشائع في كلام «التربويين» اليوم. ودليل ذلك من القرآن قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ (سورة طه: ١١٤) ومن الحديث قوله ﷺ (وأعوذُ بكَ من علمٍ لا يَنْفَع) أي لا يقرِّب من الله.

العدل الربانى فى حياة الناس ، بينما هو فى يد الكافر أداة للبغى والظلم والطغيان فى الأرض بغير الحق . وكذلك كل ثمار « التقدم العلمى » . هى أدوات يمكن استخدامها للخير كما يمكن استخدامها للشر . والذي يحدد وجهتها وغايتها هو القيم الكامنة فى قلب من يستخدمها

من أجل ذلك كانت المهمة الأولى للتعليم ـ قبل إعطاء المعلومات وتكوين الخبرات ـ هى تكوين هذا القلب الذى سيستخدم المعلومات والخبرات لكى يستخدمها للخير لا للشر ، يستخدمها لنفع البشرية لا لضررها .

وتكوين القلب إنما يكون بتأديبه بأدب النبوة ، فذلك هو السبيل إلى الارتفاع به حتى يصبح ﴿ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ﴾ إذ الأنبياء ـ وإمامهم رسول الله ﷺ ـ هم صفوة الخلق ، وهم القدوة فى مكارم الأخلاق . فإذا تأدب الإنسان بأدبهم فى الأمانة والصدق ، والاستقامة والعدل ، ونظافة الظاهر والباطن ، المستمدة كلها من تقوى الله وخشيته ، فقد يجمّع له الخلق الفاضل ، وتحققت به الغاية التى سعى الرسل لتحقيقها . ومن ثم صار « إنساناً صالحاً » كما يريده الله ، وتحقق به وعد الله فى الدنيا والآخرة : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ ﴾ (سورة النور : ٥٥) . ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾ (سورة الحج : ٤١) . ﴿ وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ (سورة الأنبياء : ١٠٥) .

وبعبارة أخرى فإن مهمة التعليم الأساسية هى تكوين الإنسان العابد لله ، بالمعنى الواسع الشامل للعبادة ، الذى يشمل الاعتقاد والعمل . يشمل شعائر التعبد وعمل الصالحات والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وهذا الإنسان العابد لله ـ بالمعنى الشامل للعبادة ـ هو الذى يقيم المدنية الفاضلة . هو الذى يعمر الأرض بمقتضى المنهج الربانى . هو الذى يقيم العدل الربانى بين الناس . هو الذى ينتصر للحق . هو الذى يجاهد فى سبيل تحقيق المثل العليا ، وتحويلها إلى واقع حىّ ملموس .

(٩) جناية النزعة المادية الإلحادية

إن الجناية الكبرى للنزعة المادية الإلحادية الشائعة اليوم فى الجاهلية المعاصرة هى حرمانها للبشرية من الاهتداء بالمنهج الربانى والاقتداء بهدى النبوة. ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ (سورة إبراهيم : ٣٠).

لقد قطعت تلك المادية الملحدة ما بين الناس وبين الله : ﴿ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ (سورة الرعد : ٢٥). وأوصدت قلوبهم عن الاستماع لوحى الله ، بل أنكرت الرسالات والرسل أصلا ، بل لجت فى غيها إلى إنكار وجود الله : ﴿ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ (سورة الأعراف : ١٤٦).

واستكبروا في الأرض بغير الحقّ واستنكفوا عن عبادة الله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (سورة غافر : ٥٦).

وماذا كانت نتيجة ذلك الاستكبار بالباطل ، والبعد عن هداية الله ؟

كانتْ النتيجة أن الشيطان أصبح هو المعبود فى الأرض بدلاً من الله !

إنّ دعاة المادية الملحدة قد أوهموا الناس أن الإنسان حين يُلقى عنه عبادة الله سيصبح سيد نفسه ، ويصبح هو الله ! (نستغفر الله)[1] فماذا صار فى الحقيقة ؟

---

(١) يقول أحد كتابهم الملحدين ـ وهو جوليان هكسلى ـ فى كتاب « الانسان فى العالم الحديث » : لقد تعلم الإنسان وأصبح مسيطراً على البيئة ولم يعد جاهلاً بالكون ولا عاجزاً عن السيطرة

صار الناس عبيداً للطغاة بصورة لم يشهدها التاريخ ، سواء طغاة الرأسمالية فى الغرب أو طغاة الشيوعية فى الشرق .

وصار الناس عبيداً للآلة ، هى التى تحركهم وتسيرهم وتكيف أفكارهم ومشاعرهم .

وصار الناس عبيداً للشهوات ، تملكهم ولا يملكونها ، وتدمر حياتهم ولا يستطيعون استنقاذ أنفسهم منها : سواء شهوة الجنس أو الخمر أو المال أو السلطان !

وبعبارة موجزة أصبح الإنسان - كما قلنا - عبداً للشيطان !

فأين هى الكرامة التى استمتع بها الإنسان حين نزع عنه العبودية لله ؟!

إن العبودية لله هى التى تمنح الإنسان كرامته وعزته ورفعته وحريته ، لأنها عبودية كريمة لإله كريم هو الذى تفضل على الإنسان بالكرامة : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (سورة الإسراء : ٧٠) .

وهو الذى منح المؤمنين به العزة : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (سورة المنافقون : ٨) .

وبث فيهم الاستعلاء بالإيمان : ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (سورة آل عمران : ١٣٩) . وحررهم - بالإيمان به والعبودية له وحده - من الذلة لبشر مثلهم أياً كان وضعه فى الأرض ، أو لقوة أو لجاه أو لسلطان !

فما الذى منحهم إلههم الجديد حين عبدوه من دون الله ؟!

منحهم الذلة للطغاة والعبودية للشهوات ..

إنه على قدر الإله الذى يعبده الإنسان يكون موضع الإنسان ذاته ! فحين يعبد الله الحق يكون فى موضع الكرامة والرفعة ، وحين يعبد آلهة من دونه يكون فى موضع الذلة والهوان ..

ومن جهة أخرى كيف صار الإنسان حين ابتعد عن المنهج الربانى الذى هدت النبوة إليه ؟

على طاقاته كما كان من قبل ومن ثم فقد آن للإنسان أن يأخذ على عاتق نفسه ما كان يلقيه من قبل - فى عصر الجهل والعجز - على عاتق الله ، ويصبح هو الله » ! وهذا مصداق قوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴾ (سورة العلق : ٦ - ٧) .

كيف صارت أخلاقه ، وكيف صارت أحواله ؟

أما أخلاقه فيكفى شاهداً عليها تقطُّع روابط الناس ، والعزلة الفردية الأنانية التى يعيشون بها ، وغلبة المنافع المادية عليهم ـ أفراداً أو شعوباً أو دولاً أو تكتلات ـ ولو خالفوا فى سبيل الوصول إليها كل القيم والمبادىء والأخلاق (وخذ قضايا الاستعمار والتمييز العنصرى نماذج « للأخلاق » المعاصرة ، وخذ كذلك قضية فلسطين !) كما يكفى شاهداً عليها التبذل المسفّ فى الإباحية الجنسية التى تباح فيها الأعراض وتختلط فيها الأنساب . وتموت فيها النخوة بالصدور ، وينقلب فيها الإنسان كالحيوان المسعور .

وأما أحواله فيكفى شاهداً عليها الاضطرابات النفسية والعصبية والجنون والقلق والانتحار ، ومحاولة الهروب من الواقع بالإدمان على المسكرات والمخدرات .

ويكفى شاهداً عليها معدل انتشار الجريمة ، وهو معدل يتزايد باستمرار ، ويقل بتزايده أمن الناس وطمأنينتهم وشعورهم بالاستقرار .

ويكفى شاهداً عليها الظلم السياسي والاقتصادى والاجتماعى الواقع على جمهرة أهل الأرض ، تحت أسماء براقة من الديمقراطية والاشتراكية والعدالة والحرية والإخاء والمساواة !

وأخيراً يكفى شاهداً عليها شبح الجوع الذى يخيم على أرجاء واسعة من الأرض وشبح الحرب والدمار الذى يخيم على الأرض كلها بلا استثناء .

تلك هى حصيلة التخلى عن منهج الله ، والابتعاد عن هدى النبوة الذى أرسلت به من عند الله .

وتلك هى جناية المادية الملحدة على البشرية ، حين قطعت ما بينها وبين ربها وأوصدت فى وجهها طريق الهداية الربانية وصدتها عن الاهتداء بالهداة الحقيقيين الذين يحملون العلم النافع ويهدونه إلى البشرية ، ويقودونها به فى طريق الصلاح الحقيقى والفلاح الحقيقى ، الذى يصلح الأمور فى واقع الأرض ويؤدى فى الآخرة إلى رضوان الله والنجاة من النار ..

(١٠) صفات الرسل

١ ـ بشريتهم :

كل الرسل الذين أرسلوا من عند الله للناس كانوا بشراً ، وكانوا ينطقون بلغة أقوامهم الذين أرسلوا إليهم .

ولله في ذلك حكمة كانت تخفى على الجاهليات التي بعث إليها أولئك الرسل ولكنها لا تخفى على من يتدبر الأمر ببصيرة .

لقد كانت الجاهليات تأخذ الأمر من جانب التكذيب لا من جانب التصديق . ولذلك كانت الحكمة تخفى عليها !

كانوا يكذبون ابتداء بالوحي ، ويعتبرونه شيئاً غير قابل للتصديق ! ثم يبنون على ذلك تصورات خاطئة من عند أنفسهم . كانوا يقولون إنه لا يمكن أصلاً أن يوحي الله إلى واحد من البشر بشيء ! ذلك أن تصورهم لقدرة الله ناقص ومحدود: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴾ (سورة الأنعام : ٩١) .

وتصورهم كذلك للطاقة البشرية محصور في نطاق ذواتهم فحسب . ولما كانوا هم لا يتلقون وحياً ولا يخطر في بالهم أن يتلقوا شيئاً من الوحي قط ، فهم يقيسون كل البشر على أنفسهم ، فيقولون إنه لا يمكن أن يتنزل الوحي على أي واحد من البشر على الإطلاق ! ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا[1] ﴾ (سورة

(١) من العجيب الذي يلفت النظر أن هذه التصورات الجاهلية ما تزال تتردد بذاتها في كل جاهلية حتى جاهلية القرن العشرين !

الإسراء : ٩٤) ﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾[1] (سورة ص : ٤).

ثم يرتبون على هذه الاستحالة تصوراً آخر خاطئاً ، فيقولون إنه إذا كان الله يريد فعلاً أن يصنع هذه العجيبة الخارقة وهى تنزيل الوحى ، فلا بد أن يكون كل ما يتعلق بهذه الظاهرة عجيباً وخارجاً عن تصور البشر . ومن ثم فلا يجوز - فى نظرهم - أن يتنزل هذا الوحى على واحد من البشر لأن الكيان البشرى شىء عادى ومألوف ، فلا يتناسب معه ذلك الشىء غير المألوف وهو الوحى ! إنما الذى يتناسب معه - فى وهمهم - هو عجيبة أخرى خارقة ، هي نزول ملك من السماء يتنزل عليه الوحى ، أو - فى القليل - يكون مع الرسول الذى يتنزل عليه الوحى ! ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ[2] مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ (سورة المؤمنون : ٢٤) . ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ (سورة الأنعام : ٨) . ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴾ (سورة الفرقان : ٧) .

وهكذا نرى ضلال الجاهليات من خلال تصوراتها الضالة عن قدرة الله وحدود الطاقة البشرية ، يعميها عن حكمة إرسال الرسل من البشر دون الملائكة .. ولو قدروا الله حق قدره وعرفوا أن قدرة الله ليست محدودة بحدود تصورهم الضيق ، وإنما هى قدرة بغير حدود : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (سورة النور : ٤٥) ولو عرفوا أن الطاقة البشرية ليست محصورة في نطاق ذواتهم ولا فى نطاق علمهم ، وأن هناك جوانب من النفس البشرية تخفى على العلم وإن بدت آثارها واضحة كظاهرة التفكير والتذكر[3] وجوانب أخرى أشد خفاء لا يكاد الإنسان يعرف لها

---

(١) ذلك بالإضافة إلى الحسد الشخصى : ﴿ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾ (سورة القمر : ٢٥) . ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ (سورة الزخرف : ٣١) .

(٢) قوم نوح عليه السلام .

(٣) لا يعرف العلم كيف تتم عملية التفكير ولا عملية التذكر مع أنها تحدث فى كل يوم وكل ساعة .

كنهاً كظاهرة التخاطر عن بُعد[1] ، وأن الله يصطفى أفراداً من البشر فيمنحهم القدرة على تلقى الوحى بأجهزة خاصة فى داخل نفوسهم دون أن يخرجهم ذلك عن حدود بشريتهم .. لوعرفوا ذلك كله ما عجبوا ان جاءهم منذرمنهم وما استنكروا هذا الاستنكار فقالوا ، أبعث الله بشراً رسولاً ؟! وماطلبوا هذا الطلب الساذج : لولا أنزل عليه ملك؟!

لقد غفلوا فى طلبهم ذلك عن عدة أشياء :

أ) أن الملائكة لا يمشون فى الأرض مطمئنين كالبشر ، لأنهم لم يخلقوا لسكنى الأرض ! ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ۝ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ (سورة الإسراء : ٩٤ ـ ٩٥) .

ب) أن الملك لو نزل على الأرض فلا بد له أن يتخذ صورة البشر ، وعندئذ لا يستطيعون أن يتعرفوا على حقيقته الملائكية ، ولا أن يميزوا بينه وبين سائر البشر : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ (سورة الأنعام : ٩) .

ج) أن من سنة الله أنه حين تكذب الجاهلية رسولها وتصر على التكذيب بعد نزول الآية التى يطلبونها لكى يتأكدوا من صدق رسولهم ، فإن الله ينزل الملائكة عندئذ ، ولكنه ينزلهم بأمر معين هو التدمير الفورى على أولئك الكافرين : ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴾ (سورة الأنعام : ٨) . ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ (سورة الفرقان : ٢٢) .

د) أن الحكمة منتفية تماماً فى جعل الرسول من غير البشر أنفسهم . إن الرسول لا يأتى للتبليغ فقط . أى أنه لا يأتى ليبلغ الناس أمراً معيناً من عند الله ثم يمضى . وإنما يمكث مع الناس حتى يربى فئة منهم على الحق يكون هو بذاته القدوة العملية لهم ، ويكونون هم بدورهم قدوة للناس : ﴿ لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ (سورة الحج : ٧٨) . فأين تتحقق القدوة إذا كان الرسول من غير

---

(١) أى تبادل الخواطر أو الأحاسيس عن بعد ، أو الإحساس مقدماً بأن شيئاً سيقع أو أن شخصاً سيحضر . وهناك شواهد يومية تقع فى حياة الناس تؤكد وجود هذه الظاهرة .

البشـــر ؟! ألا يقول الناس يومئذ : هذا ملك ونحن بشر ! لنا أجساد ونزعات وشهوات !؟ بلى ! سيقولون ! وسيمتنعون عن الالتزام بأمر ربهم بحجة أن هذا الالتزام ليس في وسع البشر ولا هو من شأنهم إنما هو من شأن الملائكة الذين لا يسكنون هذه الأرض ، ولا يحسون بثقلة الأرض تشدهم عن طريق الرغبات والشهوات ! وعندئذ سيقولون كيف يرسل الله إلينا ملكاً ويطلب منا الاقتداء به فى أعماله ! أفلا يرسل إلينا بشراً مثلنا ، يحس كما نحس ، ويفكر كما نفكر ، ويشعر بضروراتنا وبحدود طاقتنا ؟! .

وتلك هى الحكمة الكبرى من إرسال الرسل بشراً ، يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق ، حتى لا يقف اختلاف الجنس حائلاً بين الناس وبين الاقتداء برسولهم فيما يفعل وما يقول ، وحتى تتمثل الأسوة للبشر فى واحد من جنسهم ، له ذات تركيبهم ، وذات مطالبهم ، وذات ضروراتهم البشرية من طعام وشراب وملبس ومسكن .. الخ .

حقيقة إن الرسل ـ إذ يصطفيهم الله ليبعثهم إلى الناس ـ يصوغهم صياغة خاصة تتناسب مع هذا الأمر العظيم ، وتكون لهم طاقات تفوق طاقات البشر العاديين . فضلاً عن أن نزول الوحى إليهم واتصالهم المباشر بالله عن طريق الوحى يعمق فى نفوسهم معانى لا يمكن أن تبلغ ذلك المدى عند البشر العاديين .

نعم ، ولكن هذه خصوصيات يختص الله بها رسله ولا يكلف البشر أن يصلوا إليها ، لأنهم لا يستطيعون الوصول إليها بجهدهم البشرى ! ولكن المهم فى الأمر أن صفة البشرية لا تفارق الرسول : ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ (سورة الإسراء : ٩٣) . ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴾ (سورة الكهف : ١١٠) . ومن ثم فالقدوة فيه متمثلة فيما ليس من خصوصيات الرسل وهذا هو الذى يكلف الله به عباده : ﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴾ ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا ﴾ (سورة التغابن : ١٦) . ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (سورة البقرة : ٢٨٦) . أى أن كل التكاليف التى كلف الله بها البشر هى فى حدود طاقتهم لأنّ الله لا يكلّف النفوس فوق وسعها ،

وهو العلم بحقيقة طاقاتها . أما حكمة إرسال الرسل بلغات أقوامهم فهى واضحة بلا شك : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ ﴾ (سورة إبراهيم : ٤) .

٢ ـ عصمتهم :

الرسل معصـومون فيما يبلِّغون عن الله . فهم لا يخطئون في التبليغ عن الله ، ولا يخطئون فى تنفيذ ما أوحى الله به إليهم . عصمهم الله من الخطأ فى هذه وتلك (وذلك من خصوصياتهم) .

« أولاً » لأن الأمر لا يستقيم إذا أخطأ الرسول فى التبليغ عن الله ، إذ ليس لذلك إلا إحدى نتيجتين ـ كلتاهما خارجة عن التصور : إما أن يسكت الوحى عن تصحيح الخطأ ، ومعنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يبلغ الناس أمراً معيناً ثم رضى جل جلاله أن يبلغ عنه غير ذلك الأمر .. وهذا لا يجوز فى حق الله تبارك وتعالى . وإما أن يتنزل الوحى بالتصحيح ، فيعود الرسول فيقول للناس : إن الله أمرنى أن أبلغكم كذا وكذا ولكنى أخطأت فى التبليغ ، وإليكم الآن تصحيح البلاغ ! وينتج عن ذلك لا محالة أن يفقد الناس الثقة فيما يبلغهم إياه الرسول عن ربه لأن احتمال الخطأ فى التبليغ قائم فى أذهانهم .

وكلا هذين الأمرين خارج عن التصور لأنه يتنافى مع الحق الذى يتنزل به الوحى ، ومع التوقير والتعظيم اللازمين لكلام الله سبحانه وتعالى ، ومع وجوب الطاعة للرسل صلوات الله وسلامه عليهم : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ (سورة النساء : ٦٤) .

« ثانياً » ولا يستقيم الأمر كذلك إذا أخطأ الرسول فى تنفيذ ما أوحى الله به إليه ، لأن القدوة تنتفى يومئذ ، ويضطرب الأمر فى نفوس الأتباع الذين اتبعوا الرسل فلا يعرفون أى طريق يسلكون . وفضلاً عن ذلك تذهب جدية الأمر من مشاعرهم . فالمفروض فى الشخص المؤمن أن يجتهد في اتباع ما أنزل الله قدر جهده ليكون أقرب إلى الصواب . فإذا كان القدوة أمامه ـ وهو الرسول ـ يخطئ فى التنفيذ ، فسوف يحس هو أنه فى حل من أن يخطئ ! وليس عليه أن يتحرى الصواب ، فهو ليس

أفضل من الرسول المؤيد بالوحى ، وعندئذ ينفرط عقد الأمر ولا يعود للدين ما أراده الله له من تعظيم فى نفوس المؤمنين .

حقاً لقد يحدث فى تصرفات الرسل الشخصية - فى غير ما يتعلق بالوحى - أو فى اجتهاداتهم الشخصية ما يستوجب التصحيح أو التعديل من قبل الله سبحانه وتعالى ، كما وقع لنبى الله داود حين حكم لأحد الخصمين قبل أن يستمع لقول الخصم الآخر :

﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَـٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ (سورة ص : ٢١ - ٢٤).

وكما وقع من عبوس الرسول ﷺ فى وجه ابن أم مكتوم إذ جاءه يطلب الإسلام والاستماع إلى كلام الله ، والرسول ﷺ مشغول عنه يرجو إسلام أبى جهل عمرو بن هشام ، فلما ألح عليه ابن أم مكتوم تضايق الرسول ﷺ وعبس فى وجهه :

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ (سورة عبس : ١ - ١١) .

أو كاجتهاده عليه الصلاة والسلام فى أمر الأسرى فى وقعة بدر ، إذ قبل مبدأ أخذ الأسرى بدلاً من قتلهم كما اقترح عليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه فنزل الوحى مؤيداً لرأى عمر :

﴿ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (سورة الأنفال : ٦٧ - ٦٩) .

ومثل هذه الأشياء لا تقدح فى عصمة الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه . بل هى

أقرب لتوكيد بشريتهم . فهم بشر عرضة للخطأ فى التصرفات الشخصية والاجتهادات الشخصية ولكنهم معصومون من الخطأ فيما يتعلق بالوحى تبليغاً أو تنفيذاً . وهذا يجعلهم أقرب للقدوة والأسوة ، فلو أنهم أصبحوا بعد بعثهم نوعاً آخر من الخلق غير بقية البشر ، لا يقع فى تصرفاتهم كلها ما يقع للبشر العاديين لأصبحت القدوة بهم عسيرة ، ولقال الناس لأنفسهم : هؤلاء الرسل ليسوا مثلنا فى أي شيء فكيف نقتدى بهم ؟! ومن جهة أخرى يبقى الوحى ـ وما يتصرف به الرسل طبقاً للوحى ـ أمراً قائماً بذاته ، لا ينتابه الخطأ ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فتجب له الطاعة الكاملة : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ① مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ② وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ③ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ (سورة النجم : ١ ـ ٤) . ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ (سورة النساء : ٨٠) . ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (سورة النساء : ٦٤) .

٣ ـ مجال القدوة بهم :

يبعث الله رسله من صفوة خلقه ، ويختارهم من ذوى الصفات التى تصلح للأسوة والقدوة . ذلك أن الرسل هم هداة البشرية ، وهم معلموها ومربوها ، وقادتها الذين يقودونها إلى الخير . فلزم من ذلك أن يكونوا هم بذواتهم القدوة فى كل ما يدعون إليه من مكارم الأخلاق .

ولقد علم الله سبحانه وتعالى من طبيعة البشر ، وهو خالقهم العليم بهم[1] أنه لا يكفى فى هدايتهم أن يسمعوا كلمة الحق تلقى إليهم . بل لا بد أن يروها مجسدة فى كيان بشرى يتمثلها ويترجمها إلى واقع حى مشاهد وملموس . وعندئذ تكون قريبة إلى حسهم ، قريبة إلى وجدانهم وتكون أيسر عليهم فى التحقيق وفى التطبيق .

لذلك لا ينزل الله سبحانه وتعالى وحيه فى قراطيس يقرؤها الناس ، وهو القادر سبحانه ـ لو شاء ـ أن ينزل على كل بشر قرطاساً يقرؤه ! وإنما ينزل كلماته على قلب

---

(١) ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (سورة الملك : ١٤) .

بشر ، يصنعه على عينه ، ويمنحه من الصفات ما يجعله خير أداة لحملها ، وخير نموذج لتقديمها للناس .

إن الله يدعو الناس بادىء ذى بدء إلى الإيمان به وحده بغير شريك ، ويبعث الرسل ليقولوا للناس : ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ (سورة هود : ٥٠ ، ٦١ ، ٨٤) . ثم يدعوهم إلى صورة معينة من العبادة تتمثل فى شعائر تعبدية وأوامر ونواهٍ تنظم حياة البشر على الأرض ، وتقيم بينهم العدل الربانى الذى ينبغى أن تقوم عليه حياتهم :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ (سورة الحديد : ٢٥).

ويرى الناس الإيمان المطلوب ـ أول ما يرونه ـ متمثلاً فى سلوك الرسول الذى يدعوهم إليه . فهم يرونه يدعو إلى عبادة الله الواحد غير مستند إلى جاه أو سلطان ؛ بل متحدياً بدعوته كل جاه أو سلطان !

إنه يجىء والملأ مستكبرون فى الأرض بغير الحق ، يستعبدون الناس بغير سلطان شرعى ، لأنهم لا يحكمون بما أنزل الله ، فيعلن كلمته البسيطة التى تدوى فى آذان الملأ كالصيحة المدوية : (اعبُدوا اللهَ ما لكُم مِن إلهٍ غَيْرُهُ) . ويدرك الملأ على الفور أن هذه الكلمة البسيطة ، المدوية فى ذات الوقت ، معناها تنحيتهم عن سلطتهم الطاغية التى يستعبدون بها الناس ، ورد العبودية لله وحده ، يستوى فى ذلك الملأ والمستضعفون على حد سواء !

ولا يسلّم الملأ ما فى أيديهم من السلطة الغاشمة بسهولة ! بل يقومون يتحدّون الرسول ويناوئونه ويناصبونه العداء . ويرى الناس الرسول المرسل إليهم يقف وحده إزاء السلطان الغاشم لا يستند إلى شىء من قوى الأرض ، بل يستند إلى الله . إنه يحقق معنى الإيمان بالله فى صورة ملموسة مشهودة ، لا فى صورة كلمات تنطق بها الأفواه أو شعارات معلقة فى الفضاء !

ويشتد الأذى بالرسول من اضطهاد الملأ الواقع عليه ، فلا يلجأ إلى مداهنة القوم ولا ملاينتهم على حساب دينه وعقيدته . ويرى الناس مرة أخرى صورة واقعية لعمق

الإيمان بالله . إنه ليس إيماناً سطحياً يتحطم تحت الضغط مهما اشتد ، ولا إيماناً وقتياً يتبخر تحت وطأة الأحداث ! إنما هو الإيمان الراسخ الذي يزداد عمقاً مع اشتداد الأحداث !

ويتعرض الرسول فى كثير من الأحيان إلى التهديد بالنفى أو السجن أو القتل فلا يتزحزح عن موقفه الصلب ، ولا تؤثر عليه كذلك المغريات التى يتعرض لها أحياناً كوسيلة من وسائل الحرب ضد عقيدة التوحيد ودعاة التوحيد ! ويلجأ الرسول إلى الله وحده يدعوه أن ينقذه مما يلقاه من عنت الجاهلية وينجيه من مكرهم وكيدهم . ومرة أخرى يرى الناس الصورة الحية للإيمان العميق كيف تكيّف المشاعر وتوجه السلوك .

عندئذ لا يكون الإيمان دعوى ، ولا صورة مبهمة غير متميزة الملامح . إنما يكون صورة واقعية ملموسة ، يدرك الناس معناها الشعورى والسلوكى ، ويقتدى بها المؤمنون الذين استجابوا لدعوة الإيمان .

ثم إن الله يطلب من الناس أخلاقاً معينة يتخلقون بها ، وتجرى تعاملاتهم بمقتضاها . يطلب منهم الصدق والإخلاص والأمانة ، والصبر والثبات والشجاعة ، والكرم والمروءة والتحابّ فى الله ، والبعد عن الفواحش والبغى والإثم .. ويحتاج ذلك كله إلى قدوة يقتدى بها الناس .

إن الناس قد يعرفون هذه المعانى كلها نظرياً ، يعرفونها مما سمعوا عنها فى القصص أو قرأوا عنها فى التاريخ ! .. ولكن ذلك وحده لا يحفزهم إلى الاقتداء بها والتخلق بما تقتضيه من أخلاق ! إنما يحتاجون إلى أن يروها ممثلة أمام أعينهم فى واقع بشرى لتسهل عليهم القدوة وتكون قريبة المنال .

ويعلم الله من خلقه أنهم يحتاجون إلى ذلك ، فيرسل إليهم الرسل نماذج حية لكل المعانى التى يريدها الله من خلقه . نماذج للصبر على الشدائد وتحمل الأذى فى سبيل الله . نماذج للثبات على الحق بأى ثمن ولو كان الثمن هو الحياة ذاتها أو هو الأمن والسلامة والاستقرار . نماذج للحب والمودة الصافية التى لا تطلب لذلك مقابلاً شخصياً ولا منفعة قريبة . نماذج لاستقامة الطبع والصراحة وعدم المداورة فى الحق .

وباختصار : هم نماذج لكل حميد من الخلق وحميد من الخصال ، والقدوة متمثلة فى كل ما يصدر عنهم من أقوال أو أفعال .

ولكن الدعاة والمصلحين بالذات لهم فى الأنبياء والرسل قدوة خاصة .

إن الدعاة هم ورثة الأنبياء . وهم يتعرضون لكثير مما يتعرض له الرسل والأنبياء . يتعرضون للأذى من المستكبرين فى الأرض الذين يكرهون كلمة الحق لأنها تكشف حقيقتهم للناس .

ويتعرضون للصد حتى من الجماهير التى قاموا لتخليصها من الذل والظلم والهوان ..

ويتعرضون لليأس من أن يكون جهادهم ذا ثمرة ، أو أن يروا ثمرة جهادهم فى عمرهم القصير المحدود ..

لذلك يحتاج الدعاة بصفة خاصة أن يتأسوا بالأنبياء والرسل : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (سورة الأحزاب : ٢١) .

ويحتاجون بصفة خاصة أن يتأسوا بهم فى الثبات والصبر والتحمل ، والتوكل على الله وتفويض الأمر لله ، فإن ذلك من ألزم مستلزماتهم في جهدهم الشاق الذى يبذلونه فى سبيل الله .

والقرآن يوجه رسول الله ﷺ أن يقتدى بالأنبياء والرسل من قبله : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ (سورة الأنعام : ٨٩ - ٩٠) . فكيف يكون حالنا نحن البشر العاديين ؟ ألسنا أحوج إلى القدوة وأحوج إلى الالتزام ؟

(١١) ـ أولو العزم من الرسل

يقول الله سبحانه وتعالى مخاطباً رسوله ﷺ : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ (سورة الأحقاف : ٣٥) .

وواضح من الآية أن الصفة البارزة فى أولئك الرسل أولى العزم هى الصبر . ذلك أنها هى الصفة التى يطلب الله عز وجل من رسوله الكريم ﷺ أن يتأسى بهم فيها من بين صفاتهم العديدة .

وكل الرسل ـ كما رأينا فى الفقرة السابقة ـ ذوو صبر وثبات وتحمل . فلا بد أن يكون اختصاص « أولى العزم » بهذا الوصف الذى وصفهم به الله فى كتابه الكريم ناشئاً من زيادة فى صفة الصبر عن الرسل العاديين ، وقدرة فائقة على تحمل الشدائد ، وثبات فى مواجهة المواقف الصعبة التى مرت بهم فى أثناء قيامهم بالدعوة إلى التوحيد .

وإذا كان الرسل جميعاً هم هداة البشرية وقادتها ، وهم موضع القدوة والأسوة ، فإن فى حياة أولى العزم من الرسل عبراً خاصة ، لطول جهادهم ، وكثرة المواقف الصعبة التى تعرضوا لها ، وثباتهم فى وجه العواصف المزلزلة التى تتخلع لها القلوب ، واطمئنانهم إلى قدر الله ووعده بالنجاة والنصر .. ثم فيما حل بالمكذبين من أقوامهم من هلاك وتدمير .

إن الدعاة بصفة خاصة ـ كما قلنا فى الفقرة السابقة ـ هم أولى الناس بأخذ العبرة من سير الرسل جميعاً . ولكنهم أجدر بأن يأخذوا العبرة من سِيَرِ أولى العزم من الرسل ، وعلى رأسهم محمد ﷺ ، لأنه ما من موقف يتعرضون له فى دعوتهم إلا له مثيل

أو شبيه في سيرهم .. ثم ينتصر الحق بعد الجهاد الطويل والجهد الشاق ، وتذهب قوى الباطل بدداً ويبقى الحق راسخاً فى الأرض يظلل الناس بظلاله الوارفة ، وينعم الناس فى ربوعه بالأمن ، بعد أن يكون المجاهدون قد ضحوا فى سبيله بأمنهم وراحتهم ، وأموالهم وأنفسهم ، يذهب منهم من ذهب شهيداً فى سبيل الله ويبقى منهم من يبقى شهيداً للحق بصبره وثباته وتجرده لله : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ (سورة الأحزاب : ٢٣) .

وإليك نبذة سريعة عن بعض أولئك الرسل الكرام من أولى العزم :

١ ـ نوح عليه السلام :

من أبرز أمثلة الصبر على مشاق الدعوة والصبر على صدود المدعويين نوح عليه السلام . فلقد لبث يدعو ما يقرب من ألف سنة دون أن يستجيب له من قومه إلا أفراد قليلون ! وحتى ابنه لم يستجب إليه وغرق مع المغرقين ! وكذلك امرأته ! وإن من أشق الأمور على نفس الداعية أن يدعو دون أن يستجيب له الناس الذين يدعوهم إلى الخير وإلى النجاة ، ولكن أشق من ذلك أن يأتى الصدود من قبل المقربين من الأهل ، بما فى ذلك الزوجة والولد ، أقرب الناس إلى الإنسان ، وأحراهم أن يكونوا أول المستجيبين .

ويقص القرآن الكريم علينا قصة نوح فى مواطن كثيرة بالإيجاز حيناً وبالإطناب حيناً آخر ، ولكنها كلها تحمل العبرة لمن يتدبر القصة بقلب واع ولب متفتح ، ففى قصص الأنبياء كما يقول القرآن ﴿ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (سورة يوسف : ١١١) .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ (سورة العنكبوت : ١٤) .

واستمع إلى قصته مع قومه (فى سورة نوح) :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ① قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ② أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ③ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ④ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ⑤ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ⑥ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا

ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۝ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾ فماذا كانت نتيجة الدعوة المثابرة التى لا تفتر بالنهار ولا بالليل ، وتأخذ حيناً صورة الجهر وحيناً صورة السر ؟! . ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ۝ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ۝ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ۝ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ﴾

لقد كان قبل بعثته نجاراً . وكان معروفاً فى قومه بالأمانة والاستقامة والاجتهاد فى الصنعة . فلما اختاره الله للرسالة اتبعه بعض المستضعفين من قومه ولكن الملأ ـ كما هى العادة ـ استكبروا وعصوا ، وراحوا يجادلون ويكذبون .

كانت دعواهم فى التكذيب أنه بشر مثلهم ! ولو أراد الله أن يرسل إليهم رسولاً لأنزل ملكاً من السماء ، أما أن يرسل بشراً مثلهم فأمر ـ فى دعواهم ـ غير جائز ! فهو إذن كاذب فى دعواه أنه رسول من عند الله ، وما يريد بدعواه هذه إلا أن يتميز عليهم ! فجزاؤه على ذلك أن يتهم بالجنون !

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ (سورة المؤمنون : ٢٣ ـ ٢٥) .

ثم كان من دعواهم فى التكذيب كذلك أن الذين اتبعوه ليسوا من علية القوم بل من أراذلهم (كما يسمونهم) :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ۝ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ (سورة هود : ٢٥ ـ ٢٧) .

ثم طالبوه ـ زيادة فى التعنت ـ أن يطرد أولئك الأراذل من صحبته إذا أرادهم أن يستمعوا إليه ، وأن يعلن أنهم مطرودون من رحمة الله أيضاً !

﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ۝ وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ

﴿ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (سورة هود : ٢٩ ـ ٣١) .

وواضح من الآيات أنهم كانوا يُعنتونه كذلك بأن يطالبوه بأن تتدفق عليهم الأموال من خزائن الله ، وأن ينبئهم بالغيب ، وأن ينزل الملائكة من السماء إذا أراد منهم أن يؤمنوا به !

ولقد صبر نوح عليه السلام على هذا العنت كله ، وعلى الصد الطويل من قومه بعد الدعوة المستمرة لهم عاماً بعد عام ، سراً وجهراً ، ونهاراً وليلاً .

﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾

(سورة هود : ٣٦) .

وأوحى الله إليه أن يصنع الفلك الذى سيحمل فيه المؤمنون حين يجيء الطوفان الذى يغرق المكذبين .. وكانت فرصة لقومه لكي يسخروا منه ويتهموه بالجنون ، إذ أنه ما الذى يدفع إنساناً عاقلاً أن يصنع فلكاً في أرض يابسة تحيطها الجبال ؟!

﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾(سورة هود:٣٨ـ٣٩).

وفى الموعد المقرر فى قدر الله جاء الطوفان ..

لقد كان نوح قد دعا ربه بعد الجهاد الطويل مع قومه والصبر الطويل على أذاهم أن يدمر عليهم : ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ (سورة نوح : ٢٦) . ثم إنهم كانوا قد توعدوه بالقتل : ﴿ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴾ (سورة الشعراء : ١١٦) . فدعا ربه أن ينجيه من أذاهم : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَٱفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (سورة الشعراء : ١١٧ ـ ١١٨) . ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾

(سورة القمر : ١٠) .

لقد وصلت الأمور إلى قمتها .. ولم يبق إلا أن تمتد يد الله بالنجاة والرحمة للمؤمنين ، وبالبطش والدمار للمكذبين :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ (سورة هود : ٤٠) . ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ (سورة القمر : ١٠ ـ ١٤) .

لقد كانت هذه هى معجزة نوح ..

الطوفان يغرق الأرض اليابسة ذات الجبال العالية ، ويغرق المكذبين جميعاً لا يبقى منهم فرد واحد . بينما تكتب النجاة للمؤمنين فى داخل الفلك المشحون ، الذى كان الملأ يسخرون من نوح وهو يصنعه فوق اليابسة !

ولكن الابتلاء مع نوح لم يكن قد انتهى حتى لحظة الطوفان ! كانت هناك بقية من الابتلاء يتعرض لها ذلك الرسول من أولى العزم .. فى ولده أقرب الناس إليه !

﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾ (سورة هود : ٤٢ ـ ٤٣) .

وينتهى الطوفان .. وتتم المعجزة .. ويغرق المكذبون .. وينجو المؤمنون وما تزال فى نفس نوح حسرة على ولده الذى ظن ـ من وعد الله له بنجاة أهله ـ أنه من الناجين ! حسرة مزدوجة على فقده فى الحياة الدنيا ، وفقده يوم القيامة حيث يكون فى النار مع الكافرين .

﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ (سورة هود : ٤٤ ـ ٤٦) . ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ ولو كان ابنك من صلبك . فقد فرقت العقيدة بينكما فلم يعد من أهلك ، لأن أهلك هم المؤمنون .. وهذا عمل غير صالح لأنه أبى أن يؤمن وأصرّ على الكفر .. فكان جزاؤه

الحق هو جزاء الكافرين ..

وعندئذ يصل نوح عليه السلام إلى الذروة : ذروة التسليم لله ، والاطمئنان إلى قدر الله ، والرضى بما كتب الله ، وطلب الرحمة والمغفرة من الله :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٤٧) قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ﴾ (سورة هود : ٤٧ ــ ٤٨) .

﴿ سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴾ (سورة الصافات : ٧٩) .

٢ ـ ابراهيم عليه السلام :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (سورة النحل : ١٢٠) .

ولفظ « أمة » الذى ورد فى الآية الكريمة يحمل مجموعة من المعانى . فمن معانيها أن إبراهيم عليه السلام ـ وحده ـ كان يساوى أمة كاملةً فى عمق إيمانه ورجاحة عقله وكريم خصاله . ومنها أن إبراهيم عليه السلام كان أباً لأمة خرجت كلها من ذريته ، فقد مد الله له فى العمر وأمده بذرية واسعة عريضة كان منها عدد غير قليل من الأنبياء :

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦) وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (سورة الأنعام : ٨٤ ـ ٨٧) .

ومن معانيها كذلك أن إبراهيم عليه السلام كان إماماً . فقد قال الله له : ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ (سورة البقرة : ١٢٤) . وهو إمام الحنفاء الذين استقاموا على طريق الله وأخلصوا له العبادة والتوحيد . فقدتكرر وصفه فى القرآن بهذه العبارة ﴿ حَنيفاً وما كانَ من المُشْركين ﴾. وجاء الأمرللرسول ﷺ ﴿ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ (سورة النحل : ١٢٣) . فهو الإمام الذى يتبعه الحنفاء .

وقد منَّ الله عليه برجاحة العقل وبلاغة الحجة وسرعة البديهة كما يبدو لنا فى محاجته لقومه لإبطال الوثنية بالبرهان العقلى ، كما ورد فى القرآن فى مواضع شتى ،

منها ما جاء فى سورة الأنعام : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ (سورة الأنعام : ٧٤ ـ ٨٣) .

فقد أراد إبراهيم أن يصرف قومه عما هم فيه من الشرك إلى الإيمان بالله الواحد الذى لا شريك له ، فاستدرجهم إلى التفكير فى شأن الأصنام التى يعبدونها ﴿ أَتَتَّخِذُ أصناماً آلهةً ﴾؟ بهذا السؤال الإنكارى الذى يهز الغافلين :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ (سورة الشعراء : ٦٩ ـ ٧٤) .

وبعد أن أيقظ تفكيرهم بهذه الأسئلة التى لا إجابة لها عندهم إلا أنهم وجدوا آباءهم كذلك يفعلون ، راح يتظاهر أمامهم بأنه يبحث عن إلّه يعبده بعد أن أعلن رفضه الباتّ لعبادة الأصنام (وهو فى حقيقة الأمر مهتدٍ إلى الله الحق ، ولكنه يريد أن يتدرج بقومه عباد الأصنام درجة درجة حتى يصل بهم إلى اليقين) فلما جن عليه الليل ، رأى فى السماء كوكباً لامعاً ، فقال أمام قومه : سأتخذ هذا الكوكب اللامع إلهاً ! فلما أفل أعلن لقومه أنه لا يعبد إلهاً يأفل ويغيب ! ﴿ قال : لا أُحبُّ الآفلين ﴾ فلما رأى القمر بازغاً قال (متظاهراً) هذا أجدر أن يكون إلهاً ، فنوره أقوى من نور الكوكب . ولكن القمر بدوره أفل ! فتظاهر بالحيرة : ﴿ لئن لم يَهْدِنى ربى لأكونَنَّ

من القوم الضَّالّين﴾ . وأخيراً طلعت الشمس بضيائها الساطع وحرارتها وقوة شعاعها فتظاهر بالفرح الشديد لعثوره أخيراً على الإلّه المنشود !﴿ قال هذا ربِّى ! هذا أكبر !﴾ فلما أفلت الشمس أعلن أخيراً إعراضه عن كل تلك الآلهة الزائفة التى لا تستحق العبادة ، وتوجهه للإلّه الحق ، الذى فطر السماوات والأرض ، على استقامة لا رجوع فيها ولا انحراف عنها (وهذا معنى « حنيفاً ») وأعلن براءته التامة من كل شرك فى عبادة الله .

ونستطيع أن نتصور بطبيعة الحال استنكار قومه لموقفه ومحاجّتهم إياه ، وإن كانوا لا يملكون حجة حقيقية أكثر من أنهم يفعلون كما فعل آباؤهم فحسب ، وأن آباءهم لا يمكن أن يكونوا مخطئين خلال كل تلك الأجيال !

ولكنه يصر على موقف الهدى الذى هداه الله إليه ، وعلى عبادة الله الواحد الذى هداه إلى حقيقة الإيمان . عندئذ يلجأون إلى تخويفه بانتقام الآلهة من تجديفه فى حقها وكفره بها ، ويتوعدونه بأن هذه الآلهة المزعومة ستناله بالأذى لا محالة . وعندئذ يردّ عليهم فى اطمئنان الواثق : ﴿ ولا أخافُ ما تُشركون به﴾ ولكنه فى أدبه مع ربه لا يقطع بأمر هو بعد فى طيات الغيب ، فقد يكون الله سبحانه وتعالى قد قدر له أن يصيبه شىء من الأذى فيقول :﴿ ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئاً ، وسع ربى كل شىء علماً ﴾ثم يعود إليهم فيجابهم بحقيقة موقفهم : كيف تخوّفونني بتلك الآلهة المزعومة التى تشركون بها ، وهى عديمة السلطان لا تملك ضراً ولا نفعاً ، ولا تخافون أنتم من الله الحق الذى يملك الضر والنفع ، وأنتم تشركون به وتعصون أمره ؟! فأيّنا أحق بالأمن ؟ الذى يلجأ إلى الإلّه الحق ويدخل فى حماه ، أم الذى يحتمى بغير حمى سوى الأوهام ؟

ثم يقرر الحقيقة التى تلخص الموقف تلخيصاً حاسماً : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوٓا إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ[1] أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ وليس الأمن المقصود هو السلامة من الأذى في الحياة

---

(١) الظلم المقصود هنا هو الشرك ، وبيان ذلك قوله تعالى فى سورة لقمان : ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (آية : ١٣) .

الدنيا . إنما هو السلامةُ من عذابِ اللهِ في الآخرةِ مع الاطمئنانِ إلى قَدَرِ اللهِ في الحياةِ الدُّنيا ، وأنّ كلَّ ما يصيبُ المؤمنَ هُوَ خيرٌ له ، فيشكر فيكون خيراً له . رواه مسلم[1] .

وتلك هي بلاغة الحجة التي منّ الله بها على إبراهيم في محاجته لقومه ، نراها مع سرعة البديهة في موقف آخر في مناقشة « النمرود » وهو الطاغية الجبار الذي كان يحكم الأرض التي يعيش فيها إبراهيم .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾ (سورة البقرة : ٢٥٨) .

على أن الأمر لم ينته بين إبراهيم وقومه بتلك المحاجة التي وقعت بينهم وبينه . فقد اعتزم إبراهيم أن يقتلع الشرك بيديه ، فعمد إلى تلك الأصنام التي يصرون على عبادتها ، فحطمها في غفلة من القوم !

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ۝ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ۝ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ۝ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ۝ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ۝ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ۝ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ۝ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ۝ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ۝ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ۝ قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ۝ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ۝ ﴾ (سورة الأنبياء : ٥١ - ٦٣) .

ولقد هزتهم المفاجأة بالفعل فكادوا يرجعون إلى صوابهم من شدة وقعها على نفوسهم ! ولكنهم عادوا فأصروا على الضلال . وبدلاً من أن يؤمنوا ، راحوا يتوعدون إبراهيم عليه السلام بالإحراق في النار !

---

(١) ولفظه عن صهيب قال : قال رسول الله ﷺ عجباً لأمر المؤمن إن أمره كلّه لهُ خيرٌ وليس ذلك لأحدٍ إلاّ للمؤمن ، إن أصابَتْهُ سَرّاء شكَرَ فكان خيراً له وإن أصابته ضَرّاء صَبَرَ فكانَ خيراً له .

﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ۝ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۝ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ (سورة الأنبياء : ٦٤ ـ ٦٨) .

وهنا نواجه موقفاً لا يصبر فيه إلا أولو العزم !

حقيقة إن الله أوحى إلى النار ألا تحرق إبراهيم : ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ (سورة الأنبياء : ٦٩) . ولكن النص القرآنى لا يدلنا على أن الله أخبر إبراهيمَ بأن النار لن تمسه بسوء فهو إذن يواجه النار وهى النار . يواجهها مطمئناً إلى قدر الله . نعم ، ولكنه لا يستبعد إصابته الأذى كما قال لقومه من قبل : ﴿ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ﴾ (سورة الأنعام : ٨١) .

إنه موقف الإيمان العميق بالله ، الذى لا يتزحزح أمام أى خطر ، ولو كان الخطر هو الحرق فى النار !

وكانت المعجزة التى نصره الله بها وأنجاه من كيد الكافرين : ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ۝ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ۝ ﴾ (سورة الأنبياء : ٦٩ ـ ٧١) .

ولكن ذلك لم يكن الابتلاء الوحيد فى حياته ، ولا كان المنّ الربانى هو المن الوحيد ..

إنما الابتلاء العظيم كان حين أمره الله أن يذبح ولده إسماعيل :

﴿ قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ۝ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ۝ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ۝ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ۝ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ ﴾ (سورة الصافات : ٩٧ ـ ١٠٢) .

لقد رأى إبراهيم فى منامه هذه الرؤيا التى فهم منها أن الله يأمره بذبح ولده الحبيب اسماعيل الذى وهب له على الكبر : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ (سورة إبراهيم : ٣٩) .

إنه موقف لا تطيقه أعصاب أىّ أب ، فضلاً عن إبراهيم الرقيق المشاعر ، الفياض الوجدان .. ولكنه أمر من الله فهل يعصيه ؟! كلا ! إن إبراهيم لا يعصى ربه بحال ولو كان الأمر فوق الاحتمال .

بل إن الفتى نفسه ليسلم أمره لله فى هذا الموقف العصيب ، ويستسلم لقدر الله :

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (سورة الصافات : ١٠٢) .

إن كل ما يملكه الإنسان من الخيال لا يستطيع أن يصور تلك اللحظة الرهيبة ، لحظة أن همّ إبراهيم بذبح ولده الحبيب ، استجابة لأمر الله .

موقف لا يطيقه إلا أولو العزم .. ولقد أطاقه إبراهيم ..

﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴾ (سورة الصافات : ١٠٣) .

ولكن الله تداركه برحمته .. لم يكن الله يريده حقاً أن يذبح ولده .. إنما كان « يبتليه » .. كان يختبره .. إلى أى مدى هو على استعداد لإطاعة الله فيما يأمر ؟ هل يطيعه فى الأمر الهين ويتوقف عن طاعته فى الأمر العظيم ؟ أم هو على استعداد دائم لإطاعة الله أياً كان الأمر الصادر إليه من الله ؟

ولقد نجح إبراهيم فى الابتلاء .. بل نجح نجاحاً باهراً لا يقدر عليه إلا أولو العزم الشديد .. فنزلت رحمة الله :

﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ (سورة الصافات : ١٠٣ ــ ١٠٧) .

عند ذلك منّ الله عليه بالإمامة جزاء على ما نجح فى الابتلاء :

﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ (سورة البقرة : ١٢٤) .

ويشرّف الله إبراهيم وإسماعيل بإقامة قواعد البيت المعظم ، وإعداده للطائفين والعاكفين والركّع السجود ، فيدعوان هناك دعاءهما الحار :

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِۦمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن

طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۞ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۞ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۞ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (سورة البقرة : ١٢٥ ـ ١٢٩) .

ويستجيب الله الدعاء . ويبعث محمداً ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين ليتلو على هذه الأمة آيات الله ويعلمها الكتاب والحكمة ويزكيها بإذن الله .

ويقول الرسول ﷺ : « أنا دعوة أبى إبراهيم .. »[1] .

« سلام على إبراهيم » .

٣ ـ موسى عليه السلام :

﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ (سورة النساء : ١٦٤) .

﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾

(سورة الأعراف : ١٤٤) .

من أكثر القصص وروداً فى القرآن الكريم قصة موسى وفرعون ، ذلك أنها مليئة بالعبر لمن يتدبرها ، وزاخرة بالدروس التى تنفع المؤمنين .

كانت عين الله ترعاه منذ مولده ، لأن الله كان يعده لأمر خطير ..

ولد فى مصر ، فى بيت من بيوت بنى إسرائيل ، فى الوقت الذى كانت أشد ألوان الاضطهاد تقع عليهم تنفيذاً لقرار اتخذه ضدهم فرعون ، فكان كل ولد ذكر يولد فى بيوت بنى إسرائيل يقتل بأمر ذلك الفرعون ، وتترك البنات لينشأن فى الذل والضياع بغير رجال ! وذلك فضلاً عن ألوان أخرى من السخرة والاستعباد والتعذيب . وكانت الحجة الظاهرية لفرعون فى هذه الأعمال أن بنى إسرائيل قد كثروا فى البلاد فهو يخشى مغبة زيادتهم ! والحقيقة أنهم كانوا على دين غير دينه ، يعبدون إلههم الذى

---

(١) أخرجه أحمد والبزار والطبرانى والحاكم والبيهقى .

عرفوه منذ أيام إبراهيم وإسماعيل وإسحق : ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ[1] الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (سورة البقرة : ١٣٣) . وقد كانوا جاءوا إلى مصر أيام يوسف عليه السلام، ومكثوا فيها وتكاثروا ، فظلوا يعبدون الله ولا يعبدون الفرعون .. ومن هنا غضبه عليهم وطغيانه فيهم ..

ولقد كان يملك ـ لو صدقت حجته الظاهرية ـ أن يطردهم من مصر ويعيدهم إلى بلادهم التي جاءوا منها ، فيتخلص منهم دون أن يوقع الأذى بهم . ولكنها شهوة الطغيان والاستعباد هي التي كانت تحركه ضد بني إسرائيل .

في تلك الظروف العصيبة ولد موسى عليه السلام ، فخافت عليه أمه من عيون فرعون أن يكشفوا وجوده فيقتلوه . وهنا تبدأ نعم الله عليه ، إذ يوحى إلى أمه بالوسيلة التي تحفظه من القتل ، وإن كانت تبدو في عينها وسيلة عجيبة ، هي أعجب ما يخطر في البال على الإطلاق !

ولنرجع إلى سورة القصص نأخذ منها تفاصيل قصة موسى :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾

يا لها من بشارة في أحرج اللحظات ، وإن كانت الوسيلة عجيبة لولا أنها من عند الله .

أرضعيه ولا تخافي ! وإذا خفت عليه من جنود فرعون فألقيه في اليم ! ولا تخافي ولا تحزني ! إنّا رادوه إليك .. وليس هذا فحسب . بل إنّا جاعلوه كذلك من المرسلين .

ولم يطمئن قلب أم موسى أن تبقيه في بيتها وترضعه ! وكأنها اطمأنت إلى الوسيلة الثانية أكثر ، فهو في اليم أبعد عن جنود فرعون ! ولكن قدر الله من وراء ذلك كان يرتب أمراً !

﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ۝ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

---

(١) يعقوب هو إسرائيل الذي تسمى باسمه بنو إسرائيل .

لقد حمله التيار إلى قصر فرعون فالتقطوه . ولقد عرفوا من قرائن الحادث أن هذا وليد من بنى إسرائيل فهموا بقتله بادىء ذى بدء حسب أوامر الفرعون . ولكن الذى يجرى فى الكون هو أمر الله لا أمر الفرعون ولا غيره من الكائنات . ولئن كان أمر فرعون سارياً ونافذاً فليس لأنه الفرعون ذو الجبروت ، ولكن لأن الله قد قدر ذلك لأمر يريده ـ سبحانه ـ ويعلمه . فإذا أراد الله أن ينجو موسى من القتل ، فلن يستطيع أمر فرعون أن ينفذ ! لأنه لم يكن نافذاً من قبل بذات نفسه ولكن بمشيئة الله ، فإذا وقفت مشيئة الله فى طريقه فأنَّى له النفاذ ؟! .

بل تتم السخرية العظمى بآل فرعون ـ بقدر الله المقدر ـ أن يكونوا هم الذين يتولون حمايته وتربيته ﴿ ليكون لهم عدوا وحزناً ﴾ ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ !

إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار .

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

مرة أخرى تتدخل رعاية الله .. إنها لو أبدت ما هى فيه من خوف وقلق لانكشف الأمر ، ولعرف عيون فرعون فى أى بيت ولد موسى .. وعندئذ فقد يقع البطش بأهل البيت كله ومن فيه . ولكن الله يربط على قلبها بالإيمان .

إن الله هو الذى يربط على القلوب فتثبت ، وليس البشر من عند أنفسهم هم الذين يصنعون !

﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ۞ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾

كل خطوة بتدبير من عند الله حتى يبلغ الأمر غايته المقدرة .

الرضيع ـ بتقدير الله ـ يرفض المراضع جميعاً ﴿ وحرَّمنا عليه المراضع ﴾ حتى يخشى عليه آل فرعون من الهلاك جوعاً . وفى ذات الوقت تدفع أم موسى ابنتها ـ بدافع

القلق عليه ـ لتتقصى أخباره . فتذهب الفتاة ـ ولا حرج عليها فإن فرعون لا يتعرض للنساء بالقتل بل يبقيهن إمعاناً فى الفساد ! ـ فتبصر به فى قصر فرعون فترشدهم ـ وهم لا يعرفونها ـ إلى أهلها ليرضعوه ويكفلوه !

وتتم الحلقة الأولى من القدر المقدور ، فيرجع موسى إلى أمه كى تقر عينها ولا تحزن ، و لتعلم أن وعد الله حق !

وتبدأ الحلقة الثانية فى قصر فرعون ، حيث يربى موسى كأنه أمير من أمراء الأسرة ، يعزز ويكرم ، ويؤتى له بالمعلمين والمثقفين ، ويتعلم لغة قومه فى بيت أمه ، ولغة فرعون فى بيت فرعون !

ثم يدخل فى مرحلة ثالثة تنقل خطواته ـ بقدر الله ـ إلى بعيد ..

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

لقد كان الاضطهاد واقعاً على بنى إسرائيل فى كل مكان . وهذا رجل مصرى يقتتل مع إسرائيلى فى أثناء مرور موسى . ويعلم الإسرائيلى أن موسى ـ وإن كان منهم ـ ذو حظوة فى قصر فرعون ، فيستصرخه لإنقاذه من قبضة المصرى . وتهيج فى نفس موسى مشاعر الغضب من الذل والاستعباد الواقع على بنى إسرائيل فيضرب المصرى

ضربة قوية ـ بغير نية القتل ـ ولكن يد موسى القوية الباطشة تقضى على الرجل فيموت . فيندم موسى على نتائج فعلته ويستغفر الله وينوى ألا يعود إلى مثل ذلك . ولكنه فى صباح الغد يسير فى طرقات المدينة خائفاً يترقب ، ويتحسس أخبار حادث الأمس ، وهل عرف الناس أن موسى هو الذى قتل المصرى ؟ عندئذ يلتقى بنفس الإسرائيلى واقعاً فى قبضة مصرى آخر يعتدى عليه ، فيهمّ أن يبطش بالمصرى (رغم عزيمته بالأمس ألا يعود إلى ذلك !) فيخاف المصرى (أو يخاف الإسرائيلى ظناً منه أن موسى يريد أن يبطش به هو) فيقول : « أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفساً بالأمس ؟! » فيعرف موسى أن الخبر قد انتشر .. وفيما هو يفكر فى العواقب يجيئه رجل لا يعرفه (لعله هو مؤمن آل فرعون الذى سيرد ذكره بعد) ينصحه بالخروج لأن الملأ يأتمرون به ليقتلوه ..

﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢٢) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥) قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢٦) قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨) ﴾

لقد توجه إلى مَدْيَن ـ بقدر من الله ـ وهناك على بئر مدين وجد زحمة من الناس يسقون ، ووجد فتاتين لا تقدران على الحصول على الماء حتى يخف الزحام وليس لهما من يحمل عنهما ذلك العبء لأن أباهما شيخ كبير[1] ، فتقدم موسى بما فيه من شهامة وأريحية فسقى لهما ، ثم تولى إلى الظل يستريح من عناء السفر ويشكر الله على الأمن

---

(١) تقول بعض الروايات إن الشيخ الكبير والد الفتاتين هو نبى الله شعيب . وليس فى النص القرآنى ما يثبت ذلك ولا فى حديث صحيح .

والماء والظل .. فإذا إحدى الفتاتين تدعوه لمقابلة أبيها ليجزيه على شهامته ومروءته . فلما قص عليه موسى قصته قال له « لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ القَوْمِ الظالمين » . ثم عرض عليه بناء على اقتراح الفتاة باستئجاره ـ أن يزوجه إحدى ابنتيه مقابل خدمته ثمانية أعوام أو عشرة إذا شاء ، فقبل موسى العرض وبقى مع الرجل الصالح تلك السنوات .

وانتهى الأجل المضروب فخرج موسى بأهله ، فآنس من جانب الطور ناراً فقال لأهله امكثوا حتى آتيكم من النار بقبس تصطلون دفئه .. وهناك تقع لموسى مفاجأة مذهلة لم تكن له ـ ولا لغيره ـ فى الحسبان .

إن النار التى ذهب يأتى منها بقبس يصدر منها صوت يناديه ! ويقول الصوت : إنى أنا الله رب العالمين !

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٢٩ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

إنها مفاجأة يذهل لها أى إنسان . ولا شك أن موسى قد أذهلته المفاجأة لولا الأنس الذى أحسه فى ذلك الصوت ، والذى جعله يبقى إلى جانب النار يستطلع ما يكون من أمرها .

أما المفاجأة التى لم يطقها موسى فهى تحرك العصا التى كان يحملها كأنها ثعبان ضخم !

﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ۝٣١ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾

لقد أصبح موسى رسولاً منذ تلك اللحظة . وها هو ذا يؤمر أن يذهب إلى فرعون بهاتين المعجزتين : العصا التى تتحول إلى ثعبان ضخم ، واليد التى يدخلها فى جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء .

ولكن موسى يخاف الذهاب إلى فرعون . لقد قتل منهم نفساً ، فهو عرضة أن يقتلوه ، وفى لسانه عقدة فهو يخشى أن يضطرب نطقه فلا يفصح عما يريد أن يقول ،

ويطلب من الله أن يرسل معه أخاه هرون يعاونه فى الأمر :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ۝ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾

وتتجلى نعمة الله عليه فيجيب سؤاله ، ويطمئنه إلى أن فرعون وملأه لن يصيبوه بالأذى :

﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾

ويذهب موسى إلى فرعون بالآيات فيحدث بينه وبينه ما يحدث فى كل جاهلية بين الطاغوت وبين الداعية الذى يدعو إلى لا إله إلا الله ؟!

إنها قصة واحدة مكررة فى التاريخ !

ما من طاغوت فى الأرض يرحب بدعوة لا إله إلا الله أو يهادنها على أقل تقدير !

إنها كلمة بسيطة غاية البساطة : « لا إله إلا الله » ولكنها كما قلنا من قبل تدوى فى أذن الطاغوت كالصيحة المدوية . إن معناها المباشر أن هذا الطاغية ليس إلهاً كما يريد أن يصنع من نفسه ، إنما هو عبد لله ، ينبغى أن يخضع لسلطانه ويأتمر بأمره ، لأنه هو ـ سبحانه وتعالى ـ الإله الحقيقى الذى يُعبد وحده ، ويطاع وحده ، ويحكم فى أمور الناس بحكمه وحده .

من هنا تنشب المعركة بين الطاغية وبين الداعية للا إله إلا الله ، ولو كان الداعية لا يحمل سلاحاً ولا يدعو لقتال ، بل يدعو للمهادنة والانتظار كما دعا نبى الله شعيب :

﴿ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ۝ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ (سورة الأعراف : ٨٧ ـ ٨٨) .

إن الطاغية يعتبر مجرد الدعوة للا إله إلا الله حرباً معلنة ضده هو شخصياً لأنه يدرك جيداً معناها ! يدرك أن معناها رد السلطة المغتصبة التى يستعبد بها الناس إلى صاحبها الحقيقى .. إلى الله سبحانه وتعالى رب الجميع .

ومع أن موسى لم يطلب من فرعون بادئ الأمر أن يؤمن به ويتبعه ، إنما طلب منه فقط أن يطلق بنى إسرائيل ولا يعذبهم ، إلا أن المعركة نشبت مع ذلك بينه وبين موسى كما تنشب فى التاريخ كله بين الطاغية وبين الدعوة للا إله إلا الله ! ذلك أن موسى إنما يطالبه بإطلاق بنى إسرائيل وعدم تعذيبهم باسم الله الذى هو مرسل من قبله ؛ ومن ثم فالقضية واحدة فى النهاية ! قضية الإله الحقيقى الذى ينبغى أن يطاع : هل هو الله أم الطاغوت !

إنك من أى باب دخلت ، فالقضية فى حس الطاغوت واحدة !

قد تكون القضية هى رفع ظلم سياسى ، أو ظلم اجتماعى ، أو ظلم اقتصادى ، أو ظلم فردى ولكنك إذا طلبت رفع الظلم باسم الله ، وباسم الحكم بما أنزل الله ، فقد كفرت بالطاغوت ، وأعلنت صراحة أو ضمناً نزع الربوبية منه وردها إلى الله ! وكل شىء قد يحتمله الطاغوت إلا هذه بالذات ! إنه يحس أنها تصيبه فى مقتل ، ولو كانت كلمة تعلن بغير سلاح ولا قتال !

وقد أحس فرعون كما يحس الطغاة أبداً حين يدعون إلى شىء باسم الله وطاعة الله .. أبى واستكبر .. ثم هدد بالبطش !

وفى الحوار الذى دار بينهما كما ورد فى سورة الشعراء ما ينبئ عن ذلك :

﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ(1) ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ(2) ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ (سورة الشعراء : ١٦ ـ ٢٩) .

---

(١) الخطاب فى الآية لموسى وهرون .

(٢) يشير فرعون إلى المصرى الذى وكزه موسى فقضى عليه .

موسى يطلب إطلاق بنى إسرائيل ، وفرعون يحول القضية إلى قضية الألوهية : مَن المعبود الذى ينبغى أن يطاع ؟ وذلك أن موسى يطلب إطلاق بنى إسرائيل باسم الله ، لا باسم قضية سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية أو وطنية أو عرقية !

ولقد طلب فرعون الآيات لا ليؤمن ، ولكن كبراً وتحدياً :

﴿ فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا إلا سحر مفترى وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين ۝ وقال موسى ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون ۝ وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحا لعلي أطلع إلى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين ۝ واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون ﴾ (سورة القصص : ٣٦ ـ ٣٩) .

لقد رأوا من موسى سبع آيات بينات : العصا ، واليد ، والطوفان ، والجراد والقمل ، والضفادع ، والدم .

﴿ ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل ۝ فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون ﴾ (سورة الأعراف : ١٣٤ ـ ١٣٥) .

وبقيت من الآيات التسع[1] التى أرسل بها موسى آيتان :

﴿ وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي إنكم متبعون ۝ فأرسل فرعون في المدائن حاشرين ۝ إن هؤلاء لشرذمة قليلون ۝ وإنهم لنا لغائظون ۝ وإنا لجميع حاذرون ۝ فأخرجناهم من جنات وعيون ۝ وكنوز ومقام كريم ۝ كذلك وأورثناها بني إسرائيل ۝ فأتبعوهم مشرقين ۝ فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون ۝ قال كلا إن معي ربي سيهدين ۝ فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ۝ وأزلفنا ثم الآخرين ۝ وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ۝ ثم أغرقنا الآخرين ۝ ﴾ (سورة الشعراء : ٥٢ ـ ٦٦) .

غرق فرعون الذى قال لملئه : ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ (سورة النازعات : ٢٤) .

---

(١) « فى تسع آيات إلى فرعون وقومه انهم كانوا قوماً فاسقين . » (سورة النمل : ١٢) .

وغرق معه جنده الذين استخفهم ـ بفسقهم ـ واستعبدهم لسلطانه : ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ (سورة الزخرف : ٥٤) .

وكانت آية لكل جبار عنيد في الأرض . ولكن متى كان الطغاة يعتبرون ؟ ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ (سورة يونس: ١٠١).

وانتهت فترة عصيبة من حياة موسى .. فترة الجهاد الذى استمر بضع سنوات مع فرعون وملئه ، والأذى ينزل ببنى إسرائيل لا يكفّ عنهم ، وهو يحاول أن يبعث فيهم الصبر والاصطبار ، ويبعد عنهم شبح اليأس :

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ (سورة الأعراف : ١٢٧ـ١٢٩).

ويتحقق وعد الله لبنى إسرائيل فيستخلفهم فى الأرض :

﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴾ (سورة الأعراف : ١٣٧) .

فهل استقاموا على طريق الله الذى أسبغ عليهم من نعمه ما لم يسبغه على أحد من العالمين ؟ !

كلا ! إنهم ما كادوا يحسون بالأمن من أذى فرعون وظلمه ، ويحسون بالكرامة بعد الهوان والذل ،حتى بدأوا يتجبرون ويعصون ربهم ، حتى وموسى عليه السلام حيّ بين ظهرانيهم !

﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ (سورة الأعراف : ١٣٨) .

ثم اتخذوا العجل الذهبى إلهاً حين ذهب موسى لميقات ربه !

﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ[1] أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ (سورة الأعراف : ١٤٨) .

وقالوا : لن نؤمن حتى نرى الله جهرة !

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾

(سورة البقرة : ٥٥) .

وتوالت جرائمهم ومعاصيهم بعد ذلك وموسى يصبر عليهم ولا يسلم من أذاهم !

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا ۚ وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾

(سورة الأحزاب : ٦٩) .

﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾

(سورة البقرة : ١٠٨) .

وكانت قمة معصيتهم - فى حياة موسى - هى رفضهم الجهاد لدخول الأرض المقدسة التى وعدهم الله بها :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ۝ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ۝ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ۝ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا ۖ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ۖ فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ۝ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾

(سورة المائدة ٢٠ - ٢٦) .

ومضى موسى للقاء ربه بعد طول المصابرة على عصيانهم وانحرافهم ، والمحاولة الدائبة لتقويمهم .. مضى وهم سادرون فى غيهم ، لا يزيدون إلا معصية لله وكفراً به .

---

(١) ما زالت عبادة الذهب قائمة فيهم منذ ذلك الحين .

ويجمل القرآن الكريم وصفهم فى مثل هذه الآيات :

﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ . . . فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (سورة النساء : ١٥٣ ـ ١٦١) .

لذلك استحقوا اللعنة وباءوا بغضب من الله :

﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (سورة المائدة : ٧٨ ـ ٧٩) .

﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ (سورة البقرة : ٦١) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ (سورة آل عمران : ٢١ ـ ٢٢) .

لقد صنع اليهود من الشر فى أجيالهم المتعاقبة ما لم تصنعه أمةٌ أخرى فى التاريخ .

٤ ـ عيسى عليه السلام :

﴿ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ ﴾ (سورة مريم : ٢١) . ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (سورة الأنبياء : ٩١) .

لكل نبى معجزة واحدة على الأقل . وأرسل موسى عليه السلام فى تسع آيات إلى فرعون وقومه . ولكن معجزة عيسى فى ولادته بغير أب تعتبر متفردة بين المعجزات جميعاً . فقد شاء الله سبحانه وتعالى أن يجعله هو ذاته آية للعالمين .

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ۝ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۝ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ۝ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ۝ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۝ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ۝ فَحَمَلَتْهُ .... ﴾ (سورة مريم : ١٦ ـ ٢٢) .

هكذا تبدأ قصة عيسى عليه السلام .. أو لعلها تبدأ قبل ذلك فى الحقيقة فى الرعاية الخاصة التى رعى بها الله مريم منذ مولدها :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ۝ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي ۖ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ۝ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (آل عمران : ٣٣ ـ ٣٧) .

فهذه امرأة عمران تهب ما فى بطنها للمعبد (على عادة القوم الأتقياء يومئذ) تظن أنها ستلد ولداً ذكراً ـ فما كان يوهب للمعبد إلا الذكور . فلما وضعت فوجئت بأنها أنثى ! وتحسرت على أنها لم تلد ذكراً تستطيع أن توفى به نذرها . فواساها الله سبحانه وتعالى بقبول ابنتها مريم فى المعبد ولو كانت أنثى ! وكلف النبى زكريا برعايتها فى المعبد والقيام بحسن تربيتها ، ففوجىء زكريا بأحوال منها غير معتادة : « كلّما دخلَ عليها زكريا المحرابَ وجدَ عندها رزقاً ! » فهو يسعى إليها بالطعام فيجد الطعام فائضاً عندها ومتجدداً ! فعرف أنها مباركة ، وزاد ذلك من عطفه عليها ورعايتها ..

ثم إن الله اصطفاها وطهرها ..

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (سورة آل عمران : ٤٢) .

فهى التقية النقية الطاهرة المباركة .. حتى لقد لقبها أهلها « أخت هرون » من شدة تقواها وصفاء سريرتها .

وبينما هى فى عزلتها ، وهذه حالها ، يجيئها جبريل عليه السلام بهذا الخبر العجيب : أن الله سيهب لها غلاماً زكياً ! وتذهل من المفاجأة وتضطرب لها اضطراباً عنيفاً ، ويتمثل فى خيالها ما يمكن أن يقال عنها فتدافع عن نفسها : « أَنَّى يكون لى غلامٌ ولم يَمْسَسْنِي بشرٌ ولم أكُ بَغِيًا » . فيقول لها الملك : كذلك ! إنه أمر هين على الله . إن الله يريد أن يجعل منه آية للناس ورحمة . ثم إنه لا فائدة فى الجدل ! فهو أمر محتوم ! ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتْهُ﴾ .

هكذا تبدأ المعجزة بخلقه بغير أب .. بالمشيئة الربانية فحسب .. بغير الأسباب التى تعودها الناس فى حياتهم .

نعم إن هناك سُنَّة جارية ، هى من أمر الله ، وقد جرت هذه السُّنَّة بأن يأتى النسل من لقاء الزوجين وإخصاب البويضة بهذا اللقاء ، بحيث لا يتكون جنين إذا لم يحدث للبويضة إخصاب .

ولكن مشيئة الله سبحانه وتعالى ليست مقيدة بهذه السنة الجارية ولو أنها من أمر الله ! إنما الله سبحانه وتعالى يخلق بغير أسباب . يقول للشيء كن .. فيكون ..

ونسمى نحن هذا الأمر سُنة خارقة ! لأنها تخرق ما تعودنا عليه من سنة الله الجارية . ولكن الإعجاز فى الحقيقة قائم فى هذه وتلك ! وإلا فمن الذى خلق البويضة فى رحم الأم وجعل من خصائصها أن تنجب بعد الإخصاب ؟ ! إنه الله الذى يقول للشيء كن فيكون !

ومع ذلك يظل للخارقة وضع خاص فى حسنا ، لأنها تخالف المألوف .. ويعلم الله ذلك منا ، فيجعل المعجزة دائماً خارقة للمألوف ، لتلفت حسنا بشدة إلى الخالق

الذى لا يعجزه شيء فى السموات ولا فى الأرض !

واقتضت مشيئة الله أن تكون كذلك ولادة عيسى عليه السلام ..

وإذ تكون ولادة عيسى بغير أب معروف ، فإن مريم تكون حتماً عرضة للاتهام !

بل إن أهلها هم أول من يوجه الاتهام إليها ! فإنّ فضيحتها لن تكون خاصة بها ! إنما هى ستلطخ الأسرة كلها بالعار ، وهى التى ورثت التقوى وحسن السمعة جيلاً بعد جيل :

﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًۭٔا فَرِيًّۭا ۝ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍۢ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّۭا ﴾ (سورة مريم : ٢٧ – ٢٨) .

وتتنزل رحمة الله بمريم ، التى تقبّلها ربها بقبول حسن منذ مولدها ، ورعاها وأكرمها ، واصطفاها وطهرها .

تتنزل فى معجزة جديدة لعيسى ، لا تقلّ إعجازاً ولا تقل روعة فى الحس :

﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّۭا ۝ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّۭا ۝ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّۭا ۝ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًۭا شَقِيًّۭا ۝ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّۭا ﴾ (سورة مريم : ٢٩ – ٣٣) .

﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًۭا وَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ (سورة آل عمران : ٤٦) .

وتتوالى المعجزات فى حياة عيسى ..

﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍۢ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةًۭ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (سورة آل عمران : ٤٩) .

ومع أن هذه المعجزات كلها قد جاءت تأييداً لرسالة عيسى عليه السلام ، فإن الذين آمنوا به إيماناً صحيحاً كانوا قلة قليلة سواء فى أثناء حياته على الأرض أو بعد رفعه منها .

فأما اليهود الذين أرسل إليهم عيسى فقد كذبوه وأبوا أن يتبعوه إلا قليلاً منهم . وقالوا إن المسيح الذى وُعدنا به سيكون ملكاً ذا سلطان ، أما هذا فقد جاء يحدثنا عن ملكوت الرب ! فهو إذن ليس المسيح الموعود !

وأما النصارى فقد ألّهوه وجعلوه ابن الله .. فكفروا .

ولنتتبّع موقف كل من الفريقين .

فأما اليهود فقد كانوا ـ حتى فى حياة موسى عليه السلام ـ قوماً ماديين . عبدوا العجل الذهب ، وظلوا من بعدها يعبدون المال ويتفننون فى تحصيله عن طريق الحرام ، بأكل الربا، وأكل أموال الناس بالباطل : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ (سورة آل عمران : ٧٥) .[1] .

ووصلوا إلى درجة من قساوة القلب وصفها القرآن فى هذه الآية : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (سورة البقرة : ٧٤) .

فأرسل الله إليهم عيسى عليه السلام ليردهم إلى الصورة السوية التى يرضى عنها الله ، فيتركوا ماديتهم الهابطة ، وتلين قلوبهم بدلاً من قسوتها ، ويستشعروا تقوى الله وخشيته ، فيكفوا عن جرائمهم الوبيلة التى لطخت تاريخهم كله .. لذلك جاء عيسى عليه السلام يحدثهم عن ملكوت الرب ، ويقول لهم : من أراد ملكوت الرب فليترك ماله وأولاده وليتبعنى . ويحدثهم عن الروح وصفائها ، وعن رفعة الإنسان بالجانب المعنوى منه : « ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان » .

لكنهم من أجل ذلك كرهوه !

إنهم يريدون أن يظلوا فى الدنس الذى يعيشون فيه ولا يريدون أن يرتفعوا عنه بحال من الأحوال . لذلك كذبوا عيسى وحرضوا على صلبه :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ (سورة البقرة : ٨٧).

فأما التكذيب فقد أقاموه على هذه الدعوى المزعومة التى سبقت الإشارة إليها ،

---

(١) ما زال اليهود يعتبرون كل البشر غيرهم أميين ! أو أمميين بتعبيرهم ! ويعتبرون أموال البشرية كلها حلالاً لهم ولو حصلوا عليها بكل الطرق غير المشروعة .

وهى أن المسيح الذى ورد ذكره عندهم فى التوراة سيكون ملكا عليهم ويجعل لهم سلطاناً على الأمم الأخرى . أما هذا فيتحدث فقط عن ملكوت الرب وليس بيده سلطان !

وأما التآمر لصلبه فقد كانوا يحرضون ضده الحاكم الرومانى المسمى « بيلاطس » المولّى على فلسطين من قبل الرومان . كانوا يقولون إنه شخص مشاغب ومهيج للجماهير ! وإنه يحرضهم على عدم إطاعة القيصر الرومانى ! وقد حاول بيلاطس أن يصدهم عن هذه الاتهامات ، وقال لهم إنه لم يسمع عنه إلا كل خير ، وإنه يدعو إلى السلام والمحبة ، فقالوا له إن الأمن لن يستتب فى الأرض إلا إذا حوكم هذا الرجل وصلب ! وإنه طالما بقى حياً فستظل الاضطرابات قائمة من حوله ! ثم لفقوا له قضية يكون من نتيجتها محاكمته وصلبه . وهم يزعمون أنهم قتلوه بالفعل فوق الصليب . ولكن القرآن يكذب ذلك تكذيباً قاطعاً ، كما تكذبه كتابات كثيرة للنصارى أنفسهم ، بل إن الأناجيل ذاتها مضطربة اضطراباً شديداً حول هذا الموضوع . والذى حدث بالفعل هو أن الله ألقى شبهه على شخص آخر (يهوذا الأسخريوطى) فأخذ وصلب بدلاً من المسيح[1] . أما المسيح فقد رفعه الله إلى السماء ونجاه مما كان اليهود يكيدون له :

﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ۝ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (سورة النساء : ١٥٧ ــ ١٥٨) .

أما قوله تعالى فى سورة آل عمران (٥٤ـ٥٥) ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ۝ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ فمعنى « متوفيك » هنا أنى أوفيك أيامك المقدَّرة لك على الأرض أى أن أجله المقدَّر له فى الأرض قد انتهى

---

(١) يهوذا الأسخريوطى كان واحداً من الحواريين (تلاميذ المسيح) ولكنه خانه سراً وتآمر ضده مع اليهود . وتقول الروايات المسيحية نفسها إنه كان أشبه الناس بالمسيح كما تقول الروايات التاريخية الصحيحة إن عملية الصلب تمت فى الغسق أثناء دخول الظلام وإن الجماهير التى حُرِّضت ضد المسيح رأت يهوذا فحسبته هو المسيح ــ لقرب الشبه بينهما ــ فدفعته دفعاً إلى الجنود فوضعوه على الصَّليب . أما المسيح فقد اختفى وظل الناس يبحثون عنه فلا يجدونه .

ثم رفعه الله إليه ، وليس معناها أنه مات ، بل رُفع حياً ، ليبقى حتى ينزل مرة أخرى فى آخر الزمان ويحكم الناس بشريعة محمد ﷺ كما تقول الأحاديث الصحيحة .

وتلك معجزة من المعجزات التى صاحبت حياة المسيح عليه السلام ، أو هى آخر معجزاته. فميلاده مُعْجز وكذلك توفيته أجله فى الأرض معجزة ، وكلاهما خارق للمألوف .

تلك قصته مع اليهود .. أما النصارى فقد انحرفوا بشأنه فى اتجاه آخر .. واتخذوا من معجزاته حجة باطلة لتأليهه تارة وادعاء بنوته لله تارة أخرى .

كانت معجزة مولده أنه ولد من غير أب ، فقالوا : لا يمكن أن يكون بغير أب ، فهو إذن ابن الله !

ويردّ القرآن عليهم: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (سورة آل عمران : ٥٩) .

فالخلق عند الله هو الخلق. يتم بالمشيئة وليس بالأسباب ! ومشيئة الله ليست مقيدة بنوع معين من الأسباب ، بحيث تعجز عن الخلق إذا لم تتوفر الأسباب المألوفة في علم البشر !

لذلك يعقب فى سورة مريم (التى أوردنا نصوصاً منها من قبل) بعد تفاصيل مولد عيسى عليه السلام بقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (سورة مريم : ٣٤ــ٣٥).

ولم يكتف النصارى بادعاء بنوة عيسى لله ، بل اتخذوا من معجزات إحياء الموتى وخلق الطير من الطين وبقية المعجزات الأخرى تُكأة لادعاء الألوهية للمسيح عليه السلام !

والقرآن يقرر إزاء هاتين المعجزتين بالذات أنهما تتمان بإذن الله : ﴿ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾(سورة آل عمران : ٤٩).

فلا مجال البتة لاتخاذ هذه المعجزات ذريعة لتأليه عيسى عليه السلام !

كما بلغ الشطط بهم أن أضافوا إلهاً ثالثاً إلى الآب والابن ، ذلك هو روح القدس .. وهذا كله صنعوه بأيديهم فى مجامعهم المقدسة فى اجتماع تلو اجتماع كما تقرر تواريخهم

هم أنفسهم ، ولم يتنزل فى الإنجيل ولم يكن من أوامر المسيح لهم ، بل كان منهم حتى القرن الخامس الميلادى من يقول قولة الحق : إن المسيح بشر ورسول لله .

ولكن الكنيسة ظلت تطارد الذين يقولون ذلك وتحرق كتاباتهم حتى لا يبقى غير ما زيفته هى فى مجامعها من كتابات وقرارات .

وحتى هذه القرارات لم تكن عملاً خالصاً من أعمال المسيحيين !

يقول درابر الامريكى فى كتابه « الدين والعلم » :

« دخلت الوثنية والشرك فى النصرانية بتأثير المنافقين ، الذين تقلدوا وظائف خطيرة ، ومناصب عالية فى الدولة الرومية ، بتظاهرهم بالنصرانية ولم يكونوا يحفلون بأمر الدين ، ولم يخلصوا له يوماً من الأيام ..وكذلك كان «قسطنطين». فقد قضى عمره فى الظلم والفجور، ولم يتقيد بأوامر الكنيسة الدينية إلا قليلاً فى آخر عمره (سنة ٣٣٧م) .

« إن الجماعة النصرانية ، وإن كانت قد بلغت من القوة بحيث ولت قسطنطين الملك ، ولكنها لم تتمكن من أن تقطع دابر الوثنية ، وتقتلع جرثومتها وكان نتيجة كفاحها أن اختلطت مبادئها ، ونشأ من ذلك دين جديد ، تتجلى فيه النصرانية والوثنية سواء بسواء .. هنالك يختلف الإسلام عن النصرانية ، إذ قضى على منافسه (الوثنية) قضاء باتاً ، ونشر عقائده خالصة بغير غبش ..

« وإن هذا الأمبراطور الذى كان عبداً للدنيا ، والذى لم تكن عقائده الدينية تساوى شيئاً ، رأى لمصلحته الشخصية ، ولمصلحة الحزبين المتنافسين ـ النصرانى والوثنى ـ أن يوحدهما ويؤلف بينهما : حتى إن النصارى الراسخين أيضاً لم ينكروا عليه هذه الخطة . ولعلهم كانوا يعتقدون أن الديانة الجديدة ستزدهر إذا طعمت ولقحت بالعقائد الوثنية القديمة ! وسيخلص الدين النصرانى عاقبة الأمر من أدناس الوثنية وأرجاسها »[1] .

فهى إذن عقائد وثنية أضيفت بأمر الأمبراطور إلى العقيدة النصرانية « لتأليف قلوب الوثنيين » !

---

(١) نقلاً عن كتاب : « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » للسيد أبى الحسن الندوى .

وقد كانت عقيدة التثليث منتشرة فى مصر فى أسطورة إيزيس وأوزوريس وحوريس الذين يتجمع من ثلاثتهم إله واحد ، كما كانت منتشرة فى الهند كذلك فى صورة أخرى ، ومن هذه الأساطير ـ التى انتقلت إلى الأمبراطورية الرومانية بالعدوى ـ صيغت عقيدة النصارى بمعرفة رجال الكنيسة المزيفين .

ويناقشهم القرآن فى هذا الأمر فى مواضع شتى ويصدر الحكم بشأنهم :

﴿ وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون (٧٨) ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون (٧٩) ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ﴾ (آل عمران: ٧٨ ـ ٨٠).

ومما يذكر بهذا الصدد أن وفد نجران من النصارى الذين ذهبوا لمجادلة الرسول ﷺ فى شأن المسيح أنزل الله بشأنهم :

﴿ فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنت الله على الكاذبين ﴾ (سورة آل عمران : ٦١) . فلما واجههم الرسول ﷺ بهذه الدعوة إلى المباهلة أبوا وانصرفوا !! ومعنى ذلك فى الحقيقة أن النصارى وإن جادلوا فى أمر عيسى واشتدوا فى الجدال إلا أن هذه العقيدة الزائفة لا تبلغ من نفوسهم مبلغ اليقين !

ويقول القرآن لهم :

﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه(١) فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا

---

(١) يقول القرآن بشأن آدم عليه السلام : ﴿ إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين (٧١) فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ﴾ (سورة ص : ٧١ ـ ٧٢) . ومع ذلك لم يقل أحد إن آدم إله ولا إنه ابن الله .

﴿ ... خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ (سورة النساء : ١٧١) .

ثم يواجههم بالحكم الفصل فى شأنهم :

﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (سورة المائدة : ٧٢ – ٧٣) .

وتختم سورة المائدة بهذا الموقف المؤثر :

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى(١) كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴾

وهكذا نجد أن جهاد الرسل جميعاً متعلق بتلك القضية الكبرى : قضية التوحيد . قضية الإيمان بالله واليوم الآخر .

وأن جهدهم كله كان منصرفاً إلى إعادة الناس إلى حظيرة الإيمان بعد شرودهم عنها ، وردهم إلى رؤية الحق الذى عموا عنه ، والارتفاع بهم من انتكاس الحيوان إلى رفعة الإنسان ، الذى شرفه الله بالخلافة فى الأرض ، وفضله على كثير ممن خلق ، ليقوم بعمارة الأرض بمقتضى المنهج الربانى ، الذى يكفل للبشر سعادتهم وطمأنينتهم فى الحياة الدنيا ، ويكفل لهم فى الآخرة الجنة والرضوان .

---

(١) يعنى أنهيت عمرى المقدر لى فى الأرض كما مر من قبل .

الباب الثاني

الرسالة المحمدية

(١)
حال العالم قبل الإسلام

قبل مجيء الإسلام كانت البشرية كلها قد تردت إلى حالة شديدة من السوء ، وظلمات لا يبدو فيها بصيص من النور .

لم تكن الجزيرة العربية وحدها هي التي تسودها الجاهلية . وإنما كانت الجاهلية تعم وجه الأرض كلها بغير استثناء .

كانت هناك دولتان « عظيمتان » هما فارس والروم ، تحكمان معظم الأرض المعمورة يومئذ ، ولكل منهما « حضارة » تاريخية ! ولكن على أي شيء كانت تقوم تلك « الحضارات » ؟ وعلى أي مستوى فكري وروحي ومادي كان يعيش « الإنسان » في داخلها ؟

في فارس كان كسرى هو الذي يحكم . ولكنه لم يكن ملكاً ، إنما كان إلهاً .. ! كانت مراسم التحية التي تقدم له أشبه شيء بشعائر التعبد ! لم يكن يحق لأحد أن يدخل عليه حتى يمر بحاجب وراء حاجب ، فإذا مثل بين يديه انحنى له انحناءة عظيمة ، ويظل منحنياً حتى يؤذن له بنصب قامته ! فإذا تكلم قدم لكلامه بعبارات من الثناء تُشعر بالخضوع والمذلة أكثر مما تُشعر بالرغبة في الثناء ! ثم إذا انصرف لم يحق له أن يعطي ظهره للإله المعبود ! بل يخرج بظهره ، حتى يظل وجهه هو المواجه لكسرى حتى يغيب عن ناظريه ، لأنه لا يجوز في حق ذلك الإله المزعوم أن يستدبره الناس بظهورهم لأن في ذلك ما يخدش عظمته وقداسته ! !

وكان الناس عبيداً بالفعل لذلك الإله . يعيشون ـ أياً كان مستواهم ـ على الصورة التي يسمح بها كسرى ، أو تسمح بها تقاليد الملك المتوارثة منذ أجيال . وحفنة من

الناس يستمتعون بخيرات البلاد ، أولئك هم بلاط كسرى ، المتحكمون معه فى رقاب العبيد ، أما بقية الشعب ففى حالة من الذل والفقر والعبودية لا تليق « بالإنسان » وكانوا يساقون إلى الحروب التى يشنها كسرى أو قواده « الطموحون » يموت منهم من يموت لغير قضية يؤمن بها ، ويحيى من بقى حياً فى ذل العبودية والضياع .

مظاهر « العظمة » ومظاهر « الحضارة » كلها فى إيوان كسرى وقصره وبلاطه وكل ما يتعلق به ، أما « الشعب » فلا أهمية له إلا بمقدار ما يخدم مصالح أولئك السادة المتحكمين وعلى رأسهم ذلك « الإله » !

وهناك « فنون » نعم ، وإنتاج مادى .. ولكنه كله مسخر ـ مع الناس أنفسهم ـ لخدمة تلك المصالح المقدسة لا يخرج عنها !

أما العبادة الرسمية فهى عبادة النار !

ولهذه النار كهنة يسهرون على إيقادها حتى لا تنطفىء .. لأنها إذا انطفأت كان ذلك فألاً سيئاً على الإله الجالس على عرش الأكاسرة !

وأما الأخلاق فقد انهارت ، وتفشت شيوعية مزدك بما تحمل من إباحية وفوضى وانحلال .

أىّ هوان فكرى وروحى ومادى كان يعيش فيه الإنسان فى ظل تلك الحضارة « العظيمة » ؟ !

* * *

وفى بلاد الروم لم يكن الحال أفضل من ذلك ..

فالقيصر يحاط بالهالات كما يحاط كسرى .. والناس ـ كحالهم فى كل جاهلية ـ سادة وعبيد . السادة قلة ولكنهم يملكون كل شىء فى أيديهم ، والعبيد هم الكثرة المغلوبة على أمرها ، المسخرة لمصالح السادة .

والحروب التى يشنها القيصر وقواده لا تنتهى . وإليها يساق العبيد ليموتوا بالألوف ومئات الألوف .. فى سبيل ماذا ؟ ما القضية التى يدافعون عنها ويموتون من أجلها ؟ وما القيم التى يحرسونها ؟ إنها « الأمبراطورية » ! إنها الأمجاد الشخصية للقيصر والقواد ! إنها شهوة

الغلبة والاستعباد والإذلال والقهر ! إنها البربرية الوحشية التى لا يحكمها قانون !

وهناك مثل فارس فنون وإنتاج مادى وعمارة للأرض .. ولكن لمن؟ للسادة أم للعبيد ؟! وما دور العبيد فيها غير خدمة الأسياد ؟!

وهناك « عقيدة » .. عقيدة وثنية جاهلية تحرسها الكنيسة ورجال الدين . الله ثالث ثلاثة ، والمسيح ابن الله ! والأحبار والرهبان أرباب يحكمون عالم الروح والفكر بغير ما أنزل الله ، ويأكلون أموال الناس بالباطل ، فى الوقت الذى يحكم القيصر عالم الحس والمادة بالقانون الرومانى الجاهلى .. أى بغير ما أنزل الله . والناس عبيد للقيصر وبلاطه من ناحية ، وعبيد من ناحية أخرى « لقداسة البابا » وَمَنْ حولهِ مِنَ الأحبار والرهبان .

* * *

فإذا تجاوزنا الأمبراطوريتين « العظيمتين ! » وجدنا فى آسيا « الحضارة » الهندية و« الحضارة » الصينية ..

فى الهند ـ كما فى كل مكان .. سادة وعبيد . ولكن العبيد فى الهند لهم وضع خاص . إنهم خلقوا من قدم الإله ! ولذلك فهم دنسون نجسون ! وعليهم أن يحتملوا كل ما يقع عليهم من إذلال وإهانة وتعذيب ، لأن هذا قَدَرُهم من ناحية ، ومن ناحية أخرى لأن هذا هو طريقهم الوحيد للخلاص ! الخلاص عن طريق تناسخ الأرواح ! فالإنسان يقضى عمره المحدد ، ثم تنسخ روحه فتحل فى إنسان آخر جديد . ولكنها نفس الروح ! فإذا رضى العبيد (المنبوذون) بقَدَرهم ، ورضوا بالهوان والذل ، وقاموا بأشق الأعمال وأقذرها ، فربما .. ربما تنسخ أرواحهم فى أشخاص جدد ، أرفع شأناً من العبيد (وإن كانوا لا يصلون قط إلى مقام السادة الذين خلقوا من رأس الإله أو من ذراعيه !) فيكونون بذلك قد وصلوا إلى « الخلاص » المنشود !

وهناك « عبادات » .. عبادات لا حصر لها ، لآلهة لا حصر لها كذلك .. ولكنها كلها تشترك فى شىء واحد . فى أنها ضلال . ولكن ربما كان أعجب ما فيها « بغايا المعبد » ! بغايا يقمن بالبغاء فى المعبد ! لوجه الإله ! بل لوجه الشيطان ! وربما كان

أعجب ما فيها كذلك عبادة البقرة .. والتمرغ فى روثها والاستحمام ببولها .. من اجل البركة ! ولو أن البقرة نطقت لسخرت من عبّادها ، ولعجبت من « الإنسان » الذى كرمه الله ، كيف يرضى لنفسه بذلك الهوان !

وفى أقصى الأرض توجد الصين ..

بلاد مترامية الأطراف يحكمها أمبراطور .. مقدس ككل حكام ذلك الزمان . تقدم له طقوس العبادة وتقدم له القرابين ، ويخرّ الناس بين يديه ساجدين . والإله المعبود هو بوذا . تقام له التماثيل وتعبد . ينحتها الناس بأيديهم ثم يعبدونها ! وفى البوذية كما فى ديانات الهند يُحتقر الجسد ويعذب من أجل خلاص الروح . وتُحتقر الحياة الدنيا وتنبذ من أجل الحصول على الخلود .. الخلود أين ؟ وعلى أية صورة ؟ الخلود مع بوذا .. فى عالم الأوهام !

وهناك فنون ، وهناك إنتاج مادى ، وهناك « حكمة » ولكنها كلها إلى ضياع ، لأن الناس أنفسهم ضائعون !

* * *

أما الجزيرة العربية فغارقة فى الجاهلية ككل البشرية !

وتختلف الجاهليات فى صورتها الخارجية باختلاف البيئة ودرجة الحضارة المادية التى تسودها . ولكنها فى جوهر الجاهلية سواء . فالجاهلية هى الشرك ، وهى الحكم بغير ما أنزل الله .. و« الإنسان » فيها ضائع ، تحكمه أوهام ما أنزل الله بها من سلطان ، وتحكمه شريعة غير شريعة الله .

كان فى الجزيرة ألوان ثلاثة من الديانات .. كلها ضلال !

فهناك اليهود مركزون فى المدينة وما حولها ، قد حرفوا كتابهم « المقدس » منذ أجيال طويلة ، وملأوه بالأكاذيب والأساطير ، وغيروا فيه شرائع الله ، ثم نبذوها جملةً وأصبحوا يحكمون أهواءهم ومصالحهم ، ويعبدون الشيطان فى الحقيقة بدلاً من عبادة الله .

وهناك فئات قليلة من النصارى فى ضلالاتهم التى ابتدعوها من تثليث وتأليه لعيسى واعتباره ابناً لله .

وهناك العرب الوثنيون فى طول الجزيرة وعرضها يعبدون الأصنام ، ويضعونها فى الكعبة ، بيت الله الحرام ، فى المكان الذى أمر ابراهيم واسماعيل بإقامة قواعده ليعبد فيه الله وحده بلا شريك ، المكان الذى دعا فيه إبراهيم: ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا ﴾ وقال تعالى حكاية عنه ﴿ وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾

ثم يقولون إنهم على دين إبراهيم !

وتعشش فى رءوسهم مجموعة شتى من الأساطير !

الملائكة بنات الله .. وتعبد لأنها بنات الله !

والجن ذوو نسب مع الله . ومن أجل ذلك يعبدون !

والأصنام ، ينحتونها بأيديهم ويعبدونها ، ويقولون ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾

وقريش تتحكم فى عقائد العرب ، تأمرهم أن يطوفوا بالبيت عرايا ، وتحل الأشهر الحرم ، وتحرم غيرها نسيئاً ، وتحل الميتة ، وتحرم من الأطعمة الحلال ما تشاء .. والعرب يطيعون شريعتها الزائفة ويعصون شريعة الله !

ويئدون البنات ، ويحتقرون المرأة ويظلمونها ، ويشربون الخمر ويلعبون الميسر ويستبيحون الزنا . وتمضى حياتهم فى الشراب واللهو أو غارات السلب والنهب .. أو الفراغ ! وبعض القبائل الغنية كقريش وثقيف وهوازن تشتغل بالتجارة بعض وقتها وتشتغل بالربا الفاحش فى أموال الناس ، ثم تنصرف هى الأخرى إلى الفراغ !

و« الإنسان » ضائع كما هو ضائع فى كل الجاهليات ..

* * *

كذلك كان حال العالم قبيل البعثة المحمدية . شرك يملأ وجه الأرض ، وظلمات لا يبدو فيها بصيص من النور .

وفى هذا الجو الحالك المظلم بعث النور .. بعث محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه .

(٢)

دعوة إبراهيم وبشارة عيسى
ورؤيا أم النبى صلى الله عليه وسلم

يقول الرسول ﷺ :(أنا دَعْوَةُ أبى إبراهِيمَ ، وبِشَارةُ عِيْسَى ، ورُؤيا أُمِّى الّتى رأت). (أخرجه أحمد والبزاز والطبرانى والحاكم والبيهقى فيما رووه عن العرباض ابن سارية) .

فأما دعوة إبراهيم عليه السلام (التى سبقت الإشارة إليها) فهى المتضمنة فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

(سورة البقرة : ١٢٧ ـ ١٢٩) .

وأما بشارة عيسى عليه السلام فهى فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ (سورة الصف : ٦) .

وأما رؤيا أمّ النبى ﷺ فهى عن ابن عباس : « أن آمنة كانت تقول : أتانى آتٍ حين مرّ بى من حملى ستة أشهر فى المنام . وقال لى : يا آمنة إنك حملت بخير العالمين ، فإذا ولدته فسميه محمداً واكتمى شأنك » .

وهكذا التقت الدعوة والبشارة والرؤيا كأنها نقط لامعة على الأفق ، تشير كلها إشارة موحدة إلى شخص الرسول ﷺ وهو بعد فى ضمير الغيب ، حتى ولد فانطلق منه النور .

(٣)
بشارة التوراة والإنجيل

تحدثنا من قبل (فى مقرر السنة الثانية الثانوية) عن إشارات التوراة والإنجيل إلى الرسول ﷺ رغم ما أصابهما من التحريف على يد اليهود والنصارى . فإذا رجعنا فى هذا الشأن إلى القرآن نجد إشارتين صريحتين فى هذا الصدد .

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (سورة الأعراف : ١٥٧) .

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (سورة الفتح : ٢٩) .

وإذا كان اليهود والنصارى ـ خلال التاريخ ـ قد طمسوا تلك الإشارات الواضحة فإنهم لم يستطيعوا محوها محواً كاملاً ! وقد أشرنا فى كتاب السنة الثانية إلى نسخة التوراة القديمة التى عثر عليها فى دير سانت كاترين بسيناء عام ١٣٦٥هـ ـ ١٩٤٥م ،) وفيها ذكر صريح للرسول ﷺ ثم اختفت بعد ذلك ولم يعد يرد لها ذكر !

وكان اليهود فى المدينة ـ قبيل بعثة الرسول ﷺ ـ يقولون للأوس والخزرج :

لقد أطل زمان نبيّ ! وسوف نقاتلكم به ونغلبكم . وإلى هذا تشير الآية القرآنية : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (سورة البقرة : ٨٩) .

وهم حين كانوا يقولون ذلك للأوس والخزرج لم يكونوا يرجمون بالغيب ، وإنما كانوا يشيرون إلى ما هو مكتوب عندهم فى التوراة . مما يدل على أن نسخ التوراة القديمة لم تذكر الرسول ﷺ باسمه وصفته فحسب . بل أشارت كذلك إلى مكان بعثته وإلى زمانها التقريبى ، مما جعل اليهود يتوقعون قرب البعثة المحمدية . بل إن النص الذى أوردناه فى كتاب السنة الثانية من التوراة ليدل على أنهم كانوا يعرفون مكان بعثته ومكان هجرته كذلك . وذلك على الرغم مما ألقى على النص من الغموض !

أما النصارى فقد بدلوا فى الإنجيل لما دونوه بعد مدة من رفع عيسى عليه السلام ، ثم ظلوا كلما ترجموه من لغة إلى لغة يزيدون الإشارات إلى الرسول ﷺ غموضاً . ومع ذلك فما تزال هذه الإشارة باقية فى أناجيلهم على لسان عيسى عليه السلام وهى : « سيأتى من بعدى الفارقليط » وفى بعض النسخ يضاف إلى هذه العبارة « من لا استحق أن أحلّ سيور حذائه »[1] . ويأتى وصفه : « يملأ الأرض نوراً وعدلاً » وفى بعض النسخ : « يوبخ العالم على خطيئته ، ويعلم الناس جميع الحق ، لأنه ليس ينطق من عنده ، بل يتكلم بكل ما يسمع من عند الله » ومعنى ذلك أنه رسول موحى إليه من عند الله . وقد مر على ذلك قرابة عشرين قرناً من الزمان ، وما جاء إلا محمد ﷺ نبياً ورسولاً .. ولن يجيء غيره ! فهو هو الذى تشير إليه أناجيلهم بلفظ الفارقليط[2] .

وقد أمر موسى وعيسى عليهما السلام أتباعهما أن يؤمنوا بهذا الرسول حين يأتيهم ،

---

(١) يعنى : هو أعظم منى بكثير ، إلى درجة أننى لا أستحق أن أحل سيور حذائه . وذلك من تواضع عيسى عليه السلام .

(٢) كلمة يونانية معناها « الحمد » وهى أقرب شىء إلى اسم « أحمد » الذى ورد فى بشارة عيسى عليه السلام فى سورة الصف : ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾

قياماً بأمر الله وميثاقه مع الرسل جميعاً : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ (سورة آل عمران : ٨١) .

ولكنهم نكلوا عن أمر أنبيائهم حسداً من عند أنفسهم : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (سورة البقرة : ١٠٩) . ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (سورة البقرة : ١٤٦) .

(٤)

صفات الرسول صلى الله عليه وسلم وأحواله قبل البعثة

يختار الله سبحانه وتعالى رسله من صفوة خلقه .

والرسول ﷺ هو صفوة الأنبياء جميعاً وصفوة الخلق .

ويتولى الله سبحانه وتعالى رسله بالرعاية والتهذيب قبل بعثهم دون أن يشعر الناس بذلك ودون أن يتوقعوا ، حتى إذا بعثهم كانوا ـ نفسياً وروحياً وخلقياً ـ مؤهلين لحمل الرسالة والقيام بها على الوجه الذى يريده الله منهم .

ولا يعرف الناس بطبيعة الحال ـ وإن كان الله يعلم ـ أن هذا الشخص بعينه سيكون رسولاً . ولكنهم يشعرون بصفاته المتميزة ويقدرونها ، ويقولون أحياناً إن هذا الشخص سيكون له شأن ..

وقد صدق ذلك كله بالنسبة لرسول الله ﷺ ، على مستوى غير معهود فى تاريخ الرسل من قبل .

ولا نقول إن هذا كان شعور أمه ﷺ ، فربما كانت الرؤيا التى رأتها هى التى أعطتها إرهاصاً بذلك . ولا نقول كذلك إن هذا كان شعور عمه أبى طالب ولا جده عبد المطلب ، فربما كانت صلتهما المباشرة به هى التى أوحت إليهما بذلك . إنما كان هذا شعور قريش كلها على اختلاف مشاربها ، كما كان هذا إحساس كل من رآه ولو مرة واحدة فى رحلة من رحلات التجارة التى شارك فيها أو طائفاً حول الكعبة أو جالساً صامتاً لا يلهو كما يلهو الشباب من أقرانه .

لقد كان سمته ، حتى فى شبابه الباكر ﷺ ، سمت الرجل الوقور العميق التفكير ، ومشاعره مشاعر « الإنسان » .

ولقد كانت الجاهلية تعج بالمفاسد واللهو وتفاهة الفراغ ، وإن لم تخلُ من رجال هنا وهناك لهم هيبة ووقار وجد . ولكن هذا الأمر كله كان نادراً شديد الندرة بين الشباب . والشاب الذى لا يلهو فى الجاهلية يكون عجباً ! فإذا أضاف إلى جده ووقاره أنه لا يغشى مجالس الشراب التى يغشاها حتى الشيوخ من ذوى الوقار ! ولا يقارف شهـوات الجاهلية وإن كانت مباحة لا حجر عليها ولا إنكار من أحد ! ولا يذهب إلى تلك الأصنام المنصوبة إلى جوار الكعبة وإن كانت موضع العبادة والتقديس من الجميع ! ويتعفف عن الظلم فى تلك الجاهلية التى يقول شاعرها :

ومن لم يَـذُدْ عن حوضـه بسلاحِـهِ .. يُهَدَّمْ ومَنْ لا يَظلم الناس يُظلمِ !

إذا أضاف ذلك وغيره من الصفات الكريمة النادرة إلى الوقار والجد فى سن الشباب ، فلا شك أنه يلفت نظر كل من حوله ، لأن أحداً من الشيوخ أنفسهم لا يتوفر فيه ذلك فضلاً عن الشباب .

ثم إن صفةً من صفاته ﷺ كانت من البروز والعمق حتى إنها لفتت نظر قريش كلها ، تلك هى الأمانة ، حتى لقبوه بالأمين . وكان الناس يودعون لديه أماناتهم لشدة اطمئنانهم وثقتهم فى أمانته . كما بدا صدقه وأمانته حين عمل بالتجارة مع عمه أبى طالب ، بينما التجارة فى الجاهلية لا تخلو من الجشع ولا تخلو من الخداع !

ولقد كان صمته فى مجالس قريش ، مع حكمته ورجاحة عقله حين يتكلم ، مثار إعجاب قريش كلها وموضع تقديرها واحترامها ، حتى كانوا يستشيرونه فى أمورهم كما يستشار الشيخ المحنك ، ويرضون بحكومته فيما يحتكمون إليه من أمور .

ولعل أشهر ما كان من ذلك هو تحاكُمُ قريش إليه فى أمر الحجر الأسود . فقد رأت قريش أن تعيد بناء الكعبة لما أصابها من تهدم فى بعض أحجارها ، وأن ترفعها ضعف ما كانت عليه من ارتفاع ، واتفق رأيهم جميعاً على ذلك وعملوا فيه

متعاونين حتى جاء دور وضع الحجر الأسود فى مكانه ، وهنا برز التنافس بين قبائل قريش كلٌّ تريد أن يكون لها وحدها ذلك الشرف ! وظلوا فى جدلهم أربعة أيام متوالية لا يتفقون على شيء ، والمنافسة تتزايد وتحمى حتى كادوا يقتتلون فيما بينهم !.وأخيراً اتفقوا على أن يأخذوا برأى أول قادم عليهم ! وكان أول قادم ـ بقَدَرٍ من الله ـ هو الأمين .. فاستبشرت قريش كلها وارتضوا حكومة الأمين بينهم ، اطمئناناً إلى أن لديه الحل الذى يحسم النزاع ويزيل الخلاف ! وقد كان ! نزع رداءه وقال : ليمسك رجل من كل قبيلة من قريش بطرف الرداء ، ففعلوا فقام إلى الحجر الأسود فوضعه بيديه فوق الرداء وقال احملوه إلى المكان الذى سيوضع فيه حتى إذا فعلوا ذلك مشتركين ومتعاونين أخذ الحجر الأسود بيديه الكريمتين فوضعه فى مكانه من الكعبة . وبذلك اشتركت قريش كلها على قدم المساواة فى شرف رفع الحجر ثم اختص الأمين ـ برضاهم ـ بشرف وضعه فى مكانه . وعاد الكل راضين مستروحين لقضاء الصادق الأمين .

وفى وصف خديجة رضى الله عنها له ﷺ حين أخذت تطمئنه وهو يرتجف من شدة المفاجأة حين نزل الوحى عليه أول مرة ما يعطى صورة عن أخلاقه ﷺ وانعكاسها فى نفوس الناس . إذ تقول له : لا وَاللهِ لا يُخْزِيكَ اللهُ أبداً ، إِنَّك تَصِلُ الرَّحِمَ وتَصْدُقُ الحديثَ وتَحْمِلُ الكَلَّ وتُكْسِبُ المَعْدومَ وتَقْرِى الضَّيْفَ وتُعِيْنُ على نوائبِ الحَقّ » رواه البخارى ومسلم عن عائشة رضى الله عنها .

وكان ﷺ يُكثر ـ فى صمته ـ من التفكير والتأمل ، وعُرف عنه أنه كان يتحنَّث شهراً كلَّ سنة فى غار حراء ، فى عزلة عن الناس ، يتعبد على دين إبراهيم ، بعيداً عما أصاب هذا الدينَ من تشويه وتحريف على يد الجاهلية الوثنية السائدة ..

لقد كان اللهُ يُعدُّهُ لذلك الأمر الخطير .. أمر الرسالة الموجَّهة إلى كل البشرية ..

وصدق رسول الله ﷺ حيث قال : (أَدَّبَنِى رَبِّى فَأَحْسَنَ تَأْدِيْبِى)

(٥)
السيرة المحمدية
هي السيرة القطعية في التاريخ

من قَدَرِ الله بالنسبة للإسلام أن تبقى أصوله كاملة ومن غير تحريف ، لأنه الدين الباقي إلى أن تقومَ الساعة ، والذي قدَّرَ اللهُ سبحانه وتعالى أن يحفظه ويُظْهره على الدين كله : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ (سورة الصف : ٩) .

وكما حفظ اللهُ القرآنَ بقدرته حيث قال جلت قدرته : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (سورة الحجر : ٩) . فقد حفظ كذلك السُّنَّة المطهرةَ وحفظ السيرَةَ النبوية الكريمة فلم تضع كما ضاعت سِيَرُ كثيرٍ من الأنبياء من قبل ، ولم تدخل عليها التشويهات والتحريفات التي دخلت على سِيَر أنبياء بني إسرائيل من موسى إلى عيسى عليهما السلام فيما يُسَمَّى الكتاب المقدس بعهديه القديم والحديث (المقابلين للتوراة والإنجيل) .

إن من يقرأ العهد القديم بصفة خاصة يتقزز من بشاعة ما ألصق بالأنبياء - في سِيرهم المزيفة - من تهم فاحشة لا تليق بشخص عادى فضلاً عن نبى مرسل . فما من جريمة في الأرض - على بشاعتها - إلا ألصقت زوراً وبهتاناً بأولئك الأنبياء ، من قتل وسرقة وغصب ونهب وغش وكذب وفسق خلقى !! وهذا كله مكتوب بأيدى المؤمنين بأولئك الرسل ! وصدق الله العظيم : ﴿ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (سورة البقرة : ٩٣) . ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ (سورة البقرة : ٧٩) .

لقد حرّفوا سير أنبيائهم لا عن جهل . ولكن ليبرروا لأنفسهم شناعة سلوكهم في الأرض ! فإذا كان أنبياؤهم يصنعون ما ينسبونه إليهم من أفاعيل . أفلا يكونون

هم فى حل مما يفعلون ؟!

فأما الأناجيل فى تزويرها لسيرة عيسى عليه السلام فلا تقلّ نكراً وإن كان على صورة أخرى ! وأيّ شيء أشد نكراً من تأليه عيسى وادعاء بنوته لله؟! ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴾ (سورة مريم : ٨٨ ـ ٩١) .

ذلك ما أصاب سِيَر الأنبياء من قبل من نسيان أو تحريف ، فأما سيرة الرسول ﷺ فقد صانها الله عن العبث وعن النسيان ، ووكلها ـ بقدر منه ـ إلى أمة ذات قدرة غير عادية على حفظ الروايات والنصوص ، ومن ثم بقيت محفوظة على مدار التاريخ . وبذلك فهي السيرة القطعية فى التاريخ كله التى يُمكن الوثوق بوقائعها وأحداثها ونسبتها إلى صاحبها ﷺ .

ومن خلال هذه السيرة ـ ومن خلال القرآن كذلك ـ حفظت اللمحات الصادقة من سِيَر الأنبياء من قبل . فلا حقَّ يوثق به من سِيَر أولئك الأنبياء إلا ما ورد فى القرآن أو الحديث . وفضلاً عن ذلك فإننا نستطيع أن نقرأ فى سيرة الرسول ﷺ سِيَر الأنبياء جميعاً ، فقد تجمَّع فى حياته ﷺ ما تفرق فى حياة الأنبياء من قبل !

(٦)
شخصية جامعة

إن شخصية الرسول ﷺ هى أعظم شخصية فى تاريخ البشرية كله ، لا بالنسبة للعظماء من البشر فقط ، بل بالنسبة للأنبياء والرسل كذلك ، بما فيهم الرسل أولو العزم .

فإذا قسنا بمقاييس العظماء من البشر ، فإننا إذا وجدنا قائداً سياسياً فى أمة نذر نفسه للقيادة السياسية وانقطع لها ، فوجد أمته فى شتات ، لا يربط بينها رباط ، ولا تجتمع على كلمة ولا هدف ، فاستطاع من خلال قيادته الحكيمة ، وتأثير شخصيته أن يجمع الأمة من شتاتها ، ويوجد بينها الرباط الذى يجعل منها أمة متماسكة ، ووحد كلمتها ، ورسم لها هدفاً تتجمع حوله فتنسى خلافاتها وتتألف قلوبها .. ثم برز إلى المعترك الدولى بهذه الأمة بعد توحيدها ، فأحلها مكاناً مرموقاً بين دول العالم وشعوبه ، وجعل لها احتراماً وتقديراً بينهم .. فبماذا نسمى ذلك القائد السياسى فى لغتنا وكيف نصفه ؟ ألا نقول إنه رجل عظيم ؟ وهو قد انقطع لهذه المهمة وحدها دون سواها ؟

فكيف إذا كان هذا جانباً واحداً من جوانب متعددة تشملها شخصية الرسول الأعظم ﷺ ، وكيف إذا كان وهو لم ينقطع لهذه المهمة وحدها ، قد بذّ فيها أىّ سياسىّ فى التاريخ ممن تخصصوا فى القيادة السياسية فحسب ؟

وإذا وجدنا مصلحاً اجتماعياً وجد المظالم والانحرافات الاجتماعية متفشية فى مجتمعه ، الأنانية هى رائد الأفراد ، والأثرة هى رائد الجماعات . القوىّ يظلم الضعيف ، والغنى يأكل الفقير . والمجتمع أفراد وجماعات متفرقة ، تتناحر فيما بينها على السلطة أو المال أو الجاه ؛ نهازون للفرص كلهم ، لا يرعى أحدهم لأخيه

حقاً ولا يرقب فيه إلاً ولا ذمة .. فنذر نفسه لإقامة العدل الاجتماعى وإزالة الانحرافات من مجتمعه ، وأوجد التوازن المنشود بين الفرد والمجتمع ، وبين الحاكم والمحكوم ، وجعل أغنياء الأمة يتعاطفون مع فقرائها ويشركونهم فى جانب من أموالهم ، فيعيش المجتمع كله كأنه أسرة واحدة كبيرة ، متكافلة متعاونة متحابة . فكيف نسمى ذلك المصلح فى لغتنا وكيف نصفه ؟ ألا نقول إنه رجل عظيم ؟!

فكيف إذا كان هذا جانباً واحداً من جوانب شخصية الرسول ﷺ وحياته ، وكيف إذا كان فى هذا الجانب قد بذَّ المتخصصين ، الذين انقطعوا لهذا الجانب وحده وتخصصوا فيه ؟!

وإذا وجدنا مصلحاً أخلاقياً ، رأى الفساد الخلقى منتشراً فى مجتمعه : الكذب والنفاق ، والغش والخيانة ، وأكل أموال الناس بالباطل ، والخمر والزنا والميسر ، والسلب والنهب والغصب .. لا يأمن أحدهم على نفسه حتى يكون سلاحه فى يده ، ولا يأخذ حقه إلا بقوة عضلاته ، فإذا كان صاحب الحق ضعيفاً أُكل كما تأكل الذئاب الفريسة ، فإن كان يتيماً أو امرأة فلا يتحرك لنجدته ضمير .. رأى ذلك فنذر نفسه لإصلاح الأخلاق فى مجتمعه ، فاستطاع بصبره وجهاده أن يضع لأمته دستوراً أخلاقياً تتعامل به فيما بينها ، يرعاه القوىّ والضعيف ، فقلّ الكذب أو انتهى ، وقضى على الخمر والزنا والميسر ، وصار صاحب الحق آمناً على حقه ولو كان ضعيفاً أو يتيماً أو امرأة ، وصار وازع الضمير هو الذى يحكم العلاقات بين الناس .. ألا نقول لمن توصل إلى ذلك إنه رجل عظيم ؟ ..

فكيف إذا كان هذا جانباً واحداً من جوانب تلك الشخصية الفذة ، ويكون أثر الرسول ﷺ فيه أكبر من أثر أى مصلح فى التاريخ نذر نفسه لهذه المهمة فحسب ؟

وإذا وجدنا مربياً نذر نفسه للتربية ، فاستطاع أن يُخرج جيلاً من الأفذاذ ، كل واحد منهم قائد فى ميدانه ، وقدوة فى سلوكه وأخلاقه ، ومتانة شخصيته وتماسكها بحيث لا تلعب بها الأهواء ولا تهزها الأعاصير .. ثابت كالطود ، ذو شخصية إيجابية

وفعّالة فى عالم الواقع ، يتحرك فيحرك الجموع من حوله .. كيف نسميه ؟ ألا يستحق منا ــ بجدارة ــ أن نقول إنه مربٍّ عظيم ؟!

فكيف إذا كان هذا جانباً واحداً من جوانب متعددة ، وكان الرسول ﷺ قد بذَّ فيه أعظم عظماء المربين فى التاريخ ، بالجيل الذى ربّاه على عينه فكانت منه قيادات فى كل ميدان على مستوى القمة من البشرية ؟!

وإذا وجدنا قائداً عسكرياً انقطع لمهمته فحسب ، فربى جيشاً من الأبطال جنوداً وقادة ، فعوّدهم الصبر على المكاره ، والثبات عند الشدة ، والإقدام عند الخطر ، وخاض بهم المعارك فانتصر بهم حتى عوّدهم النصر ، يلتفون حوله ، يأتمرون بأمره ، ويطيعون تعليماته ، بل يتسابقون إلى مكان الخطر ، يطلبون الشهادة ويسعون إليها سعياً ، فتكتب لهم إحدى الحُسْنَيَيْن : الشهادة أو النصر .. ألا نقول إنه قائد عظيم ؟

فإذا كان هذا القائد العسكرى قد وضع نصب عينيه وهو يربى جيشه ألاّ يكونوا أبطال قتال فحسب ، بل يكونوا كذلك مُثُلاً أخلاقية حتى وهم يقاتلون ، لا ينسيهم هولُ الحرب أخلاقَهم ، ولا تُخرجهم المكاره عن طورهم ، بل يلتزمون بالأخلاق فى المعمعة وبعد المعمعة ، فى تعاملهم مع أعدائهم وأصدقائهم على السواء ؟ ألا نقول مرة أخرى إنه قائد عظيم ؟

ثم إذا كان هذا القائد قد ربّى جنوده لا على الأخلاق الفردية فحسب ، بل على أن لهم مَثَلاً أعلى وقيَماً يقاتلون فى سبيلها . فهم لا يقاتلون من أجل الغلبة فحسب ، ولا من أجل توسيع الرقعة وتشييد السلطة ، إنما يقاتلون لمثل أعلى يحرصون عليه أشد من حرصهم على نتيجة المعركة ذاتها ، ويتحرونه فى كل خطوة ، ويقيسون إليه كل حركة .. فهل يكفى أن نقول فقط إنه قائد عظيم ؟!

فكيف إذا كان الرسول ﷺ قد بذَّ فى هذا الجانب أىّ قائد عسكرى فى تاريخ البشرية ، وهو جانب واحد من جوانب متعددة فى شخصه الكبير ؟!

ولو أن إنساناً نذر نفسه للعبادة ، حتى شفّت روحه وصَفَتْ ، لا ينسى ربَّهُ

لحظةً ، ولا ينقطع ما بينه وبينه ، بل هو موصول القلب بالله أبداً ، فى صلاته وفى عمله ، فيما بينه وبين نفسه ، وفيما بينه وبين الناس ، فإذا هو مع الناس لطيف ودود ، وإذا هو فى عمله متقن مخلص ، وإذا تقوى الله وخشيته تسيطر على تصرفاته كلها وتحكمها .

ثم لو أن هذا الإنسان قد استطاع أن يجمع حوله جماعة من العبّاد ، يربيهم على عمق الصلة بالله ، وعلى الذكر الموصول لله ، فإذا هم يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، وإذا الإيمان بالله هو المحرك لأعمالهم وأفكارهم ومشاعرهم ، وإذا تقوى الله هى المقدمة فى حسّهم على كل متاع الأرض وكل مغريات الأرض .. ألا نقول عنه إنه روح عظيمة فى ذات نفسه ، وإنسان عظيم بالنظر إلى ثمار غرسه من الصحاب ؟

هذه وغيرها جوانب من شخصية الرسول ﷺ ، بذَّ فى كل جانب منها مَنْ تخصصوا لها ووهبوا أنفسهم لها على حدتها .. فكيف نسمى من جمع فى شخصه الكريم هذه الشخوص كلها ، وكل واحد من بينها عظيم ؟!

على أن عظمة الرسول ﷺ لا تكمن فى اجتماع هذه الشخوص المتعددة فى شخصه الكريم فحسب .. بل هناك درجة أعلى من العظمة ، هى أن هذه الجوانب كلها لم يشغله واحد فيها عن الآخر ! فعمل القائد السياسى لم يشغله عن عمل القائد الحربى ولا عن عمل المصلح الاجتماعى ولا المصلح الأخلاقى ، ولا عن عمل المربى ولا عن عمل العابد .. بل لم يشغله ذلك كله عن أسرته وزوجاته وبناته ، فكان نعم الزوج ونعم الأب ، ولو أن إنساناً تفرغ فقط لمطالب أسرة فى حجم أسرة الرسول ﷺ فعدل فيها عدله وأعطاها ما أعطى الرسول أسرته من الرعاية والحب ، ألا نقول إنه إنسان عظيم ! فكيف إذا كانت هذه الأمور كلها لا يلهيه جانب منها عن الجوانب الأخرى ، وهى تنوء بالمختصين فيها ، المنقطعين عن الجوانب الأخرى ؟ ..

كان يتعبد حتى تتورم قدماه ﷺ ، وحتى تشفق عليه عائشة رضى الله عنها من الجهد فتقول له هوِّن على نفسك فقد غفر لك الله من ذنبك ما تقدّم وما تأخر ، فيقول لها ﷺ : أفلا أكون عبداً شكوراً ؟!

ومع هذه العبادة التى يعجز عنها المنقطعون لها وحدها فهل طغى هذا التعبد على مهامه الأخرى ﷺ ، فلم يعط القيادة السياسية حقها ، أو التربية الخلقية ، أو تربية المقاتلين فى سبيل الله ، أو تربية أولئك الأفذاذ الذين كانوا قادة التاريخ فى كل ميدان ، كأبى بكر وعمر وعثمان وعلى وخالد وعكرمة ، وأسماء وسميّة .. ومئات غيرهم من الصحابة رضوان الله عليهم ؟!

كلا ! وإنها لعظمات بعضها فوق بعض ، تجتمع كلها فى شخصه الكريم ..

فإذا قسنا هذه الشخصية الفذة بالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم فنحن على ذات المستوى من العظمات .

إن شخصية الرسول ﷺ وحياته وسيرته قد جمعت ما تفرق فى الأنبياء الآخرين مما تميزوا به .

فـإذا كانت حياة نوح عليه السلام قد تميزت بطول صبره على صد قومه مع عدم الانقطاع عن دعوتهم ، وإذا كانت حياة إبراهيم عليه السلام قد تميزت بحلمه وأناته ، والرفق فى توصيل الحق إليهم ، مع الامتثال الكامل لأمر الله والإسراع إلى طاعته ، وإذا كانت حياة موسى عليه السلام قد تميزت بالقيادة الحكيمة التى ارتبط بها بنو إسرائيل حتى خرجوا من الاستضعاف والذل إلى الحرية والكرامة وتكونت منهم أمة تحكم بشريعة الله ، وإذا كانت حياة عيسى عليه السلام قد تميزت بجانبها الروحانى الشفيف اللطيف ، فى مواجهة المادية الطاغية التى كانت تسود وجه الأرض ، وتربية مجموعة من التلاميذ (هم الحواريون) على درجة عالية من الخلق والروحانية والطاعة لتعاليم رسولهم .. فإن حياة الرسول ﷺ قد استوعبت ذلك كله فى طياتها ، وكان أثره فى كل جانب من هذه الجوانب أعظم من كل من سبقوه من الرسل الكرام . وذلك كله من فضل الله عليه وهو يعده للرسالة الخاتمة : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ (سورة الصف : ٩) . ﴿ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ (سورة النساء : ١١٣) .

(٧)

مدرسة للتربية

السيرة النبوية هي المدرسة التربوية للجيل الصالح : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (سورة الأحزاب:٢١).

لقد حوت هذه السيرة كل ما يكفل إنشاء « الإنسان الصالح » الذى يدعو إليه القرآن وتقتضيه الخلافة الراشدة فى الأرض .

سئلت عائشة رضى الله عنها عن خُلق رسول الله ﷺ فقالت : «كان خُلقه القرآن » .

عبارة مختصرة جامعة . معناها أن الرسول ﷺ هو الترجمان الحىّ لكل ما ورد فى القرآن من توجيهات وأوامر ونواهٍ وقيم ومبادئ وأخلاقيات .

فإذا كان القرآن هو كتاب التربية المنزل من السماء . فالرسول ﷺ هو النموذج الكامل لهذه التربية الربانية بجميع حذافيرها . ومن ثم فإن سيرته ﷺ تشتمل على كل العناصر المطلوبة لتربية المسلمين .

وفى أىّ جانب من جوانب التربية بحث الإنسان ، فسيجد فى شخصية الرسول ﷺ وفى تعاليمه وتوجيهاته ومواقفه العملية كل ما يحتاج إلى معرفته فى ذلك الجانب .

الصدق . الأمانة . التقوى . نظافة الظاهر والباطن . عمق الإيمان بالله . الإسراع لتلبية داعى الله . الشجاعة . الصبر . الحكمة . الزهد . لباقة القول . حسن التصرف .

لطف المعشر . لين الحب وحزم الجد ... الاتزان والتوسط فى كل أمر .

وإن علينا لواجبين اثنين إذا رغبنا فى تكوين جيل صالح من المسلمين :

١ ـ التعرف على سيرة الرسول ﷺ ودراستها دراسة المتدبر الواعى لمحتوياتها .

٢ ـ محاولة التنفيذ العملى لتوجيهات الرسول ﷺ ، المتمثلة فى سنته القولية وسنته العملية .

إن هذين العنصرين ـ إذا أخذناهما بجد ـ يحققان لنا ما نصبو إليه من تكوين جيل رائد يزيل عن الإسلام غربته الثانية التي نعيشها اليوم[1] ، ويعيد للأمة الإسلامية أمجادها .

ولن نحتاج يومئذ إلى التطلع فى شرق الأرض وغربها للبحث عن مناهج للتربية أو شخصيات للقدوة ..

إن كل مناهج التربية البشرية ناقصة ومنحرفة إلى جانب منهج التربية الإسلامية . وكل الشخصيات أقزام إلى جانب الرسول ﷺ ، فما الذى يدعونا إلى مد أيدينا بالطلب ونحن نملك الكنوز ؟ وما الذى يدفعنا إلى الاقتداء بالأقزام ونحن نملك المثل الرفيع ؟

فلنعد إلى هذه السيرة العظيمة ولنحاول أن نقبس قبسات من الرسول ﷺ ، تنير قلوبنا وتحفزنا إلى معالى الأمور .

---

(١) يقول الرسول ﷺ : (بدأ الإسلامُ غريباً وسَيعودُ غريباً كما بدأ) ونحن اليوم نعيش هذه الغربة الثانية التى تحدث عنها الرسول ﷺ . وعلينا إزالتها كما أزال الجيل الأول من المسلمين غربته الأولى .

(٨)
خصائص الرسالة المحمدية

الرسالة المحمدية هى الرسالة الخاتمة ، وبها كمل الدين وتمت النعمة الربانية على البشرية . قال تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ (سورة المائدة : ٣) .

وتختص الرسالة المحمدية عن الرسالات السابقة كلها بجملة خصائص :

١ ـ ختمها للرسالات السابقة ونسخها لها :

محمد رسول الله ﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ (سورة الأحزاب : ٤٠) .

ويقول الرسول ﷺ : (مَثَلِى ومَثَلُ الأنبياء مِنْ قَبْلِى كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنى بُنياناً فأَحْسَنَهُ وأَجْمَلَهُ ، إلا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زاويةٍ من زواياه ، فجعَلَ الناسُ يَطوفونَ به ويَعْجَبون لَهُ ويَقُولونَ : هَلاَّ وُضِعَتْ هذهِ اللَّبِنَة ؟! فأَنا اللَّبِنة ، وأَنا خاتَمُ النَّبِيِّين) رواه مسلم .

ورسالته هى الرسالة الخاتمة الناسخة لما قبلها : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ (سورة المائدة : ٤٨) . فهو مصدق لما بين يديه من الكتب فى أنها كلها منزلة من عند الله ، كما أنه مصدق لها فى العقيدة . فالكتب كلها تقول إنه لا إله إلا الله وحده بلا شريك ، والقرآن يقول نفس الشيء . والكتب كلها تقول : ﴿ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ والقرآن يدعو نفس الدعوة . ولكن القرآن مهيمن على ما بين يديه من الكتب فى شأن التشريع فهو يحمل الكلمة الأخيرة المنزلة من عند الله ، وشرعه هو الشرع الواجب الطاعة ، ومن

ثم فهو ينسخ كل ما أتى قبله مخالفاً له .

وعلى هذا المعنى تفهم أيضاً هذه الآية : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ (سورة المائدة : ٦٨) . فهم مطالبون بإقامة التوراة والإنجيل فى أمر عبادة الله الواحد بلا شريك (رداً على قول اليهود : عُزير ابن الله ، وقول النصارى : المسيح ابن الله) وفى أمر الاعتراف برسالة محمد ﷺ لأنهم يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل باسمه وصفته ومكان بعثه ومكان هجرته . ثم هم مطالبون بإقامة ما أنزل إليهم من ربهم ـ أى القرآن ـ عقيدةً وشريعة . وإلا فهم ليسوا على شىء كما تصفهم الآية ، أى ليسوا على دين صحيح يقبله الله منهم .

٢ ـ دعوتها إلى الإيمان بما جاء به الأنبياء من قبل :

﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (سورة البقرة : ١٣٦) .

والرسالة المحمدية هى الرسالة الوحيدة التى يؤمن أتباعها بالرسل جميعاً وبما أنزل إليهم ! فقد كفر اليهود بعيسى عليه السلام ومحمد ﷺ ، وكفر النصارى بمحمد ﷺ وآمنوا بعيسى ولكن لا على أنه رسول بل على أنه إله وابن الله ! أما المسلمون فهم وحدهم الذين يؤمنون بالرسل جميعاً من لدن آدم ونوح إلى محمد ﷺ . ويصف القرآن المتقين الذين آمنوا برسول الله ﷺ وأصبحوا مسلمين بأنهم : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ (سورة البقرة : ٣ ـ ٤) .

وتلك مزية اختص الله بها هذه الرسالة وأتباعها . فقد قدر الله لهذه الأمة أن تسود فى الأرض : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ (سورة النور : ٥٥) . وعلم الله سبحانه وتعالى أن هذه الأمة

ستواجه شعوب البشرية كلها ودياناتها جميعاً، وأنه سيدخل في ذمتها يهود ونصارى.
ويريد الله أن تكون هذه الأمة قائدة ورائدة: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (سورة البقرة: ١٤٣). وأن تكون قوَّامة بالقسط، لا في داخل نفسها فقط، ولكن بين البشرية كلها: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ ﴾ (سورة النساء: ١٣٥).

لذلك فقد أعدها الله سبحانه وتعالى لحمل الحق ونشره بين الناس. ومن بين هذا الإعداد أن تؤمن بما أنزل على الأنبياء السابقين لأنه حق منزل من عند الله، ولكيلا يكون في صدرها حرج ولا حقد على أمة من الأمم بسبب نبيّ تلك الأمة أو كتابها! فقد حقد اليهود على النصارى بسبب عيسى عليه السلام وبسبب تنزيل الإنجيل الناسخ (في بعض أحكامه) لكتابهم، كما حقدوا على المسلمين - ومعهم النصارى - بسبب محمد ﷺ والقرآن الناسخ لما سبق من الرسالات جميعاً. أما المسلمون فلا يحقدون على أحد وليس في صدورهم حرج من شيء، فهم يؤمنون بالرسل جميعاً والرسالات جميعاً بغير تفريق.

من أجل ذلك عاش اليهود والنصارى في ظل الحكم الإسلامي مكرمين آمنين لا يقع عليهم اضطهاد ولا ظلم، بينما المسلمون الذين يقعون تحت حكم اليهود أو النصارى يقع عليهم كل أنواع الظلم والاضطهاد: تؤخذ أموالهم وأرضهم ويذلون ويهانون ويبادون بالألوف ومئات الألوف!

ولذلك لا تصلح الأمة اليهودية ولا الأمة النصرانية لقيادة البشرية، لأنّ كلتيهما لا تستطيع التخلص مما في نفسها من الأحقاد. أما الأمة الإسلامية فهي التي تصلح وحدها لقيادة البشرية (وقد قادتها بالفعل مرة من قبل لعدة قرون) لأنها هي الوحيدة التي تحكم في الأرض بغير أحقاد، بذلك الإعداد الرباني الذي يؤهلها للقيادة: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (سورة آل عمران: ١١٠). والذي يشمل فيما يشمل الإيمان بالرسل السابقين كلهم ورسالاتهم بلا تفريق وبغير أحقاد!

٣ ـ عالمية الرسالة :

يقول الرسول ﷺ (كان كُلُّ نَبِيّ قَبْلِي يُبْعَثُ إلى قَوْمِهِ خاصّةً وبُعِثْتُ إلى النّاسِ كَافّةً) رواه الشيخان .

ويقول القرآن الكريم : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (سورة الأنبياء : ١٠٧) . ﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (سورة القلم : ٥٢) . ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (سورة سبأ : ٢٨) . ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (سورة الأعراف : ١٥٨) . ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴾ (سورة المائدة : ١٥) .

فالرسول ﷺ قد أُرسل إلى الناس كافةً بما فيهم أهل الكتاب . ومن ثم فالدعوة التي يحملها هي دعوة للناس كافةً . وقد قدر الله أن يرسل رسلاً متفرقين ومتتابعين في كل أمة على حدة : ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ (سورة فاطر : ٢٤) . ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ (سورة النحل : ٣٦) . ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ﴾ (سورة المؤمنون : ٤٤) .

ثم قدر أن تكون رسالته الأخيرة إلى الناس كافة ، وباقية إلى يوم القيامة .

ونستطيع أن نتدبر شيئاً من حكمة الله في ذلك . فقد كانت الأمم من قبل تعيش في عزلة بعضها عن بعض ، كما كانت ـ في طفولتها ـ تعيش بما يشبه مشاعر القومية ، أي تعيش في داخل حدود « القوم » الذين تنتسب إليهم . فكان الله يرسل إليهم يومئذ رسلاً محليين ، كل منهم يدعو في داخل منطقة من الأرض محدودة، ويدعو قومه خاصة فيقول لهم : ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾

ويعلم الله سبحانه وتعالى في سابق علمه أن البشرية ستنضج ذات يوم وتصل إلى مرحلة الرشد ، وأن فوارق المكان والزمان ستضيق وتتذاوب ، فعندئذ يرسل إليها رسولاً واحداً ـ هو خاتم النبيين محمد ﷺ ـ فيبلغ الرسالة إلى آفاق الأرض ، ويحملها أتباعه من بعده إلى كل أطراف المعمورة ، بحيث لا يبقى صقع من أصقاع

الأرض لا تصل إليه !

ومن ناحية أخرى فقد علم الله سبحانه وتعالى من خلقه ـ وهم فى طفولتهم ـ أنهم يحتاجون إلى معجزة حسية حتى يؤمنوا بصدق الرسول الذى أرسل إليهم . ومن طبيعة المعجزة الحسية أن تكون محصورة فى نطاق ضيق ، هو نطاق المشاهدين الذين يستطيعون أن يروها بأنفسهم أو يسمعوا من قريب عن حدوثها . لذلك كان طبيعياً أن يعرض الرسول معجزته على « قومه » خاصة لأنهم هم القريبون منه الذين يتسنى لهم رؤية المعجزة أو السماع عنها .

ثم يعلم الله سبحانه وتعالى ان البشرية ستنضج ذات يوم فلا تصبر على المعجزة الحسية ، المحدودة النطاق بطبيعتها ، وإنما يتيسر لهم أن يؤمنوا بمعجزة من نوع آخر ، غير محدودة النطاق[1] ، فيرسل بها رسوله ﷺ يبلغ بها العالمين .

والله هو الأعلم بخلقه ، وبما يصلح لهم فى كل حين من الزمان : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (سورة الملك : ١٤) .

٤ ـ شمولها لمطالب الحياة البشرية فى جميع الميادين :

كما كانت الرسالات السابقة محدودة فى المكان فقد كانت كذلك محدودة فيما تشمله من نواحى الحياة البشرية .

لقد جاءت كلها شاملة للقضية الكبرى التى لا تستقيم حياة البشر من غيرها فى الدنيا ولا فى الآخرة ، تلك هى قضية الألوهية : لا إله إلا الله ، اعبدوا الله ما لكم من إله غيره . ثم جاءت ـ إلى جانب ذلك ـ بإرشادات وتشريعات تناسب حالة القوم الذين بعث الرسول إليهم وتصلح المفاسد الموجودة لديهم ، كما بعث شعيب يقول : ﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ۝ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ۝ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (سورة الشعراء : ١٨١ ـ ١٨٣) . وبعث لوط يقول : ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ۝ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ (سورة الشعراء : ١٦٥ ـ ١٦٦) .

---

(١) سنتكلم فيما يلى عن المعجزة عامة والمعجزة القرآنية بصفة خاصة .

ثم جاءت التوراة شاملة لكثير من جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، ولكنها محدودة بقوم معينين ، هم بنو إسرائيل ، وزمن معين مقدر فى علم الله . لذلك تعتبر تشريعاً خاصاً بهم ، يلائم أحوالهم الخاصة ، ويراعى تقسيماتهم السبطية (نسبة إلى الأسباط الإثنى عشر وهم أولاد يعقوب عليه السلام) ويكلف كل سبط منهم بمهمة معينة فى حياة تلك الجماعة المحدودة المحصورة .

وجاء عيسى عليه السلام يقول لهم : ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾(سورة آل عمران : ٥٠) . فالإنجيل يعتبر مكملاً للتوراة فى الواقع وتعديلاً جزئياً لبعض أحكامها ، أو تخفيفاً لبعض العقوبات التى فرضت على بنى إسرائيل من جراء ظلمهم .

ثم جاء الوقت الذى يعلم الله أن البشرية قد تهيأت فيه لتلقى رسالة عامة شاملة ، وقدر الله أن تبقى هذه الرسالة فى الأرض إلى يوم القيامة فأصبح من المناسب لهذه الرسالة ـ الشاملة للبشرية كلها ـ أن تكون شاملة كذلك لكل مطالب البشرية فى جميع الميادين .

وهذا هو الحق بالنسبة للرسالة المحمدية .

إنها تشتمل بادئ ذى بدء ـ كالرسالات كلها ـ على القضية الكبرى ، قضية الألوهية (وسنتكلم عن هذه النقطة بشىء من التفصيل فى فقرة تالية) لأنها هى المقوم الأول من مقومات الحياة البشرية ، التى لا يستقيم بدونها أىّ إصلاح فى الأرض ، ومن ثم فهى المطلب الأول من مطالب الإنسان الصالح فى الحياة الدنيا .

ثم تشتمل بعد ذلك على تشريعات وتوجيهات فى كافة شئون الحياة : السياسية[1] والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والروحية والخلقية .. الخ .

ولا يتسع المجال فى هذا الكتاب لدراسة مفصلة لتلك الجوانب كلها ، فهى مجال المتخصصين فى دراسة الشريعة الإسلامية والفقه الإسلامى ، ولكنا نشير فقط

---

(١) مما يلاحظ فى التوراة أنها لم تتعرض لأى تنظيمات سياسية على نطاق « أمة » إنما ورد فيها تنظيم للعلاقات الداخلية بين أسباط بنى إسرائيل فحسب .

فيما يتعلق بدراستنا الحاضرة إلى ثلاثة أمور :

١ ـ أنه لا يوجد جانب من جوانب الحياة البشرية على الإطلاق لم يتعرض له الإسلام بتشريع أو تنظيم . فهو بصفة عامة ينظم علاقة الإنسان بربه (وهى العبادة بشتى أنواعها وفى مقدمتها الاعتقاد بوحدانية الله والالتزام بطاعته) وعلاقة الإنسان بنفسه (وهى التزكية التى تشير إليها الآية : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾ (سورة الشمس : ٩) . وجميع الأخلاقيات والأعمال اللازمة لهذه التزكية) وعلاقة الإنسان بغيره (وهذه تشمل العلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية بصفة عامة ، أى : علاقة الفرد بالفرد ، وعلاقة الفرد بالأسرة بما فى ذلك علاقات الجنسين ، وعلاقة الفرد بالمجتمع ، وعلاقة الحاكم بالمحكوم ، ثم علاقة المسلمين عامة بغير المسلمين فى السلم وفى الحرب . وهى التى يقابلها فى الاصطلاحات الشائعة بين الناس اليوم : القانون المدنى وقانون الأحوال الشخصية والقانون الجنائى ، والقانون التجارى وقانون الإجراءات والقانون الدستورى ، والقانون الدولى) .

بل إن الاسلام قد عنى كذلك بنواحٍ من الحياة لم يرد ذكرها فى أية رسالة سابقة (ولا أى تنظيم بشرى سابق) كالعناية بالطهارة والنظافة : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ (سورة المدثر : ٤) . والزينة ؛ قال تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ (سورة الأعراف : ٣١) . ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾ (سورة النحل : ٨) . ولفت النظر إلى الجمال فى خلق الله[1] : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ (سورة النحل : ٦) . ﴿ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ﴾ (سورة الانعام: ٩٩) ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾ النمل : ٦٠) .

٢ ـ أن الله سبحانه وتعالى ـ وقد فرض هذه الشريعة إلى أن تقوم الساعة ـ يعلم أنه ستجدّ للناس فى حياتهم أمور ، وأن الحياة لن تبقى على صورتها يوم نزل هذا الدين . لذلك نجد فى الشريعة نوعين من التشريعات :

---

(١) فى غير ما يأثم الإنسان بالنظر إليه أو تعاطيه .

(أ) تشريعات مفصلة تفصيلاً كاملاً ودقيقاً للأمور التى لا ينبغى أن تتغير فى حياة البشر لأنها غير متعلقة بما يجدّ فى حياة الناس من أمور كشعائر التعبد، والحدود، وعلاقات الجنسين، وعلاقات الأسرة، وعلاقة المسلمين بغير المسلمين.. الخ.

(ب) تشريعات مجملة تتناول الأصول العامة دون التفصيلات للأمور التى يعلم الله سبحانه وتعالى أنها تتغير فى حياة البشر بتغير ظروفهم وأحوالهم ومدى قيامهم بعمارة الأرض واستغلال الطاقات التى سخرها الله للإنسان: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ (سورة الجاثية: ١٣). وذلك كالنواحي السياسية والاقتصادية التى تتغير صورتها على الدوام من جيل إلى جيل. ولكنها، رغم تغيرها، ينبغى أن تلتزم بأصول ثابتة. فالصورة السياسية مثلاً تتغير، ولكن الحكم بما أنزل الله لا بأى شريعة أخرى مسألة لا يجوز أن تتغير.. ومبدأ الشورى لا يجوز أن يتغير. والحكم بين الناس بالعدل لا يجوز أن يتغير. ومبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا يجوز أن يتغير. وكذلك فإن الصورة الاقتصادية تتغير بتغير ما يستغل من طاقات السماوات والأرض، ولكنها فى تغيرها ونموها المستمر لا ينبغى أن تخرج عن الأصول العامة التى تحكمها، كتحريم الربا والاحتكار والغصب والسلب والنهب والغش والسرقة فى أى صورة من صورها، كما ينبغى ألا يكنز المال وألا يستخدم فى المعصية، وأن تؤدى زكاته، وأن ينفق منه فى سبيل الله.

وبذلك تتحقق لهذه الشريعة صفة المرونة فى الأمور المتغيرة مع ثبات الأصول العامة التى تحكمها.

٣ ـ أن هناك أموراً متروكة لم يرد بشأنها نص وهى التى قال عنها الرسول ﷺ (إنَّ اللهَ تَرَكَهَا رَحْمَةً بِالنَّاسِ غَيْرَ نسْيَان)[1] وهذه تتسع لما يجد فى حياة الناس من مخترعات ومكتشفات وتنظيمات، والأصل فيها الإباحة ما لم تتعارض مع نص من نصوص الشريعة.

بهذه الصورة المعجزة يتسع الإسلام لكل نمو البشرية منذ نزول هذه الشريعة إلى أن تقوم الساعة. لا يقف فى سبيل نموها السليم، وإنما يقف فقط فى طريق انحرافاتها

(١) رواه الحاكم من حديث طويل له.

فيقوّمها ، لأن غايته الأصيلة هي تقويم حياة البشر على الأرض في جميع العصور ، حتى يكون الإنسان دائماً كما خلقه الله وكما أراده أن يكون : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ (سورة التين : ٤ ـ ٦) .

فلا يقف الإسلام في سبيل التقدم العلمي والتقدم الحضاري . بل إن الإسلام هو الذي بعث المسلمين لينشئوا حركة علمية ضخمة ، كان من أهم آثارها المنهج التجريبي في البحث العلمي ، الذي تعلمته أوربا على يد المسلمين في الأندلس والشمال الإفريقي وصقلية وجنوب إيطاليا الإسلامي ، والذي قامت عليه نهضتها العلمية الحاضرة . والإسلام هو الذي أنشأ حضارة تاريخية ضخمة أنارت العالم كله وقت أن كانت أوربا تعيش في ظلام القرون الوسطى ، المظلمة بالنسبة إليهم ، المزدهرة بالنسبة للإسلام. وكان أروع ما في هذه الحضارة أنها تعمر الأرض بأقصى ما في طاقة البشر من قدرة على التعمير في جميع الميادين وجميع الاتجاهات ، ولكن دون أن تقطع ما بين الإنسان وخالقه كما تصنع الحضارة الجاهلية المعاصرة في الغرب ، ودون أن تقطع ما بين الحياة الدنيا والآخرة كما تصنع تلك الجاهلية ، فتدفع الناس دفعاً إلى التكالب المزري على شهوات الأرض ، وعلى تحطيم كل القيم الفاضلة في سبيل ذلك المتاع الرخيص ، وما ينشأ عن ذلك حتماً من فساد الفطر وفساد الأخلاق والصراع الرهيب الذي يهدد الأرض بالدمار !

كلا ! إن الإسلام ينشىء حضارة من نوع آخر ، أثمن وأعلى ، حضارة تعمر الأرض نعم ، ولكنها تعمرها بمقتضى المنهج الرباني ، فلا تحرم الناس من المتاع الطيب ، ولكنها تحافظ على كيانهم الإنساني وهم يتناولون ذلك المتاع ، ولا تهبط بهم إلى مستوى الحيوان : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾(الأعراف : ٣٢) . ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴾ (سورة محمد : ١٢) .

٥ ـ منهجها الفكري :

تميزت هذه الدعوة كذلك بأن لها منهجاً فكرياً في البحث عن الحق .

إن هذه الدعوة تخاطب الإنسان كله ، وجدانه وفكره على السواء . وكما يستثير القرآن وجدان الإنسان لينفعل بمشاهدة آيات الله فى الخلق فيحس بعظمة الخالق وقدرته المعجزة ، فيخضع وجدانه لعظمة الله ويستسلم له ، فكذلك يوقظ القرآن عقل الإنسان ليتدبر ، وليناقش الأمور مناقشة فكرية منطقية هادئة تصل به إلى اليقين .

فبينما يخاطبه ، لإثارة وجدانه ، بمثل هذه الآيات : ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۝٦٠ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦١ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٦٣ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (سورة النمل : ٥٩ ـ ٦٤) .

فإنه يخاطبه لإيقاظ عقله بمثل هذه الآيات :

﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (سورة النحل : ١٧) .

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (سورة الأنبياء : ٢٢) .

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (سورة المؤمنون : ٩١) .

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ (سورة النساء : ٨٢) .

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ (سورة الطور : ٣٥) .

﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ ۖ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ (سورة الملك : ٣ ـ ٤) .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ

ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (سورة البقرة : ١٧٠) .

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾

(سورة الإسراء : ٣٦) .

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ (سورة سبأ : ٤٦) .

إن هذه الآيات وأمثالها تكوّن في مجموعها منهجاً فكرياً للوصول إلى الحق يمكن تلخيصه في هذه النقاط :

١ ـ التخلي عن التقليد الأعمى والموروثات الفاسدة التي لا تقوم على دليل ولا برهان .

٢ ـ عدم اقتفاء أيّ فكرة قبل تمحيصها وعرضها على البرهان والمنطق ، لأن الإنسان مسئول عن تفكيره واعتقاده ، لأن الله أعطاه سمعاً وبصراً وعقلاً ليفكر لنفسه ويتدبر ، ويوم القيامة سيسأل سمعه وبصره وعقله : كيف اقتفى شيئاً دون أن يعرف حقيقته ؟

٣ ـ التدبر في كل الأمور بالمنطق العقلي ، وعدم اتخاذ المواقف بدافع الهوى لأن الهوى يعمي الإنسان عن الحق .

فإذا اتبع الإنسان هذا المنهج ، فألقى عنه موروثاته التي لا تقوم على دليل ، وكف عن التقليد الأعمى ، ورفض أن يتبع شيئاً يعرض عليه إلا ببرهان ، ثم أنشأ يفكر بالمنطق بعيداً عن الهوى فإنه لا بد واصل بإذن الله إلى الحق .

وقد تميزت هذه الدعوة بمنهجها الفكري هذا عن سائر الرسالات قبلها ، حيث كانت المعجزات الحسية هي الدليل على صدق الرسول المرسل من عند الله . وكانت وسيلة الناس إلى التصديق هي مشاهدة المعجزة أو السماع بها .

أما هذه الدعوة التي أراد الله لها أن تبقى حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، فقد جعلها ـ سبحانه وتعالى ـ موجهة إلى العقل ، لتخاطب أجيال البشرية كلها منذ نزولها إلى آخر الزمان ، لا عن طريق شيء حسي يراه جيل بعينه ، ولكن عن طريق أداة دائمة في تركيب الإنسان وهي العقل . والعقل مصاحب للإنسان في كل أجياله وفي

أى مكان يكون فيه . ومن ثم تخاطبه هذه الرسالة وتدعوه إلى التصديق بها عن طريق هذه الأداة الكامنة فى تركيبه ، فلا يجد مفراً ـ لو أخلص فى استخدام عقله ـ من التسليم بما فيها من حق .

والقرآن لا يطالب الناس بالتسليم الأعمى بشىء على الإطلاق ، بل يطالبهم بالتدبر والتفكر فى كل القضايا ـ حتى قضية الألوهية الواجبة التسليم ـ لكى يسلِّموا عن اقتناع ، فيبقى التسليم راسخاً لا يهتز ولا يتقلقل .

قضية الألوهية . قضية الرسالة . قضية الوحى . قضية البعث ـ وهى كلها من أركان الإيمان الأساسية ـ لم يطلب القرآن التسليم بها بلا دليل ! إنما قال للناس فكروا وتدبروا ثم اسألوا أنفسكم بعد التفكر والتدبر ، أإله مع الله ؟! أيعجز الله عن إرسال الرسل وتنزيل الوحى وإحياء الموتى ومحاسبتهم ؟! فإذا كان الجواب الذى يصل إليه العقل هو النفى ، فقد وجب الإيمان إذن ووجب التصديق .

وليس معنى ذلك أن العقل البشرى يستطيع أن يحيط علماً بكل شىء ، فإن له حدوداً لا يستطيع أن يتجاوزها مهما حاول . ولكن المعنى أن الإسلام قد دعا العقل البشرى أن يعمل فيما هو متاح له ، ليصل إلى اليقين فى تلك الحقائق الرئيسية الكبرى التى تكون أساس الإيمان ، وأن الإسلام قد تفرد بهذا بين الرسالات .

على أن المنهج الفكرى الذى تتميز به الدعوة الإسلامية لا ينحصر فيما يتعلق بأمور العقيدة ، بل يمتد فيشمل ميادين أخرى .

فإذا كان القرآن قد طالب العقل البشرى بأن يتدبر آيات الله فى الكون ليتعرف على الخالق الذى له ملك السماوات والأرض وهو على كل شىء قدير ، فقد طالبه كذلك بالتفكر فى تلك الآيات ليتعرف على السنن الربانية التى تحكم سير هذا الكون ، ليتمكن من استخدام ما سخر الله له فى هذا الكون من طاقات : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ (سورة الجاثية : ١٣) . ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ

تفصيلا ﴾ (سورة الإسراء : ١٢) . ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ .... ﴾ (سورة البقرة : ١٨٩) . (لَقَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ داء دواءً فإذا مَرِضْتُمْ فَتَدَاوَوْا ..) (رواه مسلم) واللفظ : لكلِّ داءٍ دواءٌ فإذا أُصيبَ دواءُ الداء بَرأ بإذنِ اللهِ عزَّ وَجَلَّ .

وإن أمثال هذه التوجيهات فى القرآن والسنة التى لا تكتفى بطلب مشاهدة الأشياء بل تلفت النظر إلى عللها . هى التى بعثت الأمة الإسلامية تطلب العلم من مصادره التى كانت متاحة يومئذ . ثم تنشئ من بعدُ حركتها العلمية الذاتية التى تتلمذت عليها أوربا فأنشأت نهضتها .. وكان أبرز ما فيها منهج المشاهدة والملاحظة والتجريب ، الذى يقوم على أساسه كل التقدم العلمى الحاضر .

كذلك يطلب القرآن من العقل البشرى أن يتأمل فى حكمة التشريع (بقدر ما يُتاح له) حتى إذا طبقه كان تطبيقه واعياً متفهماً ، فتختتم كثير من آيات الأحكام بمثل هذا التعقيب : ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (سورة النور ٦١) .

وهذا التوجيه هو الذى أنشأ الفقه الإسلامى ، وهو أثمن ما أنتجه العقل المسلم من روائع ، وما يزال هذا النتاج حياً وقابلاً للحياة والنمو ما دامت الحياة ..

كما أن الإسلام وجَّه العقل البشرى إلى تدبر السنن الربانية التى تسيِّر حياة البشر على الأرض : ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ (سورة الفتح : ٢٣) . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (سورة الرعد : ١١) . ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (سورة الروم : ٤١) . ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ (سورة الإسراء : ١٦) . ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ (سورة الأعراف : ٩٦) . ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ (سورة الأنعام : ٤٤) . ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾ (سورة الأنفال : ٢٥) . (لَتأْمُرُنَّ بالمَعْرُوفِ ولَتنْهَوُنَّ عن المُنكَرِ أو ليوشِكَنَّ اللهُ يَبْعثُ عليكُمْ عقاباً منه ثم تَدْعونَه فلا يُستجاب لكم) (رواه الترمذى) .

والغرض من هذه التوجيهات هى أن يعرف الإنسان أن حياته لا تمضى بلا ضوابط . وأنه ليس معفىً من نتائج عمله . بل إن كل عمل يعمله الإنسان فرداً أو جماعة له عواقبه سواء فى الحياة الدنيا أو فى الآخرة ، حسب سنن ربانية لا تتبدل ولا تتحول ولا تحابى فرداً ولا جماعة . فمن أجل ذلك عليه أن يتدبر الطريق الذى ينبغى أن يسلكه ، ويتدبر عواقب عمله قبل أن يقدم عليه .

كذلك يطلب الإسلام من العقل البشرى أن يتدبر عبرة التاريخ: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (سورة آل عمران : ١٣٧) . ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ (سورة غافر : ٢١) . ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (سورة الحج : ٤٦) .

فالمطلوب إذن هو دراسة التاريخ لا على أنه مجموعة من الحوادث حدثت بغير رابط ولا دلالة ، ولكن على أنه يجرى حسب السنن الربانية الثابتة ، وأن هناك رباطاً يربط الأحداث هو قدر الله المقدور ، الذى يسير حسب تلك السنن الثابتة . فإذا تدبر العقل ذلك ووعى عبرة التاريخ ، فإنه قمين ألا يقع فيما وقع فيه السابقون من أخطاء وخطايا ، بل يقوّم خطاه بحيث لا تصطدم مع السنن الربانية ، فيسير آمناً فى الحياة الدنيا ، فى طريق يؤدى به إلى الأمن فى الدار الآخرة .

وعلى ذلك يمكن تلخيص المجالات التى يطلب الإسلام من العقل البشرى أن يتفكر فيها بهذه المجالات الخمسة :

١) التدبر فى آيات الله فى الكون للتعرف على الخالق والإيمان به والتسليم له .

٢) التدبر فى آيات الله فى الكون للتعرف على السنن التى تسيّر الكون لاستخلاص طاقاته وتسخيرها لعمارة الأرض .

٣) التدبر فى حكمة التشريع لإحسان تطبيقه على الأحوال المتجددة فى حياة الناس .

٤) التدبر فى السنن الربانية التى تسير حياة الناس فى الأرض بمقتضاها لتقويم حياة المجتمع البشرى .

٥) التدبر فى عبر التاريخ والاستفادة منها فى تجنب الأخطاء ، والاستقامة على الطريق الصحيح .

وذلك أوسع مجال يمكن للفكر البشرى أن يعمل فيه العمل المثمر المفيد .

٦ ـ غنى مصادرها التشريعية :

مما تميزت به هذه الدعوة كذلك غنى مصادرها التشريعية . فالرسالات السابقة كلها تجد تشريعاتها محصورة فى الكتاب المنزل فحسب . أما هذه الدعوة التى لم تنزل لقوم محدودين ولا لفترة من الزمان محدودة ، وإنما نزلت للبشرية كافة ولأمد من الزمن ممتد إلى قيام الساعة ، فقد خصها الله بسعة فى المصادر التشريعية تلائم سعة رقعتها وامتداد زمانها . فنجد مع الكتاب سنة الرسول ﷺ تفصل ما أجمله الكتاب وتبين أحكامه تارة ، وتستقل بتقرير الحكم تارة أخرى . فقد فرض الله الصلاة ـ مثلاً ـ ولكن أحكام الصلاة بيَّنتها السنة . وكذلك الأمر فى الزكاة ، فالسنة هى التى فصلت أحكامها وأنواعها ومقاديرها . واستقلت السنة ببعض الأحكام كحد الردة وحد الخمر وحكم الرجم للزانى المحصن ، وأحكام البيع والشراء .. الخ .

وإلى جانب الكتاب والسنة فباب الاجتهاد مفتوح فيما لم يرد فيه نص ، أو فى طريقة تطبيق النص على حالة لم تقع فى عهد الرسول ﷺ ، وهذا هو الذى كفل لهذه الشريعة أن تتسع للنمو الدائم فى حياة البشر ولا تضيق عنه ، وجعل الحياة فى ظلها تتحرك وتنمو أبداً ولا تتجمد ، وهو ما لم يكن متاحاً للدعوات السابقة لأن الله قدر لها فترة محدودة من الزمن تنسخ بعدها . أما هذه الرسالة فلا ناسخ لها ، لذلك وهبها الله القدرة على الامتداد ومواكبة الحياة المتجددة على الأرض .

ويعدد العلماء مصادر التشريع فى الإسلام بهذه الأصول الأربعة :

١ ـ الكتاب .

٢ ـ والسنة .

٣ ـ والإجماع .

٤ ـ والقياس .

٧ ـ موافقتها للفطرة البشرية :

حين نقول إن هذه الرسالة تميزت بموافقتها للفطرة البشرية فليس معنى هذا أن الرسالات السابقة مخالفة للفطرة أو مجافية لها . فكل الرسالات من عند الله أصلاً (وإن كان قد أصابها التحريف فيما بعد) ولكن الرسالات السابقة كما أسلفنا قد روعى فيها أنها جاءت لقوم محدودين ولفترة من الزمن محدودة ، لذلك كانت كلها تعالج أموراً محلية وجزئية . أما هذه الرسالة العالمية الممتدة فى الزمن فقد جاءت لتعالج أمر الانسان كله ، بصرف النظر عن جنسه أو لونه أو لغته أو زمانه أو مكانه .. ومن ثم فهى تتعامل مع الفطرة الإنسانية ذاتها فى جميع أحوالها لا مع البيئة ولا الزمان ولا المكان ، فروعى فيها من لدن منزلها جلت قدرته أن تكون موافقة للفطرة تماماً ومتلبسة بها.

إن الله هو خالق الفطرة البشرية العليم بما يصلحها وما يصلح لها . وهو منزل هذا الدين . نزله على علم . وفصله على قدّ الإنسان : ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ (سورة الروم : ٣٠) .

وكلما مر الزمن ، وتقلبت البشرية فى النظم الجاهلية بعيداً عن منهج الله فأصابتها الاضطرابات والانحرافات ، تبين لنا ما كان خافياً علينا من حكمة هذا الدين فى موافقته للفطرة البشرية وتقويمه لانحرافاتها .

إن فى الفطرة البشرية كما خلقها الله مجموعة من الدوافع أودعها الله فى الفطرة لتعين الإنسان على القيام بما كلف به من أمر الخلافة فى الأرض ، كدافع الطعام والشراب والملبس والمسكن والجنس والتملك وإثبات الذات .. الخ . ولكن هذه الدوافع مع ضرورتها لعمارة الأرض خطيرة على الكيان البشرى إذا تركت بلا ضابط يضبط منطلقها . فعندئذ تتحول إلى شهوات جامحة لا يملك الإنسان نفسه من سلطانها .

والنظام الأمثل هو الذى يسمح لهذه الدوافع بالقدر المعقول من الحركة فلا يعطلها ولا يكبتها من أصولها ، وفى الوقت ذاته يضبط منطلقها فلا تتحول إلى شهوات ، فيأخذ الإنسان نصيبه من المتاع الطيب ، وينضبط سلوكه فى ذات الوقت فى الحدود التى لا تعود عليه بالعطب والدمار .

وذلك بالضبط هو ما يصنعه الإسلام .

يتيح للدوافع كلها أن تعمل ، لا يستقذر شيئاً منها ولا يستنكره ، وفى الوقت ذاته يعمل على تهذيب هذه الدوافع والارتفاع بها إلى أقصى ما يملك الإنسان من رفعة فى حدود كيانه البشرى ، فلا تصبح شهوات جامحة وإنما رغبات منضبطة بالحدود التى رسمها الله ـ بعلمه وحكمته ـ وقال عنها : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾ (سورة البقرة : ١٨٧) . و﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾ (سورة البقرة : ٢٢٩) .

لذلك لا يُقرّ الإسلام الرهبانية ، لأنها تعطل دوافع الفطرة وتكبتها .

(ذَهَبَ ثلاثةُ رَهطٍ إلى بيتٍ مِنْ بيوتِ رسولِ اللهِ ﷺ فسألُوا عن عبادتِهِ ﷺ ، فلما أُخبِروا كأنهم تَقالُّوها[1] ، فقال أحدهم : أمّا أنَا فأصُومُ الدَّهْرَ ولا أُفطِر ، وقالَ الآخرُ وأما أنا فأقومُ اللَّيْلَ ولا أنامُ ، وقالَ الثالثُ أما أنا فلا أتزوَّجُ النساء . فلما سَمِعَ بهِمْ رسولُ اللهِ ﷺ قالَ لَهُمْ : أما واللهِ إنى لأَخْشَاكُمْ للهِ وأَتْقَاكُمْ لَهُ ، ولكنّى أصومُ وأُفطِرُ ،وأُصَلِّى وأرقد ، وأتزوَّجُ النساء . فمن رغب عن سُنَّتى فليس مِنّى) (رواه الشيخان والنسائى) .

كذلك لا يُقرّ الإسلام الانفلات مع الشهوات الجامحة كما تصنع الجاهلية المعاصرة بصفة خاصة ، فتفسد الفطرة وتفسد الأخلاق ، وتنحط بالإنسان إلى درك الحيوان .

هذا التوازن ـ الذى رأينا نموذجاً منه فى الحديث السابق فى أمر الطعام والشراب وراحة الجسد وعلاقة الجنس ، والذى يجعل الإنسان « فى أحسن تقويم » ـ يقيمه الإسلام فى جميع مجالات الحياة بلا استثناء .. خذ نموذجاً لذلك الملكية الفردية .

---

(١) أى رأوها قليلة فى نظرهم .

إن الغرب الرأسمالي يسمح للفرد بالتملك فى غير حدود وبلا ضوابط ، فينشأ عن ذلك الظلم السياسى والاجتماعى والاقتصادى الموجود فى الغرب .

والشيوعية تكبت نزعة التملك فلا تسمح بالملكية الفردية إطلاقاً .. مما أدى إلى قتل الحوافز الفردية وتناقص الإنتاج حتى أصبحت روسيا ـ التى تملك أخصب مزارع القمح فى العالم ، فى أوكرانيا وروسيا البيضاء ـ تحتاج إلى استيراد القمح من أمريكا بسبب عجز الإنتاج !

والإسلام لا يصنع هذه ولا تلك .

إنه يتمشى مع الفطرة فيبيح الملكية الفردية من حيث المبدأ ، ليتيح للحوافز الفردية أن تعمل ، ولا يكبتها كما تصنع الشيوعية ، ولكنه يضع الضوابط التى تمنع الظلم وتمنع الفساد . فيحرم الربا والاحتكار والغصب والسلب والنهب والسرقة والغش كطرق للتملك أو لتنمية المال . ثم يفرض الزكاة التى تحد من التضخم وتشرك الفقراء فى جهد الأغنياء . ويوجب الإنفاق فى سبيل الله ، ويحرم الكنز ، ويحرم الترف والمخيلة بالمال . وهذه كلها ضوابط تمنع ما يحدث فى الغرب الرأسمالى من فساد خلقى وظلم اجتماعى وسياسى واقتصادى .

وهكذا لو تتبعت جميع مجالات الحياة تجد التوافق الكامل بين هذا الدين وبين الفطرة البشرية ، كما تجد التوجيهات التى تمنع الانحراف أو تعالجه عند حدوثه ، فتظل الفِطَرُ أقربَ ما تكون إلى السلامة والحياة أقرب ما تكون إلى الاستقرار .

٨ ـ سماحتها ويسرها :

﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ (سورة الحج : ٧٨) .

﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (سورة البقرة : ١٨٥) .

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ (سورة النساء : ٢٨) .

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ

حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (سورة المائدة : ٦) .

(إنَّ هَذَا الدِّيْنَ يُسْرٌ ولَنْ يُشَادَّ الدينَ أحدٌ إلاَّ غَلَبَهُ) (رواه البخارى والنسائى) .

إن الله لم ينزل هذا الدين أصلاً ليعنت به الناس ! فماذا يفعل الله بإعنات الناس والتشديد عليهم ؟ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (سورة البقرة : ١٤٣) . بل إن الله ليس فى حاجة إلى عقاب الناس وتعذيبهم فى الآخرة كذلك : ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ (سورة النساء : ١٤٧) .

إنما نزل عليهم هذا الدين من أجلهم هم .. من أجل مصلحتهم .. من أجل أن يكونوا « فى أحسن تقويم » كما خلقهم . من أجل أن يكونوا مؤهلين للتكريم الذى كرمهم به الله : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ ﴾ (سورة الإسراء : ٧٠) .

ثم إنه من رحمته يجعل لهم هذا الدين من أجل مصلحتهم ثم يثيبهم - إذا اتبعوه - بجنته ورضوانه مكافأة لهم على العمل الصالح الذى عملوه « وكان الله شاكراً عليما » ..

والإسلام - فى معالجته للنفس البشرية ليرتفع بها إلى المقام اللائق بالإنسان - لا يجذب الإنسان جذباً إلى أعلى فيمزق أوصاله ! ولا يفرض عليه المثل الأعلى فرضاً فيعجز عنه ! إنما يأخذه خطوة خطوة يصعد به نحو القمة حتى تستقيم خطواته ويألف الصعود ، ثم يحبه ، ثم يحرص عليه !

إنما يفرض الإسلام فقط الحد الأدنى الذى لا تستقيم الحياة بدونه ، ثم يترك البقية للتطوع النبيل دون إكراه ، مع التحبيب المستمر فى الصعود : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ⑭ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ⑮ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ⑯ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾

(سورة آل عمران : ١٤ - ١٧)

أرأيت كيف يعالج الإسلام النفس البشرية ؟ إن هذه الشهوات محببة إلى الناس كما تقرر الآية ، فهل حرمها الله فى ذاتها ؟ كلا ! إنما رسم لها فقط حدوداً تكون حلالاً فى داخلها ، حراماً فى خارجها . وتلك الحدود هى التى لا تصلح الحياة إلا بها فهى إذن مفروضة . ولكن الإسلام يحبب للإنسان أن يتخفف من هذه الشهوات حتى لا تصبح شغله الشاغل ، وحتى لا تشغله عن الجهاد فى سبيل الله ـ وهو ضرورة ـ أو تصده عن الإيمان بالله فتضيع آخرته:فيقول له بادئ ذى بدء:﴿أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ خير من الاستغراق مع هذه الشهوات ؟ الجنة بما فيها من نعيم خالد ورضوان . ولمن هذا النعيم ؟ هنا يرسم صورة جميلة شفيفة رائعة جذابة لعباد الله الذين يستحقون ذلك النعيم : إنهم الصابرون والصادقون والقانتون والمنفقون والمستغفرون بالأسحار .. صفات كلها نبيلة وحبيبة إلى النفس . والقرآن يشجع عليها بهذا العرض الرائق الجميل . أرأيت إن شغل الإنسان نفسه بتحصيل هذه الصفات الجميلة ، أيعود يستغرق فى الشهوات ؟! كلا ! إنه ـ من ذات نفسه ـ سينصرف عنها ، دون إحساس بالقسر ولا بالإعنات . وما يريد الإسلام منه فى الوقت ذاته أن ينصرف عنها انصراف الرهبانية المعنت ، إنما انصراف التخفف والترفع والرضى بالقدر الطيب المعقول ..

ويفرض الإسلام صلوات محددة فى اليوم والليلة ، ولكنه يحبب فى النوافل : (ما يَزالُ عَبْدِى يَتَقَرَّبُ إلىَّ بالنَّوافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ، فإذا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الذى يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الذى يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ التى يَبْطشُ بها ...) حديث قدسىّ رواه البخارى .

وكذلك يفرض صيام شهر رمضان ، ولكنه يحبب فى صيام النفل .

ويفرض الزكاة بمقادير معينة فى المال ، ولكنه يحبب فى الإنفاق فى سبيل الله .

وهكذا يأخذ بيد الإنسان فى رفق يحببه فى الصعود حتى يحبه ويستقيم عليه ، فينطبق عليه هذا الوصف : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ (سورة فصلت : ٣٠) .

أما التكاليف المفروضة ذاتها فقد روعى فيها أن تكون فى حدود الطاقة البشرية :

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (سورة البقرة : ٢٨٦) . فإن عجز الإنسان عنها ـ عجزاً حقيقياً لا ادعاءً ولا فراراً من التكليف (والله أعلم به) ـ فإن الله يخفف عنه بمقدار عجزه ، ويوجهه أن يقول : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ﴾ (سورة البقرة : ٢٨٦) .

ثم إن زلّ فإن الله لا يطرده من رحمته إلا إذا أصرّ ..

﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (سورة البقرة : ٣٧) .

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ (سورة آل عمران : ١٣٥ ـ ١٣٦) .

فأىّ سماحةٍ أكبرُ من ذلك حتى مع المذنبين ؟!

٩ ـ نماذج لأهم ما جاءت به من القيم العليا :

(١) إحياء عقيدة التوحيد

كل الرسالات جاءت أساساً من أجل إحياء عقيدة التوحيد التى يكون الناس قد انحرفوا عنها إلى الشرك : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ (سورة النحل : ٣٦) . ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ (سورة الأنبياء : ٢٥) .

ومع ذلك فإن من يتدبر القرآن يلاحظ على الفور مدى العناية التى أولاها القرآن لهذه القضية الخطيرة ، بطريقة غير مسبوقة فى الرسالات السابقة .

إن الله قد قدر بقاء هذه الرسالة وامتدادها إلى آخر الزمان ، وأنزلها كذلك لكل العالمين . لذلك نجد فى القرآن مناقشة لكل الشبهات التى يمكن أن تخطر على البال بالنسبة لعقيدة التوحيد ، ومطاردة شديدة ودائبة لهذه الشبهات حتى تنجلى من النفوس ، وتخلص العقيدة صافية من كل غبش على الإطلاق .

حقيقة إن القرآن كان يردّ على شبهات كانت قائمة وقت نزوله ، سواء بين العرب الوثنيين أو بين أهل الكتاب من اليهود والنصارى . ولكن العناية العظيمة التي بذلت لقضية التوحيد ليست على قدر الرد على تلك الشبهات فحسب ، بل المقصود منها ترسيخ عقيدة التوحيد في النفوس بحيث لا تقتلع بعد ذلك أبداً .

وأقوى دليل على أن هذه العناية لم يكن القصد بها مجرد الرد على الشبهات القائمة في نفوس العرب المشركين وأهل الكتاب فحسب ، أن الحديث في التوحيد ، والدعوة إلى ترسيخ الإيمان به ، وتوسيع مساحته في النفس حتى يشمل كل أقطارها ، ظل يتنزل على المؤمنين في المدينة ، حتى بعد أن آمنوا ، وحتى بعد أن قام مجتمع مؤمن يقاتل في سبيل نصرة هذا الدين ، ودولة تحرسه من عدوان المعتدين :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ﴾ (سورة النساء : ١٣٦) .

فالدعوة هنا ـ كما هو واضح ـ ليست للكفار ولكن للمؤمنين .. ودعوتهم إلى الإيمان ـ وهم مؤمنون بالفعل ـ معناها دعوتهم إلى الحرص على الإيمان وإلى مزيد من الإيمان !

نعم ، لقد جلّى القرآن قضية التوحيد وقضية الشرك بأجلى بيان .. وتتبعها في النفس البشرية بكل دروبها ومنحنياتها ، لكي لا يعشش الشرك في أي ناحية منها ولا يخالط أي عمل أو فكر أو شعور يصدر عن المؤمن أو يخطر في دخيلة نفسه .

لقد بين القرآن ـ بادئ ذي بدء ـ قضية على أقصى درجات الأهمية ، وهي أن الشرك ليس محصوراً في تقديم شعائر التعبد لغير الله ، ولكنه يشمل كذلك الحكم بغير ما أنزل الله :

﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ (سورة الأعراف : ٣) . ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ﴾ (سورة النحل : ٣٥) .

فعدم اتباع ما أنزل الله ـ في آية « الأعراف » ـ صنو لاتباع الأولياء من دون الله ، أي أنه شرك . وآية « النحل » تفصل أعمال الشرك ـ على لسان المشركين ـ فإذا

هى عبادة غير الله والتحريم (والتحليل) بغير إذن من الله ، أى عدم اتباع ما أنزل الله .

وفى سورة النساء (٦٥) يقول : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾

وفى سورة المائدة يتكرر النص على هذه الصورة : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (آية : ٤٤) . ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (آية : ٤٥) . ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (آية : ٤٧) .

وفى سورة النور يقرر أن المحك الحقيقى لدعوى الإيمان هو التحاكم إلى شريعة الله ، وإلا فهى دعوى كاذبة : ﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ... إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (الآيات ٤٧ إلى ٥١) .

ويظل القرآن يكرر على مسامع الناس ـ فى استفاضة ملحوظة ـ أن الله وحده هو الخالق لكل ما فى هذا الكون ، ومن ثم فهو وحده الذى ينبغى عبادته ، وهو وحده الذى ينبغى أن يطاع وأن يكون له الحكم فى كل أمر من الأمور .

﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ (سورة الأعراف : ٥٤) .

﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(سورة يوسف : ٤٠) .

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ ﴾ (سورة الشورى : ٢١) .

وفى معرض هذه القضية يجىء العرض المستفيض لآيات الله فى الكون ، الذى يزخر به القرآن الكريم بصورة ملحوظة ، حتى يتعمق فى النفس البشرية الإيمان بأن الله هو الخالق وحده ، ومن ثم فهو المعبود وحده بغير شريك .

ثم يتخذ القرآن لترسيخ هذه العقيدة وسائل متعددة منها :

١ ـ التذكير الدائم بنعم الله وأنها من عند الله وحده لا من عند سواه ، حتى يظل

الناس موصولى القلب بالله عن طريق نعمه وفضله .

٢ ـ التذكير الدائم بأن كل ما يصيب الإنسان فهو بقدر من الله ، وأن أحداً لا يملك تغيير قدر الله بأى صورة من الصور .

٣ ـ التعريف بالله بصفاته وأسمائه الحسنى . وقد وردت الأسماء الحسنى والصفات كلها فى معرض التعريف بالله بصورة تعمّق الإحساس بوحدانية الله وترسخ الإيمان بها فى النفوس فهى وسيلة تربوية بعيدة الأثر فى تعميق عقيدة التوحيد فى النفس .

وبهذه الوسائل وغيرها تعمقت عقيدة التوحيد فى نفوس المؤمنين بصورة غير مسبوقة فى تاريخ البشرية ، وتقرر التوحيد فى الأرض عقيدة مسلّمة لا يتطرق إليها الشك ، وإن شابها بين الحين والحين انحرافات تقع من المسلمين ، إلا أن جلاء عقيدة التوحيد فى الإسلام هو من القوة والرسوخ بحيث لا يلبث المنحرفون أن يرجعوا عن انحرافهم ويعودوا إلى الأصل الصحيح .

ولم يتقرر هذا الأمر فى الأرض بهذه الصورة إلا بعد الإسلام .

فكل ديانات التوحيد من قبل حرفت وشوهت على يد أتباعها حتى ضاع منها عنصر التوحيد وضاعت أصوله المنزلة من عند الله . وبقى الإسلام وحده قائماً بهذه القضية عبر القرون ، ثابت الأركان ، ينحرف عنه من ينحرف ، ويزيغ عنه من يزيغ ، ولكن أصوله ثابتة لا ينالها التحريف ، ترجع إليها الأجيال جيلاً بعد جيل ، فتفىء إلى التوحيد الصحيح : ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ﴾ (سورة آل عمران : ١٩).

(٢) إبراز الكرامة الإنسانية

لا يوجد نظام فى الأرض أبرز كرامة الإنسان ـ بالحق ـ بمثل ما أبرزها الإسلام .

و « الديمقراطية » الغربية ذات دعوى عريضة فى أنها هى التى قررت ـ لأول مرة ـ حقوق الإنسان . وهى دعوى زائفة من ناحيتين :

الناحية التاريخية أولاً : فالإسلام قد سبق الديمقراطية الغربية فى تقرير حقوق الإنسان بعشرة قرون على أقل تقدير .. وكانت أوربا يومها غارقة فى ظلام العصور

الوسطى ترزح تحت وطأة الإقطاع ، حيث يعيش الناس هملاً لا حقوق لهم ولا كرامة ، يتحكم السيد الإقطاعى ـ وهو فرد واحد ـ فى مئات وألوف من العبيد ، يقتلهم إذا شاء ويجيعهم إذا شاء ، ويشغلهم سخرة فى أرضه بلا أجر .. فجاء الإسلام فقرر حرمة الدم والمال والعرض .. وإنسانية الإنسان !

والناحية الواقعية ثانياً :

فالإسلام حين قرر حقوق الإنسان ، قررها فى عالم الواقع ، وللتنفيذ العملى . أما أوربــا فقد قررت حقوق الإنسان فعلاً فى كتب كثيرة ، ودساتير ومواثيق دولية . ولكن أين هى فى عالم الواقع ؟ أين هى فى الاستعمار الذى يسلب كرامة الأمم والشعوب ؟ أين هى فى التفرقة العنصرية حيث يحرم السود ـ فقط لأنهم سود ـ من كل حقوق الإنسان ؟ وأين هى فى فلسطين ، حيث يطرد شعب من أرضه ويشرد منها ليحتلها شذاذ الآفاق ؟ وأين هى فى المذابح التى تقام للمسلمين فى كل أرض إسلامية تملّكها غير المسلمين؟ حبر على ورق ، وكلام لا رصيد له من الواقع ..

حقيقة إن هناك مظاهر « ديمقراطية » فى البلاد الغربية لأهلها وللقاطنين فيها . فالفرد حر فيما يعمل ، حر فيما يتكلم ، حرّ فيما يعتقد ، لا يجوز للسلطة أن تتدخل فى شئونه إلا حين يعتدى هو على القانون . وثَمَّ ضمانات للفرد . فلا يعتقل بغير جريمة ، ولا يحقق معه إلا بالطريق القانونى ، ولا يحاكم إلا بمقتضى القانون ، ولا يحكم عليه إلا بما يقرره القانون ... ولكن هذه الحرية تمتد من ناحية إلى الحد المفسد ، فتبيح الإلحاد والكفر وتبيح الفساد الخلقى بجميع صوره وألوانه ، وتقصّر من ناحية أخرى تقصيراً شديداً حين تتعرض مصالح الرأسمالية للخطر من قريب أو من بعيد .. فلا هى هنا ولا هناك تضع الإنسان فى موضع الإنسانية الكريم !

أما فى الشيوعية التى تزعم أنها هى « الديمقراطية » الحقيقية ، فلا كرامة للإنسان على الإطلاق ! لا يستطيع أن يفتح فمه بكلمة نقد واحدة للدولة أو للحزب الشيوعى الحاكم ، ولا ضمانات له على الإطلاق ، وهذا كله ـ فى زعمهم ـ مقابل تحرره من

سيطرة الإقطاع ورأس المال . وحقيقة إن سيطرة الإقطاع ورأس المال مذلة لكرامة الإنسان . ولكن سيطرة الدولة من جانب آخر لا تقل إذلالاً واستبداداً بل هى أشد !

أما الإسلام فهو يقرر كرامة الإنسان بادئ ذى بدء بتحريره من كل عبودية زائفة لغير الله ، الحقيق وحده بالعبادة والتقديس ، فلا عبودية للحاكم ولا للسلطة ولا للمال ولا للجاه ولا للون ولا للجنس ، ولا لأى اعتبار من الاعتبارات التى تستعبد الناس فى الأرض .

وفى سبيل ذلك ينزع الإسلام حق التشريع من البشر ويرده إلى صاحبه وهو الله سبحانه وتعالى ، لأن البشر إن شرعوا لأنفسهم فلا بد أن ينقسم الناس إلى سادة (هم الذين يشرعون) وعبيد (هم الذين يقع عليهم التشريع) . أما حين يكون الله هو المشرع ، فالكل فى موقف العبودية والطاعة له سواء ، الحاكم والمحكوم ، والغنىّ والفقير .

ثم يضع الإسلام الضمانات التى لا تكفل حرمة الدم والمال فقط ، بل حرمة العرض كذلك . لا على مستوى الجريمة الخلقية ، بل على مستوى الكرامة الإنسانية فلا يُعتدَى على الإنسان بالغمز ولا باللمز ولا بالسخرية ولا بالغيبة ولا بالاتهام الباطل !

ثم ينفذ ذلك فى عالم الواقع . فحين يضرب ابن عمرو بن العاص الشاب القبطى لأنه تفوق عليه فى السباق ، ويقول له أنا ابن الأكرمين ، ويشتكى والد الشاب إلى عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، يعطيه عمر العصا ، ويقول له اضرب ابن الأكرمين ! ثم يلتفت إلى عمرو بن العاص ويقول له : يا عمرو ! متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً !

ثم إن الكرامة الإنسانية تبرز فى هذا الدين فى نواحٍ شتى إلى جانب ما ذكرناه من الحقوق والضمانات .

١ ـ فليس هناك خطيئة أبدية تستذل أعناق البشر حتى يأتى ابن الله (نستغفر الله) ليفتدى بنفسه خطايا البشر بالموت فوق الصليب ! إنما يتلقّى آدم التوبة والمغفرة من ربه مباشرة : ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (سورة البقرة : ٣٧) .

٢ ـ وليس هناك كهنوت يتوسطون بين الإنسان وبين الله . إنما يتصل العبد بربه

مباشرة فى شعائر التعبد وفى الدعاء والاستغفار .

٣ ـ ومن خلال عمل الإنسان تكون النتائج التى يجرى بها قدر الله فى الأرض ! ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (سورة الأنفال : ٥٣) . ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (سورة الروم : ٤١) . فالإنسان هو الذى يقرر مصيره بما يقدم لنفسه من أعمال : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ (سورة الزلزلة : ٧ ـ ٨) .

(يا عِبادِى إنَّما هى أَعْمالُكم أحْصِيها لَكُمْ ثُمَّ أُوفِّيكم إيَّاها فمَنْ وَجدَ خيْراً فلْيحْمَدِ اللهَ ومَنْ وَجدَ شرّاً فلا يَلُومَنَّ إلاَّ نفْسَهُ) . (حديث قدسى رواه مسلم) .

٤ ـ الإنسان هو المقدم فى التصور الإسلامى لا المادة ولا « الطبيعة » كما يقول التفسير المادى للتاريخ . فالكون كله مسخَّر للإنسان من عند الله : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ (سورة الجاثية : ١٣) . ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾

(سورة الإسراء : ٧٠) .

٥ ـ يسعى الإسلام لإبراز الكرامة الإنسانية بتنمية الجوانب الإنسانية فى الإنسان لا الجوانب الحيوانية فيه . فيربيه على القيم العليا والترفع عن الدنايا والاستعلاء على الشهوات الدنسة والمتاع الحسى الغليظ ، وبذلك يكون كريماً حقاً لأنه يكون طليقاً من قيود الحيوان ، ويكون « فى أحسن تقويم » جديراً بأن تتنزل عليه الملائكة : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ (سورة فصلت :٣٠).

(٣) تقرير مبدأ الشورى والعدل

﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ (سورة الشورى : ٣٨) .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِٱلْعَدْلِ ﴾ (سورة النساء : ٥٨) .

يعتبر مبدأ الشورى من أهم ما جاءت به الدعوة الإسلامية من المبادئ من الناحية

السياسية ، ومن ناحية إبراز كرامة الإنسان كذلك . وقد اعتبرت أوروبا حق التمثيل البرلماني وحق البرلمان فى مناقشة سياسة الدولة من أهم الانتصارات التى حققتها « الديمقراطية » فى عالم السياسة ، وقررت بها كرامة « المواطن » العادى . وقد بذلت أوربا للوصول إلى هذا الحق جهوداً مضنية ودماء كثيرة ، بينما الإسلام ـ دين الله ـ يعطى هذه الحقوق للبشر ابتداءً قبل أن يطلبوها بأنفسهم . ودون أن يبذلوا من أجلها الجهد ولا الدماء !

كان رسول الله ﷺ يستشير المسلمين فيما لم ينزل فيه وحى ، ويأخذ بالأصوب من الآراء كما استشار يوم بدر فى شأن المكان الذى ينزل فيه المسلمون . أو يأخذ برأى من الآراء ويتنزل الوحى بالتصحيح كما أخذ برأى أبى بكر فى مسألة الأسرى يوم بدر فنزل الوحى مؤيداً رأى عمر الذى لم يأخذ به الرسول ﷺ . أو يأخذ برأى يتضح فيما بعد أن غيره كان الأصوب (وإن لم يتعرض الوحى لذلك) كما أخذ بمشورة الشبان يوم أحد فخرج من المدينة بجيشه ولم يمكث فيها فى انتظار العدو كما أشار الشيوخ ، وترتب على ذلك تعرض جيش المسلمين لما تعرض له فى وقعة أُحد .

ولهذه الشواهد الثلاثة دلالة على أصالة مبدأ الشورى فى النظام الإسلامى وعمق موضعه من البناء السياسى للأمة الإسلامية .

١ ـ فقد كان الله سبحانه وتعالى قادراً على أن يوحى إلى رسوله ﷺ بالمكان الذى ينزل فيه يوم بدر ، والمعركة كلها من أولها إلى آخرها تمت بتدبير الله دون أن يكون للمسلمين إقدام عليها ولا استعداد لها : ﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾(سورة الأنفال : ٥ ـ ٨) . ولكن الله سبحانه وتعالى ترك المسلمين يتشاورون فى هذا الأمر تقريراً لمبدأ الشورى فى مثل هذه الشئون .

٢ ـ أما فى قضية الأسرى فقد أخذ الرسول ﷺ برأى خطّأه الوحى ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (سورة الأنفال :٦٧ ـ ٦٨) . والله يعلم سبحانه وتعالى فى سابق علمه أن هذا سيحدث ، ولكنه لم يمنع رسوله ﷺ من الأخذ بالرأى الخاطئ بوحى يوحيه إليه قبل تنفيذ المشورة ، ولم يأمر كذلك بمنع مبدأ المشورة بعد ذلك الحادث ، لكى يتقرر فى حياة المسلمين أنّ المشورة عنصر أساسى فى البناء السياسى للأمة ، ولو جاءت أحياناً برأى خاطئ . فالبشر عرضة دائماً للخطأ ، ولا تقتصر الشورى على الصواب وحده بحيث تسحب من الأمة إذا أخطأت فى المشورة !

٣ ـ والدلالة فى وقعة أحد أوضح . فإن الأمر لم يقتصر على أن الشبان الذين ألحوا على الرسول ﷺ فى الخروج من المدينة قد خالفوا الرأى الأرجح ، الذى ارتآه الشيوخ من ذوى الخبرة ، بل وصل الأمر إلى مخالفة فريق من الجيش للأوامر الصريحة التى أصدرها القائد ﷺ لهم بعدم مغادرة الجبل بحال من الأحوال ولو رأوا المسلمين تتخطفهم الطير ! وترتب على ذلك ما ترتب من هزيمة المسلمين وإصابة الرسول ﷺ بما أحزنه وشماتة الكفار فيهم .. الخ .

وعلى الرغم من ذلك كله فقد نزل الأمر الربانى : ﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾ (سورة آل عمران : ١٥٩) . وفى ذلك دلالة واضحة على أن الشورى لازمة وواجبة ، ولو أدت إلى نتائج غير مرغوبة فى بعض الأحيان ... والإسلام يقرر هذا الحق واضحاً وعميقاً ويبرزه ويؤكد عليه قبل أن تعرفه أوروبا بألف عام !

أما العدل فالإسلام قمة القمم فيه .. القمة التى لم يصل إليها أحد قط خارج الإسلام .

يقول الله للمسلمين وهو يربيهم على العدل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (سورة المائدة : ٨) . ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ (سورة النساء : ١٣٥) .

ويتحول هذا التوجيه فى حياة المسلمين إلى واقع .. وقد رأينا كيف تصرف عمر رضى الله عنه فى حق القبطى الذى ضربه ابن عمرو بن العاص . ويطأ عبدٌ عَلَى رداء جبلة بن الأيهم فى أثناء الطواف فيلطم العبدَ على وجهه فيشتكى إلى عمر فيأمر عمر بالقصاص من جبلة ابن الأيهم ، فيفر ويرتد ولا يتزحزح عمر عن إقامة العدل . وتضيع درع من أمير المؤمنين علىّ كرم الله وجهه فيجدها عند يهودى فيشكوه إلى قاضيه ، فيطلب القاضى البينة من علىّ فلا يملك علىّ البينة فيقضى بالدرع لليهودى .

وهكذا يقرر الإسلام العدل فى عالم الواقع لا شعارات ترفع فى الهواء . فأين رأى الناس فى التاريخ كله مثل هذا العدل يطبق فى واقع الأرض ، على كثرة ما كتب وما قيل عن العدل فى التاريخ ؟!

فإذا أردت أن تعرف العدل فى حياة الأمم « الراقية » فاسأل عنه فى التمييز العنصرى فى أمريكا وجنوب أفريقيا . واسأل عنه فى الاستعمار حيثما كان على الأرض . . واسأل عنه فى أى قضية يكون المسلمون طرفاً مستضعفاً فيها ، ثم انظر كيف تكون الأحكام ! ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴾ (سورة التوبة : ١٠) .

١٠ ـ المظهر الحقيقي للإيمان بالرسالة المحمدية

ليس الإيمان بالتمنى ولا بالتحلى . ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل .

لا يكفى أن ندعى الإيمان لنكون مؤمنين.! إنما لا بد لذلك من واقع سلوكى يصدّق هذه الدعوى ويحولها إلى حقيقة .

ولقد مر على المسلمين ـ فى انحرافهم التدريجى ـ وقت أصبح الدين فيه معنى قلبياً وجدانياً لا صلة له بالواقع ! ويقول الواحد منهم لا تحكم علىّ بظاهر أعمالى فأنا مؤمن فى داخل قلبى وهذا يكفى ، والله هو المطلع على خفايا القلوب !

من أين جاءوا بهذا التصور المنحرف لحقيقة الدين ؟ إنه أشبه شىء بالمفهوم الكنسىّ الغربى : « الدين علاقة بين العبد والرب ومحله القلب » أى لا صلة له بواقع الحياة ، وإنما هو مشاعر وجدانية داخل القلب فحسب !

إنما جاء الإسلام ليحول الدين واقعاً يعاش ! لا كما كان العرب فى الجاهلية يخالفون أمر الله فى الصغيرة والكبيرة ثم يقولون :نحن على دين إبراهيم !﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ أى الاستسلام لله وإطاعة أوامره .

ولا يكون المسلمون مسلمين حقاً وهم يحكّمون فى حياتهم شريعة غير شريعة الله ، ويتخذون تصوراتهم وأفكارهم وأنظمتهم وتقاليدهم وأنماط سلوكهم من مصدر غير المصدر الربانى ، ويتخذون القدوة لهم رجالاً ونساء من الشرق أو الغرب لا يؤمنون بالله ولا برسوله .

إنما الايمان الحقيقى لا بد له من مظهر سلوكى واقعى ..

إن الايمان يتلخص فى شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، أى المبلّغ من عند الله بالحق .

وإن التصديق بما جاء به الرسول ﷺ من عند الله ، له مقتضى لا بد أن يرى فى واقع الحياة ، ومقتضاه هو السلوك الفردى والجماعى وفق شريعة الله .

فأما الفرد فينبغي أن يلتزم بما أمره به ربه وما نهاه عنه . وأما الجماعة فينبغي أن تحكِّم شريعة الله وتقوم على هذا الأمر بجهدها كله وترفض أن تحكم بغير ما أنزل الله .

وحين يلتزم الفرد والجماعة بهذا الأمر يصبح الفرد مسلماً والجماعة مسلمة فى عالم الواقع لا بالاسم ولا بالشعارات . ويصبح السلوك الواقعى فى المجتمع سلوكاً إسلامياً حقيقياً ، لا كالذى نشاهده اليوم فى أرجاء العالم الإسلامى : شيئاً أبعد ما يكون عن الإسلام .

وإن قوماً ليدّعون حب الرسول ﷺ ويبكون من شدة الوجد حين يذكرون اسمه الكريم .. ثم لا يهمهم بعد ذلك أن يتحاكموا إلى شريعة غير شريعة الله ، ولا أن تجرى حياتهم كلها بعيداً عن منهج الله !

وما هكذا الإسلام ..

﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ (سورة النساء : ١٢٣ ـ ١٢٤) .

الباب الثالث

المعجزة

المعجزة شيء خارق لمألوف البشر يأتي به النبي المرسل من عند الله ويتحدى الناس أن يأتوا بمثله فيعجزون عن ذلك ، فيكون هذا دليلاً على أنه مرسل من عند الله حقاً وليس قائماً بدعوى كاذبة من عند نفسه .

وهي على أنواع فقد تكون معجزة كونية حسية كانشقاق القمر ، وانفلاق البحر أمام موسى وقومه ، واليد والعصا .. الخ . وقد تكون علماً مثل إخبار النبي ﷺ عن الأنبياء المتقدمين بما يوافق ما عند أهل الكتاب من غير تعلم له منهم . وقد يكون إخباراً بالغيب كما خبّر الرسول ﷺ عن زوال فارس والروم .

وقد كان كل نبي يأتي بمعجزة من جنس ما اشتهر به قومه ليكون التحدي في الصميم ، ويكون تأثيرها حاسماً في نفوس من تتنزل عليهم . فقد كان المصريون بارعين في السحر ، وكان كهنة المعابد الفرعونية متخصصين فيه ، يستخدمونه ليبهروا به أعين الناس ، ومن ثم يستعبدونهم للفرعون ، وللآلهة المزعومة التي يقوم أولئك الكهنة ـ أو السحرة ـ بطقوس العبادة لها ، وأخذ الأموال والقرابين من الناس باسمها .

لذلك أرسل الله موسى بمعجزة من جنس ما اشتهر به أولئك السحرة ، ليبطل سحرهم ويتبدى الفرق بين صنع الناس وصنع الله .

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ

لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا
أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا ۖ فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾
۞ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾
فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ
مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ (سورة الأعراف : ١٠٤ ـ ١٢٢) .

لقد كان السحرة أدرى الناس بحقيقة السحر وحدوده ، لذلك كانوا هم أول من تبين الحقيقة ، وأن ما يصنعه موسى ليس سحراً ، إنما هو شيء فوق طاقة البشر ، وإن كان من جنس ما يقومون به هم من السحر . لذلك خروا ساجدين ، اعترافاً بالآية التي تثبت أن موسى رسول من عند الله .

كذلك أُرسل عيسى عليه السلام في قوم برعوا في الطب ، وكانوا يأتون فيه بما يبهر أعين الناس . فناسب أن تكون المعجزة التي يرسل بها عيسى عليه السلام خارقة في نفس الميدان الذي برع فيه هؤلاء ليتبينوا هم أولاً ، ويتبين الناس من ورائهم ، أن المعجزة شيء آخر غير ما يصنعون هم . شيء يعجزون هم عنه رغم براعتهم فلا بدَّ أن يكون آتياً من مصدر غير بشري ، أي من عند الله . لذلك كان من معجزاته معهم إبراء الأكمه والأبرص بغير دواء ولا علاج ، وفي الحال واللحظة أمام ناظرهم ، وهو أمر يخالف صنع البشر . ثم زاد على ذلك في نفس الاتجاه معجزة إحياء الموتى . فهم قد يعالجون المرضى بأي وسيلة فيتحقق الشفاء على أيديهم . أما إحياء الموتى فلا يقدر عليه إلا الله ، أو إنسان مرسل من عند الله بالمعجزة .

ولقد أُرسل الرسول ﷺ إلى العرب وهم أهل فصاحة وبيان ، يتباهون بفصاحتهم ، ويتيهون بها على الأمم حتى ليسمّون غيرهم عجماً ! أي أن لسانهم غير مبين فهم أشبه بالعجماوات التي لا تنطق !

لذلك ناسب أن تكون معجزة الرسول ﷺ معجزة بيانية ، من نوع ما برعوا فيه ولكن على مستوى يدركون هم أنفسهم ـ وهم أهل الصنعة ـ أنها فوق مستوى البشر ، ويقرون بأنها لا بد أن تكون من عند الله .

إعجاز القرآن الكريم

حين أرسل الرسول ﷺ إلى مشركي العرب كذبوه بادىء ذى بدء ، وكان هذا هو المتوقع حسب سنة الله التى بيناها من قبل . فإن الملأ فى كل جاهلية لا يمكن بحال من الأحوال أن يسلموا بلا إله إلا الله ، التى معناها ردّ ما فى أيديهم من السلطة المغتصبة التى يستكبرون بها على الناس إلى صاحبها الحقيقى وهو الله سبحانه وتعالى ، والرضى بمقام العبودية لله ـ لأنه لا إله غيره ـ والتخلى عن الربوبية الكاذبة التى يدعونها ، ويحلون ويحرمون بها من دون الله ، فى ظل الآلهة المزيفة التى يعبدونها من دون الله .

أما العبيد فهم كذلك لا يستجيبون بسهولة للا إله إلا الله لأنها تخالف مألوفهم ، ولأنهم يخافون من السادة ، ولأنهم غارقون فى الشهوات !

وحين كذبوا الرسول ﷺ كان لا بد لهم أن يفسروا سر الفصاحة العالية التى ينطق بها ﷺ ويقول إنها وحى من عند الله ، وإلا فتن به الناس وخرجوا على طاعة الملأ ـ وهم قريش ـ وضاع بذلك سلطانهم الذى يستكبرون به على الناس ! لذلك قالوا إنه كاهن ! وقالوا إنه ساحر ! وقالوا إنه مجنون يأتيه رئىّ من الجن فيوحى إليه بما يقول !

ولقد كانوا يعرفون جيداً أنهم كاذبون ! والقصة التالية دليل على ذلك . فإن الوليد ابن المغيرة لما سمع القرآن من الرسول ﷺ قال لقومه بنى مخزوم : « والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن . وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق . وإنه يعلو ولا يُعلى ». فلما سمعه رجال قريش قالوا : صبأ والله الوليد ، ولتصبأنّ قريش كلها . فقال أبو جهل : أنا

أكفيكموه . وقام إليه فكلمه بما أحماه . فقام الوليد فأتاهم ، فقال تزعمون أن محمداً مجنون فهل رأيتموه يهوس ؟ وتقولون إنّه كاهن فهل رأيتموه يتكهن ؟ وتزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه يتعاطى شعراً قط ؟ وتزعمون أنه كذاب ، فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب ؟ يسألهم فى كل مرة فيقولون اللهم لا !

قالوا : فما نقول فيه ؟ ففكر الوليد قليلاً ثم قال : نقول إنه ساحر ! أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ؟!

وفيه يقول القرآن: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ⑪ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ⑫ وَبَنِينَ شُهُودًا ⑬ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ⑭ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ⑮ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ⑯ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ⑰ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ⑱ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ⑲ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ⑳ ثُمَّ نَظَرَ ㉑ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ㉒ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ㉓ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ㉔ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ㉕ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ (سورة المدثر : ١١ ـ ٢٦) .

ومع ذلك فقد نشروا هذه الأكذوبة فى أرجاء الجزيرة العربية كلها لتكون سياجاً يمنع الناس من التأثر بالقرآن .. لذلك تحداهم الله سبحانه وتعالى أن يأتوا بمثل هذا القرآن : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (سورة الإسراء : ٨٨) .وظل هذا التحدى قائماً بينهم سنوات، وهم يعجزون عنه ، ومع ذلك لا يسلمون ! لذلك زاد التحدى ! : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾(سورة هود :١٣).

نعم ! إن إنقاص القدر المطلوب هو زيادة فى التحدى ، لأنهم إن عجزوا عن الأقل فهم حتماً سيعجزون عن الأكثر ! وقد عجزوا بالفعل ولكنهم ظلوا على عنادهم واستكبارهم ، فزادهم تحدياً .. ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (سورة يونس : ٣٨) .

وحين أصروا بعد ذلك قال لهم : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ㉓ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (سورة البقرة : ٢٣ ـ ٢٤) .

وظل التحدى قائماً منذ ذلك الحين .. عجز عنه فصحاء العرب وبلغاؤهم وعجزت عنه البشرية كلها على مدى أربعة عشر قرناً من الزمان ، وإنهم لعاجزون حتى قيام الساعة ! فقد كان أولى الناس بالرد على التحدى أولئك الذين كانت صناعتهم الفصاحة والبلاغة يتيهون بها على الناس !

ولقد كانت معجزات الرسل كلهم من قبل معجزات حسية وكونية ، تتعلق بالسنن الجارية فى الكون وتخرقها . فمعجزة نوح طوفان مدمر يغرق المكذبين وينجو منه المؤمنون . ومعجزة هود ريح صرصر عاتية تهلك المكذبين ، وينجو منها المؤمنون . ومعجزة صالح ـ حين عقر قومه الناقة المرسلة آيةً لهم ـ زلزلة عظيمة قتلتهم فى ديارهم ونجا هو ومن معه من المؤمنين . ومعجزة لوط نار نزلت من السماء فأهلكت القوم الفاسقين ونجا منها لوط والذين آمنوا معه . وكذلك كانت معجزات موسى وعيسى عليهما السلام التى أشرنا إليها آنفاً ، أشياء خارقة للسنن الكونية .

أما معجزة الرسول ﷺ فهى معجزة عقلية معنوية جامعة وليست معجزة حسية ولا كونية ، وإن كان للرسول ﷺ معجزات أخرى حسية وكونية كالإسراء والمعراج وانشقاق القمر .. الخ . ولكن المعجزة الكبرى التى وقع بها التحدى والتى بقيت على الزمن وخوطبت بها البشرية كلها هى القرآن .

ولقد اختص القرآن بالحفظ وعدم التحريف دون الكتب السابقة كلها لأن الله سبحانه وتعالى أراد ذلك وتكفل به ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (سورة الحجر : ٩) .

ولذلك وكَّل به أمةً قوية الحافظة بصورة غير معهودة بين الأمم . وأتاح للرسول ﷺ وللمؤمنين فترة من الاستقرار والتمكين فى الأرض تكفى لتدوين القرآن [١] فضلاً عن حفظه فى الصدور ، بعد مراجعته على الرسول ﷺ ومراجعة الرسول له على جبريل عليه السلام . فتهيأت كل وسائل الحفظ الذى أراده الله ، وحال هذا الحفظ ـ بإرادة الله وتقديره ـ دون أى تحريف يقع فى القرآن على مر العصور .

(١) كان القرآن مدوناً على عهد الرسول ﷺ فى الصحف وعلى جذوع النخل ولكنه جمع على عهد أبى بكر رضى الله عنه .

نواحى الإعجاز فى القرآن

القرآن معجز من كل نواحيه ..

ولئن كان الإعجاز اللغوى قد اشتهر خلال التاريخ بسبب تحدى فصحاء العرب وبلغائهم أن يأتوا ولو بسورة من مثل القرآن وعجزهم عن ذلك ، فإن الإعجاز الموضوعى فى القرآن هو على ذات المستوى من الإعجاز كالإعجاز اللغوى سواء !

ولا نستطيع هنا التفصيل فى الحديث عن إعجاز القرآن لأن ذلك مبحث متخصص . ولكنا نقول كلمة موجزة عن الإعجاز اللغوى وعن بعض ألوان الإعجاز الموضوعى على سبيل المثال لا على سبيل الحصر ، فنتكلم عن الإعجاز التشريعى ، والإعجاز العلمى .

أولاً ـ الإعجاز اللغوى

كان يكفينا فى صدد الإعجاز اللغوى أن نقول إن فصحاء العرب قد عجزوا عن الإتيان بسورة من مثل القرآن . ولكنا نزيد الأمر توضيحاً فنقول إن هذا الإعجاز يبدو فى جملة سمات يتميز بها الأسلوب القرآنى يلحظها القارىء المتدبر لهذا القرآن . وقد أمرنا بالتدبر فى كتاب الله ونحن نتلوه . وإليك بعض هذه السمات :

١ ـ للقرآن نظم متفرد . فلا هو شعر ولا هو نثر كنثر البشر . ولكن فيه من حلاوة الجرس والتنغيم ما يفوق الشعر ، دون أن يتقيد بقيود الشعر الكثيرة التى تتحكم فى المعنى فى كثير من الأحيان . وفيه ما يشبه القوافى ولكنها ليست رتيبة ولا محددة كقوافى الشعر ولا قوافى السجع المألوف ، لذلك لا تمله الأذن ، بل يقبل الإنسان دائماً على قراءة القرآن وسماعه بشغف متجدد .

وفضلاً عن ذلك فإنّ هذا التنغيم يتنوّع بتنوّع الموضوع المعروض والجو النفسى المصاحب له ، فيشتد مثلاً مع جو الوعيد والعذاب ويلطف ويلين مع جو الود والرحمة أو جو الدعاء والخشوع .

خذ مثلاً من جوّ الشدة والوعيد: ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ۝ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ۝ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۝ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ۝ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۝ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴾ (سورة الحاقة : ٣٠ ـ ٣٧) .

ومثلاً من جوّ الدعاء: ﴿ كهيعص ۝ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ۝ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ (سورة مريم : ١ ـ ٦) .

٢ ـ للقرآن خاصية إحياء المشهد المعروض حتى لكأن الإنسان يشاهده لأول مرة إن كان من مألوفات الحس . أو يراه مجسداً إن كان من المشاهد المتخيلة .

فمن نماذج النوع الأول كل ما جاء فى القرآن من المشاهد الكونية كالشمس والقمر والنجوم والليل والنهار والشجر والأنهار .. إلخ فهى مشاهد قد ألفها الحس حتى كاد ينساها .. ولكن القرآن يحييها فكأنما يشاهدها الإنسان لأول مرة فينفعل بها وجدانه ، وتهتز لها مشاعره ، فيلتفت إلى القدرة المعجزة فى خلقها على هذه الصورة ، فيتصل قلبه بالخالق سبحانه ويسلم له ويؤمن بوحدانيته .

خذ مثلاً هذا النموذج : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ۝ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ۝ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ۝ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۚ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ۝ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴾ (سورة الفرقان : ٤٥ ـ ٤٩) .

ومن نماذج النوع الثانى قصص القدماء ومشاهد القيامة ، وهذه وتلك ليست حاضرة أمام الإنسان ، فهو يتتبعها بخياله لا بسمعه وبصره . ولكن القرآن يعرض القصة حية كأنما يشاهدها الإنسان أمامه فى هذه اللحظة ، فينفعل بأحداثها وعبرها ،

ويعرض مشاهد القيامة شاخصة متحركة كأنها حاضرة أمام الإنسان . بل يصل الإحياء فيها إلى درجة أن يعيشها الإنسان كأنها هى الحاضر الموجود ، والدنيا ـ التى هى حاضر فى الحقيقة ـ كأنها ماض سحيق قد انتهى وزال .

خذ مثلاً للقصة : ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (سورة هود : ٤١ ـ ٤٤) .

ومثلاً لمشاهد القيامة : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾

(سورة الطور : ١٧ ـ ٢٨) .

٣ ـ يتميز القرآن بالتنويع فى طريقة العرض ، بحيث لا يتكرر مشهدان فى كل تفاصيلهما أبداً على كثرة ما يعرض فى القرآن من المشاهد المتشابهة . فهى تتشابه ولكنها لا تتماثل أبداً ، لذلك تبدو فى كل مرة كأنها جديدة ! وإن مشاهد القيامة والمشاهد الكونية لهى من أكثر الموضوعات تكراراً فى القرآن ومع ذلك لا يوجد مشهد واحد مكرر بجميع تفصيلاته مرتين .. لا بد من التنويع فى العرض ولو بتغيير لفظة واحدة ! وأحياناً يكون التنويع بتغيير حرف واحد يغير المعنى !

خذ مثالاً لذلك قوله تعالى فى سورة البقرة (آية ٤٩) : ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ وقوله تعالى من سورة إبراهيم (آية ٦) :

﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ .

إن الفرق بين النصين حرف واحد ، هو زيادة الواو فى الآية الثانية (ويذبحون) ولكن هذا الحرف الواحد يغير المعنى . فالآية الأولى تحدد العذاب بأنه هو تذبيح الأبناء واستحياء النساء . أما الآية الثانية فتدل على أن العذاب كان أنواعاً كثيرة يضاف إليها تذبيح الأبناء واستحياء النساء ! وهكذا يؤثر هذا الحرف الواحد فى المعنى ، ويجعل الآيتين غير مكررتين كما يتبادر للذهن أول مرة ![1] .

٤ ـ من الإعجاز كذلك أن كل سورة من سور القرآن لها جوها الخاص وشخصيتها المتميـزة حتى وإن اشتركت فى بعض الموضوعات مع غيرها من السور . وقد تكون السور المدنية مختلفة الموضوعات بطبيعتها ، لاحتواء كل منها على مجموعة من التشريعات والتوجيهات غير الأخرى ، ولاختلاف المناسبة التى نزلت فيها ، وإن كان فيها مع ذلك قدر من الموضوعات المشتركة . ولكن ظاهرة التميز والاختلاف قائمة بوضوح فى السور المكية كذلك ، التى تشتمل كلها على موضوعات متقاربة ، إذ كلها دعوة إلى توحيد الخالق ونبذ الشرك ومناقشة لأوهام المشركين وتنديد بهم وإنذار لهم بالعذاب فى جهنم ، مع تقديم البشرى للمؤمنين بالجنّة . ومع ذلك فكل سورة تعرض هذه الموضوعات المتشابهة بطريقة تخالف الأخرى ، بحيث يظل قارىء القرآن فى جو متجدد على الدوام ولو كان الموضوع هو ذات الموضوع !

تلك هى بعض سمات الإعجاز اللغوى فى القرآن . ويستطيع الدارس أن يلحظها بنفسه فى أثناء تلاوته للقرآن أو استماعه إليه ، كما يستطيع أن يجد غيرها كلما درب نفسه على النظر المتعمق فى آيات الكتاب .

---

(١) بين الآيتين اختلاف آخر فى الصياغة فإن سورة « البقرة » تبدأ بقوله تعالى « وإذ نجيناكم من آل فرعون .. » وآية سورة «إبراهيم» تبدأ بقوله تعالى « وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون .. » ولكنا اكتفينا بإبراز التغيير الذى أحدثه حرف الواو فى المعنى .

ثانياً ـ الإعجاز الموضوعى

لا نستطيع فى الحقيقة أن نفصل بين اللفظ والمعنى . أو بين اللغة والموضوع الذى تعبر عنه . وقولنا إن القرآن معجز لغوياً ، معناه أنه معجز فى التعبير عن الموضوعات التى يشتمل عليها .

ولكنا نضيف إلى ذلك أن الموضوعات التى يشتمل عليها القرآن هى فى ذاتها معجزة ، بمعنى أن البشر لا يستطيعون أن يأتوا بمثلها ولو احتشدوا كلهم لهذا الأمر . فالإعجاز هنا مزدوج : إعجاز الموضوع فى ذاته ، وإعجاز التعبير عن الموضوع .

وقد اخترنا موضوعين من الموضوعات القرآنية لنبرز من خلالهما حقيقة الإعجاز الموضوعى فى القرآن . وإليك نبذة سريعة عن كل منهما :

١ ـ الإعجاز فى التشريع :

فى كلمة موجزة نستطيع أن نقول إن الإعجاز فى التشريع يتضح ـ بغير جهد ـ من مراجعة التشريعات التى صنعها البشر لأنفسهم خلال ما يقرب من ثلاثين قرناً من الزمان ، أى منذ وجدت كتابات تاريخية محفوظة يمكن الرجوع إليها إلى لحظتنا الراهنة .

ولكنا نركز على التشريعات القائمة اليوم باعتبارها أنضج ما أخرجت البشرية من التشريعات فى تاريخها كله ، بالنسبة إلى الزيادة الهائلة الحاصلة فى معلومات البشر ، والتقدم العلمى والمادى الهائل ، والاستفادة من خبرات القرون السابقة جميعاً . فماذا نرى ؟

ينقسم العالم اليوم إلى معسكرين متميزين : المعسكر الرأسمالى فى الغرب والمعسكر الشيوعى فى الشرق ، ولكل منهما تشريع يخالف الآخر . فماذا نجد فى كل من المعسكرين ؟

١ ـ نجد بادىء ذى بدء أن كلا المعسكرين قد ذكر العقيدة فى دستوره ، ولكن يا له من ذكر ! .. فأما الدستور السوفييتى فيقول : « لا إله ! الكون مادة ! ». وأما الدساتير الغربية فتنص على حرية التدين ، أى أن الدين مزاج شخصى لا دخل للدولة به ، فمن شاء أن يكفر فله الحرية الكاملة فى أن يفعل ذلك .

وبعبارة أخرى فإن كلا المعسكرين ـ على اختلاف فى الدرجة والأسلوب ـ قد

رفض أن يقرر عبودية الإنسان الخالصة لله .

وقد يبدو لأول وهلة أن هذه مسألة لا علاقة لها بالتشريع ، لأنها مسألة عقيدية بحتة .. ولكن الواقع أن لها صلة أساسية بالتشريع . لأنه حين لا يكون الله هو المشرع ، لأنه ليس هو المعبود ، فلا بد من جهة ما تكون هى مصدر التشريع . وهذا هو الواقع الذى تنص عليه تلك الدساتير . فالدساتير الغربية تقول ـ نظرياً ـ إن الأمة هى مصدر التشريع ، والحقيقة أن الطبقة الرأسمالية هى التى تشرع ، والدستور السوفييتى يقول ـ نظرياً كذلك ـ إن دكتاتورية الطبقة العاملة هى مصدر التشريع . والحقيقة أن الحزب الشيوعى الحاكم هو الذى يشرع .

٢ ـ انطلاقاً من هذه النقطة فإن تشريعات الغرب الرأسمالى موضوعة لحساب الرأسمالية على حساب الطبقة العاملة ، وتشريعات الشيوعيين موضوعة لحساب السلطة الحاكمة على حساب الشعب . بمعنى أن العدالة منتفية فى كلا التشريعين .

٣ ـ نجد اختلافاً واضحاً ـ عند المعسكرين كليهما ـ فى توزيع الأهميات فى التشريع ، مع تميز كل منهما عن الآخر . ففى المعسكر الغربى نجد الاهتمام الأكبر فى الدساتير هو بالجانب السياسى من حياة الشعب ، وفى المعسكر الشيوعى نجد الاهتمام الأكبر هو بالجانب الاقتصادى . ويهمل كلاهما التشريعات الروحية إهمالاً كاملاً ، كما أن الاهتمام ضعيف جداً بالتشريعات الخلقية والتشريعات المتعلقة بترابط الأسرة وحفظ كيانها وتماسكها .

٤ ـ نجد اختلالاً آخر فى تلك التشريعات يتعلق بقضية الفرد والمجتمع وعلاقة كل منهما بالآخر . فالدساتير الغربية تجعل الفرد كائناً مقدساً بصورة تؤدى إلى تفتيت المجتمع وتفكيكه ، خلقياً واجتماعياً وإنسانياً كذلك ، والدستور الشيوعى يجعل المجتمع هو الكيان المقدس (أى الدولة فى واقع الأمر) بالصورة التى تؤدى إلى سحق الفرد وإفناء شخصيته تماماً من الناحية السياسية والاجتماعية والإنسانية .

٥ ـ لا تنص تلك الدساتير (فى المعسكرين) على تشريعات دولية ثابتة ، لأن هذه أمور متروكة « للسياسة » أى لانتهاز الفرص ، ولا تعتمد على مواثيق واجبة الاتباع .

٦ ـ العنصر الأخلاقى مفقود فى معظم هذه الدساتير ، وضعيف الأثر جداً فى سائرها لأنها تشريعات قائمة على المصلحة وليست قائمة على اعتبار أخلاقى أو إنسانى . والمصلحة هى دائماً مصلحة الطبقة التى تملك السلطة وان غطَّت ذلك بالمعسول من الألفاظ ، كالحرية ، والإخاء ، والمساواة ... الخ .

إذا جمعنا هذه الحقائق ـ وهى ليست كل شىء ـ بالنسبة للتشريعات البشرية فى أنضج صُورة لها فى العصر الحاضر ، يتضح لنا ـ بغير جهد ـ إعجاز التشريع القرآنى الذى هو فى الواقع الوجه المقابل تماماً لتلك التشريعات الجاهلية !

١) ينص القرآن بادئ ذى بدء ، على المصدر الذى يحق له وحده أن يضع التشريعات ، وهو الله سبحانه وتعالى[1] ، وينص على أن هذا جزء أصيل من عقيدة لا إله إلا الله ، التى تجعل المسلمين مسلمين !

٢) من هذه النقطة تأتى عدالة التشريع لأن الله سبحانه وتعالى لا مصلحة له فى ظلم الناس ، ولا مصلحة له فى محاباة طبقة على طبقة أو فرد معين على بقية الأفراد ، ولأن الله هو العليم بالخلق الذين خلقهم ، وبما يصلح لحياتهم ، ولأن الناس جميعاً ـ حكاماً ومحكومين ـ يخضعون لهذا التشريع بدرجة واحدة من العبودية لله والطاعة له .

٣) من إعجاز التشريع القرآنى شموله لجميع نواحى الحياة الإنسانية فى وقت واحد ، والموازنة بينها بدرجة واحدة من الأهمية . فلا يوجد جانب من الحياة سياسياً كان أو اقتصادياً أو اجتماعياً أو خلقياً أو فكرياً أو روحياً أهمله التشريع القرآنى ولم يضع له ما ينظمه ، ولا يوجد كذلك اهتمام بأحد الجوانب يطغى على بقية الجوانب ويضعفها أو يقتلها . وظاهرة الشمول والتوازن هذه من أبرز سمات التشريع الإسلامى كما أنها من أبرز سمات الإسلام فى جميع الميادين .

٤) نجد فى التشريع الإسلامى موازنة كاملة بين الفرد والمجتمع ، فلكل منهما حقوق

---

(١) لا ينفى هذا مبدأ الاجتهاد فيما ليس فيه نص . فإنما يتم الاجتهاد بإذن من الله ، ومن هنا تجىء مشروعيته .

وعلى كل منهما واجبات ، وليس لأحدهما وجود مقدس على حساب الآخر ، فالقداسة فى الإسلام هى لله وحده ، رب الجميع ، والكل عبيد له على التساوى : الفرد والمجتمع على السواء .

٥) يشتمل التشريع الإسلامى على تشريعات دولية ثابتة (هى علاقة المسلمين بغير المسلمين فى السلم والحرب) لأن هذا الأمر فى الإسلام ليس متروكاً لانتهاز الفرص : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ۝ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ﴾ (سورة النحل : ٩١ ـ ٩٢) .

٦) العنصر الأخلاقى عنصر أصيل فى التشريع الإسلامى كله ، سواء كان تشريعاً سياسياً أو اقتصادياً أو اجتماعياً أو تنظيم أسرة أو تعامل أفراد بعضهم مع بعض ، لأن هذا التشريع إنما نزل لينشئ أمة على المستوى الإنسانى اللائق بالإنسان . ولا يكون الإنسان إنساناً بغير الجانب الأخلاقى .

وتلك كلمة عامة مجملة بالنسبة للإعجاز فى التشريع القرآنى ، وإلا ففى كل تشريع على حدة مجال لبيان هذا الإعجاز لمن أراد التوسع والتخصص ، ولكنا نشير إشارة سريعة إلى تشريعين اثنين :

١ ـ التشريع الخاص بالحدود (حد القتل والسرقة والزنا) ويكفينا فيه أن نقول إنه لا يوجد مكان فى الأرض كلها يحس فيه الإنسان بالأمن على دمه وماله وعرضه إلا حيث تطبق الشريعة الربانية وتطبق الحدود . مع ملاحظة أخرى هى أن البلاد التى تطبق الحدود هى أقل البلاد جرائم وأقلها قضايا !

٢ ـ التشريع الخاص بالخمر . فقد عجزت كل بلاد العالم « المتحضر » عن وقف الإدمان على الخمر ، وما يترتب عليه من حوادث القتل والاغتصاب وحوادث الطريق . والمجتمع الإسلامى وحده فى التاريخ كله هو المجتمع الذى قلّ تعاطى الخمر فيه إلى أدنى حد ممكن . وذلك لأن التشريع الإسلامى عامة (بما فيه تشريع الخمر)

قائم على أساس العقيدة ، والتشريعات الجاهلية كلها قائمة على أساس السلطة أو النظام . وشتان بين طاعة أمر متصل بالعقيدة وأمر متصل بالسلطة أو النظام ! ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ (سورة المائدة : ٩٠ ـ ٩١) .

ويمكن أن نضيف هنا ـ بصدد الإعجاز التشريعي ـ الدقة العجيبة فى الصياغة بحيث أن الآية الواحدة المشتملة على ألفاظ معدودة تشتمل أحياناً على مجموعة كاملة من الأحكام كآية الدَّيْن مثلاً فى آخر سورة البقرة (آية ٢٨٢) ، ولو أن هذا داخل فى الإعجاز اللغوى ولكنه لصيق الصلة بالإعجاز التشريعى كذلك . فإن مثل هذه الأحكام فى الصياغة البشرية تستغرق صفحات وصفحات ! ثم يظهر بعد المراجعة أن المشرع قَدْ سها عن بعض الأحكام فيضيف إليها إضافات !

٢ ـ **الإعجاز العلمى** :

من إعجاز القرآن أنه تحدث عن أمور كونية وعلمية لم تكن معروفة عند العرب المخاطبين بهذا القرآن أول مرة ولا عند غيرهم من الأمم فى ذلك الحين ، ولم يكشف عنها العلم إلا من وقت قريب . فوجودها فى القرآن دليل قاطع على أنه من عند الله ، وأنه لا يمكن أن يكون من قول البشر .

ونشير هنا إلى بعض الحقائق العلمية التى أشار القرآن إليها ، على سبيل المثال لا على سبيل الحصر :

(١) أشار القرآن إلى الجبال بأنها رواسٍ تمنع الأرض أن تميد بالناس ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ ﴾ (سورة لقمان : ١٠) . وفى هذا القرن فقط عرف الناس عن طريق العلم أن الجبال تحفظ توازن الأرض وأنه حين يختل هذا التوازن لسبب من الأسباب تحدث الزلازل والبراكين التي تعيد إلى الأرض توازنها .

(٢) أشار القرآن إلى تكوّن اللبن فى بطون الأنعام من الفرث (وهو الغذاء المهضوم)

والدم : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴾ (سورة النحل ٦٦) وتلك حقيقة علمية لم يكشفها العلم إلا فى هذا القرن.

(٣) أشار القرآن إلى ظاهرة « الأزواج » فى بنية هذا الكون : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (سورة يس : ٣٦) .

. وفي السنوات الأخيرة فقط كشف العلم عن بعض ما لم يكن معلوماً وقت نزول القرآن وهو أن التفاعل الكيماوى هو فى الحقيقة عملية تزاوج بين المواد المتفاعلة ، ذلك أن ذرة كل مادة مكونة من نواة موجبة وعدد من الكهارب السالبة ، وان هذه الكهارب تدور فى حلقات حول النواة ولكن الحلقة الأخيرة منها لا تكون كاملة . ويتم التفاعل الكيماوى إذا وجد عنصر يكمل للعنصر الآخر حلقته الأخيرة . فلنفرض مثلاً أن عنصراً ما تدور كهاربه فى حلقات كل منها يتكون من تسع كهارب ، وأن الحلقة الأخيرة فيها كهربان اثنان ، فإذا تلاقى هذا العنصر مع عنصر آخر تتكون حلقته الأخيرة من سبع كهارب فإنه يتم التفاعل بينهما ، بإكمال الحلقة ذات الكهربين إلى تسع كهارب كبقية الحلقات !

(٤) أشار القرآن إلى مراحل نمو الجنين : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ (سورة المؤمنون : ١٢ ـ ١٤) . ولم يكشف التشريح وعلم الأجنة عن هذه المراحل إلا فى العصر الحديث .

(٥) أشار القرآن إلى تكوّن السحاب الركامى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴾ (سورة النور : ٤٣) . ولم يتمكن العلماء من معرفة هذه الحقيقة إلا بعد أن صعدوا بالطائرات فوق السحاب .

(٦) يقول القرآن : ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (سورة الرعد : ٣).

وهناك تتابع ملحوظ فى الآية . ولكن هذا التتابع لم تكن دلالته واضحة عند المخاطبين بهذا القرآن أول مرة . ورويداً رويداً كشف العلم عن جانب منه . فإن وجود الرواسى عامل هام فى تكوين السحب التى ينزل منها المطر فيكوّن الأنهار ، ذلك أن الرياح المحملة بالأبخرة تصطدم بها فتصعد إلى أعلى فتبرد فى طبقات الجو العليا ويتكاثف ما فيها من بخار الماء فينزل فى صورة مطر . ومن المطر تتكون الأنهار . ثم إن هذه الأنهار هى التى تسقى الزرع فتتكون الثمار ذات الأزواج ـ إشارة إلى عملية التلقيح التى تحدث فى الزهرة فتتكون منها الثمرة ـ ولكن غشيان الليل النهار فى هذا التتابع « العلمى » الملحوظ فى الآية لم يكن معلوماً دلالته (وربما لم تلحظه الأجيال السابقة) حتى كشف العلم حديثاً جداً عن صلة الظلام (الذى يجىء مع الليل) بتكوّن الثمرة ! وكان هذا نتيجة حادث عرضى لم يكن فى حسبان أحد ! ذلك أن إحدى الشركات فى اليابان أقامت إعلاناً مضيئاً (بالنيون) فى مزرعة أرزّ يملكها أحد المزارعين ، فلاحظ المزارع أن المحصول قد ضعف فرفع قضية على الشركة المعلنة يطالبها بالتعويض ، ويدعى عليها أن الإعلان الباهر الضوء هو السبب فى قلة المحصول ! وإذ كانت هذه مسألة تحتاج إلى تحقيق علمى ، فقد أحالت المحكمة القضية إلى العلماء ليدلوا فيها بمعلوماتهم . ومن ثم أجريت سلسلة من الأبحاث ثبت فى نهايتها أن الإعلان المضىء كان بالفعل سبباً فى قلة المحصول لأنه أقلق راحة النبات فى فترة الليل ، وهى التى تنمو فيها الزهرة ثم تثمر ! وكشف العلماء عن حقيقة أغربِ من ذلك وهى أن كل نبات يحتاج إلى فترة معينة من الظلام تختلف عن غيره ! وأن توزيع النبات على سطح الأرض مرتبط بجملة عوامل من بينها طول فترة الليل فى كل منطقة من المناطق . فإذا كان النبات يحتاج إلى اثنتى عشرة ساعة من الظلام فى فترة التزهير فإنه لا ينمو فى منطقة ظلامها عشر ساعات فحسب ، أو إنْ نما فإنه يكون ضعيفاً ولا يعطى ثمرة !

وهكذا تبين أن إغشاء الليل النهار المذكور فى الآية هو جزء من التتابع « العلمى » الملحوظ فى الآية من أولها إلى آخرها مما لم يكن معروفاً خلال أكثر من ثلاثة عشر قرناً منذ نزول القرآن !

هذا وفى القرآن إشارات كونية وعلمية كثيرة ، منها ما كشف عنه العلم ومنها ما لم يكشف عنه حتى اليوم ، وهى تثبت بدليل قاطع أن هذا القرآن من عند الله العليم الحكيم ، وأنه ما كان يتأتى لبشر أن ينطق به من عند نفسه .

ولكنا لا نحتاج أن نجرى وراء الكشوف العلمية لاهثين كما يصنع بعض الكتاب المحدثين لإثبات الإعجاز العلمى للقرآن ، فكلما كشف العلم كشفاً جديداً قالوا : لقد تحدث القرآن عنه من قبل !

لا نحتاج أن نصنع ذلك لأن هذه الكشوف ذاتها ما زالت فى مرحلة الإثبات ، وكثير منها لم يصبح بعد حقيقة علمية نهائية . فلا يجوز أن نربط تفسيرنا للإشارات الكونية فى القرآن بهذه النظريات المتقلبة التى قد يثبت خطؤها فى الغد . ولأن دلائل الإعجاز فى القرآن من الكثرة والثبوت والقطع بحيث لا نحتاج إلى الركض وراء هذه النظريات كأننا ما زلنا فى حاجة إلى مزيد من الإثبات ! ويكفينا جداً ما أثبته العلم على أنه حقائق نهائية . بل إشارة واحدة تكفى لإثبات الإعجاز !

وضع العالم الإسلامى المعاصر

لا شك أن الوضع الحالى للعالم الإسلامى هو أسوأ وضع مرّ به فى التاريخ .

والمسلمون اليوم يبلغون أكثر من ثمانمائة مليون من البشر فى مختلف قارات الأرض ، وهو أكبر تعداد لهم فى التاريخ ، ولكنهم غُثاء كغُثاء السيل كما تحدَّث عنهم الرسول ﷺ : (يُوشِكُ أن تَدَاعَى عليكُمُ الأُمَمُ كما تَدَاعَى الأَكَلَةُ إلى قَصْعَتِهَا . قالوا : أمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ يا رسولَ الله ؟ قال : بَلْ أَنْتُمْ كثيرٌ ، ولكنَّكُمْ غُثاء كغُثاء السَّيل) .

لم يحدث فى تاريخ الأمة الإسلامية أن تكالب عليها أعداؤها بمثل الضراوة التى يتكالبون بها عليها فى الوقت الحاضر : يذبحون ويقتلون فى كل مكان غلب عليه أعداؤهم ، ويشردون من أرضهم وأموالهم ، ويسلط عليهم أعداء من داخلهم أو من خارجهم يحكمونهم بغير ما أنزل الله ، لحساب أعدائهم الذين لا يؤمنون بلا إله إلا الله ، وينتقص الوطن الإسلامى مرة بعد مرة بإقامة دول غير إسلامية ، فى أرضه .

وتفتت وحدته ، ثم تقسم الدولة منه إلى دويلات .

والفقر والجهل والمرض يتفشى فى العالم الإسلامى على الرغم من أن تربته تحوى أكبر ثروات العالم على الإطلاق !

فالثروة المعدنية ـ والبترولية خاصة ـ والثروة الزراعية والثروة البشرية الموجودة على الأض الإسلامية وفى داخلها تعتبر أكبر من مثيلاتها عند أى دولة أخرى من دول العالم كله . ومع ذلك فالمسلمون هم أفقر أهل الأرض وأكثرهم تأخراً فى جميع الميادين .

كيف حدث ذلك وما أسبابه ؟

لقد وعد الله هذه الأمة بالاستخلاف والتمكين فى الأرض : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ﴾ (سورة النور : ٥٥) .

فهل تخلى الله عن وعده لهذه الأمة ؟ حاشا لله أن يخلف وعده ولا يتحقق .

إنما الذي تغيَّر هو وضع هذه الأمة من ربها ومن كتابها .

لقد اشترط الله عليهم شرطاً معيناً مقابل الاستخلاف والتمكين والتأمين : « يَعبُدُوننى لا يُشركون بى شَيْئاً » فأين هم اليوم من هذا الشرط ؟ أين هم من الالتزام بأمر ربهم وتحكيم شريعته ؟

لقد أعرضوا عن القرآن الكريم إعراضاً . فلا هو الذى يستمدون منه الشريعة التى تحكمهم ولا هو الذى يستمدون منه منهج تربيتهم ، ولا هو الذى يستمدون منه أخلاقهم وأفكارهم ومشاعرهم وأنماط سلوكهم .

وإنما وجهتهم فى ذلك كله هى أوربا ، شرقها أوغربها سواء .. فكيف يطمعون أن ينصرهم ربهم وهم معرضون عن كتابه ، وأن يمكّن لهم فى الأرض وهم مخالفون لشرطه ؟

لقد ابتلى الله إبراهيم عليه السلام ذلك الابتلاء الضخم الذى أبلى فيه بلاء حسناً فكافأه الله على طاعته فقال له : ﴿ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ . وعندئذ أدركته رغبته الفطرية فى أن يكون هذا العهد لذريته من بعده فيكونون أئمة للناس : ﴿ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ﴾ فماذا قال له الله سبحانه وتعالى فى لحظة التقريب والتكريم والإعزاز؟ ﴿ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (سورة البقرة : ١٢٤) .

ـ فهذه سنة من سنن الله الجارية التى لا تتبدل ولا تحابى أحداً . إن الله لا يعطى الناس التمكين فى الأرض لأنهم من ذرية قوم مؤمنين بل لأنهم هم أنفسهم مؤمنون . فإذا تخلوا عن شرط الإيمان الصحيح فلا ينفعهم يومئذ أن يكونوا ذرية لقوم مؤمنين !

ولقد عرض القرآن علينا سيرة بنى إسرائيل بتفصيل كامل لكى لا نقع فيما وقعوا

فيه ، وحذرنا من ذلك تحذيراً : ﴿ سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (سورة البقرة : ٢١١) .

فماذا كان من بنى إسرائيل ؟ ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (سورة الأعراف : ١٦٩) .

والأمة الإسلامية اليوم تقف فى الموقف الذى حذرها الله منه . يتركون كتابهم من أجل عرض الدنيا ويمنون أنفسهم بالأمانى الفارغة ويقولون سيغفر لنا ! لا جرم إذن أن يكونوا على حالهم الذى هم فيه ؟!

مستقبل الأمة الإسلامية

وإنه لا خلاص للأمة الإسلامية مما هي فيه إلا بالرجوع إلى الله واتباع المنهج القرآني .

لقد جرب العالم الإسلامي أن يقتفي أثر الشرق أو الغرب من أجل الإصلاح .. فكانت النتيجة نكسات تلو نكسات ! والاستضعاف مستمر في الأرض ، والتقتيل والتشريد قائم ، وتفتيت وحدة المسلمين يشتد يوماً بعد يوم .

ذلك أنهم ماضون في مخالفة أمر الله والبعد عن كتابه الكريم .

وقد أخبرهم الله ورسوله أنهم لن ينتصروا ولن ينصلح حالهم إلا بالتزام أوامر الله : ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ (سورة محمد : ٧) . ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴾ (سورة محمد :٣٨) . وقد آن للأمة الإسلامية أن تعرف هذه الحقيقة وتعمل بمقتضاها .

آن لها أن تدرك أولاً أن ما بين يديها من كتاب الله وسنة رسوله خير مما يسعون إلى اكتسابه من مناهج الجاهلية : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (سورة المائدة : ٥٠) .

وأن التشريع السماوي الذي يعرضون عنه هو أكمل تشريع وأفضل تشريع ، بينما شرائع الجاهلية كلها نقص وانحراف واختلال .

وأن منهج التربية الإسلامية هو وحده الكفيل بإنشاء الإنسان الصالح ، وما سواه كله انحراف .

وتدرك أن الله أخرج هذه الأمة لتكون متميزة بذاتها وتكون في مركز القيادة لكل البشرية ، لا ذيلاً لها غير متميز السمات : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (سورة البقرة : ١٤٣) .

وتدرك أخيراً أنه إن كان قد كتب عليها بسبب إهمالها وتفريطها أن تفقد قوتها العلمية والمادية ، وأن تتتلمذ على أوربـا في هذا المجال ، فليس معنى ذلك أن تنسلخ من دينها ، وتأخذ عن أوربـا نظمها وأخلاقها وأفكارها وأنماط سلوكها ، فكل تلك انحرافات جاهلية حذرها الله من الوقوع فيها ، وحذرها من أن أعداءها سيحاولون جذبها إليها : ﴿ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ﴾ (سورة النساء : ٨٩) . ﴿ وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ ﴾ (سورة آل عمران : ٦٩) .

ولقد تتلمذت أوربـا على المسلمين مرة من قبل فأخذت علومهم ومعارفهم لتقيم عليها نهضتها ، وأبت أن تأخذ منهم الإسلام وهو الحق ! أفلا يصنع المسلمون مثلهم فيتتلمذوا على علومهم ومعارفهم ويرفضوا أفكارهم ونظمهم وتقاليدهم وهي باطل ؟!

وحين يستقيم أمر المسلمين على هذه الصورة فيومئذ فقط يتغير واقعهم . إذا أخذوا العلم من أي مكان في الأرض يجدونه فيه ، وبقوا في الوقت ذاته على دينهم وعلى التزامهم بأمر ربهم ، فسيكونون هم الستار لقدر الله ليحدث تغييراً هائلاً في الأرض .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (سورة الرعد : ١١) .

فإذا غيّر المسلمون ما بأنفسهم ، وكفّوا عن إعراضهم عن كتاب الله ، وعادوا إلى الأخذ بمنهجهم القرآني ، فسيعيد الله خيراتهم إليهم ـ بقدر منه وبجهد يبذلونه تنفيذاً لأمر ربهم ـ فيصبحون أغنى أمة في الأرض : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ (سورة الأعراف : ٩٦) .

ويصبحون من ثم أقوى أمة في الأرض ، فإن الغنى هو الذي ينشئ القوة المادية التي ينتصر بها المؤمنون .

ويصبحون أداة سلام في العالم المهدد بالدمار .. لأن العالم ـ بمعسكريه ـ إنما يتنازع على امتلاكنا نحن ! امتلاك خيراتنا واستعبادنا وكسر شوكتنا . فيوم نكون نحن أصحاب ثرواتنا وملاك أنفسنا فسنكون القوة التي تمنع النزاع في الأرض ، أو في القليل يكون نزاعهم خارجاً عنا وليس واقعاً علينا كما هو اليوم .

البابُ الرّابع

الإيمانُ باليَومِ الآخر

الإيمان باليوم الآخر هو إيمان الغيب ، لأن أحداً لم يشهده بنفسه ، وإنما أخبرنا به الله سبحانه وتعالى عن طريق رسله الكرام . فسبيله هو النقل الصحيح مما جاء فى الكتاب والسنة .

ولكن الله الذى أخبرنا عن اليوم الآخر ، وأوجب علينا الإيمان به ، وجعله ركناً من أركان الإيمان ، قد أودع الفطرة البشرية القدرة على الإيمان بالغيب ، وميز الإنسان بهذا الأمر من بين ما ميزه به وكرمه وفضله .

إن الحيوان يعيش فى حدود ما تدركه الحواس فحسب ، وعالمه محصور فى ذلك النطاق . ولكن الله سبحانه وتعالى كرم الإنسان فلم يحصره فى حدود ما تدركه حواسه فحسب ، وإنما فسح آفاقه ووسعها . ومنحه تلك الخاصية ، وهى القدرة على الإيمان بما لا تدركه الحواس ، فأصبحت نفسه أرحب وأعمق من الحيوان وأصبحت آفاقه أوسع وأعلى .

ولكن الجاهليات دائماً تشوه صورة الإنسان وترده أسفل سافلين بعد أن يكون الله قد خلقه فى أحسن تقويم .

والجاهلية المعاصرة تريد أن ترد الإنسان حيواناً وتحصره فى نطاق ما تدركه حواسه فحسب ! تريد أن تنزع عنه تلك الكرامة التى كرمه بها الله ، وتلغى من عالمه عالم الغيب كله ، بحجة الواقعية والروح العلمية !! ومن ثم تنتكس بالإنسان روحياً ونفسياً وخلقياً ، وتفقده إنسانيته فى النهاية .

ولكن الله الذي كرم الإنسان وأراد له الرفعة جعل الإيمان بالغيب أبرز صفات المتقين !

﴿ الٓمٓ ① ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ② ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾ (سورة البقرة : ١ ـ ٣) .

نعم ، إن الإيمان بالغيب أمر لازم من أجل الإيمان بالله واليوم الآخر ، ولذلك أبرزه القرآن فى مقدمة صفات المؤمنين . ولكنه فى ذات الوقت أبرز صفات الإنسان الذى تميزه عن الحيوان ، وتجعل عالمه غير عالم الحيوان .

والله الذى خلق الإنسان وجعله خليفة فى الأرض وأقامه لعمارتها: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا ﴾ (سورة هود: ٦١) يعلم سبحانه وتعالى ما هى الأدوات اللازمة له لكى يقوم بدور الخلافة الراشدة فى الأرض ويعمرها بمقتضى المنهج الصحيح . لذلك وهب له كل المتطلبات اللازمة للمهمة التى كلفه بها لكى يكون التكليف فى حدود الطاقة : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا ﴾ (سورة البقرة : ٢٨٦) .

لقد وهب له طاقة جسدية على نسق غير النسق الحيوانى . فالحيوان ذو قوة بدنية قد تفوق الإنسان عشرات المرات . ولكنه لا يستطيع أن يعمل بيديه ، ولا أن يقف قائماً ، مما يحد من استخدام هذه الطاقة . أما الإنسان ـ وان كان أضعف بدنياً من كثير من أنواع الحيوان ـ فإنه أقدر على استخدام طاقته الجسدية فى مجالات شتى لا يقدر عليها الحيوان . وذلك من متطلبات الخلافة وعمارة الأرض .

ووهب له طاقة عقلية ، تفكر وتدبر ، وتخطط وترسم ، وتستطيع أن تصل إلى كثير من الحقائق عن الكون الذى يعيش فيه الإنسان والسنن التى تجرى فيه . وهذه الطاقة من أكبر الأدوات المعينة على عمارة الأرض واستخلاص الطاقات المسخرة للإنسان فى السماوات والأرض من عند الله : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُ ﴾ (سورة الجاثية : ١٣) .

ووهب له كذلك القدرة على الإيمان بالغيب ، وجعلها فى مقدمة الأدوات التى تعين الإنسان على القيام بدوره فى الأرض ، عن طريقها يؤمن بالله واليوم الآخر ، فتتصل روحه بخالقه ، ويستقيم على أمره ، فتصلح حياته فى الدنيا كما تصلح حياته فى الآخرة .

بعض الأدلة العقلية والنقلية
على وجوب الإيمان باليوم الآخر

يقول الله تعالى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ (سورة المؤمنون : ١١٥) .

ويقول : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ۝ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ (سورة ص: ٢٧-٢٨).

ويقول : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (سورة الجاثية : ٢١) .

ويقول : ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ۝ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ (سورة القلم : ٣٥ - ٣٦) .

والمعنى الذى تشير إليه هذه الآيات وأمثالها : أن الخلق يصبح عبثاً وباطلاً إذا لم يكن هناك يوم آخر يبعث فيه الناس ويحاسبون على أعمالهم التى عملوها فى الحياة الدنيا . أى أن الحياة تصبح عبثاً ، وخلق السماوات والأرض يصبح باطلاً لو كانت الحياة الدنيا هى نهاية المطاف .

ونستطيع أن ندرك بعقولنا هذا المعنى الذى تشير إليه الآيات .

فنحن نشاهد فى حياتنا الدنيا ظالمين ظلوا ظالمين حتى لحظة الموت ، ومظلومين ظلوا مظلومين إلى آخر حياتهم . أفإن كانت الحياة الدنيا هى نهاية المطاف يكون هذا عدلاً وحكمة ؟ وأين هو العدل والظالم لم يُقتصَّ منه والمظلوم لم يقتص له ؟! وأين هى الحكمة فى خلق حياة تجرى أحداثها على غير مقتضى العدل ، ثم تنتهى على هذه الصورة ؟.

ونشاهد فى الأرض كفاراً ومؤمنين . تختلف معتقداتهم وسلوكهم ويختلف موقفهم

من الخالق سبحانه . فريق استكبر وأبى أن يعبد الخالق ويطيعه ، وفريق أسلم وجهه لله وهو محسن . وتسير الحياة بأحداثها ، حتى تنتهى بموت أولئك وهؤلاء فهل يستوى المحسن والمسيء ؟ فأما فى الحياة الدنيا فقد نجد الكفار ممكَّنين فى الأرض ، منتفشين بالباطل ، والمؤمنين مستضعفين مشردين مطاردين ، ولو لفترة من الوقت هى فترة الابتلاء التى قدرها الله لكل دعوة وجعلها من سننه فى الأرض :﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ (سورة العنكبوت:٢ ـ ٣).ويموت ناس وتنتهى حياتهم فى فترة الابتلاء تلك،والكفر مستعلٍ فى الأرض والإيمان مغلوب على أمره لم يمكَّن بعد . فهل تستقيم الأمور على هذه الصورة مع الحق والعدل ؟

أيكون من الحق أن يكون أصحاب الحق مشردين فى الأرض مستضعفين ، وأصحاب الباطل ممكَّنين منعَّمين ؟

أيكون من الحق أن الذين أجابوا داعى الله فآمنوا به واستقاموا على طريقه ، يعيشون ويموتون فى الهوان والذل كأنهم هم المغضوب عليهم ، وأن الذين لم يستجيبوا لله ولم يؤمنوا به يعيشون ويموتون هانئين منعمين كأنهم هم الذين نالوا رضوان الله ؟!

ثم أيكون من العدل أن الذين استقاموا يعاقبون ، والذين ضلوا وغووا يكافأون ؟!

إنه هكذا تكون الصورة لو انتهت الأمور بالحياة الدنيا ولم يكن هناك بعث ولا حساب فى الآخرة ولا ثواب ولا عقاب .

ونشاهد عصاة لا يقفون عند حدود الله التى أمر بها ، وينتهبون اللذات فى الحياة الدنيا ، وآخرين التزموا بأمر الله فلم يأخذوا من المتاع إلا ما أحلّ الله ، وهو ـ فى الدنيا ـ قدر أقل دون شك مما يستمتع به العصاة الغارقون فى الملذات . أفإن كانت الحياة الدنيا هى نهاية هؤلاء وهؤلاء يكون الأمر حقاً وعدلاً ؟! هل تستقيم الأمور بأن ينهب من أراد نهبته ويمضى بها بغير حساب ، بينما الملتزم يحرم نفسه من المتاع الزائد ثم يمضى بحرمانه بغير ثواب ؟!

كلا بغير شك !

ولا يجوز ذلك فى حق الله .

لا يجوز فى حق عدالته وحكمته سبحانه أن تكون الأمور على هذه الصورة . بل تكون الحياة عبثاً لا معنى له ولا حكمة فيه .

من أجل ذلك نجد القرآن يربط فى كثير من الآيات بين خلق السماوات والأرض بالحق ، وبين بعث الناس لسؤالهم مما عملوا فى الحياة الدنيا ومجازاتهم بأعمالهم إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (سورة التغابن : ٣) .

﴿ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾ (سورة إبراهيم : ١٥ ـ ١٩) .

والمؤمنون يعلمون أن الله خلق السماوات والأرض بالحق ولم يخلقهما باطلاً ، فيدركون أنه لا بد من بعث وحساب فيدعون الله أن يجنبهم النار :

﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ (سورة آل عمران : ١٩٠ ـ ١٩١) .

وهكذا يؤكد القرآن أنه لو لم يكن هناك بعث وحساب فإن هذا يكون عبثاً لا يقتصر على حياة الإنسان وحده ، بل يمتد كذلك إلى خلق السماوات والأرض فيصبح كله عبثاً وباطلاً وقائماً على غير الحق !

ولقد أخبرنا الله سبحانه وتعالى أنه خلق الموت والحياة ليبلونا أينا أحسن عملاً :

﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ (سورة الملك : ١ ـ ٢) .

وأخبرنا كذلك أنه جعل ما على الأرض زينة لها لنفس الغاية : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ (سورة الكهف : ٧) .

فإذا كان الموت هو النهاية التى تنتهى عندها الأمور جميعاً فأين حكمة خلق الموت والحياة ؟ وكيف يتميز الذين أحسنوا العمل من الذين أساءوه ؟ وأين الحكمة فى جعل ما على الأرض زينة لها ؟!

إن نقطة الابتلاء فى حياة الإنسان هى هذه الزينة الموجودة فى الأرض : هل يتناول منها الإنسان القدر الذى أباحه الله وأحله ؟ أم ينتهب ما حرمه الله ولا يلتزم بطاعته ؟

فإذا كانت نهاية هذا وذاك متساويتين بالموت فقد انتفت الحكمة ولم يعد هناك معنى للابتلاء بالزينة ما دام الأخذ منها بالحلال كالأخذ بالحرام سواء ! والمفتون بها عن طاعة الله كالذى نجا من الفتنة واستقام !

لذلك يجىء هذا السؤال الإنكارى : « أَفَنَجْعَلُ المسلمينَ كالمُجْرمين ؟ » « أَفَنَجْعَلُ الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ كالمُفْسِدين فى الأرض ؟ أَم نَجْعَلُ المتَّقين كالفُجّار ؟ » .

حاشا لله أن يكون ذلك !

إنما ذلك ظن الذين كفروا ! هم الذين يظنون أن الأمر سواء ، وأنه لا حساب ولا عقاب ! فكأنهم بذلك يقولون إن الله خلق السماوات والأرض باطلاً : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ (سورة ص : ٢٧ ـ ٢٨) .

ولقد نزلت هذه الآية فى كفار قريش الذين كانوا ينكرون البعث . ولكن العجيب أن الجاهلية المعاصرة تنتج نماذج تنطبق عليها الآية كأنما هى مفصلة على قدّها تماماً ! فهذا « سارتر » الكاتب الوجودى الملحد ، يقول إن الوجود كله عبث وكله باطل ! وإن حياة الإنسان لا معنى لها ولا حكمة فيها ! « ذلك ظَنُّ الذينَ كفروا ! فويلٌ للذين كفروا من النار ! » .

إنه حين لا يؤمن الإنسان بالله واليوم الآخر فهكذا تصبح صورة الحياة فى حسه ،

وهكذا تصبح صورة الكون كله : السماء والأرض وما بينهما ، بما فيها حياة الإنسان .

ولا تستقيم الصورة ولا يتبين الحق ، حتى توضع التكملة الطبيعية للحياة الدنيا ، وهى اليوم الآخر الذى يحاسب الناس فيه فيكرمون أو يهانون . عندئذ يتضح الحق فى خلق السماوات والأرض . والحق فى خلق الإنسان وحياته على الأرض . وتتبين الحكمة فى خلق الحياة والموت ، والحكمة فى جعل ما على الأرض زينة لها .

ولكن الجاهلية تقطع الصورة فتشوهها ، ثم تقول إن الحياة لا معنى لها ولا حكمة فيها !

ولقد كان الدهريون من قبل على نفس المستوى من الحماقة التى عليها كفار اليوم وفلاسفتهم « الملحدون » ! ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ (سورة الجاثية : ٢٤) . وسواء قالوا ذلك استكثاراً على الله أن يقدر على بعث الموتى ، أو نفياً لوجود الله البتة فقد عجزت بصيرتهم المطموسة عن إدراك الحق الذى خلقت به السماوات والأرض ، والحياة والموت ، فعاشوا كالسائمة ، لا يدركون لحياتهم معنى ولا لوجودهم هدفاً : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴾ (سورة محمد : ١٢) .

آثار الإيمان باليوم الآخر
فى سلوك الفرد والجماعة

للإيمان باليوم الآخر أهمية بالغة فى حياة الإنسان وآثار عميقة . ونستطيع أن نفهم على ضوء هذه الحقيقة كيف أن القرآن ربط فى كثير من المواقع بين الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر ، فيجيئان متتاليين ومترابطين سواء فى الإثبات أو النفى .

﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾
(سورة آل عمران : ١١٤) .

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (سورة البقرة : ٨) .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾ (سورة البقرة : ٢٦٤) .

﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ (سورة التوبة : ٢٩) .

﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾ (سورة البقرة : ١٧٧) .

وهكذا يرتبط الإيمان باليوم الآخر بالإيمان بالله مباشرةً كأنه مكمِّل له .

ونستطيع أن ندرك أهمية الإيمان باليوم الآخر فى سلوك الفرد وسلوك الجماعة إذا عرفنا نفسية الشخص الذى لا يؤمن بالآخرة وطبيعة تصوره للحياة الدنيا وطريقة شعوره بها .

إن الحياة الدنيا فى حسه هى الأولى والأخيرة . والعمر فرصة واحدة إن لم تنتهب فسوف تضيع ! وإذ كان العمر ـ مهما طال ـ محدوداً بسنوات ولذائذ الحس كثيرة ومتنوعة فالبدار البدار !

هكذا تكون القضية فى حس الذى لا يؤمن باليوم الآخر . فرصة وحيدة محدودة ينبغى أن تنتهز ويؤخذ فيها أكبر قدر من الملذات .. ولذلك تتكالب الجاهليات دائماً على متاع الأرض وتتصارع عليه ، وتنحصر اهتماماتها فى حدود الحياة الدنيا .

والجاهلية المعاصرة نموذج لما نقول ..

فما الذى يشغل الأفراد فيها ويشغل الجماعات ؟

أما الفرد فهو يعمل وينتج . ولكن لأى هدف ؟ ليحصل على أكبر قدر يستطيع الحصول عليه من المال ، ثم ينفق هذا المال فى الحصول على أكبر قدر من المتاع ، يستوى فى حسه أن يكون من المتاع الحلال أو الحرام ! بل إن فكرة الحرام لا تخطر على باله على سبيل الجد ! فالأصل عنده هو الاستمتاع ، قبل أن تفوت الفرصة التى إن مضت لا تعود ! فما معنى الحرام فى حسه ؟! إنه ليس إلا قيداً على المتاع ! وهو قيد ـ فى نظره ـ غير معقول ولا موجب له ، لأنه يضيع الفرص المحدودة التى لن تعود !

لذلك أيضاً فإن قيد الأخلاق وقيد الضمير وقيد المشاعر الإنسانية كلها قيود غير معقولة ، كقيد الحرام سواء بسواء! ومن ثم تفسد الأخلاق فى الجاهلية ، ويضعف وازع الضمير وتحل المصلحة محله . أما المشاعر الإنسانية والقيم العليا فتعتبر سخفاً وسذاجة لا تليق بإنسان عاقل ، إذا هى فوتت عليه فرصة للمتاع !

أما الأمم والجماعات فقصتها لا تختلف كثيراً عن قصة الفرد .

فلأى شىء تعمل ولأى شىء تعيش حين لا تؤمن باليوم الآخر ؟

كل جماعة همها الحصول على أكبر قدر من المتاع (أو المزايا بتعبيرهم !) على حساب جماعة أخرى ! وكل أمة همها أن تتغلب على أمة أخرى لتسلبها حظها من المتاع وتأخذه لنفسها فتنشأ من ذلك الصراعات والحروب .

وأين القيم العليا ؟ وأين حقوق الإنسان ؟ وأين الضمير العالمى ؟ وأين العهود والمواثيق ؟ وأين التعاون فى سبيل الخير ؟ وأين العدل ؟ وأين الإخاء والمساواة ؟

إنها كلها ـــ فى الجاهلية ـ ألفاظ ! يلوكها الناس نفاقاً ورياء ، فإذا خلوا إلى

شياطينهم قالوا إنا معكم ، إنا نحن مستهزئون ! لأنها كلها معوقات عن المتاع فى الفرصة الوحيدة المتاحة للمتاع !

ويتقاتل الناس ،ويموت منهم من يموت . ولكنهم يموتون وهم يقاتلون فى سبيل هذا المتاع الأرضى ، فإذا قيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً ، أو فى سبيل الحق المجرد الذى لا مصلحة لهم فيه مباشرة ، هزوا أكتافهم وأعرضوا عنك ، إن لم يهبّوا لمقاتلتك أنت ، لأنك تدعوهم إلى شىء يفسد عليهم مصالح الدنيا ومتاع الأرض!

ومن ثم تهبط القيم في الجاهليات وتنحصر الآفاق ، كما يضعف الضمير وتفسد الأخلاق .

إنه لا شىء يرفع الإنسان من ثقلة الأرض ـ بعد الإيمان بالله ـ إلا الإيمان باليوم الآخر . الإيمان بأن كل متاع زائد يتنازل عنه الإنسان فى الحياة الدنيا ـ طاعةً لله والتزاماً بأمره ـ يعوض عنه فى الآخرة متاعاً أشفّ وأعلى وأخلد وأبقى . والإيمان فى ذات الوقت بأن كل خروج على أمر الله فى الحياة الدنيا ـ من أجل متاع الأرض الزائل ـ سيجازى عليه فى الآخرة عذاباً ليس فى طوق البشر احتماله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (سورة النساء : ٥٦) .

وحين يؤمن الإنسان باليوم الآخر إيمان اليقين تحسم القضية فى حسه حسماً كاملاً وتستقر الأمور . فكل نعيم فى الدنيا لا يقاس إلى نعيم الآخرة . ولا يساوى من جهة أخرى غمسة واحدة من أجله فى العذاب . وكل عذاب فى الدنيا ـ فى سبيل الله ـ لا يقاس إلى عذاب الآخرة ولا يوازى من جهة أخرى غمسة واحدة من أجله فى النعيم .

وعندئذ يقدر الإنسان على موازنة ثقلة الأرض ، ويقدر على الارتفاع إلى القيم العليا والأخلاق الفاضلة والمثل الرفيعة ، لأنه يوقن بالجزاء الذى سوف يناله على ذلك كله :

﴿ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ۝ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا

عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾ (سورة آل عمران : ١٥ - ١٧) . ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (سورة التوبة : ٧١ - ٧٢) .

وعندئذ يوجد الفرد الصالح والجماعة الصالحة التى تتعاون على البر والتقوى ولا تتعاون على الإثم والعدوان . وتوجد أمة تستحق هذا الوصف : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ (سورة آل عمران : ١١٠) . أمة تفى بهذا الأمر : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (سورة المائدة : ٨) . وتوفى هذا الطلب : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ (سورة النساء : ٧٥) . وتتوفر فيهم هذه الصفات : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (سورة المؤمنون : ١ - ١١) .

الحقائق التى يشملها الإيمان باليوم الآخر

يشتمل الإيمان باليوم الآخر على مجموعة من الحقائق وردت فى الكتاب والسنة فلزم الإيمان بها جميعاً . وهى : فتنة القبر وعذابه ونعيمه ، والساعة وأماراتها والبعث ، والحشر . والحساب وما يتبعه من ثواب وعقاب . والصراط . والجنة والنار .

١ ـ فتنة القبر وعذابه ونعيمه

كان الرسول ﷺ يتعوذ فى دعائه من عذاب القبر (وهو الذى غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر !) فيقول : (وأَعُوذُ بِكَ مِنْ عذابِ القَبْر) .

ويقول الرسول ﷺ : (القُبُورُ رَوْضَةٌ من رِياضِ الجَنَةِ أَوْ حُفْرَةٌ من حُفَرِ النار) (أخرجه الترمذى عن أبى سعيد الخدرى) .

ويقول القرآن عن آل فرعون : ﴿ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ۞ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ (سورة غافر : ٤٥ ـ ٤٦) .

ويقول عن قوم نوح : ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴾ (سورة نوح : ٢٥) .

ولا نستطيع أن نعلم على وجه اليقين كيف تكون صفة النعيم والعذاب فى القبر ، فذلك غيب لم يحدثنا الله ورسوله عن تفصيلاته ، ولا مصدر لنا لمعرفته إلا ما يحدثنا به الله ورسوله . وكل ما أخبرنا به عن الرسول ﷺ أن الميت حين يدفن فى قبره يدخل عليه ملكان فيقيمانه فيقعدانه ويسألانه عن أعماله كلها فى الحياة الدنيا فلا يجيب إلا بالحق . ثم إنه يجد قبره روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار حسب أعماله

التى سلفت منه . وذلك كله قبل يوم الحساب الأكبر وما يتبعه من ثواب وعقاب .

ومن ثم فإن ما درج على ألسنة الناس من الحديث عن « راحة الموت » ليس حقاً إلا بالنسبة للمؤمن الذى عمل صالحاً ! أما المسيىء فلن يجد فى موته ولا فى قبره راحة . إنما يجد العذاب يتسلمه من أول لحظة .. ثم عذاب الآخرة أشد .

عن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال : (قالَ رسولُ اللهِ ﷺ : إنَّ هذهِ الأُمَّةَ تُبتَلى فى قُبورها . فلولا ألا تَدافنوا لدعوتُ اللهَ أن يُسمعَكُمْ من عذابِ القبرِ الذى أسمع) ثم قال : (تَعوَّذوا من عذاب القبر) قالوا :(نعوذُ باللهِ من عذابِ القَبْر) . رواه مسلم .

* * *

٢ ـ الساعة وأماراتها

من مقتضيات الإيمان باليوم الآخر الإيمان بالساعة . وهى الساعة التى تنتهى فيها الحياة الدنيا بجميع أوضاعها ، وتبدأ القيامة بكل أهوالها . ويصف القرآن الساعة وأحداثها وصفاً يهز النفس من أقطارها ، ويبعث الرهبة فى أعماقها .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ① يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ (سورة الحج : ١ ـ ٢) .

﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ⑥ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ⑦ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ⑧ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ⑨ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴾ (سورة النازعات : ٦ ـ ١٠) .

﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ① وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ② وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ③ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ④ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ⑤ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ⑥ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ⑦ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ⑧ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ⑨ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ⑩ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ⑪ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ⑫ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ⑬ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾ (سورة التكوير : ١ ـ ١٤) .

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ① وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ② وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ③ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ④ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ (سورة الانفطار : ١ ـ ٥) .

﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ۝ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ۝ وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ۝ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ۝ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ﴾ (سورة الفجر : ٢١ ـ ٢٥) .

﴿ فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا ۝ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦۚ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا ﴾ (سورة المزمل : ١٧ ـ ١٨) .

إنه الهول الذى يشمل السماوات والأرض ، ويغير صورة الكون كله . فتنشق السماء وتنتثر الكواكب ، وتزلزل الأرض ، وتسجر البحار فتشتعل ناراً والمألوف فيها أنها هى التى تطفىء النار ! وتنسف الجبال نسفاً :

﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ۝ فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا ۝ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا ۝ يَوۡمَئِذٖ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥۖ وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا ﴾

(سورة طه : ١٠٥ ـ ١٠٨) .

ولا يعود شىء واحد فى مكانه ولا على صورته التى كان عليها .. وفى هذا الهول الهائل يبعث الناس فيسألون !

ولاقتراب الساعة أمارات يذكرها القرآن والأحاديث ..

ولقد اقتربت الساعة منذ بعثة الرسول ﷺ ، فقال القرآن الكريم : ﴿ ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ﴾ (سورة القمر : ١) . وقال الرسول ﷺ : (بُعِثْتُ والساعةُ كهاتَيْن ..) وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى (رواه البخارى ومسلم) .

ولكن مقياس الزمن عند الله غير مقاييسنا ! فحين أنذر الرسول ﷺ مشركى العرب باقتراب الساعة حسبوا أنها أيام معدودة ـ بحسابهم ـ ثم تأتى الساعة ، فلما رأوها لم تأتِ قالوا له : أين العذاب الذى أنذرتنا به ؟ وأين يوم القيامة الذى زعمت أنه قريب ؟ فرد عليهم القرآن فى أكثر من موضع :

﴿ بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ۝ يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ (سورة القيامة : ٥ ـ ٦) .

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾

(سورة الحج : ٤٧) .

﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾

(سورة الشورى : ١٧ ـ ١٨) .

وثم أمارات أخرى لاقتراب الساعة يشملها حديث الرسول ﷺ عن حذيفة بن أسيد الغفارى ، رضى الله عنه قال : (اطلعَ النبىُّ صلّى اللهُ عليه وسلم علينا ونحنُ نتذاكرُ فقال : ما تَذاكَرونَ ؟ قالوا : نَذْكُرُ الساعةَ . قال : إنها لَن تقومَ حتى تَرَوْا قَبْلَها عَشْرَ آياتٍ فذكر : الدُّخان والدّجال والدّابة وطلوعَ الشمس من مَغْرِبِها ونزولَ عيسى ابنِ مريَمَ ويَأجوجَ ومَأجوجَ وثلاثةَ خسوفٍ : خَسْف بالمشرق وخَسْف بالمغربِ وخَسْف بجزيرةِ العربِ وآخر ذلك نارٌ تَخْرُجُ من اليمنِ تَطْرُدُ الناسَ إلى مَحْشَرِهم). رواه مسلم .

وفى حديث (هذا جبريلُ أتاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ أَمْرَ دينكم) : قالَ (فأخبِرْنى عن الساعة قال : ما المسئولُ عنها بأعلَمَ من السائل . قال فأخبِرْنى عن أماراتها قال : أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَها وأَن تَرَى الحُفَاةَ العُرَاةَ العَالةَ رِعاءَ الشاءِ يَتَطَاوَلونَ فى البُنْيان) (رواه مسلم) .

فإذا بدأت أحداثُ الساعة نُفِخَ فى الصور نفخةً أولى ثم نفخةً ثانية :

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ (سورة الزمر : ٦٨) .

فالنفخة الأولى يصعق فيها كل من بقى حياً فى السماوات والأرض إلا من شاء الله فيخرون موتى . والنفخة الثانية يقوم فيها الناس من أجداثهم ليوم الحشر .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: (قالَ رسولُ اللهِ ﷺ ما بَيْنَ النَّفْخَتين أربعونَ (سنة) ثم يُنزلُ اللهُ مِن السماء ماءً فينبتونَ كما يَنْبُتُ البَقْلُ ، وليس من الإنسان شىء إلاَّ يَبْلَى إلا عظماً واحداً هُوَ عَجْبُ الذَّنَب ، ومنهُ يُرَكَّبُ الخَلْقُ يومَ القِيامَةِ). (متفق عليه).

٣ ـ البعث

كان من أشد ما عجب له المشركون في مكة وشككهم فى الساعة وكل ما يدور حولها قضية البعث !

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ ۗ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴾ (سورة سبأ : ٧ ـ ٨) .

﴿ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ (سورة الإسراء : ٤٩).

﴿ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴾

(سورة الواقعة : ٤٧ ـ ٤٨) .

وقد كان شكُّهم مبنياً على جهالات شتى !

فهم أولاً لم يقدروا الله حق قدره ، إذ استكثروا على قدرته سبحانه وتعالى أن يبعث الموتى ! ولو كانوا يقدرونه سبحانه حق قدره ، ويستيقنون من عظمته جل جلاله وقدرته التى لا يعجزها شيء ما استكثروا على هذه القدرة شيئاً على الإطلاق .

وهم ثانياً لم يقدروا معجزة الخلق الماثلة أمامهم حق قدرها ! ولو قدروها حق قدرها لعرفوا أنها من الضخامة والإعجاز بحيث ان القادر عليها لا يمكن أن يعجزه شيء ، لأنه لا يوجد شيء أكثر إعجازاً من هذا الخلق الماثل أمامهم !

إن الحس يتبلد على الأشياء فيعمى عن دلالتها ! ولأن السماوات والأرض والشمس والقمر ، والليل والنهار ، والموت والحياة ، كلها ماثلة أمام الحس فإنه يتبلد عليها بالإلف والعادة ولا يعود يقدّر ما فيها من إعجاز .

وإلا فلو أن الإنسان تذكر أو أزال الغشاوة عن بصيرته فرأى حقائق الكون المذهلة ، لأحسَّ بالإعجاز فى الصغيرة والكبيرة ، وأحسَّ أنَّ من أَنشأ هذا من العدم ـ جلت قدرته وجل ثناؤه ـ لن يعجز عن إعادة خلقة مرة أخرى متى يشاء !

حقيقة إن علمهم بالكون لم يكن قد تقدم كما هو اليوم . ولكن القدر المشاهد

المعلوم من الكون لأى إنسان مهما كان مقدار علمه ، يكفى لرؤية الإعجاز فى صنعة الله .

لذلك كان الله سبحانه وتعالى يخاطبهم بما يرونه أمامهم من معجزات الخلق ، ثم يقول لهم : إن من صنع هذا كله لا يعجز عن إعادته وخلقه من جديد .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ (سورة الحج : ٥ ـ ٧) .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (سورة الروم : ٢٧) .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (سورة الأحقاف : ٣٣) .

وفى سورة « ق » مناقشة مستفيضة لهذه الجهالة على منهج القرآن من لفت نظر البشر إلى معجزات الخلق الماثلة أمام أعينهم ليقيسوا عليها ، ويعلموا أن القادر على هذه يقدر على البعث ، لأن البعث ما هو إلا خلق جديد :

﴿ قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ۝ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ۝ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ۝ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ۝ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ (سورة ق : ١ ـ ١٥) .

وكذلك كان رد القرآن الكريم على ذلك المنكر المتبجح الذى تناول قطعة عظم رميمة من الأرض ففركها بين إصبعيه ونفخها فى وجه الرسول ﷺ وقال فى جهالة منطمسة البصيرة : أيستطيع ربك أن يبعث هذه ؟!

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ۝ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ۝ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (سورة يس : ٧٧ – ٨٣) .

إن قضية الخلق واحدة فى الأولى والآخرة . والذى يسلم عقله بأن الله هو الذى خلق كل ما فى الكون من موجودات حاضرة ينبغى له – بنفس المنطق – أن يسلم بقدرة الله على البعث والخلق من جديد . فإن الكون حين خُلق لم يكن موجوداً البتة فأوجده الله من العدم . أفكانت قدرة الله موجودة مرة واحدة من قبل ثم كفت عن الوجود ولم يعد الله قادراً على خلق من نوع الخلق الأول بل أهون منه ؟ وحتى هذه الشبهة الساذجة لا موجب لها فإن الخلق – بكل معجزاته – قائم ومستمر ! فمن أين يأتى كل جنين يولد ، ولم يكن كائناً من قبل ، ومن أين تنبت الأرض ما تنبت من زرع ؟ أليس هذا خلقاً متجدداً يرونه أمام أعينهم ؟! فإن قال أحد كما يقول المتبجحون اليوم إن هذا كله يتولد من بذور حية ، فمن الذى أودع الحياة فى البذور أول مرة ، ومن أودع فيها القدرة على النماء ؟!

كلا .. إنه انطماس البصيرة ليس غير !

إن الناس يأخذون قضية الخلق الراهنة كأنها حادثة من تلقاء ذاتها . وتلك مصيبة الناس حين تنطمس بصيرتهم فيعمون عن آيات الله المعجزة فى الخلق ، فيستكثرون على قدرته سبحانه أن يخلق من جديد !

والجاهلية المعاصرة مصيبتها أكبر ! فقد عرفت عن طريق العلم إلى أى حد هذا

الكون معجز فى خلقه ومعجز فى كل تفصيلاته . وفغروا أفواههم عجباً كلما كشف لهم العلم جديداً من أسرار الكون الدقيقة ،ـوخاصة فى عالم الذرة ومحتوياتها . ومع ذلك يستكبرون ! ويفرون من مجابهة الحقيقة فيقولون إنها الطبيعة[1] ويصنعون كما صنعت الجاهلية القديمة فينكرون على الله أن يقدر على البعث !

ومازال تحدى القرآن ماثلاً أمامهم: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ (سورة الطور :٣٥).

وما زال وعيده لهم قائماً : ﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ۝ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ (سورة الطور : ٤٥ ـ ٤٦) .

ذلك أنهم علماء مزيفون : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ (سورة الروم : ٧) .

أما العلماء الحقيقيون فهم أولى الناس بالإيمان بالله والإيمان بالبعث : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (سورة فاطر : ٢٨) .

٤ ـ الحشر

يبعث الله الموتى ثم يحشرهم جميعاً ليقفوا بين يدى مولاهم يسائلهم عن أعمالهم .

ويصف القرآن الكريم هول الحشر كما وصف أهوال الساعة :

﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۝ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ۝ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ (سورة عبس : ٣٤ ـ ٣٧) .

إنه الهول الذى يفرق بين الأقرباء والأصدقاء ، ويشغل كل إنسان بنفسه عن الآخرين ولو كانوا ألصق الناس به فى الحياة الدنيا . ﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ۝ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ﴾ (سورة القمر : ٧ ـ ٨) .

﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ (سورة المعارج : ٤٣) .

ويصف الرسول ﷺ يوم الحشر فيقول ـ من حديث عائشة رضى الله عنها ـ :

---

(١) لا يناقش أولئك الجاهليون قضية « الطبيعة » مناقشة منطقية ولا مناقشة علمية ، فما هى على وجه التحديد ؟!

(يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ القيامةِ حُفاةً عُراةً غُرْلاً . قلتُ يا رسولَ الله ، النساءُ والرِّجالُ جميعاً يَنْظُرُ بعضُهُمْ إلى بعضٍ . قالَ يا عائشة : الأمرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يَنْظُرَ بعضُهُمْ إلى بعض). متفق عليه .

ولكن الناس ليسوا سواء في ذلك اليوم العصيب . إنما تختلف أحوالهم باختلاف أعمالهم :

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ۝ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾

(سورة القيامة : ٢٢ ـ ٢٥) .

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾ (سورة عبس : ٣٨ ـ ٤٢) .

﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ (سورة الزمر : ٦٠) .

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (سورة يونس: ٢٦ ـ ٢٧).

﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ۝ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ (سورة مريم: ٨٥ ـ ٨٦).

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ۝ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ۝ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾ (سورة طه : ١٠٢ ـ ١٠٤) .

﴿ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴾ (سورة الإسراء : ٩٧) .

وعن المقداد رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (تُدْنَى الشَّمْسُ يَوْمَ القيامةِ من الخَلْقِ حَتى تكونَ منهمْ كمِقْدَارِ مِيْلٍ ، فيكون الناسُ على قَدْرِ أعمالِهِمْ فى العَرَق . فنهُمْ من يكونُ إلى كَعْبَيْه ، ومنهُمْ مَنْ يكونُ إلى ركبَتَيْه ، ومنهم مَنْ يكون إلى حقْوَيْهِ ، ومنهم من يُلْجِمُهُ العَرَقُ إلجاماً). (رواه مسلم) .

وهكذا تختلف أحوال الناس فمنهم من يلقى فى روعه الفزع والخوف نتيجة سوء عمله فهو ذاهل مضطرب ، مظلم الوجه مكفهر ، وفوق ذلك يلقى الإهانة فيساق سوقاً

كالبهائم . وإلى شر مكان يساق . ومنهم من يلقى فى روعه الطمأنينة والاستبشار فهو ينتظر تحقيق وعد ربه بدخول جنات النعيم ، وفوق ذلك يلقى الحفاوة والتكريم . إنه من المتقين الذين يحشرون إلى الرحمن « وفداً » والوفد دائماً يلقى الحفاوة وحسن الاستقبال .

٥ ـ الحساب

بعد أَنْ يُحْشَرَ الناسُ فى هذا الهولِ الذى يَشْغَلُ الإنسانَ عن أقربِ المقربين إليه فى الدنيا .. يبدأ العرض والحساب : ﴿ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴾ (سورة الكهف : ٤٨) .

والناس فى الدنيا يرهبون أن يقفوا صفاً ليعرضوا أمام أحد من الحكام مهما صغر مقامه ليتبين البرىء منهم من المذنب بعد السؤال والتحقيق . وهو بشر مثلهم لا يزيد عليهم فى شىء إلا السلطة التى يملكها فى يديه ! وتزداد رهبتهم كلما عظم مقام الحاكم أو عظمت السلطة التى يملكها . ويستبطئون الزمن الذى يمر عليهم وهم فى حالة الترقب والانتظار هذه حتى يقضى فى أمرهم ، وهو زمن محدود لا يزيد على ساعات أو أيام إذا طال . تمر الدقيقة منه كأنها دهر !

فكيف يكون حالهم وهم وقوف بين يدى الملك العزيز الجبار ؟ وفى يوم كان مقداره خمسين الف سنة ؟! ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ④ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ⑤ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ⑥ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ⑦ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ⑧ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ⑨ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴾ (سورة المعارج : ٤ ـ ١٠) .

إن الخيال ليعجز عن التصور . وكل ما يملكه أن يقيس حال الناس وهم معروضون أمام الحاكم ليحقق معهم ، ثم يظل يضاعفه أضعافاً ليقترب من تصور ذلك الموقف الرهيب بين يدى رب العالمين : ﴿ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ * وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ (سورة طه : ١٠٨ ـ ١١١) .

ثم يأتى دور السؤال ..

واحد بعد واحد من هذا الصف الطويل الذى يحتوى البشر كلهم من أول آدم ، إلى آخر الخلق ، يجيء دوره فيسأل :

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (سورة الحجر : ٩٢ ـ ٩٣) .

ولئن كان العرض مهولاً ، فالسؤال أشدّ هولاً .

ألا ترى إلى البشر وهم واقفون أمام الحاكم ليسألهم كيف يكون حالهم حين يجيء دورهم فى السؤال ؟! إن وجوههم لتكفهرّ وهم فى العرض لم يصلوا بعد إلى السؤال ، فإذا جاء دورهم اضطربت أنفاسهم ، ووجبت قلوبهم ، وزاغت أبصارهم ، حتى يبدأ السؤال فتبدأ معه محنتهم إن كانوا مذنبين .

هذا وهُمْ يملكون اللف والدوران ، ويملكون الكذب على الحاكم ، والتهرب من مواجهة السؤال ! ... فكيف وهم فى الموقف الرهيب لا يملكون حتى ألسنتهم ! فإنها تشهد عليهم وحتى جلودهم وجوارحهم ...

﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾ (سورة النور : ٢٤ ـ ٢٥) .

﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (سوره يس :٦٥) .

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ۝ فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ﴾ (سورة فصلت : ١٩ ـ ٢٤) .

ألا إنهم لا يملكون إلا أن يعترفوا بذنوبهم ، وأن يشهدوا على أنفسهم .

﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾ (سورة الأنعام : ١٣٠) .

وشهدوا أو لم يشهدوا .. لا مفرّ !

هذه هى الموازين توضع ، وتوزن فيها الأعمال .

﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ (سورة الأنبياء : ٤٧) .

﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ (سورة لقمان : ١٦) .

وهذا هو كتاب الأعمال قد سجلت فيه الكبيرة والصغيرة ، فهو وثيقة لا تحتمل التكذيب !

﴿ وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (سورة المؤمنون : ٦٢) .

﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ (سورة الكهف : ٤٩) .

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴾ (سورة آل عمران : ٣٠) .

﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ⑬ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ (سورة الإسراء : ١٣ – ١٤) .

ويختلف وضع الناس من كتابهم ، بعضهم يؤتاه باليمين وبعضهم يؤتاه بالشمال (أو من وراء ظهره) :

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ⑲ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ⑳ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ㉑ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ㉒ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ㉓ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ㉔ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ㉕ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ㉖ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ㉗ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ㉘ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ㉙ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ㉚ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ㉛ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ㉜ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ㉝ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ㉞ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ㉟ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ㊱ لَّا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴾ (سورة الحاقة : ١٩ – ٣٧) .

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ⑦ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ⑧ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ⑨

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ۝ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ۝ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾(سورة الانشقاق:٧-١٢).

وأولئك هم الذين يسميهم القرآن أصحاب اليمين وأصحاب الشمال أو أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة .. ولكل منهما مصير !

(٦)

الصراط

فإذا انتهى العرض والسؤال ، ووزنت الأعمال ، وتقرر المصير ، فكل يؤخذ إلى مصيره : فريق إلى الجنة وفريق إلى السعير .

وهم فى طريقهم يمرون على الصراط . فأما من كان مصيره إلى النار فهو يهوى من الصراط إلى جهنم حيث يتسلمه العذاب على التو . وأما من كان مصيره إلى الجنة فهو يرى النار رؤية من بعيد ، ليعرف فقط مصير الكفار ، وليعرف أى عذاب أنجاه الله منه ، ثم يستمر فى طريقه إلى حيث يرحب به الملائكة الأبرار .

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾

(سورة مريم : ٧١ - ٧٢) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قالَ رسولُ اللهِ ﷺ : (يَجْمَعُ اللهُ الناسَ يومَ القيامةِ فيقولُ : مَنْ كانَ يَعْبُدُ شيئاً فَلْيَتبعْهُ . فَيَتْبَعُ مَنْ كان يَعْبُدُ الشمسَ الشمسَ ، وَيَتْبَعُ من كان يَعبُدُ القَمَرَ القَمَرَ ، ويَتْبَعُ مَنْ كان يَعْبُدُ الطَّواغيتَ الطواغيتَ إلى أن قال : ويُضْرَبُ الصِّراطُ بين ظَهْرَىْ جَهَنَّمَ فأكون أنا وأمتى أولَ مَنْ يجيز). متفق عليه .

وعن أبى سعيد الخدرى : قِيْل يا رسولَ اللهِ وما الجِسْرُ ؟ قال : (دَحْضٌ مَزِلّةٍ فيهِ خَطَاطِيفُ وكلاليبُ وحسَكٌ ثم قال أبو سعيد : بلغنى أَن الجسرَ أَدقُّ من الشَّعرةِ وأحَدُّ من السيف). رواه مسلم .

وعن حذيفة قال : قالَ رسولُ الله ﷺ : (فى حافَّتَى الصِّراطِ كلاليبُ مُعلَّقَةٌ مأمورةٌ بأخْذِ مَنْ أُمِرَتْ به . فمخدوشٌ ناجٍ ومَكدوشٌ فى النار).رواه مسلم .

◦ ◦ ◦

(٧)

الجنة والنار

هنا نصل إلى نهاية المطاف ..

نهاية الرحلة الطويلة التى بدأ طرف منها على الأرض فى الحياة الدنيا ، واليوم تصل إلى نهايتها بعد البعث والحشر والعرض والسؤال :

﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ (الأعراف : ٢٩ ـ ٣٠) .

هنا تكتمل الصورة ، ويحقّ الحق ، ويصل كل شيء إلى قرار .

أما الذين استقاموا فى حياتهم الدنيا على الطريق ، فآمنوا بالله ، والتزموا بأوامره وأيقنوا بيوم لقائه ، فتجنبوا سخطه وسعوا إلى رضاه ، وكدوا فى سبيل ذلك وكدحوا ، واحتملوا ما احتملوا من مشقة ، وصبروا على ما لاقوا من الأذى والنصب فى الطريق . فأولئك قد استحقوا رضوان الله وجنته . استحقوا أن يصلوا إلى دار الأمان حيث لا شيء يقلق ولا شيء يخيف ، ولا شيء ينغص النعيم: ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ (سورة الدخان : ٥٦) .

وأما الذين كفروا وكذبوا ، وأصروا على غيّهم ، وخالفوا عن أمر ربهم ورسله واستمتعوا فى الحياة الدنيا بغير الحق ، وكدحوا ولكن للشيطان .. وفرحوا بأعمالهم الخاطئة فطغوا بها وتجبروا .. فقد استحقوا أن يصلوا إلى الجحيم ، حيث لا موت ولا حياة ، ولا يخفف عنهم ولو يوم من العذاب !

هنا ـ فى الصورة المكتملة فى نهاية المطاف ـ تتبدى عدالة الله ، ويتبدى الحق الذى خلقت به السماوات والأرض وخلق به الموت والحياة .. ويتلقى كل إنسان دينه بالحق ، وتكتمل دلالة كل شيء فى هذه الحياة .

* * *

ولقد جاء وصف الجنة والنار ووصف النعيم والعذاب فى مواضع كثيرة جداً من القرآن . ولا تكاد تخلو سورة من السور من إشارة ولو عابرة إلاّ فى القليل النادر .

ولا نحتاج إلى ذكر الشواهد الكثيرة ، فالقرآن بين يدى الدارس ، وحيثما تصفحه فسيجد فيه بغيته من وصف مشاهد القيامة ، إنما نقول كلمة مجملة عن النعيم والعذاب ثم نأتى بنماذج قليلة من الآيات .

يوصف النعيم فى القرآن بأنه نعيم حسى ومعنوى فى ذات الوقت . كما يوصف العذاب كذلك بأنه عذاب حسى ومعنوى وهذا هو الذى يتلاءم مع طبيعة « الإنسان » .

فالإنسان الذى يعيش فى الدنيا مزيج من الجسد والروح . من الحسيات والمعنويات وهو هو الذى يكرم فى الآخرة أو يهان . فإذا كرم فإنما يكرم كله ، بجسده وروحه ، وإذا عذب فإنما يعذب كله ، بجسده وروحه سواء .

وقد وصف الله لنا جنته وناره وصفاً دقيقاً شاملاً ولكن خيالنا قاصر عن الإحاطة بهما ، فإن الرسول ﷺ يقول عن الجنة : (فِيها مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ ولا خَطَرَ على قَلْبِ بَشَر). (رواه البخارى) .

فنحن نتصور النعيم ـ سواء الحسى منه أو المعنوى ـ فى حدود خبرتنا وتجاربنا فى الحياة الدنيا . ولكنه فى حقيقته أجمل من كل ما نستطيع أن نتخيل ، فليس الشجر كالشجر وليست الثمار كالثمار . وليست الحور العين كأى جمال نستطيع أن نتصوره فى الأرض . وكذلك الرضوان ﴿ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ (سورة التوبة : ٧٢) . إن أىّ تصور لهذا الرضوان ، ومدى الراحة النفسية له والفرحة الروحية به لا يمكن أن يصل إلى شيء من الحقيقة .. ولكن هذه طبيعة البشر مع اللغة ، لا يستطيعون أن يدركوا من معانيها إلا ما يدخل فى دائرة تجربتهم وتصورهم !

والأمر مع العذاب كذلك .. إننا لا نستطيع أن نتصورمن أمرالنار إلا ما شاهدناه فى حياتنا الدنيا . وقد تضاعف القدر في خيالنا مرات ومرات . ولكنا مع ذلك لا نصل إلى حقيقة عذاب الحريق الذي ينتظر الكفار في جهنم والعياذ بالله . وكذلك الأمر بالنسبة للعذاب النفسي من خزى وندم وحسرة وهوان .

فلنقرأ إذن وصف الجنة والنار فى القرآن . ولنحاول ـ ما استطعنا ـ أن نقترب

بخيالنا من حقائق الأشياء !

أولاً ـ أوصاف الجنة وأهلها :

١ ـ ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ (سورة الرحمن : ٤٦ ـ ٦٠) .

٢ ـ ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ(١) مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾ (سورة الطور : ١٧ ـ ٢٨) .

٣ ـ ﴿ وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا ﴾ (سورة الإنسان : ١٢ ـ ٢٢) .

٤ ـ ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ (سورة الحجر : ٤٧ ـ ٤٨) .

ثانياً ـ من أوصاف النار وأهلها :

١ ـ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ (سورة النساء : ٥٦) .

---

(١) أي ما نقصناهم .

٢ ـ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۝ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَـٰٓؤُا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴾ (سورة غافر : ٤٩ ـ ٥٠) .

٣ ـ ﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ۝ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ۝ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ۝ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ۝ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ۝ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝ فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ ۝ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ۝ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (سورة الشعراء ٩١ ـ ١٠٢) .

٤ ـ ﴿ هَـٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّـٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ۝ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝ هَـٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ۝ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ۝ هَـٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ۝ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ۝ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَـٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ۝ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ۝ أَتَّخَذْنَـٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَـٰرُ ۝ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴾ (سورة ص : ٥٥ ـ ٦٤) .

٥ ـ ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ (سورة الكهف : ٢٩) .

٦ ـ ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ۝ لَـَٔاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ۝ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ۝ فَشَـٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ۝ فَشَـٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ[1] ۝ هَـٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ (سورة الواقعة : ٥١ ـ ٥٦) .

وهكذا نجد المقابلة تامة بين الجنة وأهلها والنار وأهلها . فبينما الأولى تحوى كل ما يتخيله الإنسان من ألوان النعيم ، بل فوق ما يستطيع تخيله ، وأهلها فى سمر ومودة ، راضية قلوبهم ، ضاحكة وجوههم ، ناعمة مشاعرهم ، يتجلى عليهم ربهم برضوانه ، إذ بالنار فى الآخرة تحوى كل ما يتخيله الإنسان من ألوان العذاب الحسى ، وفوق ما يتخيله كذلك ، والخزى والندم والحسرة هى عذابهم النفسى الدائم ، ويجيئهم مع العذاب التبكيت والتوبيخ والتقريع .

ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار !

(١) أى الجمال .

الباب الخامس

الإيمان بالقدر

لا يتم إيمان الإنسان حتى يؤمن بالقدر خيره وشره أنه من عند الله ، وأنه لا يكون شيء فى الكون كله إلا ما قدره الله

ووجوب الإيمان به واضح السبب لا يحتاج إلى جهد لتفهمه . فإن الأحداث التى تجرى فى الكون كله وفى حياة الناس إما أن تكون ـ فى تصور الإنسان ـ آتية من عند الله ، هو الذى برأها وقدرها ، وإما أن تكون فى تصوره آتية من عند غير الله أياً كان المصدر الذى يتخيله . فإن كانت الأولى فقد آمن بالله حقاً ، وإن كانت الثانية فقد أشرك إذ ليس الشرك محصوراً فى تقديم شعائر التعبد لغير الله ، ولا التحليل والتحريم من دون الله . إنما يكون الشرك فى هذه الحالة فى أصل الاعتقاد فى « لا إله إلا الله » .

إن المعنى الأول للا إله إلا الله هو أنه ليس فى هذا الكون كله إله متصرف فى شئونه إلا الله ومن ثم تترتب المعانى الأخرى : أنه لا معبود يستحق العبادة إلا الله . ولا أحد تنبغى له الطاعة إلا الله . ولا حاكمية إلا لله .

فتصوُّر أى إنسان أن أحداث الكون وتصاريف الحياة تأتى من أى مصدر غير الله سبحانه وتعالى هو شرك فى أصل الاعتقاد ومعناه أن الله ليس هو المتصرف وحده فى شئون الكون إنما هناك من يشترك معه فى هذا الشأن .

وحتى لو اعتقد معتقد أن الأحداث تقع بالمصادفة ـ كما يعتقد بعض الجاهليين فى القديم والحديث ـ لا بتدبير الله وعلمه وتقديره ، فهو على ذات الدرجة من الشرك . لأنه فى الواقع قد تخيل قوة وهمية ـ ليست هى الله سبحانه وتعالى ـ قد أنشأت

الأحداث وأجرتها بحيث تقع فيها المصادفة المزعومة على النحو الذى وقعت به .. وهو وإن قال بلسانه إن الأحداث تقع بغير تدبير ولا قصد ، إلا أنه يفترض فى خياله أنها كانت سائرة أصلاً بدافع ما ثم تصادم بعضها مع بعض ، أو تصادف بعضها مع بعض بغير قصد .. فهو فى النهاية يفترض أن هناك من يسيّر الكون وأحداثه غير الله . وهذا هو الشرك الأصيل !

ومن ثم فقد لزم لزوماً أن يؤمن الإنسان بالقضاء والقدر أنه من عند الله . وأنه لا يحدث شيء فى الكون كله إلا بتقدير الله . وإلا فهو ليس بمؤمن أصلاً بلا إله إلا الله !

ولقد نص القرآن كما نصت الأحاديث على وجوب الإيمان بالقدر .

يقول الله سبحانه وتعالى ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (سورة التغابن : ١١).

ويقول : ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (سورة التوبة : ٥١) .

ويقول : ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (سورة الحديد : ٢٢) .

ويقول : ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا﴾ (سورة آل عمران : ١٤٥).

ويقول : ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ (سورة الرعد : ٨) .

ويقول : ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (سورة القمر : ٤٩) .

أما الأحاديث فكثيرة . فى مقدمتها حديث (هذا جِبْرِيلُ أتاكُمْ يُعَلِّمُكُم أَمْرَ دِينِكُمْ ﴾ إذ جاء فيه : (قالَ وما الإيمانُ ؟ قال أن تُؤْمِنَ باللهِ ومَلائِكَتِهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ واليَوْمِ الآخِرِ وَتُؤْمِنَ بالقَدَر خَيْرِهِ وشرِّهِ). (رواه مسلم) .

ويقول الرسول ﷺ (اعملُوا فَكلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ له). (رواه البخارى ومسلم عن علىّ رضى الله عنه) .

ويقولُ : (المؤمنُ القوىُّ خيرٌ وأحبُّ إلى اللهِ عزَّ وَجَلَّ مِنَ المُؤمِنِ الضَّعيفِ وفى كلٍّ

خير . احرِصْ على ما يَنْفَعُكَ واستَعِنْ باللهِ ولا تعجز . وإن أصابك شيء فلا تَقُلْ : لو أنى فَعَلْتُ لكان كذا وكذا . ولكنْ قُلْ : قَدَّرَ اللهُ وما شاء فَعَلَ ، فإنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ). (رواه مسلم) .

وعن حذيفة بن أسيد يبلغ به النبى ﷺ قال :(يَدْخُلُ المَلَكُ على النُّطْفَةِ بَعْدَ مَا تَسْتَقِرُّ فى الرَّحِمِ بأربعينَ أو خمسةٍ وأربعينَ ليلةً فيقولُ : يا ربّ أَشَقِيٌّ أَو سَعِيد ؟ فَيَكْتُبَان . فيقول : أىْ ربّ : ذَكَرٌ أو أنثى ؟ فيكتبان . ويُكتب عَمَلُهُ وأَثَرُهُ وأَجَلُهُ وَرِزْقُهُ . ثم تُطْوَى الصُّحُفُ فلا يُزادُ فيها ولا يُنْقَص).(رواه مسلم) .

أما مراتب الإيمان بالقدر فهى كمراتبه فى كل شعب الإيمان الأخرى . فالإقرار شرط الإيمان ، ولا يكون الإنسان مؤمناً حتى يقرّ بأن القدر خيره وشره من عند الله. ولكن هناك درجة التسليم والرضى بقَدَر الله وهى مرتبة الإحسان التى يصل إليها الإنسان حين يعمق إيمانه ويرسخ ، فيعرف أنّ لكل قدر حكمة ، وأنّ قدر الله كله خير للمؤمن المستقيم على الطريق .

* * *

أثر الإيمان بالقدر
على الوجه الصحيح

(١) الإيمان بالقدر – فى حياة المؤمن – أقوى حافز للعمل الصالح والإقدام على عظائم الأمور بثبات وعزم وثقة .

ولقد كانت الصورة الصحيحة للإيمان بالقدر فى حياة الأجيال الأولى من المسلمين هى التى صنعت تلك العجائب التى سجلها تاريخهم ، والتى ثبتت الدعوة فى الأرض ونشرتها على نطاق واسع فى فترة وجيزة من الزمن لا مثيل لها – فى قصرها – فى التاريخ . وهى التى أقامت هذا البناء الشاهق فى كل ميدان من ميادين الحياة .

نعم ، لقد كان من أول ثماره الباهرة ذلك الاستبسال فى الجهاد فى سبيل الله وفى سبيل نشر الدعوة .

لقد وعى المسلمون قوله تعالى : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ (سورة التوبة : ٥١) .

فإذا كان لا يصيب الإنسان إلا ما كتبه الله له ، سواء كان قاعداً فى بيته أو فى ميدان القتال ، ففيم الجبن ، وفيم الفرار من القتال خوفاً من الموت ؟ فهل القتال هو الذى يقتل ؟ أم قدر الله لإنسانٍ ما أن يموت فى لحظة معينة فى حالة معينة هو الذى يميته ؟ وإذا كان كتب عليه الموت فهل يعفيه منه ألا يذهب إلى القتال ؟ وإذا كان لم يكتب عليه فهل يقتله الذهاب إلى الميدان ؟

هكذا كان الأمر فى حسهم فأقبلوا على الجهاد فى ثقة وثبات وعزم ، وكان منهم ما سجله التاريخ من مواقفَ رائعة من الشجاعة والصبر على الشدة مع الاطمئنان إلى قدر الله سبحانه .

ولقد وعى المسلمون كذلك الدرس الذى نزل عليهم فى سورة آل عمران بشأن غزوة أحد . حين قال المنافقون : ﴿ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ﴾ فرد عليهم ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾ وحين قالوا : ﴿ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ﴾ فرد عليهم : ﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ﴾ وحين قال الله للمؤمنين : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴾

(سورة آل عمران : ١٥٦ ـ ١٥٨) .

وعـوه فأيقنوا أنه لا يموت إلا من كُتِبَ عليه الموت ولو كان فى مضجعه فى بيته . وأنه إن لم يكن كُتِبَ عليه الموت فى تلك اللحظة فكل هول الحرب وكل سهام الأعداء وسيوفهم لن تصيبه بالموت !

وأيقنوا كذلك أنه حين يكون الإنسان فى القتال ويموت ـ بقدر من الله ـ فأمامه المثوبة والأجر وهو الكاسب بهذا القدر الذى قدره له الله. لذلك كان القتال فى سبيل

الله أمراً محبباً إلى نفوسهم ، فنصروا الله فنصرهم وثبت أقدامهم كما وعد سبحانه :
﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ . (سورة محمد : ٧) .

كذلك كان الإيمان بالقدر على هذه الصورة هو حافزهم للانسياح فى الأرض ، سواء لنشر الدعوة ، أو طلب الرزق ، أو اكتشاف المجهول من الأرض . فكان لهم فى كل مكان ميدان من هذه الميادين نشاط ملحوظ وآثار مشهودة .

ففى نشر الدعوة نجد أن الإسلام قد امتد من المحيط غرباً إلى الهند شرقاً فى فترة من الزمن لا تتجاوز نصف قرن !! وهى سرعة لا مثيل لها فى التاريخ ! وانتشر مع الإسلام سلطان الدولة الإسلامية بما أرهب أعداء الله ، وانتشر معه كذلك اللسان العربى بسرعة تفوق الوصف فى انتشار اللغات فى الأرض .

وفى ميدان طلب الرزق تدفقت الثروات على العالم الإسلامى حتى صار المسلمون أغنى أمة فى الأرض . لأنهم يجوبون البحار والقفار تجاراً وصناعاً فيأتى إليهم المال من كل سبيل ، وتتاح معه فرصة العمران والحضارة .

وفى ميدان الكشف الجغرافى كان المسلمون هم الذين ارتادوا البقاع المجهولة - أول من ارتادها - ورسموا لها الخرائط الجغرافية الدقيقة التى مكنت فاسكو داجاما وماجلان فيما بعد من القيام برحلاتهما حول أفريقيا وآسيا ، كما كشفوا منابع النيل ورسموا خرائطه التى جاء المكتشفون الأوربيـون على هداها من بعد ليزعموا أنهم هم المكتشفون !.

وهكذا امتدت الحياة بجميع صورها شرقاً وغرباً بهذا الدافع الإيمانى العميق .

(٢) والإيمان بالقدر عصمة من الوهن والجزع عند حلول المصائب :

فالإنسان عرضة دائماً لأن تصيبه النوائب والأحداث لأن هذه سنة الله فى الأرض . وما من بشر فى الأرض كلها لا يصاب . على الأقل يصاب بموت عزيز عنده ، إن لم يصب هو شخصياً بما يصيب الناس عادة من أمراض أو آلام .

ومن شأن المصائب أن تهز النفوس . وما من إنسان لا يتأثر بما يصيبه ولو كان

صلد المشاعر عديم الاكتراث . ولكن التأثر بالأحداث شيء والوهن والجزع عند حلولها شيء آخر .

لقد تأثر رسول الله ﷺ لفقد ولده إبراهيم ، ولكنه قال : (إنَّ العَيْنَ لَتَدْمَعُ وإنَّ القَلْبَ لَيَحْزَنُ ولا نَقُولُ إلا ما يُرْضِي ربنا ، وإنا عليك يا إبراهيمُ لمحزونون) .

أما الوهن الذى يفتت العزيمة ويقعد بالإنسان عن معاودة النشاط والانطلاق فى الحياة فهو الأمر غير المرغوب . وهو الذى يتعرض له الإنسان حين لا يؤمن بالقدر ولا يسلم له . لذلك يقول الله سبحانه وهو يربى المسلمين :

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (سورة التغابن : ١١) .

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ (سورة الحديد : ٢٢ ـ ٢٣) .

وبذلك يسترد الإنسان عزيمته ، ويمضى فى طريقه مطمئناً لقدر الله ، يستمد منه مزيداً من العزم ، ويرجو من الله التخفيف .

ولكن عقيدة القدر أصابها فى نفوس المسلمين ـ على مر الزمن ـ كثير من الانحراف فقد وجدت طوائف ضالة قالت إن الإنسان مجبر على ما يفعل ، ومن ثم فليس بمسئول !

قالت طائفة القدرية (الجبرية) إنه ما دام كل شيء يتم بقدر الله ، ولا يتم إلا به ، فكل ما يقع من الإنسان من عمل هو مقدر عليه بحيث لا يملك إلا أن يعمله . فإرادته إذن منتفية فلا مجال لمحاسبته على ما يفعل !

والسلف الصالح لم يفهم قط من عقيدة القدر هذا الفهم الخاطئ الذى يلغى مسئولية الإنسان عن عمله

فهم السلف الصالح للقدر

لقد فهم المسلمون من درس أحد أن ما وقع لهم كان مقدراً لهم من عند الله ، ولكنه كان فى ذات الوقت من عند أنفسهم بسبب معصيتهم للرسول ﷺ : ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى

الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا ﴾ (سورة آل عمران : ١٦٥ ـ ١٦٦) .

فلا تعارض فى حس المؤمن الصحيح الإيمان بين الإيمان بقدر الله وتحمل الإنسان مسئولية عمله وتعرضه للحساب عليه .

وإن الاحتجاج بالقدر على الكفر أو المعصية أو العجز والقعود عن العمل ليس هو السبيل الصحيح للمؤمنين . إنما يندد القرآن بالمشركين لأنهم قالوا مثل هذا تبريراً لكفرهم .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ (سورة النحل : ٣٥) .

﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ۝ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (سورة الأنعام : ١٤٨ ـ ١٤٩) .

فهل يملك أولئك المشركون الذين يلقون تبعة شركهم على الله سبحانه وتعالى دليلاً على أن الله منعهم من الايمان وهم راغبون فيه ؟!

حقيقة إن الله قد قدر ألا يكون الناس أمة واحدة (على الإيمان وعلى الكفر سواء) ولو شاء سبحانه لهدى الناس أجمعين . ولكنه قدر أن يترك للإنسان اختيار طريقه ، بعد أن عرّفه طريق الهدى وطريق الضلال ، وأعطاه القدرة على الاختيار بينهما .
﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ (سورة الشمس: ٧ ـ ١٠) . فمن آمن فقد زكى نفسه ، ومن كفر فقد دساها .

وإذا كان القدرية قد انحرفوا فى عقيدة القدر بشأن الحساب يوم القيامة ، فإن جموع المسلمين قد انحرفت فى العصور الأخيرة فى عقيدة القدر بشأن ما يجرى فى الحياة الدنيا .

لقد أصابهم التواكل فيما أصابهم من انحرافات . وأدى بهم التواكل إلى العجز والكسل والقعود .

لقد فهموا من معنى أنه لا يحدث فى الكون إلا ما يريده الله ، أنه لا حاجة للإنسان أن يعمل ! فإن قدر الله ماضٍ سواء عمل الإنسان أو لم يعمل ! فلا ضرورة للكد فى طلب الرزق لأن « مالك سوف يأتيك » ! ولا ضرورة للنشاط والحركة لأنها فى زعمهم ضد التوكل الصحيح ! !

كما فهموا كذلك من معنى التسليم لقدر الله القعود عن تغيير ما أصاب الإنسان من فقر أو مرض أو جهل أو حتى معصية ! لأن كل ذلك مقدر من عند الله فلا ينبغى مقاومته إنما ينبغى الاستسلام له !

وهذا التواكل وهذه السلبية ليست من الإسلام فى شىء على الإطلاق ! وإلا فلو كانت من الإسلام فكيف غابت عن الرسول ﷺ وعن صحبه الكرام الذين تلقوا عنه المفاهيم الصحيحة لهذا الدين ؟!

مرة أخرى نعود إلى درس وقعة أحد ..

فقد وعى المسلمون من الدرس كما أسلفنا أن كون الهزيمة تمت بقدر من الله لا ينفى أنها فى ذات الوقت « من عند أنفسكم » . أى أن وقوع شىء بقدر الله لا ينفى مسئولية الإنسان عن خطئه . فليس لمخطئ أن يهز كتفيه ويقول : إنما وقع الخطأ منى بقدر من الله ! ولو قدّر الله ألا أخطئ لما أخطأت ! فلست مسئولاً عن الخطأ !

كلا ! إن العقيدة الصحيحة للمؤمن لا يتنافى فيها أن يكون الحدث مقدراً من عند الله وأن يكون الإنسان مسئولاً عن عمله فى ذات الوقت ..

كذلك وعى المسلمون من وقعة أُحد وأحداثها درساً آخر ..

إن عليهم أن يسلموا لقدر الله .. ولكن ما معنى التسليم ؟ هل معناه القعود عن تغيير ما أصابهم ، ولو أنه قد أصابهم بقدر من الله ؟

إنما قال لهم : ﴿ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ﴾ (سورة آل عمران : ١٥٣) .

فالحزن يفتت العزيمة ويوهنها . وهو الأمر الذى لا يريده الله لهم . فوجههم

إلى التسليم بقدر الله لكيلا يحزنوا وتتفتت عزيمتهم . ولكن هل طلب منهم الاستسلام لما أصابهم بمعنى عدم العمل على تغييره ؟!

إن أحداث المعركة سارت فى خط مختلف تماماً . فقد جمع الرسول ﷺ مشاعر المسلمين وعزائمهم كما جمع صفوفهم ليدخل بهم المعركة مرة أخرى على أثر الهزيمة . وفى ذلك يقول القرآن :

﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾

(سورة آل عمران : ١٧٢ ـ ١٧٤) .

لقد صرف الله أعداءهم فلم تقع المعركة . ولكنهم كانوا قد استعدوا للقتال تماماً . استعدوا له بأرواحهم ومشاعرهم ، فجمعوا عزائمهم رغم تخويف الناس لهم وعزموا على لقاء العدو متكلين على الله . وهذا هو التوكل الحق الذى يطلبه الله من المسلمين .

إن القعود عن تغيير الأمر الواقع بحجة أنه واقع بقدر من الله جهالة عظيمة لا تنبغى للمسلم . نعم إن ما وقع بالفعل قد وقع بقدر من الله ـ وإن كان لا ينفى مسئولية الإنسان ـ ولكن من يعلم ما يكون عليه قدر الله غداً ، بل فى اللحظة القادمة ؟ هل علم ذلك القاعد المتواكل أن قدر الله القادم لن يكون مغايراً لقدر الله الواقع ؟! أليس فى الاحتمال ان الله قد قدر للحظة القادمة قدراً غير القدر الذى كان فى اللحظة الماضية ؟ فكيف يقعد عن العمل بزعم أنه متوكل على الله مستسلم لقدره ؟

ثم إن توجيهات القرآن للمسلمين منافية للتواكل تماماً .

أنظرهذه الآية من سورة الأنفال: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴾

(سورة الأنفال : ٥٩) .

فما معناها ؟ معناها أن الكفار الذين يرغبون فى إزالة هذا الدين من الأرض وعدم التمكين له لن يسبقوا قدر الله الذى قدر لهذا الدين التمكين والظهور : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ

﴿ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (سورة الصف : ٩) . ولن يعجزوا الله عن تنفيذ قدره الذى قدره بالتمكين لهذا الدين .

فهل معنى ذلك التواكل على قدر الله وعدم الأخذ بالأسباب ، ما دام الله قد قدّر هزيمة الكفار فى محاولتهم ، وقدّر النصر والتمكين لهذا الدين ؟

انظر إلى الآية التالية مباشرة تجد فيها الجواب : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ (سورة الأنفال : ٦٠) .

إذن ـ وقَدَرُ الله مؤكد الوقوع ، وهزيمة الكفار مقدرة ومقررة ـ لا بد من الأخذ بالأسباب . لا بد من إعداد القوة والجهاد بالأنفس والأموال .

ذلك هو الفهم الصحيح لعقيدة القدر كما فهمها الجيل الأول من المسلمين رضوان الله عليهم . لا تنفى مسئولية الإنسان عن عمله ، ولا تدعو إلى القعود عن تغيير الواقع ، ولا تدعو إلى التواكل وعدم الأخذ بالأسباب انتظاراً لقدر الله !

وذلك هو الفهم الذى ينبغى أن يعود المسلمون إليه ، ليزول عنهم ما أصابهم من فقر وجهل ومرض وتواكل وعجز ، وما ترتب على ذلك كله من غلبة عدوهم عليهم ، وهوانهم على أنفسهم وعلى الناس !

وكتاب الله وسنة رسوله ﷺ هما المرجع الذى ينبغى أن نرجع إليه من أجل تصحيح مسيرتنا كلما انحرفت خطواتنا على الطريق .

خاتمة

العقيدة الإسلامية

تحدثنا فى هذا الكتاب والكتابين السابقين عن أركان العقيدة الإسلامية : الإيمان بالله والملائكة والكتاب والنبيين واليوم الآخر والقدر خيره وشره .

ونريد هنا أن نختم حديثنا بكلمة عامة عن العقيدة الإسلامية نتحدث فيها عن خصائصها وأثرها فى الحياة الإنسانية .

(١)
خصائصها

إن هذه العقيدة ـ بادئ ذى بدء ـ هى العقيدة التى ارتضاها الله لنا وأنعم بها علينا : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾ (سورة المائدة : ٣) .

وهى من ثم منهج الحياة الصحيح الذى رسمه الله لنا لنفوز بخير الدنيا والآخرة ، ولنكون محققين لشروط الخلافة التى خلقنا الله من أجلها : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (سورة البقرة : ٣٠) . ولنقوم بعمارة الأرض على الوجه الذى أراده الله : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ (سورة هود : ٦١) . فى حدود العبادة لله التى هى غاية الوجود الإنسانى كله : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (سورة الذاريات : ٥٦) .

وهذه الصورة المجملة تعطينا لمحة عن خصائص هذه العقيدة ، وهى الشمول والتكامل ، والتوازن .

ولنتحدث عن كل من هذه الخصائص بإيجاز :

أولاً ـ الشمول :

إن هذه العقيدة تشمل الإنسان كله ، جسمه وعقله وروحه . كما تشمل سلوكه وفكره ومشاعره . كما تشمل دنياه وآخرته .

ليس فى كيان الإنسان ولا فى حياته شيء لا يتصل بهذه العقيدة ولا تتصل العقيدة به .

إنها تصاحبه فى كل لحظة من لحظات حياته ، وفى كل عمل يعمله ، أو فكر يفكره ، أو شعور يختلج فى ضميره .

أليس الركن الأول من هذه العقيدة هو الإيمان بالله ؟ بلى ! وان الصورة المثلى للإيمان بالله ، كما نراها ممثلة فى سيرة الرسول ﷺ ، هى اتصال القلب الدائم بالله ، فى كل لحظة وفى كل عمل أو فكر أو شعور !

وقد لا نقدر نحن على ذلك كما كان يقدر عليه الرسول ﷺ . ومن رحمة الله بنا أنه لا يكلفنا فوق طاقتنا ، ويقول لنا « فاتقوا الله ما استطعتم » ويقول لنا الرسول ﷺ (سدِّدوا وقارِبوا). ولكن هذا لا ينفى الأصل فى هذه العقيدة ، وهو الشمول .

ويتضح لنا الشمول فى مجالات متعددة ، وعلى محاور مختلفة ، تلتقى كلها فى النهاية :

١) ففى مجال الاعتقاد تشمل ـ كما رأينا ـ الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والنبيين والكتب السماوية والقدر خيره وشره .

٢) وفى مجال العمل تشمل العمل للدنيا والعمل للآخرة فى ذات الوقت .

٣) وفى مجال الكائن البشرى تشمل حركة جسمه وتفكر عقله وانطلاقة روحه .

٤) وفى مجال المجموع البشرى تشمل الفرد والجماعة والأمة والدولة فى ذات الوقت .

٥) وفى مجال العلاقات تشمل علاقة الإنسان بربه وعلاقته بنفسه وعلاقته بغيره (فى داخل الأسرة وفى داخل المجتمع وفيما بين المسلمين وغير المسلمين ، وفيما بين الإنسان والكون كذلك !) .

ولن توجد دائرة أوسع من هذه ولا أشمل . لأن هذه تشمل كل شيء فى الوجود !

ثانياً ـ التكامل (أو الترابط) :

إن هذه العقيدة لا تتّسم بالشمول الذى ذكرنا مجالاته ومحاوره المختلفة فحسب ، بل بالتكامل والترابط كذلك . وهذه مستقلة عن الشمول ، وإن كانت وثيقة الصلة به .

ولنأخذ هذه المجالات واحداً واحداً لنرى أثر الترابط فيه بالإضافة إلى الشمول .

(١) فى مجال الاعتقاد :

قلنا إنها تشمل الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين والقدر خيره وشره . ولكن الشمول فى ذاته لا يعنى ترابط هذه المعتقدات بعضها ببعض . فقد تكون موجودة بعضها إلى جوار بعض ، دون ترابط بين أركانها المختلفة ، كل منها يعمل فى حقل مستقل غير مرتبط بالآخر . وليس هذا هو الحال فى هذه العقيدة . فإن كل ركن من هذه الأركان ذو صلة وثيقة بسائرها ، بحيث تكون فى النهاية كلاً متكاملاً ، يؤثر بمجموعه المترابط فى حياة الإنسان .

وإن شئت الدقة فقل إن سائر أركان العقيدة الإسلامية مرتبط بركنها الأول وهو الأكبر وهو الإيمان بالله .

فالإيمان بالله هو الأساس ، وهو لب العقيدة وصلبها ، ثم تأتى بقية الأركان فتتصل به فتتكامل .

فالإيمان باليوم الآخر ـ كما رأينا فى حديثنا عنه ـ مرتبط بعدل الله وحكمته وبالحق الذى خلق الله به السماوات والأرض ، وخلق به الحياة والموت . أى أنه مرتبط ارتباطاً مباشراً بتصورنا لصفات الله جل وعلا ، بحيث يصبح تصورنا لها ناقصاً ومختلاً إذا لم نؤمن بذلك اليوم الذى يحق فيه الحق وتكتمل الصورة ويصل كل شىء فيه إلى دلالته الحقيقية الكاملة .

والإيمان بالملائكة متصل بقدرة الله من جانب : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۚ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (فاطر : ١) . ومتصل بمعرفة المنهج الذى يريد الله أن تسير حياتنا عليه من جانب آخر ، لأنهم

هم الرسل الذين يرسلهم الله ليبلغوا وحيه لمن يختارهم من البشر لهداية البشرية .

وبذلك لا يكون الإيمان بالملائكة ركناً منفصلاً فى هذه العقيدة قائماً بذاته وإنما هو متصل بالإيمان بالله ، ومترابط مع بقية الأركان .

ونستطيع على هذا الضوء أن ندرك ترابط بقية الأركان بعضها ببعض ، وترابط سائرها بالإيمان بالله . فالإيمان بالكتب متصل مباشرة بالمنهج الربانى أى بما يشرعه الله للبشر لتستقيم حياتهم فى الدنيا والآخرة . وكذلك الإيمان بالنبيين ، لأنهم هم الذين يحملون إلينا المنهج الربانى بما يوحى الله إليهم عن طريق ملائكته .

أما الإيمان بالقدر فقد رأينا فى حديثنا القريب عنه كيف أنه متصل بإيماننا بوحدانية الله مباشرة ، لأنه هو الإجابة المباشرة على هذا السؤال : هل هناك فى الكون من يشترك مع الله فى تدبير شئونه وإجراء أحداثه ، أم أنه هو الله وحده ؟

وبذلك يتضح لنا الترابط جلياً بين هذه الأركان كلها فى مجال الاعتقاد .

(٢) وفى مجال العمل :

قلنا إن العقيدة تشمل العمل للدنيا والعمل للآخرة فى ذات الوقت . وهنا نقول إن من خصائص هذه العقيدة أنها لا تفصل بين العمل للدنيا والعمل للآخرة . فليس هناك فى الإسلام عمل هو للدنيا وحدها وعمل هو للآخرة وحدها ! إنما الأعمال كلها للدنيا والآخرة فى وقت واحد .

العبادات التى يظن أنها للآخرة وحدها ، كلها ذات مقتضى متصل بالحياة الدنيا : ﴿ إِنَّ الصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾ (سورة العنكبوت :٤٥). أى هنا فى الحياة الدنيا ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (سورة البقرة : ١٨٣). وهكذا فى سائر العبادات هى للآخرة وفى ذات الوقت لها غاية تتحقق هنا فى الأرض.

والأعمال التى يظن أنها للدنيا وحدها من جانب آخر كالطعام والشراب والملبس والمسكن والجنس وعمارة الأرض .. إلخ كلها تعمل فى الدنيا ولكن يشترط فيها شروط تربطها بالآخرة . يشترط فيها التزام الحلال والحرام والالتزام بأمر الله من

أجل الثواب أو العقاب الذى يترتب على ذلك فى الآخرة . وكلها فى نظر الإسلام « عبادة » متى ما روعى فيها الالتزام بأمر الله ، وتوجه بها الإنسان إلى الله . بل هى « العبادة » التى تشير إليها الآية : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (سورة الذاريات : ٥٦) . والآيتان الأخريان : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴾ (سورة الأنعام : ١٦٢ ـ ١٦٣) .

وبذلك تتصل الدنيا والآخرة وتترابط فى عقيدة الإسلام .

(٣) وفى مجال الكائن البشرى :

قلنا إنها تشمل حركة جسمه وتفكر عقله وانطلاقة روحه . ولكن هذه ليست مستقلة بعضها عن بعض . صحيح أن هناك ساعة تغلب فيها حركة الجسم كالطعام والشراب والجنس وساعة يغلب فيها تفكر العقل كساعات التأمل أو ساعات التفكير فى شأن من شئون العلم أو العمل ، وساعة تغلب فيها انطلاقة الروح كساعة التعبد .

ولكنّ الإسلام لا يدع واحدة من هذه تنفصل انفصالاً كاملاً بحيث تنقطع صلتها عن الباقيات .

فى الطعام والشراب والجنس .. إلخ ، يتحرى الإنسان الحرام والحلال ويذكر اسم الله . فلا تعود حركة جسد مستقلة !

وفى التفكر كذلك يتوقى الإنسان التفكير الشرير ويتحرى التفكير الخير ، ويتقى الله . فلا يعود تفكراً عقلياً خالصاً !

وفى العبادة الإسلامية يتحرك الجسد ويعمل العقل مع انطلاقة الروح . وخذ الصلاة مثلاً . إنها ليست انطلاقة روح مستقلة . إنما يشارك فيها الجسم بالقيام والقعود والركوع والسجود ! ويشارك فيها الفكر بالتدبر فى آيات الله ، ويقول الرسول ﷺ ، (لَيسَ لَكَ مِنْ صَلاتِكَ إلاّ ما وَعَيْتَ) .

وبذلك يترابط الكائن البشرى كله فى أداء متطلبات هذه العقيدة فلا ينفصل جسمه عن عقله أو عن روحه !

(٤) وفى مجال المجموع البشرى :

قلنا إنها تشمل الفرد والجماعة والأمة والدولة .. ونقول هنا إن هذه العقيدة لا تأخذ أياً من هذه بمعزل عن الأخرى . فهى لا تنشئ الفرد الصالح بمعايير ، والجماعة الصالحة بمعايير أخرى . إنما هى ذات المعايير وإن اختلفت التكاليف بين الفرد والجماعة . المعايير هى الإيمان بالله وتقوى الله والالتزام بما أنزل الله . ثم تكون بعد ذلك تكاليف يقوم بها الفرد بمفرده وتكاليف أخرى تقوم بها الجماعة مجتمعة . ولكن يلتقى الفرد والمجموع معاً على أسس واحدة وتربية ذات اتجاه موحد . ومن ثم لا تفترق الأمة ـ حين تلتقى ـ إلى طوائف وشيع متنافرة كل منها يعمل فى اتجاه ، ولا إلى فرد متخاصم مع المجموع . ولا تتحول كما يحدث فى الجاهليتين المعاصرتين فى الغرب والشرق إلى فرد طاغ ومجموع مفكك ، أو مجموع طاغ وفرد مسحوق !

وكذلك تلتقى الأمة والدولة على أمر واحد ، هو عبادة الله والحكم بما أنزل الله ، وهو أمر من صلب الاعتقاد ، لقوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (سورة المائدة : ٤٤) . وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وهو مقتضى الإيمان بالله لقوله تعالى :﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (سورة آل عمران : ١١٠) . فيحدث الترابط بينهما والاتفاق .

(٥) وفى مجال العلاقات :

قلنا إنها تشمل علاقة الإنسان بربه وعلاقته بنفسه وعلاقته بالآخرين . وهنا نقول إن هذه كلها تترابط وتلتقى عن طريق المحور المشترك فيها جميعاً وهو الإيمان بالله وعبادته . فعلاقة الإنسان بربه هى الإيمان والعبادة . وعلاقته بنفسه هى تزكيتها والتزكية تتم عن طريق الإيمان والعبادة وعن طريق الالتزام بأوامر الله وهو مقتضى الإيمان والعبادة . وعلاقته (أو علاقاته) بغيره تتم كلها عن طريق تنفيذ أوامر الله والتحاكم إلى ما أنزل الله .

وبذلك تنتظم العلاقات كلها فى سلك واحد قوامه الإيمان بالله ..

وهكذا يبدو الترابط والتكامل بين أركان هذه العقيدة على جميع المحاور وفى جميع المجالات .

ثالثاً ـ التوازن :

مع شمول هذه العقيدة وترابطها فهى تتسم أيضاً بالتوازن .

ويبدو هذا التوازن كذلك على مجموعة من المحاور المختلفة ومجموعة من المجالات :

١ ـ توازن بين الروح والجسد أو عالم المعنويات وعالم الحس .

٢ ـ توازن بين عالم الغيب وعالم الشهادة .

٣ ـ توازن بين الدنيا والآخرة .

٤ ـ توازن بين الإيمان بالقدر والأخذ بالأسباب .

٥ ـ توازن بين جوانب الحياة المختلفة : السياسية والاقتصادية والاجتماعية .. الخ .

ولنقل كلمة سريعة عن كل مجال من هذه المجالات :

١ ـ الإنسان قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله . وهناك توازن دقيق بين عنصريه المكونين له ، يختل إذا أعطينا أحدهما من العناية والالتفات أكثر من حقه . والجاهليات دائماً تختل فى هذا الأمر فتؤكد على جانب الروح وحدها كالهندوكية والبوذية أو جانب الجسد وحده كالجاهلية المعاصرة فى شرق أوربا وغربها سواء . ومن خصائص العقيدة الإسلامية أنها توازن بينهما التوازن الصحيح . فمن ناحية هى تمزج بين عالم الجسد وعالم الروح وتشركهما معاً فى مجال العمل ومجال التعبد سواء ، ومن ناحية أخرى تعطى كلاً منهما حقه . فلا تشغل الإنسان بعالم الحس وتكبت روحه كالجاهلية المعاصرة ، ولا تشغله بأمور روحه على حساب كيانه المادى ومطالب جسده كالجاهلية الهندوكية والبوذية : (ألا إنى لأخشاكُمْ لله ولكنِّى أَصُومُ وأُفطِر ، وأقومُ وأنام وأتزوَّج النساء ، فمن رَغِبَ عن سُنَّتى فليسَ مِنِّى). (رواه الشيخان) . وتقوم الحضارة الإسلامية المنبثقة من العقيدة على أساس الجانب المادى والجانب الروحى سواء .

٢ ـ يتطلب الإسلام الإيمان بالغيب ، لأنه عن طريقه يؤمن بالله واليوم الآخر ،

ولكنه لا يطلب منه أن يهمل عالم الشهود . بل إنه فى عرضه لحقائق العقيدة يكثر من الإشارة إلى آيات الله فى الكون لكى يتدبرها الإنسان ويصل عن طريق تدبرها إلى الإيمان بالله . ومن هنا لا يلجأ الإسلام إلى الغيبوبة الروحية التى يقع فيها بعض المتطرفين فى العبادة زعماً منهم أنهم يستغنون بشهود الذات الإلهية عن شهود الكون الذى خلقه الله ، وكذلك لا يقبل أن ينشغل الإنسان بالكون المشهود عن عالم الغيب فيقطع صلته بالله واليوم الآخر كما تصنع جاهلية اليوم .

٣ ـ قلنا من قبل إن الإسلام لا يفصل بين الدنيا والآخرة . ونقول هنا إن هذا الربط ذاته هو الذى يوازن بين الدنيا والآخرة فى هذه العقيدة إذ يحدث عدم التوازن حين تنفصل الدنيا عن الآخرة فى حس الإنسان ، فيقوم بأعمال على أنها للدنيا وحدها منفصلة عن الآخرة ، وأعمال أخرى على أنها للآخرة وحدها منفصلة عن الدنيا . عندئذ لا بد أن يحدث الاختلال فى حسه فتغلب مجموعة من الأعمال على الأخرى . فإما أن تجذبه الدنيا رويداً رويداً حتى ينسى الآخرة ، وإما أن تجذبه الآخرة رويداً رويداً حتى ينسى الدنيا . وكلاهما فى نظر الإسلام اختلال . فالأول ينشغل بالسعى وراء الرزق والحصول على أكبر قدر من متاع الدنيا ، والآخر يزهد فى متاع الدنيا وينشغل عن طلب الرزق وتعمير الأرض . ويصبح كل منهما مقصراً وآثماً فى حق الله .

إنما يحدث التوازن الذى تشير اليه الآية : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ (سورة القصص : ٧٧) . حين ترتبط الدنيا والآخرة فى حس الإنسان فيعمل للآخرة وهو يعمل للدنيا فى ذات الوقت . فلا يهمل العبادة ولا يهمل عمارة الأرض .

٤ ـ تحدثنا فى باب الإيمان بالقدر عن التوازن فى حس المسلم بين الإيمان بالقدر وبين الأخذ بالأسباب . وهو من أجمل خصائص العقيدة الإسلامية . إن المتواكلين يزعمون أنهم يتوكلون على الله ثم يهملون الأخذ بالأسباب جملة فيصيبهم ما يصيبهم من فقر ومرض وجهل وعجز وهوان فى الأرض . وإن الجاهلية الأوربية من جانب آخر تأخذ بالأسباب منقطعة عن الله وقدره ، فتنتج إنتاجاً مادياً ضخماً وتكفر فى ذات

الوقت وتنحط اخلاقها وتهبط إنسانيتها إلى الحضيض، ثم يصيبها ما يصيبها من قلق واضطراب وأمراض عصبية ونفسية وجنون وانتحار وضياع لأنها تفقد الطمأنينة التى يجدها المؤمن لذكر الله ولقدر الله .

والإسلام يوازن موازنة جميلة بين هذين الحدين المتطرفين . فهو يعلم الناس أن هناك سنناً ربانية يدير الله بها الكون المادى والحياة البشرية . وأنه لا بد من اتباع هذه السنن ومجاراتها إذا رغبنا فى الوصول إلى نتائج معينة ، ومقتضى ذلك هو الأخذ بالأسباب . ولكنه فى الوقت ذاته يربى المؤمن على ألا يتكل على الأسباب الظاهرة فيحبط عمله . إنما يظل قلبه موصولاً بالله ، متطلعاً إليه أن ينجح مسعاه ويوصله إلى النتائج المرغوبة . ويعلمه أن هذه السنن هى من قدر الله ولكنها لا تحدّ من مشيئة الإنسان التى أودعها الله فيه . وبذلك يتوازن الإنسان فى سعيه فى الأرض ، لا يهمل الأسباب ويتواكل ، ولا يكف عن التطلع إلى قدر الله .

٥ ـ أخيراً نقول إن هذه العقيدة توازن بين جوانب الحياة الإنسانية المختلفة فلا يطغى منها جانب على جانب . فكما أن الجانب الروحى لا يطغى على الجانب المادى ، فكذلك لا يطغى الجانب السياسى على الاقتصادى . ولا الاقتصادى على الخلقى .. وهكذا . بل تتوازن جوانب الحياة كلها على محور العقيدة الرئيسى الذى مقتضاه الإيمان بالله والالتزام بما أنزل الله ، فتسير كلها متوازية متوازنة فى آنٍ واحد .

(٢)
أثرها فى الحياة الإنسانية

فى إمكاننا أن نحكم على أثر هذه العقيدة فى الحياة الإنسانية من الواقع التاريخى للأمة الإسلامية التى اعتنقتها وعاشت بها فى دنيا الواقع . فإن من فضل الله على هذه الرسالة التى ارتضاها الله للمسلمين ديناً أن منحها واقعاً تاريخياً ضخماً طبقت

فيه فى واقع الحياة ، فلم تعد مجرد شعارات ، ولا مثلاً خيالية ، بل واقعاً مشهوداً يحفظه التاريخ .

ويكفى من آثارها أن تكون قد أخرجت « خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاس » فى التاريخ البشرى كله ، لأنها طبقت القرآن فى واقع حياتها ، وأصبحت ترجماناً له بالقدر الذى يتيسّر للبشر أن يبلغوه فى حدود بشريتهم .

لذلك يكفينا أن ندرس الواقع التاريخى لهذه الأمة خاصة فى أجيالها الأولى ، وجيلها الأول على وجه أخص ، لنتعرف على أثر العقيدة الإسلامية فى الحياة الإنسانية فى صورة واقعية .

إن أبرز ما فى هذه العقيدة هو التوحيد : ويتضح لنا من دراسة الواقع التاريخى أن التوحيد ذو أثر ضخم فى حياة الإنسان حينما يعيشه واقعاً فكرياً وشعورياً وسلوكياً . وأن الإنسان يستطيع حينما يتشبع بالتوحيد على هذه الصورة أن يبذل من الجهد وأن يأتى من الأعمال ما لا يستطيعه الإنسان العادى الخاوى من العقيدة .

لو تصورنا جهازاً ما أخذ شحنته الكهربية المضبوطة من مصدر صاف لا خلل فيه ولا اضطراب ، فقام بمهمته على الوجه الأكمل .. إن هذه أقرب صورة للإنسان المؤمن بعقيدة التوحيد الصافية إيماناً صحيحاً . إنه يأخذ « شحنته » الكاملة من العقيدة ، فيعمل بطاقته الكاملة ويؤدى مهمته على الوجه الأكمل ، لأنه « فى أحسن تقويم » .

إن النماذج الفريدة التى صنعها الإسلام فى جيله الأول على وجه الخصوص ، هى نماذج فذة بالنسبة للتاريخ البشرى كله . وإنها ليست محصورة فى أبى بكر وعمر وعثمان وعلىّ رضى الله عنهم ، ولا فى تلك الأسماء اللامعة التى يحفظها التاريخ ـ وإن كانت هذه الأسماء فى قمة البشرية جميعاً ـ ولكنها تشمل ألوفاً وألوفاً غيرهم ، لم يتسع التاريخ لذكْر أسمائهم واحداً واحداً ، أو قل : إن تاريخ هذه الأمة كان من الثراء بحيث اكتفى المؤرخون بذكر القمم الشاهقة واكتفوا بإشارات عابرة إلى القمم الأخرى لأنها كانت شيئاً عادياً فى نظرهم بالقياس إلى أثر هذه العقيدة فى النفوس !

كيف نقول فى ذلك الجندى الذى خرج يقاتل فى سبيل الله وفى يده تمرات فيقول لئن بقيت حتى آكلها كلها إن هذا لأمر يطول ! فيلقى بها ليستشهد فى سبيل الله ، وينال الشهادة بالفعل ؟

وكيف نقول فى ذلك المقاتل ــ فى حرب فارس ــ الذى لبس درعه فإذا فيه ثلمة صغيرة فينبهه إخوانه إليها ويدعونه إلى تغيير الدرع . فيقول باسماً : إنى لكريم على الله إن أُصبت من هذا الموضع ! فيدخل المعركة فيصيبه سهم فيدخل فى الثلمة .. فيستشهد وهو قرير العين شاعر بأنه كريم على الله لأنه لبى رغبته فى الشهادة !

وكيف نقول فى الذين تجمعوا حول تمرات يأكلونها هى كل ما يملكون من الزاد فيدخل عليهم ضيف فيطفئ صاحب البيت المصباح ويقدم له التمرات ، حتى لا يكتشف الضيف أنها كل الزاد الموجود فيمتنع عن الطعام ، فيتنزل الله فيهم قوله : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ (سورة الحشر : ٩) .

ألوف وألوف من النماذج فى كل اتجاه ، كلها قمم على أعلى مستوى بلغته البشرية .

ولنحاول هنا أن نلخص أبرز آثار العقيدة فى حياة الأمة المسلمة فى نقاط محدودة ، ثم نعرج على بعض آثارها فى بقية البشرية ممن لم يعتنقوا هذا الدين :

١ ــ عمق الشعور بتقوى الله وخشيته ، والخوف من حسابه يوم القيامة ، وما ترتب على ذلك من انضباط السلوك وحساسية الضمير تجاه مسئولية الإنسان عن أعماله . ولنأخذ نموذجاً لذلك موقف عمر رضى الله عنه من الدريهمات التى كان يتقاضاها من بيت المال ، وقولته الشهيرة (لو عثرت بغلة بصنعاء لكنت مسئولاً عنها لِمَ لَمْ أسوِّ لها الطريق) !

٢ ــ صدق الجهاد فى سبيل الله بالأنفس والأموال ، وما ترتب على ذلك من التمكين لهذا الدين فى الأرض ، والعجائب التى تكررت فى الفتوح الإسلامية من انتصار الفئة القليلة على أضعاف أضعافها فى العدد والعدة .

٣ ـ تقرير مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وما يترتب عليه من رقابة الأمة على الحاكم لتعينه إذا أحسن وتقوّمه إذا أساء .

٤ ـ تقرير مبدأ التكافل الاجتماعى فى الأمة ، وما يترتب عليه من تماسك هذه الأمة وتعاونها على الخير وخلوها من الضغائن والأحقاد التى تفتت الأمم وتذهب ريحها ، وانتشار روح البر فى المجتمع الإسلامى مما تبدَّى فى الأوقاف (الأحباس) الكثيرة التى وقفها المسلمون لأعمال البر .

٥ ـ الوفاء بالمواثيق ، وهى خصيصة نادرة فى التاريخ البشرى لم تتوفر لأحدٍ كما توفرت للأمة الإسلامية .

٦ ـ تطبيق العدل الربانى فى واقع الأرض مما لا مثيل له فى تاريخ الشعوب ، وخاصة بين المسلمين وغير المسلمين ، وبين الفاتحين والبلاد المفتوحة .

٧ ـ التسامح الدينى مع الطوائف غير المسلمة فى ظل الحكم الإسلامى .

٨ ـ المحافظة على الأخلاق فى المجتمع الإسلامى حتى حين انحرف المسلمون درجات من الانحراف ، فقد ظلت نسبةُ الفاحشة فيهم أقل ما عرفته البشرية فى أى شعب من شعوبها ، وكذلك الخمر . وظلت التقاليد الإسلامية والمحافظة على الأعراض سارية فى المجتمع إلى عهد جد قريب(١) .

٩ ـ النشاط الحركى الفذ الذى نشر الدعوة فى أرجاء واسعة من الأرض فى زمن شديد القصر ونشر معها اللسان العربى .

١٠ ـ الحركة العلمية الضخمة التى قام بها المسلمون بتوجيهات القرآن وتوجيهات الرسول ﷺ ، وأبرز ما فيها تحويل العلم من نظريات إلى منهج تجريبى قائم على المشاهدة والملاحظة والتجربة . وتحويله من النظرة الذاتية التى كانت تمثلها الفلسفة إلى النظرية الموضوعية .

---

(١) حتى تخلت بعض الشعوب الإسلامية عن إسلامها ، ودخلت فى الجاهلية المعاصرة باسم التقدم والرقى .

١١ ـ الحركة الحضارية الإسلامية التى امتدت فى جميع نـواحى الحياة ، وأبرز ما فيها أنها حضارة روحية مادية فى ذات الوقت لا تفصل بين مطالب الروح ومطالب الجسد ، ولا تفصل بين الدنيا والآخرة .

١٢ ـ تحقيق معنى « الأمة » فى واقع الأرض . الأمة التى تلتقى على العقيدة فى الله قبل أن تلتقى على الأرض واللغة والجنس والمصالح والتى جعلت المسلم يتنقل فى بلاد العالم الإسلامى من المحيط إلى المحيط فلا يحس بالغربة فى أى بلد من بلاد المسلمين رغم اختلاف الحكومات وتطاحنها فى كثير من الأحيان !

تلك هى أبرز الآثار الواقعية التى نشأت عن هذه العقيدة داخل المجتمع الإسلامى . وكلها نابع من تلك الانطلاقة الضخمة التى انطلقها المسلمون بعد أن تشبعوا بالعقيدة وتوجيهاتها وتطبيقاتها السلوكية العملية . نستطيع أن نستخلص منها ان هذه العقيدة تنشىء « الإنسان الصالح » وهو الإنسان العابد لله بالمعنى الواسع للعبادة ، الذى يشمل ـ إلى جانب شعائر التعبد ـ كل عمل وكل فكر وكل شعور يراعى فيه وجه الله ويلتزم فيه بأمر الله : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴾ (سورة الأنعام : ١٦٢ ـ ١٦٣) .الإنسان المستعلى على شهوات الأرض. المتحرر بعبوديته الحقة لله من كل عبودية لأحد أو لشىء سواه،المتوازن فى سلوكه وفى فكره وفى شعوره الذى يعمر الأرض بجهده وهو يتطلع إلى رضوان الله .

أما آثار تلك العقيدة فى حياة البشر عامة ، ممن لم يعتنقوا الإسلام ، بل ممن حاربوه حرباً شعواء فى الحروب الصليبية وغيرها ، فيمكن تتبع بعضها فيما تعلمته أوربا من الإسلام والمسلمين .

فإن أوربا ـ فى عصورها الوسطى المظلمة ـ كانت واقعة فى الجهالة العلمية التى حرص عليها حكام شعوبها كما حرصت عليها الكنيسة ليظل سلطانها الرهيب قائماً فى قلوب الناس وأرواحهم . وكانت واقعة تحت وطأة الإقطاع ، ممزقة لا رابط بينها ـ وإنْ كانت كلها مسيحية ـ لأن السيد الإقطاعى يمثل فى إقطاعيته السلطان المطلق ، فهو السلطة التشريعية والسلطة القضائية والسلطة التنفيذية فى وقت واحد . وواقعة من

جهة أخرى تحت سطوة البابوية التى تستعبد أرواح الناس وأفكارهم وتأكل جهدهم كما تأكل أموالهم بالباطل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴾ (سورة التوبة : ٣٤) .

وبينما أوربا فى حالتها هذه التقت بالإسلام يحيط بها من كل جانب . التقت به سلمياً فى الأندلس والشمال الإفريقى وصقلية وغيرها ، والتقت به حربياً فى الحروب الصليبية التى استغرقت حوالى قرنين من الزمان .

ثم كان من نتيجة هذا اللقاء السلمى والحربى تلك الآثار فى أوربا :

١ ـ أخذت أوربا العلوم الإسلامية كلها ، وبصفة خاصة المنهج التجريبى فى البحث العلمى وأقامت عليه نهضتها العلمية الحاضرة .

٢ ـ أخذت معنى « الأمة » التى يربطها رباط واحد وتحكمها شريعة واحدة ولكنها لم تستطع إقامتها على أساس العقيدة لفساد العقيدة عندهم وفساد القائمين عليها من الكهنوت ، فأقاموها على شكل قوميات ، هى الأساس الذى قامت عليه دول الغرب الحالية .

٣ ـ حاولت إصلاح الفساد العقيدى والكنسى فى حركات كالفن ومارتن لوثر وغيرهما وإن كانت لم تحقق إلا إصلاحات جزئية فى داخل الفساد الشامل ، وذلك لأنها رفضت الإسلام ابتداء وهو الطريق الوحيد للإصلاح الحقيقى .

٤ ـ أخذت نظام الجامعات الإسلامية وأنشأت جامعاتها على غراره .

٥ ـ قامت فيها حركات فروسية تحاول أن تقلد ما وجدوه عند المسلمين من الشهامة والنجدة والأخلاق العالية .

٦ ـ بدأت فكرة « الدساتير » التى تشمل أسساً واضحة للحكم غير هوى الحكام وشهواتهم الشخصية . واقتبست أوربا كثيراً من الفقه الإسلامى . ومما يذكر فى هذا الصدد أن القانون المدنى الفرنسى مأخوذ معظمه من فقه مالك لأنه كان أقرب المذاهب إليهم فى الشمال الافريقى

٧ ـ تأثرت أوربا بالنظم المعمارية الإسلامية ، وقلدتها فى بعض مبانيها الدينية وغير الدينية . كما تأثرت بالقيم الحضارية الإسلامية بصفة عامة (خذ مثالاً بسيطاً على ذلك إدخال الحمامات فى البيوت وتنظيف الأبدان بالاستحمام . ولم تكن أوربا تمارسه حتى التقت بالمسلمين) .

٨ ـ استفادت أوربا من الكشوف الجغرافية والخرائط الإسلامية فبدأت تنساح فى الأرض على هدى هذه الخرائط .

وباختصار ، فإن أوربا قد أخذت بذور نهضتها الحالية كلها من الإسلام ، وإن كانت جمدت أثر الإسلام والمسلمين فى حياتها ، ورفضت فى عصبية جاهلية أن تعتنق الإسلام !

* * *

واليوم ننظر حولنا فى العالم الإسلامى فلا نكاد نرى أثراً للعقيدة الإسلامية الصحيحة ! فهل كفّت العقيدة الإسلامية عن التأثير ؟!

كلا .. إنها لا تفقد فعاليتها بحال من الأحوال . فهى المنهج الربانى المؤثر ، الذى تستقيم به الحياة تلقائياً وتنطلق تبذل نشاطها المثمر السليم .

إنما المسألة أن هذه العقيدة لا تعمل إلا بجهد يبذله البشر فى ذات أنفسهم وفى واقع حياتهم : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (سورة الرعد : ١١) .

وتلك سنة ربانية لا سبيل إلى تغييرها . إنه بغير جهد يبذله البشر ، وبغير اتخاذ الأسباب المؤدية إلى النتيجة لا تتغير أحوال الناس . والعقيدة الإسلامية هى الدافع الذى لا يشبهه دافع آخر فى تسيير دفة الحياة البشرية . ولكنها لا تدفع إلا من يعتنقها ويقبل عليها ويعزم على تطبيقها فى واقع حياته .

تصوَّر مولداً للطاقة الكهربية ، مستعداً أبداً للعمل ولكن لا أحد يقوم بتشغيله. أو تصوَّره يعمل ولكن لا أحد يذهب إليه ليستمد الطاقة منه ! هل نقول يومئذ إنه كفّ عن التأثير ؟! أم نقول ان الناس كفوا عن استخدامه ؟

هذا هو مثل العقيدة الإسلامية بين الذين يحملون اليوم أسماء المسلمين دون أن يكون في حياتهم رصيد واقعيّ من الإسلام . يملكون خير الدنيا والآخرة ولكنهم لا يستخدمونه ولا يتوجهون إليه . فتنحدر حياتهم إلى الحضيض . ثم إذا فكروا أن يقوموا من حضيضهم لم يتجهوا إلى من ينتشلهم حقاً ، إنما اتجهوا إلى من يزيدهم ارتكاساً وهُوِياً إلى الحضيض !

إن المسلمين في حاجة لأن يراجعوا موقفهم من ربهم ومن عقيدتهم التي ارتضاها الله لهم .. في حاجة لأن يعودوا إلى حقيقة الإسلام ، ليأخذوا منه الدفعة التي تسير حياتهم في الطريق الصحيح ، بدلاً من أن يتخبطوا ذات اليمين وذات الشمال كالذي يتخبطه الشيطان من المسّ !

وإن حركات البعث الإسلامي القائمة اليوم في الشباب المسلم في شتى بقاع الأرض لهي بشير الخير بالنسبة للمستقبل ، وإن كان هذا المستقبل يحتاج إلى جهد ضخم لتأمينه .

وسينفذ الله وعده ووعد رسوله بالتمكين لهذا الدين في الأرض من جديد . ولن يقف المتخاذلون والمنسلخون من دينهم في طريق وعد الله . إنما ينطبق عليهم النذير الرباني :
﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴾ (سورة محمد : ٣٨) .

أما الآخرون الذين يتمسكون بهذا الدين ويجاهدون لتمكينه في الأرض فسوف ينالهم وعد الله : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ (سورة النور : ٥٥) .

اللهم اجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

وما التوفيق إلا من عند الله .